



صفحات من مذكرات نجيب محفوظ

مكتبة بغداد  
رجاء النقاش

دار الشروق

رجاء النفاث

صفحات من مذكرات نجيب محفوظ

دار الشروق

<https://telegram.me/maktabatbaghdad>



## المحتويات

|     |                                                                |
|-----|----------------------------------------------------------------|
| ٧   | ..... مقدمة                                                    |
| ١٣  | ..... الفصل الأول: الطفولة والشباب                             |
| ٣٩  | ..... الفصل الثاني: الوظيفة والأدب                             |
| ٥٥  | ..... الفصل الثالث: هكذا اخترت طريق الأدب                      |
| ٦٣  | ..... الفصل الرابع: هؤلاء علموني                               |
| ٧٣  | ..... الفصل الخامس: أدباء عرفتهم                               |
| ٨٧  | ..... الفصل السادس: مع أهل الفن                                |
| ١٠٣ | ..... الفصل السابع: الحرافيش وشلة العباسية                     |
| ١١١ | ..... الفصل الثامن: نساء فى حياتى                              |
| ١١٩ | ..... الفصل التاسع: فى عالم السينما                            |
| ١٣٣ | ..... الفصل العاشر: متاعبى مع السلطة                           |
| ١٤٩ | ..... الفصل الحادى عشر: «أولاد حارتنا».. رواية وأزمة           |
| ١٥٧ | ..... الفصل الثانى عشر: من جائزة «قوت القلوب» إلى جائزة «نوبل» |
| ١٧٩ | ..... الفصل الثالث عشر: ثورة ١٩١٩                              |
| ٢٠١ | ..... الفصل الرابع عشر: ثورة يوليو ١٩٥٢                        |
| ٢١٩ | ..... الفصل الخامس عشر: زعماء مصر                              |
| ٢٤٩ | ..... الفصل السادس عشر: ذكريات مع المظاهرات                    |
| ٢٥٧ | ..... الفصل السابع عشر: روايات أثارت أزمات                     |
| ٢٦٧ | ..... الفصل الثامن عشر: المذاهب السياسية                       |

|     |                                                            |
|-----|------------------------------------------------------------|
| ٢٨٥ | ..... الفصل التاسع عشر: التكملة والحلم الذى هوى            |
| ٢٩٥ | ..... الفصل العشرون: التطرف الدينى                         |
| ٣٠٧ | ..... الفصل الحادى والعشرون: الله والإنسان                 |
| ٣١٥ | ..... الفصل الثانى والعشرون: أزمة الخليج والمأزق العربى    |
| ٣٣١ | ..... الفصل الثالث والعشرون: متفرقات                       |
| ٣٦٧ | ..... الفصل الرابع والعشرون: جريمة الاعتداء على نجيب محفوظ |

## مقدمة

لا أظن أنني عانيت في حياتي الثقافية كلها مثلما عانيت في إعداد هذا الكتاب، وهذا اعتراف صريح أقدمه للقارئ الكريم، وللكتيرين من الأصدقاء المخلصين الذين كانوا ينتظرون صدور هذا الكتاب منذ أربع أو خمس سنوات، وظل الكثيرون منهم يسألون عن الكتاب مرة بعد أخرى، حتى يشسوا مني، وانصرف بعضهم عني في غضب وعتاب، وقد ظن البعض منهم أنني قد صرفت النظر عن الكتاب بصورة نهائية، أو أن الكتاب لم يكن سوى وعد لن يتم إنجازه، أو كان حلمًا من الأحلام الثقافية الكثيرة التي ابتلعناها مشاغل الحياة فضاغت في الزحام وكنت أسمع هذا كله أو أقرأه في عيون أصحابي، ولا أجد أي تعليق مناسب أقدمه للسائلين والمتظرين والعابثين، لأن لومي لنفسى وتأنبىي لها وقلة حيلتي معها كانت أكبر من كل لوم وتأنيب.

وقصة هذا الكتاب تبدأ عندما عرض على «مركز الأهرام للترجمة والنشر»، فكرته في أوائل سنة ١٩٩٠، وعندما استمعت إلى الفكرة رحبت بها وتحمست لها أشد الحماس.

وقد سارعت الأستاذة نوال المحلاوى مدير عام مركز الأهرام للترجمة والنشر بقاء الأستاذ نجيب محفوظ وعرضت عليه فكرة الكتاب، كما ذكرت له أنني المرشح لتنفيذ الفكرة، ورحب الأستاذ نجيب محفوظ بالمشروع، وأبدى استعداداه الكامل لإعطاء فكرة الكتاب كل ما تحتاج إليه من وقت وجهد، كما رحب - كرمًا منه - بترشيحي لإجراء هذه الحوارات الشاملة معه، وكانت موافقتي على فكرة الكتاب بهذه السرعة، وعلى غير عادتي في التردد والمراجعة والتأني، تعود إلى أنني أحببت الفكرة كلها من اللحظة الأولى، فكيف يتاح لى وأنا العاشق لنجيب محفوظ، فنانًا وإنسانًا، أن أجلس معه جلسات طويلة ومفتوحة وصريحة لمدة عام على التقريب، ثم أتردد في الرضا والقبول وسرعة التنفيذ؟ والحق أنني،

منذ سنوات بعيدة وأنا أحلم بهذه الفكرة نفسها وأتمنى تنفيذها، بل لقد فاتحت الأستاذ نجيب محفوظ فى هذه الفكرة نفسها منذ أكثر من ثلاثين عامًا مضت، ولكن الظروف لم تسمح لى بتنفيذها؛ فبقيت حلمًا جميلًا نائمًا فى صدرى مع كثير غيره من الأحلام التى لم تتحقق، ولذلك لم أتردد فى الموافقة عندما جاءتنى الفكرة من «مركز الأهرام للترجمة والنشر»، بل لقد أحسست بسعادة غامرة وأنا أجد هذه الفكرة تعود إلى الحياة من جديد، ورأيت فى عودة الروح إلى هذه الفكرة ما يمس وترًا حساسًا فى نفسى، هو إيمانى بالأقدار وما تفعله بالإنسان، وهو إيمان لا أحب أن تمتد إليه يد بأى نوع من المراجعة أو التعديل، فقد علمتنى تجارب الحياة أننا حاولنا إخضاع الأمور للتخطيط والعقل والمنطق، فسوف تظل هناك مساحة مهمة للأقدار تتصرف فيها وحدها بغير شريك، وتختار لنا الزمان والمكان لتحقيق ما نحلم به ونفكر فيه.

وأعود إلى فكرة الكتاب الأساسية، وهى إجراء أحاديث وحوارات موسعة مع نجيب محفوظ، تتناول بالدقة والتفصيل كل ما يتصل بأدبه وحياته، حتى تتكون من هذه الحوارات صورة كاملة أو شبه كاملة لهذه الشخصية الأدبية النادرة، خاصة بعد ما حققه نجيب محفوظ من نصر عالمى للأدب العربى بحصوله عن استحقاق وجدارة على جائزة نوبل الدولية فى الأدب سنة ١٩٨٨، وما تلا ذلك من ترجمات واسعة لأعماله الأدبية إلى كل لغات العالم الحية، حتى لقد أصبح نجيب محفوظ ومع اسم مصر، واسم الشخصية العربية والأدب المعاصر، حديثًا مكررًا له أهميته وقيمته فى الصحف العالمية، وفى الجامعات المهمة فى أوروبا وأمريكا، وأصبحت روايات نجيب محفوظ أفلامًا سينمائية فى عدد من دول العالم المختلفة، وأصبحت هذه الروايات فى طبعاتها الأجنبية على رأس قوائم الكتب الأكثر توزيعًا والأكثر شعبية فى مختلف أنحاء العالم.

فكرة الكتاب إذن فكرة ناجحة وطيبة، وهى فرصة لا يمكن تعويضها للاقترب من العالم الإنسانى والفكرى والفنى لهذا الأديب المصرى العربى العالمى، ومما زادنى حماسًا لفكرة الكتاب، أننى - كما أشرت فى البداية - عاشق قديم من عشاق نجيب محفوظ، حيث تابعت كتاباته بحب وإعجاب دائمين منذ أن قرأت له أول رواية وقعت فى يدى سنة ١٩٤٩، وكنت فى الخامسة عشرة من عمري، وهى رواية «رادوبيس»، وبعدها لم أترك كلمة كتبها نجيب محفوظ دون أن أقرأها، ثم أعود إلى قراءتها مرة بعد أخرى، وحين نال نجيب محفوظ جائزة نوبل شعرت - بشئ قليل من السذاجة - أن ذلك كان انتصارًا شخصيًا

لى، وكأن هذه الجائزة كانت تقول لى ولأمثالى إننا فى هوانا لنجيب محفوظ لم نكن من الخاطئين أو الضالين.

وفى أول أغسطس سنة ١٩٩٠ بدأت لقاءاتى مع نجيب محفوظ، وكنت أطرح عليه الأسئلة فيجيبني عنها بصبر شديد ورحابة صدر كاملة وتوضيح لكل استفسار من أى نوع، وكنا نلتقى فى الصباح الباكر فى حدود الساعة الثامنة، ونواصل هذا اللقاء ما يقرب من ثلاث ساعات، واستمرت هذه اللقاءات حتى أواخر عام ١٩٩١، وكنت ألتقى مع نجيب محفوظ فى هذه المواعيد أربعة أيام فى الأسبوع، وأحياناً كنا نعيد الأسئلة ونعيد تسجيل الإجابات طلباً لمزيد من الدقة والوضوح، وأخيراً توافر لى من هذه التسجيلات ما يقرب من خمسين ساعة كاملة، وكانت لقاءاتنا تتم فى مقهى صغير بميدان التحرير فى وسط القاهرة، هو مقهى «على بابا». وقد حرصت على أن أعرف شيئاً عن هذا المقهى الذى نلتقى فيه، وهو مقهى من دورين، وقد تعود نجيب محفوظ لسنوات طويلة فى الثمانينيات وأوائل التسعينيات، أن يجلس فى ركن من أركان هذا المقهى فى الدور العلوى، على منضدة صغيرة تطل على ميدان التحرير، وتعود أن يصل إلى هذا المقهى قبل الثامنة صباحاً، ويبقى لأكثر من ساعتين، وهو يطلب فنجاناً واحداً من القهوة «على الربة»، وقد اعتاد أن يشرب كمية قليلة جداً من هذا «الفنجان» ثم يترك معظم الفنجان كما هو، ويقضى وقته الباقى فى حالة من الصمت والتأمل حتى يحين موعد انصرافه.

ولم يكن نجيب محفوظ يجرى فى هذا المقهى أى مقابلات صحفية أو تليفزيونية، ولكن بعد حصوله على جائزة نوبل سنة ١٩٨٨ انقلبت الحال، حيث سجل العديد من المقابلات الصحفية والتليفزيونية والإذاعية مع مختلف الصحف ومحطات الإذاعة وقنوات التليفزيون العربية والعالمية.

كان بعض رواد المقهى يطلبون الحديث معه، والسلام عليه، وكان «الجرسون» يصعد ليستأذنه أولاً، ولم يحدث أن رد نجيب محفوظ أحداً من الذين يطلبون تحيته وتبادل حديث سريع معه.

وبعد نوبل، زاره فى هذا المقهى رسام أوروبى وطلب أن يرسم له صورة، وبعد أن أكمل الصورة، أخذها صاحب المقهى ووضعها فى إطار جميل، وعلقها فى الجزء العلوى من المقهى، بالقرب من المكان الذى تعود نجيب محفوظ أن يجلس فيه، ولا تزال هذه الصورة الجميلة معلقة فى مكانها إلى الآن.

فى هذا المقهى أجريت أحاديثى التى سجلتها مع نجيب محفوظ والتى يضمها هذا الكتاب، وعندما انتهت من هذه الأحاديث، وبدأت فى نقلها إلى الورق والعمل على ترتيبها وصياغتها بصورة مناسبة، سيطر على نفسى إحساس رهيب بالمسئولية، فكيف أتحمل أنا وحدى أمام الناس والتاريخ هذا العبء الكبير؟ كيف أنقل إلى الورق كل هذا الحشد من الأفكار والآراء الجريئة، بل والمثيرة أحياناً والتى سمعتها من نجيب محفوظ وهو يجيب عن أسئلتى الكثيرة؟ أليس من الضرورى أن أقوم بشيء من التقديم والتعليق والتعقيب بالموافقة أو النقد على هذه الأحاديث الخصبة الصريحة؟ أليس من الضرورى أن أقدم توضيحاً لخلفيات هذه الأحاديث، وأن أعقد المقارنات بينها وبين روايات نجيب محفوظ وشخصياته الفنية المختلفة؟ لقد تراجعت الأسئلة المطروحة أمامى عن الشكل الصحيح لهذا الكتاب، واضطربت فى ذهنى الأفكار حول الصورة النهائية التى ينبغى أن تظهر بها هذه الأحاديث، وأحسست فى وقت من الأوقات أننى أغرق وحدى فى بحر من الأفكار المتضاربة، وكنت كلما اهتديت إلى شكل يبدو لى مناسباً أو اصل العمل، ثم يفاجئنى فى منتصف الطريق إحساس بأننى بعيد عن الصواب فأمزق مئات الصفحات التى أعددتها وأبدأ من جديد.

كانت مسئولية تقديم أحاديث نجيب محفوظ كبيرة، وكان خوفى من الوقوع فى أى خطأ يعطلى ويدفعنى إلى التراجع كلما خطوت خطوة إلى الأمام.

على أننى فى آخر الأمر عازمت على تقديم أحاديث نجيب محفوظ كما سمعتها منه، مع تلخيص أسئلتى فى مقدمة كل فصل من فصول الكتاب، بالإضافة إلى تلخيص آخر لمضمون كل فصل، أما التقديم لهذه الأحاديث والتعليق عليها والمقارنة بينها وبين أعماله الفنية، فلم أجد مفراً من تأجيل هذا كله إلى كتاب جديد، وقد كان هذا القرار المتأخر هو الحل العملى الوحيد لإصدار هذه الأحاديث، حتى لا يصبح حجم الكتاب من الضخامة بحيث يصعب نشره، وحتى أتخلص، وهذا هو الأهم، من القلق الذى يعصف بى حول الصورة اللائقة التى يجب أن تظهر فيها هذه الأحاديث، وحتى أنقذ نفسى من حالة «الذهول» التى عطلتلى سنوات طويلة عن تقديم الأحاديث، وفاء منى لنجيب محفوظ الذى أعطانى من وقته وجهده كل ما طلبت، ووفاء منى «لمركز الأهرام للترجمة والنشر»، وهو صاحب فكرة الكتاب، ثم وفاء منى للحياة الثقافية والأدبية كلها.

وهذا هو الكتاب أقدمه، بالطريقة البسيطة، التى غابت عنى فى البداية، ثم اقتنعت بها

واهتديت إليها بعد صراع طويل مع نفسي، وبعد أن أضعت وقتاً ثميناً، حيث كان يمكن لهذا الكتاب أن يكون بين أيدي القراء منذ سنوات.

ولا أريد أن أطيل أكثر من ذلك في هذه المقدمة، ولكن الاعتذار عن كل هذا التأخير في إصدار هذه الأحاديث كان واجباً لا مفر منه، ولعل هذا الاعتذار يكون مقبولاً عند كل الذين وجهوا اللوم والعتاب إلى شخصي المتواضع.

ولا بد من كلمة شكر صادقة ومخلصة أوجهها إلى كل الذين ساندوني وتحملوني في فترة إعداد هذه الأحاديث، وعلى رأس الجميع الأستاذة العزيزة نوال المحلاوي التي صبرت معي صبراً غير محدود، وكذلك الصديق الكريم الأستاذ كمال السيد نائب مدير عام مركز الأهرام للترجمة والنشر والمسئول عن النشر، والذي عاملني في فترة إعداد الكتاب بمتهى الرفق والحنان والتشجيع.. أما الأصدقاء الذين ساعدوني مساعدة أساسية في تفرغ شرائط الأحاديث وترتيبها ترتيباً موضوعياً، فهم الإخوة الأعزاء الأساتذة: فكري النقاش وفؤاد المنصوري وأيمن الحكيم وعاصم النقاش. فلهم جميعاً خالص الشكر والتقدير، أما صديقي الصحفي الأديب الأستاذ محمد الشاذلي فقد بذل معي جهداً لا أنساه، إذ قام بمراجعة الكتاب كلمة كلمة، وقدم لي ملاحظات ثمينة استفدت منها جميعاً، وتولى مساعدتي مساعدة أساسية في إعداد فهرس الأعلام والأماكن، ولولا مساعدة هذا الصديق الكريم لتأخر صدور الكتاب فترة طويلة أخرى.

ولعل أهم ما خرجت به وأنا أقوم بإعداد هذا الكتاب هو أن الإحساس بالمسئولية هو إحساس ضروري ونبيل، ولكننا عندما نترك هذا الإحساس يزيد على حده المعقول فإنه يملأ الإنسان بالهواجس والشكوك، ويؤدي إلى التعطيل والشلل، وقد تعلمت من هذه التجربة أن الإحساس بالمسئولية يجب أن يكون متوازناً، وأن يكون مرتبطاً بالقدرة على وضع هذا الإحساس في موضعه الصحيح، حتى لا يتحول الإحساس بالمسئولية إلى عجز وتردد ومخاوف كثيرة لا تؤدي إلا إلى الجمود.

رجاء النقاش

القاهرة ديسمبر ١٩٩٧



## الفصل الأول

### الطفولة والشباب

مولدى «فى بيت القاضى» - أمى: السيدة الأمية التى كانت مخزناً للثقافة الشعبية، عشقها لسيدنا الحسين وزياراتها الدائمة للأديرة والمتاحف، كانت مغرمة بسماع أغانى سيد درويش ولم تدخل السينما إلا مرة واحدة، عاشت حتى سن المائة ولم تذهب يوماً لطبيب، أبى: كان «سميح» للأغانى ويحب المنبلاوى وصالح عبدالحى، ضربنى علفة واحدة بسبب الإنجليز، ورثت عنه حبه للوفد ولسعد باشا زغلول. الكتاب الوحيد الذى قرأه بعد القرآن هو «حديث عيسى بن هشام»، كان يتمنى أن أصبح وكيل نيابة أو طبيباً ولكنى خيبت أمله، كان متفتحاً جداً وليس فيه طباع «سى السيد»، توفى عام ١٩٣٧ قبل أن يقرأ روايتى الأولى «عبث الأقدار».



■ الحديث في هذا الفصل يدور حول فترة النشأة والطفولة والصبا في حياة نجيب محفوظ. والأسئلة فيه منصبة على مكان ولادته في حي سيدنا الحسين، وتأثره بالجو الذي كان محيطاً به.. ثم أسرته، وخاصة والدته التي تعلق بها، ووالده الذي ورث عنه حبه للوفد وزعيمه سعد زغلول.. وأبرز الخصائص التي ميزت تلك المرحلة، وذكرياته عنها، ثم أشقاؤه - الصبيان والبنات - ومصيرهم الآن.. ■

## هنا ولدت

نجيب محفوظ: منذ مولدى في حي سيدنا الحسين، وتحديدًا في يوم الاثنين ١١ ديسمبر عام ١٩١١ ميلادية وهذا المكان يسكن في وجداني، عندما أسير فيه أشعر بنشوة غريبة جدًا، أشبه بنشوة العشاق، كنت أشعر دائمًا بالحنين إليه لدرجة الألم، والحقيقة أن ألم الحنين لم يهدأ إلا بالكتابة عن هذا الحي، حتى عندما اضطرتنا الظروف لتركه والانتقال إلى العباسية كانت متعتي الروحية الكبرى هي أن أذهب لزيارة الحسين.

وفي فترة الإجازة الصيفية أيام المدرسة والتلمذة كنت أقضى السهرة مع أصحابي في الحسين، ونقلت عدوى الحب لهذا الحي إلى أصدقائي، فتحت أى ظرف لا بد أن تكون السهرة في الحسين، وحتى لو ذهبنا لسماع أم كلثوم وتأخرنا إلى منتصف الليل، لا نعود إلى منازلنا إلا بعد جلسة طويلة في «الفيشاوى» نشرب الشاي والشيشة ونقضى وقتًا في السمر والحديث.

كل إخوتي ولدوا في بيت «بدر القزازين» وأنا الوحيد بينهم الذى ولدت في «بيت القاضى»، والمكانان في الجمالية، وإذا لم تخنى الذاكرة فقد كان عنوان بيتنا هو رقم (٨) في ميدان «بيت القاضى»، وكان مواجهًا لقسم الجمالية، وكانت أبواب البيت مفتوحة على الميدان، أما نوافذه الجانبية فتظل على «درب قرمز»، وكنا نتبع مشيخة «قرمز».

كان ميدان «بيت القاضى» يتميز بالهدوء والاتساع، وتكثر فيه أشجار كنا نسميها «دقن الباشا»، ونظرًا لاتساع الميدان وتفرع الحواري الكثيرة منه فقد كانت تتجمع فيه المظاهرات وأظن أن شكله الآن اختلف وأصبح مزدحمًا للغاية.

بعد ثورة ١٩١٩، وتحديداً سنة ١٩٢٠، انتقلنا من حى الحسين إلى العباسية، وسكننا فى البيت رقم (٩) شارع «رضوان شكرى». والحقيقة أن انتقالنا إلى العباسية له سبب، وهو أن العائلات الكبيرة فى «درب قرمز» مثل: المهيلمى والسيسى والخربوطلى بدأت فى النزوح من المنطقة، عائلة وراء الأخرى. وبعد انتقال «الأعيان» فقدت الحارة بهجتها وروحها وانطفأت الأنوار وانتهت السهرات، وشعرنا - بعدهم - بوحشة شديدة.

كانت منطقة العباسية الغربية - التى انتقلنا إليها - عبارة عن بيوت نمطية صغيرة، كل بيت من دور واحد وفى خلفيته حديقة صغيرة. وبجانب تلك البيوت تمتد الحقول الخضراء حتى المنطقة التى يسمونها الآن بـ «حدائق القبة». وكان شارع أحمد سعيد المزدحم حالياً خالياً من أى نوع من العمران، وكله عبارة عن حدائق وأشجار، كنا نعيش كأننا فى الريف مع توافر الكهرباء والمياه والمجارى وكافة الخدمات.

كنا نملك بيتنا الجديد فى العباسية، ولكننا بعناه بعد وفاة والدى - رحمه الله - وأظنه الآن تحول إلى عمارة، ورغم هذا الانتقال كنت - كما قلت - دائم التردد على حى سيدنا الحسين، ولم أكن وحدى المسكون بعشق هذا الحى، فقد ورثت ذلك عن أمى - رحمها الله - كانت كل صباح تركب العربة التى تجرها الخيول والتى تسمى «السوارس» من العباسية وتذهب لزيارة الحسين وزيارة أقاربنا وجيراننا القدامى ثم تعود، ولم تنقطع عن تلك العادة اليومية طوال حياتها، وكان والدى - رحمه الله - يتردد يومياً على حى الحسين بحكم عمله، حيث إنه بعد إحالته للمعاش التحق بعمل فى محل تجارى يملكه أحد أصدقائه، وكان هذا المحل فى «الصاغة» أو «الصالحية»، فكان كأنه لم يغادر الحسين.

## أمى

كانت أمى سيدة أمية لا تقرأ ولا تكتب، ومع ذلك كنت أعتبرها مخزناً للثقافة الشعبية، كانت - كما قلت - تعشق سيدنا الحسين وتزوره باستمرار، وفى الفترة التى عشناها فى «الجمالية» كانت تصحبني معها فى زياراتها اليومية، وعندما انتقلنا إلى العباسية كانت تذهب بمفردها، فلقد كبرت أنا ولم أعد ذلك الطفل المطيع، ولم يعد من السهل أن تجرني وراءها، وفى كل المرات التى رافقتها فيها إلى سيدنا الحسين كانت تطلب منى قراءة الفاتحة عندما ندخل المسجد وأن أقبل الضريح، وكانت هذه الأشياء تبعث فى نفسى معانى الرهبة والخشوع.

والغريب أن والدتي كانت أيضًا دائمة التردد على «المتحف المصري» وتحب قضاء أغلب الوقت في حجرة «المومياءات»، ولا أعرف السبب، ولا أجد تفسيرًا لذلك، فحبها للحسين والآثار الإسلامية كان ينبغي أن يجعلها تنفر من تماثيل الفراعنة، ثم إنها كانت بنفس الحماس تذهب لزيارة الآثار القبطية، خاصة دير «مار جرجس» وتأخذ المسألة على أنها نوع من البركة، ومن كثرة تردها على الدير نشأت صداقة بينها وبين الراهبات، وكن يحبينها جدًا. وذات مرة مرضت والدتي ولزمت البيت، وفوجئنا بوفد من الراهبات يزورها في البيت، وفي ذلك اليوم حدث انقلاب في «شارع رضوان شكرى»، لأن الناس لم يروا مثل هذا المنظر من قبل. وكنت عندما أسألها عن حبها «للحسين» و«مار جرجس» في نفس الوقت تقول: «كلهم بركة».. وتعتبرهم «سلسلة واحدة». والحقيقة أنني تأثرت بهذا التسامح الجميل لأن الشعب المصري لم يعرف التعصب، وهذه هي روح الإسلام الحقيقية.

وأحب أن أوضح أن حب والدتي لزيارة المتحف والآثار الفرعونية لم يكن من منطلق ديني أبدًا، لأنها كانت تعتبر هذه الآثار «مساخيط»، كما يسميها أهالي الجبل في الأقصر وسوهاج وأسوان، والحقيقة أن أول زيارة لى للمتحف المصري كانت مع والدى - رحمه الله - ويومها زرنا الهرم ثم ذهبنا إلى «المتحف الفرعونى» ثم إلى «المتحف الإسلامى» بباب الخلق، بعد ذلك كانت كل الزيارات مع والدتي، كانت تصحبنى لأننى كنت أصغر أولادها أو ولدها الوحيد في البيت بعد أن تزوج إختوتى، كما أن أخى الأكبر منى مباشرة كان طالبًا فى الكلية الحربية، وعندما تخرج وأصبح ضابطًا ذهب إلى السودان، وكانت زيارته للبيت نادرة جدًا، وكنت أعتبره مثل الطيف الذى يأتى فجأة ويختفى، استمر أخى فى السودان حتى عام ١٩٢٤ عندما اغتيل السردار «سير لى ستاك» وأصدر الملك فؤاد أمرًا ملكيًا بعودة الجيش المصرى من السودان. خدم أخى فى الجيش حتى وصل إلى رتبة «لواء»، ومات فى عام ١٩٧٥، وأذكر هذا التاريخ لسبب، وهو أننى مشيت معه فى جنازة «محمد» ابن أختى استشهد فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ بعد أن اعتبروه من المفقودين. وأذكر أن ابن أختى هذا كان له ابن اسمه «طارق» استشهد معه فى الحرب، والاثان كانا ضابطين فى حرب أكتوبر.

نعود إلى والدتي وأقول إننى لا أجد تفسيرًا حتى الآن لغرامها بالآثار القديمة، ففى أسرنا الآن سيدات تعلمن فى مدارس أجنبية ويجدن اللغات الأجنبية والعزف على الآلات الموسيقية، ومع ذلك ليس لديهن ثقافة أمى أو غرامها بالآثار، إننى أجد فى أمى عراقية وأصالة أكثر من سيدات هذا الجيل، وإلى جانب عشقها للآثار كانت مغرمة بسماع الأغاني،

خاصة أغاني سيد درويش، على الرغم من أن والدها الشيخ إبراهيم مصطفى كان شيخًا زهريًا وله كتاب في النحو طبع في المطبعة الأهلية.

والحقيقة أن علاقتي بوالدتي - واسمها فاطمة - كانت أوثق من علاقتي بوالدي لأسباب كثيرة، منها أن والدي كان مشغولاً، ودائمًا كان خارج البيت في عمله، في حين أنني كنت ملازمًا لأمي باستمرار، وفي حين أن والدي مات عام ١٩٣٧ عاشت أمي بعده سنوات طويلة، إلى أن تجاوز عمرها المائة عام، وتوفيت إلى رحمة الله عام ١٩٦٨، وفي نفس السنة التي حصلت فيها على جائزة الدولة التقديرية، ولقد ظللت أعيش معها في منزلنا بالعباسية حتى تزوجت عام ١٩٥٤ وجاءت شقيقة لى مات زوجها لتعيش مع أمي.

كانت والدتي تتمتع بصحة جيدة طوال عمرها، ولا أتذكر أنها ذهبت إلى طبيب في يوم ما، أو اشتكت من مرض ما، باستثناء العام الأخير من حياتها، حيث رقدت في سريرها وهي عاجزة عن الحركة تمامًا، لقد ظلت أمي حتى حدود التسعين من عمرها تزور الحسين بشكل يومي، كما لم تنقطع عن زيارة أقاربنا، وكانت تحظى بمكانة وحضور كبيرين بينهم، ورغم أنها عاصرت ظهور التلفزيون فإنه لم يدخل بيتها، بل لم تدخل السينما إلا مرة واحدة، لمشاهدة فيلم «ظهور الإسلام» بعد أن وصل إلى مسامعها أن من يشاهد هذا الفيلم يكون بمثابة من ذهب لأداء فريضة الحج، وبما أنها لم تتمكن من الحج ذهبت لمشاهدة الفيلم.

وعندما ماتت والدتي تبعثرت بين أيدي أفراد العائلة أوراق كثيرة وأشياء شخصية، ومن بينها صور خاصة بي، ولا أعرف ما هو مصير هذه الصور والأوراق وأين استقر بها المطاف.

كان لى شقيقان وأربع من الأخوات، ومع ذلك نشأت كأنني وحيد أبويه، فكل إخوتي تركوا المنزل بعد أن تزوجوا، سواء منهم الرجال أو النساء وبقيت وحدي. كنت أصغر الأبناء - كما قلت - ويبلغ فارق السن بيني وبين الأخ الذي يكبرني مباشرة حوالي ١٠ سنوات، ولم يكن مقيمًا معنا في المنزل، فهو - كما أشرت - التحق بالكلية الحربية، وبعد تخرجه أرسلوه إلى السودان وأمضى فيها عدة سنوات، وعندما عاد إلى مصر تزوج وترك البيت. وكان كل إخوتي يقيمون في أماكن متفرقة وبعيدة، ونظرًا لهذه الظروف كانت والدتي تحيطني برعاية كبيرة، وتصحبنى معها في كل مكان تذهب إليه، سواء في زياراتها للحسين والمتحف والأديرة، أو زياراتها لإخوتي المتزوجين، وكانت زيارتي إلى بيوت إخوتي لطيفة جدًا، وأحيانًا كانت أمي تتركني أقيم بضعة أيام عند أخت لى متزوجة في حي الحسين.

كانت المنطقة التي عشنا فيها في الجمالية أشبه بـ«بيت جحا»، شوارعها معقدة وضيقة، ولذلك كانت والدتي تحرص على بقائي في البيت خشية أن تفقدني، فقد كان مألوفاً في ذلك الوقت أن تسمع صوت المنادى يبحث عن طفل تائه، ونظراً لأن والدتي كانت من هواة تربية الطيور فقد تحول سطح البيت إلى عالم للحيوان، وكنت أفرح بهذه الطيور وأمضي أمتع الأوقات على السطح مع الكتاكيت والأرانب والدجاج، وأحياناً كانت أمي تسمح لي باللعب أمام البيت مع أولاد الجيران، ولما زادت «شقاوتي» بعض الشيء اصطنع والدي معي الحزم، وبعد أن دلتني حتى سن معينة، بدأ في سياسة الشدة، وأخيراً تخلص مني بأن أرسلني إلى «الكتاب»، صحيح أنني كنت صغير السن ولا أفهم شيئاً، ولكن أهل البيت ارتاحوا مني، وعلى ذلك أستطيع القول بأنني عشت طفولة سعيدة لولا بعض المنغصات مثل «الكتاب» والحزم وسياسة الشدة.

وبالنسبة لشقيقتي كان والدي يرسلهن إلى المدرسة، حتى إذا ما ظهرت على الواحدة منهن علامات الأنوثة يمنعهما عن المدرسة، ويحدد إقامتها في البيت، وتكون حينئذ ملمة وبشيء من الصعوبة بالقراءة والكتابة، بل إن منهن واحدة نسيت القراءة والكتابة تماماً بعد الزواج، أستثني من ذلك شقيقة واحدة تمكنت من تنمية قدراتها حتى أصبحت تقرأ الجرائد والمجلات بسهولة، وحالياً لم يبق أحد من إخوتي، ماتوا جميعاً، وآخرهم كانت أختي «أمينة» التي توفيت في الثمانينيات، ومن اسمها أخذت اسم «أمينة» بطلا «بين القصرين».

## أبي

والدي اسمه عبدالعزيز إبراهيم أحمد الباشا.. من مواليد عام ١٨٧٠ وتوفي عام ١٩٣٧، وجدتي لأبي من عائلة «عيفي»، وهي من العائلات الإقطاعية بالفيوم، أما جدي فمن رشيد أصلاً ثم هاجر بعد ذلك إلى الإسكندرية، وعندما ذهبت ذات مرة إلى رشيد سألت عن عائلة «الباشا» ووجدت أن لها بقايا ما زالت موجودة في منطقة «البرج». ولا أستطيع أن أدلي بشيء له قيمة عن حياة أبي وشخصيته عندما كان موظفاً في الحكومة، لأنني كنت حينئذ طفلاً رضيعاً، ولكن عندما أحيل إلى المعاش كنت قد كبرت وبدأت أفهم.



عبد العزيز إبراهيم الباشا والد نجيب محفوظ

من أبرز سمات أبي الشخصية أنه كان يرتدى نوعين من الأزياء، نوعاً للشتاء وآخر للصيف، ففي الشتاء يرتدى «البدلة» وفوقها «البالطو»، وفي الصيف يرتدى «الجبة والقفطان». أما الطربوش فعامل مشترك يرتديه شتاءً وصيفاً، وكان ذلك أمراً غريباً بالنسبة لما هو شائع في تلك الأيام، فالذى يرتدى الملابس الأفرنجية لا يرتدى الملابس الأزهرية، والعكس صحيح. كما كان والدى - رحمه الله - شديد الالتزام والتنظيم، حيث يعود إلى البيت كل يوم بعد انتهاء العمل ويظل جالساً في البيت، ويمضى وقته بين الصلاة وقراءة القرآن والجلوس في صمت، وكانت له قدرة غريبة على الجلوس في حالة صمت تام لساعات طويلة، وبعد أن يتناول طعام العشاء ينام. ولم يكن أبى من هواة القراءة، والكتاب الوحيد الذى قرأه بعد القرآن الكريم هو «حديث عيسى بن هشام»، لأن مؤلفه محمد المويلحي كان صديقاً له ويسكن في نفس المنطقة.

عندما أحيل أبى إلى المعاش عمل في «فابريكة» أو «مصنع» للنحاس، وكانت إجازته الأسبوعية يوم الأحد، فيقضى مساء السبت في «الكلوب الحسينى» أيام كنا نعيش في

الجمالية، وفي «قهوة الجندي» عندما انتقلنا إلى العباسية، ويقع هذا المقهى في المكان الذي أقيم فوقه «كازينو بديعة» فيما بعد، وهو أمام دار الأوبرا القديمة، وفي أغلب سهراته كان أبي يصطحبني معه ويشترى لي «جيلاتي» ويجلس هو مع أصدقائه، ويقضون وقتهم في الضحك والنكات ثم نعود سوياً مستقلين الترام.

كان والدي يعاملني بحنان ولطف ولم يضربني في حياته إلا مرة واحدة، ولهذه «العلاقة» قصة، كانت عساكر الإنجليز تحتل ميدان «بيت القاضي» حيث نسين، وكانت تعليمات أبي تمنع فتح النوافذ المطلة على الميدان مطلقاً، لأن الإنجليز كانوا يعتبرون النوافذ المفتوحة بمثابة تهديد لهم، فقد يكون هناك من يحاول إطلاق الرصاص عليهم من النافذة المفتوحة، وذات يوم انتهزت فرصة انشغال أمي في المطبخ وفتحت النافذة، وجلست أشاهد العساكر الإنجليز وأقلد حركاتهم وأصواتهم عند تغيير الطابور العسكري، وفجأة وجدت أبي واقفاً فوق رأسي وهو ينظر لي بغضب شديد، ثم أحضر عصاه وهوى بها عليّ وجاءت أمي تساعده، وطرحاني أرضاً، وأمسكت أمي بساقي ورفعتهما إلى أعلى، ليتمكن أبي من ضربني بالعصا على باطن قدمي، وتركانني وأنا أعرج، وكانت المرة الأولى والأخيرة التي يضربني فيها والدي - رحمه الله.

أما أمي فلم تضربني - أيضاً - إلا مرة واحدة، فذات يوم كنت ألعب مع خادمتنا الصغيرة «زكية»، وأحضرت شفرة حلاقة وأقنعتها - ببراءة الأطفال - أنني طيب وأستطيع أن أجرى لها عملية جراحية في يدها، وصدقني، وأعطتني ذراعها، فجرحتها، ولما رأت «زكية» منظر الدم صرخت، وجاءت أمي فزعة، وصفعتني على وجهي وتوعدتني بقطع يدي بالشفرة، وعند سماعي لهذا التهديد شعرت بالرعب وهربت منها.

اهتم والدي بتعليمنا، وبالنسبة للبنات أتاح لهن قدرًا من التعليم يعتبر معقولاً في ذلك العصر، وهو أوائل القرن العشرين، أما بالنسبة للأولاد فقد اهتم بتعليمهم حتى النهاية. وكانت غاية أمله أن نلتحق بسلك القضاء أو الطب، ولذلك غضب عندما التحق شقيقي محمد بالكلية الحربية، واضطر أخى للاستعانة بأحد أقاربنا واسمه «عفي» لكي يذهب معه إلى الكلية ويضمنه بعد أن رفض أبي مجرد الذهاب معه إلى الكلية. أما شقيقي الثاني «إبراهيم» فقد تخرج في مدرسة المعلمين العليا، وعمل مدرساً للرياضيات والعلوم، وعندما أصبح «ناظر مدرسة» نقل إلى ديوان المحاسبة، وأحيل إلى المعاش وهو بدرجة «مراقب حسابات»، وتوفي إلى رحمة الله في العام الذي قتل فيه الرئيس الراحل أنور السادات، أي في سنة ١٩٨١.

أما بالنسبة لى فلقد تغيرت حالى منذ المرحلة الابتدائية، وأحببت الدراسة، وشعرت بالمسئولية، وكنت دائماً من الأوائل وأحصل على نتائج طيبة جداً، هذا التفوق كان مصدر سعادة لوالدى الذى بدأ يدللى ويزيد فى مصروفى وفى الهدايا التى يقدمها لى، حتى ظن كثيرون من أصحابى أنى من أسرة ثرية. وطوال دراستى الابتدائية والثانوية كانت علاقتى بوالدى طيبة للغاية، ولم أسمع منه أى عبارة لحثى على الدراسة أو أى إنذار أو عقاب فى حالة إهمالى لدروسى، لم يقل لى شيئاً من هذا القبيل، لأنه كان يلاحظ اهتمامى بالتعليم وحرصى على التحصيل. وعندما وصلت إلى الشهادة العليا فى آخر المرحلة الثانوية، وكان اسمها «البكالوريا» على أيامنا، كان أمل والدى أن ألتحق بكلية الحقوق أو الطب، لأكون إما وكيل نيابة أو طبيباً؛ فهاتان الوظائفان فى رأيه هما أحسن وظيفتين فى مصر. ولذلك أصيب بصدمة عندما أخبرته أننى أنوى الالتحاق بقسم الفلسفة بكلية الآداب، وقال لى: «يا بنى التحق بكلية الحقوق تصبح مثل ابن عمك وكيلاً للنيابة، تمشى ووراءك عسكرى». ودارت بيننا مناقشات كثيرة حول هذا الأمر، وكانت المناقشة الديمقراطية بين الآباء والأبناء فى ذلك الوقت أمراً غريباً، لأنه فى إمكان الأب حسم أى مشكلة بكلمة واحدة وتنتهى فوراً، ولكن يبدو أن كثرة عدد أولاده «٤ بنات وثلاثة أولاد»، علمت أبى المرونة.

والحقيقة أن التحاقى بكلية الآداب كان شيئاً غريباً بالنسبة لكل المحيطين بى؛ لأننى كنت متفوقاً فى الرياضة والعلوم، حتى أننى عندما اخترت القسم الأدبى فى «البكالوريا» احتج المدرسون وقالوا لى: «ما الذى فعلته بنفسك؟» وكأننى ارتكبت جريمة، كانت وجهة نظرهم أننى متفوق فى المواد العلمية، بل كانوا يراهنون علىّ طوال دراستى، وكان عندهم حق لأننى كنت أنجح بصعوبة فى المواد الأدبية، خاصة الجغرافيا والتاريخ واللغتين الإنجليزية والفرنسية، وأحصل بمشقة على «الميديوكر» أو الدرجة المتوسطة، والمادة الأدبية الوحيدة التى تفوقت فيها هى اللغة العربية، ورغم تلك الاحتجاجات دخلت القسم الأدبى، ونجحت فى البكالوريا عام ١٩٣٠، وكان عدد طلبة البكالوريا فى تلك السنة حوالى ٢٠ ألفاً، حصلت على مجموع ٦٠٪ وجاء ترتيبى العشرين على المدرسة، وبهذا المجموع كان فى إمكانى الالتحاق بكلية الحقوق مجاناً، ولكننى فضلت كلية الآداب قسم الفلسفة.

حصلت من والدى على مكافأة النجاح فى «البكالوريا» وكانت عشرة جنيهات، لأقضى إجازة الصيف فى الإسكندرية، وأصيب عمى بالذهول لضخامة المكافأة، وعاتب والدى

بشدة، وكان عمى يعمل موظفًا في مصلحة التلغراف بمنطقة القناة، ثم انتقل إلى القاهرة وتخرج أولاده الثلاثة في الجامعة، وكان أحدهم مستشارًا والثاني مهندسًا، أما الثالث فكان طبيبًا.

بعد التحاقى بالجامعة تحولت العلاقة بينى وبين والدى إلى ما يشبه الصداقة، وعندما اشترى جهاز «راديو» كنا نجلس لنستمع إليه سويًا، وأحيانًا كان يطلب منى دعوة أصدقائى ويصطحبنا إلى «نادى الموسيقى» فى عابدين، حيث كنا نستمع إلى المطربين القدامى: عبداللطيف البنا، والشيخ إدريس وغيرهما، وبعد أن تنتهى السهرة نعود مع أبى مستقلين «الحنطور»، ولم تكن هناك مناقشات سياسية بيننا، فوالدى وفدى وأنا كذلك، فلم يكن هناك مجال للجدل أو الاختلاف، ومن المحتمل أن يكون حبى للوفد نابعًا من تأثير والدى وتأثير أستاذى الشيخ عجاج الذى سوف أحدثك عنه فيما بعد، وعندما مات سعد زغلول كنت فى الخامسة عشرة من عمري، إلا أننى اعتبره أفجع يوم فى حياتى. وكان من الأمور المألوفة فى ذلك الوقت قيام المظاهرات المؤيدة للوفد ولسعد باشا، وأول مرة أشاهد فيها مظاهرة كان عمري ثمانى سنوات، وحسبتها فى البداية «زفة فتوات» مثلما كان يحدث فى الحسينية، وعندما رأيت المتظاهرين فى ميدان «بيت القاضى» سألت أمى عن اسم الفتوة صاحب المظاهرة!!

كان والدى «سميع» أغاني حتى قبل ظهور الراديو، وإذا عرف أن «المنيلوى» أو «صالح عبدالحى» أو «عبدالحى حلمى» أو غيرهم من كبار المطربين فى ذلك الوقت سوف يغنى أحدهم فى حفل زواج بالمنطقة، فلا بد أن يذهب لسماعه، وكانت الأفراح تقام أيامها فى سرادقات مفتوحة للجميع، ويمكن لأى شخص أن يدخل، والفرق الوحيد بينه وبين المدعو أن أصحاب الحفل يأخذون المدعو فى نهاية الحفل لتناول العشاء بينما ينصرف الباقون، هذا هو الفرق الوحيد، وأحيانًا كان هناك من يذهب إلى سرادقات العزاء دون أن يعرف اسم المتوفى، إذا علموا أن المقرئ فى المأتم واحد من الكبار مثل الشيخ «على محمود» أو «الشيخ السيسى».

وبصراحة كانت شخصية والدى تتحلى بقدر كبير من التسامح والمرونة والديمقراطية، وليس فيها استبداد أو عنف، ولا علاقة لها بشخصية «السيد أحمد عبدالجواد» بطل «الثلاثية». بل كانت شخصية «سى السيد» تنطبق أكثر على جار لنا شامى الأصل اسمه «عم بشير»، استقر هو وزوجته - وهى شامية أيضًا - فى مصر، وكان بيته مواجهًا لبيتنا فى «بيت

القاضى". هذا الرجل - عم بشير - رغم طبيته كان جباراً، وكان يعامل زوجته بقسوة، لدرجة أنها كانت تأتى إلى والدتى باستمرار تبثها الشكوى من سوء معاملة الزوج، وفى ليالى القمر كانت تجلس مع أمى فوق السطح وتطلب منى الغناء فألاحظ الدموع على خديها.

وشخصية الزوج الحازم القاسى كانت من الأمور المألوفة فى ذلك العصر، ولكن لم تكن تنطبق على أزواج شقيقاتى: نعيمة ورتيبة، وكان زوج أمينة عصيباً بعض الشئ ولكن بدون قسوة، والوحيد الذى كان فيه بعض ملامح «سى السيد» هو زوج شقيقتى «زينب». فقد كان صعيدياً من أصل كردى، كان فظيلاً، ومع ذلك كانت عندما يفيض بها الكيل تقف فى وجهه بشراسة، أما والدى فربما أخذت منه فى شخصية «السيد أحمد عبد الجواد» حبه للفن فقط.

على المستوى الشخصى كان والدى - رحمه الله - رجلاً مستقيماً، وصحيح أننى لا أعرف شيئاً عن فترة شبابه ولكن كان من الواضح أنه ملتزم، ولم يتزوج غير والدتى، ولم تكن له علاقات نسائية، لأن مثل هذه العلاقات تنكشف، على عكس عمى «سعيد» الذى كان معروفاً بكثرة غرامياته وعلاقاته، وكانت زوجته تتشاجر معه لهذا السبب وتشكوه باستمرار لوالدى الذى هو بمثابة أبيه نظراً لفارق السن بينهما. كنت أسمع والدى وهو يعاتب عمى «سعيد» لأن ما يفعله عيب، خاصة وبناته اقتربن من سن الزواج، وسوء سيرة والدهن قد يؤثر على فرصهن فى الزواج. والحقيقة أنى كنت أحب عمى «سعيد» لأنه كان شخصية لطيفة، والمغرمون بالنساء دائماً تجدهم يتميزون باللطف وحسن الحديث والقدرة على الغزل، كما أنه كان شخصية متفتحة ومحباً للحياة، وكان وجيهاً وسيماً، وعندما يرتدى البدلة البيضاء ويضع وردة حمراء فى «السترة» يلفت انتباهه حتى العباسية كله.

أما العلاقة بين والدى ووالدتى فقد كانت مثلاً للاحترام والحب، فلم أرهما مرة فى حالة شجار. صحيح أن أمى كانت عصبية إلى حد ما، وأحياناً يعلو صوتها، إلا أنها كانت تحترم أبى، وكان لا بد أن تقف وهو خارج من البيت أو داخل إليه، ولا بد أن تساعد فى ارتداء ملابسها، وتعتنى بطعامه وشرابه ومظهره، وكان حزنها عليه عندما مات شيئاً لا يتصوره عقل. ولقد حزنت أنا على أبى وتلقيت نبأ وفاته بصدمة شديدة، فالأب فى المجتمع الشرقى هو الركن الأساسى للأسرة، وعندما يرزقك الله بأب ملتزم لا يشرب الخمر ولا يلعب القمار فهذه نعمة كبيرة.

مات والدي عام ١٩٣٧ ولم يطلع على أولى رواياتي «عبث الأقدار»، لقد قرأ لي بعض قصصى الأولى المنشورة في الصحف، وكان يشعر بسعادة غامرة عندما يقرأ اسمي على هذه القصص، ومع ذلك لم تكن اهتماماتي الأدبية تعنيه كثيرًا، وعندما تخرجت سنة ١٩٣٤ في الجامعة ساعدني في الحصول على وظيفة، تحدث إلى أقارب له من عائلة «شوشة»، وأذكر أنهم «توفيق شوشة باشا» في وزارة الصحة، وهو الذي توسط لي عند «صادق باشا جوهر» سكرتير عام الجامعة وكانا زميلين في البعثة، و«صادق جوهر» كان شخصية معروفة في تلك الأيام، وكانت له مؤلفات دراسية للتلاميذ، كما كان مكروهاً من الرأي العام باعتباره من أتباع الملك، ولأنه لهذا السبب صعد في السلم الوظيفي حتى درجة «وكيل وزارة المعارف»، وهو منصب خطير في ذلك الحين، ثم أصبح «صادق جوهر» من أسباب فصل الدكتور طه حسين من الجامعة، وكان أن توسط «شوشة باشا» لدى «صادق جوهر» لتوظيفي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، كان لي ابنة عمه متزوجة من رجل يعمل مع «أحمد لطفى السيد باشا» فتوسطت هي الأخرى، وأخيرًا حصلت على الوظيفة.

كنت سعيدًا للغاية براتبى إلى أن طلب منى والدى إعطاء والدتى جزءًا من هذا المرب، وقال لى: «أنا لن أعيش إلى الأبد وأحب أن أطمئن على والدتك، ولذا يجب أن تساهم فى مصروف البيت». ويبدو أن والدى كان يشعر بدنو الأجل، فمنذ حصلت على الوظيفة بدأ أبى يشكو من متاعب فى القلب، كما كان مريضًا بضغط الدم مما أثر على قلبه. وفى يوم وفاته أصيب بنزيف فى المخ قرب الظهر، وأسلم الروح فى منتصف الليل، ولا تتصور حزنى عليه، خاصة أنها كانت أول تجربة لى مع الموت، وكان مصابى فى إنسان عزيز جدًا على نفسى.

## مشاهدات من الطفولة

بيتنا فى الحسينية كان له سحر خاص وقد ترك تأثيرًا عميقًا فى نفسى، هذا على الرغم من أنه كان بيتًا قديمًا وخاليًا من وسائل الحياة الحديثة، لم تكن هناك كهرباء، بل مصابيح معلقة فى السقف نزلها ثم تضاء، ويتم رفعها إلى السقف من جديد، ولا أدري كيف كانت هذه العملية تتم، وكنا نستخدم «المبات الجاز»، ولكننى لم أستذكر دروسى على «المبات الجاز» هذه، لأننى لم أكن قد دخلت المدرسة بعد، وكنا فى تلك الأيام ندخل المدرسة فى سن كبيرة نسبيًا بالقياس إلى ما هو معروف الآن، وقد دخلت المدرسة الابتدائية عندما انتقلنا

إلى العباسية. وكان عمري تقريباً تسع سنوات، وكانت أول مدرسة ألتحق بها هي مدرسة «خليل أغا»، وظللت بها عدة شهور ثم تركتها.

وفى البيت القديم كان عندنا خزان مياه كبير فوق السطح، وكان نظام السقا ما زال موجوداً، وكان بالحمام سخان لكنه لا يعمل بالكهرباء، وإنما يتم التسخين يدوياً فى حجرة مجاورة للحمام مخصصة للتسخين، وأذكر أن والدتى كانت تقوم بعملية غريبة، حيث تضع الزهر وماء الورد فى مكان معين وتقوم بالتسخين فيتحول إلى بخار ثم تجرى له عملية تنقيط فى زجاجات، ونظّل نشرب منه طوال السنة، وأحياناً كانت تخلط جزءاً منه بماء الاستحمام لتكسبه رائحة طيبة، وهذه العملية كانت تتم مرة واحدة فى السنة. أما مصدر المياه فكان «حنفية عمومية» فى ميدان بيت القاضى، وهى موجودة حتى الآن، ولا أعرف إذا كانت تعمل أم تعطلت، وكان لهذه «الحنفية» مدير اسمه «نجيب حنفى» من «النصارى الشوام» الذين استقروا فى مصر، كان الرجل يجلس بجانب «الحنفية» لكى يفتحها لمن يريد الماء، وذات مرة تشاجر مع بعض نساء الحى، ويبدو أنه شهد ضدهن شهادة زور، فأخذن يغنين ضده أغنية على وزن أغنية أخرى كانت شائعة أيامها تقول كلماتها:



نجيب محفوظ فى مقهى الفيشاوى بالحسين يطالع كتباً يحملها بائع كتب متجول

عجائب والله عجائب  
ما يصحش يا منصفين  
تهجرني وتعشق غيري  
وعوازلى مهنيين..

فحرّفت النساء هذه الأغنية وقلن:

عملوا لنا الناس قضية  
قدام قسم الجمالية  
وشهد بستاع الحنفية  
أشكى الشماع لمين؟..

و«الشماع» تعنى المسئول عن فتح «الحنفية» وإدارتها، وكانت النساء يتعمدن ترديد هذه الأغنية أمامه، وكان «نجيب حنفى» يعرفنى ويعرف أن صوتى جميل فعندما يرانى أقف فى نافذة البيت المطلّة على الميدان ينادينى طالباً منى أن أغنى، وكنت أغنى له من النافذة.

عندما انتقلنا إلى العباسية كان بيتنا على النظام الحديث، ولم تكن به مشربة مثل البيت القديم، وكان كل شىء فيه جديداً، كما أن به مياه وكهرباء، وكانت له حديقة خلفية جميلة، والمنطقة الموجود بها واسعة وملبئة بالخضرة. وكثيراً ما كنت أخرج للترهة فى العباسية الشرقية، وأشاهد «السرايات» الجميلة المنتشرة بها، ورغم أننى اعتدت على وسائل المدنية الحديثة إلا أن البيت القديم كان له سحره الخاص وما زالت له صورة فى قلبى.

أنا لا أنسى أبداً مظاهر الاحتفال بشهر رمضان وأيام العيد فى «بيت القاضى»، كنت أشعر «بالتجلى» فى أقصى درجاته، ولا يزال هذا التجلى موجوداً حتى الآن فى الحارات الشعبية القديمة وإن لم يكن بنفس المستوى، وإذا قلنا إن الاحتفال بشهر رمضان تراجع درجتين مثلاً، فإن هاتين الدرجتين تظهران فى منطقة مثل الزمالك مثلاً وكأنهما عشرون درجة أما فى حى مثل الحسين فإن الاحتفال بالشهر الكريم لم يختلف كثيراً عن الأيام الخوالى.

فى نهار رمضان كنت تجد كل شىء هادئاً، المقاهى والمحلات مغلقة احتراماً للصائمين، ثم يختلف الأمر فى الليل: السهر حتى الفجر، والأطفال فى الشارع بالفوانيس، والأنوار والإضاءة فى كل مكان، وكأن هناك مهرجاناً لا ينقطع طوال الليل، أما فى العيد فكانت فرحة الناس - وخصوصاً الأطفال - لا تقدر، لأننا كنا نتظره من العام للعام.

وبالنسبة لمظاهر التسلية فى الجمالية فإنها كانت متعددة، فى بيتنا يوجد «فونوغراف» لسماع الأغانى، ولم يخل بيتنا أبدًا من «الفونوغراف» حتى دخل «الراديو». كانت أغلب الأسطوانات لأغاني سيد درويش، لأن والدتى كانت من عشاق صوته وألحانه، كان هناك أيضًا الشاعر الشعبى الذى يغنى على الربابة فى مقهى فى «خان جعفر» ما بين ميدان «بيت القاضى» و«الحسين» ويصطف الجمهور على الكراسى كأنهم فى دار سينما يستمعون للشاعر، وإذا حكى قصة «أبوزيد الهلالى» ينقسم الجمهور إلى فريقين، الأول: يؤيد «أبوزيد»، والثانى يؤيد «دياب»، مثل جماهير كرة القدم الآن والذين ينقسمون بين نادى «الأهلى» و«الزمالك»، وكان شاعر الربابة يجد نفسه فى موقف حرج لا يعرف أى الفريقين يرضى، وكانت مشاجرات تقع بين أنصار الفريقين.



نجيب محفوظ يشتري فطائر فى شارع المشهد الحسينى بالحي الذى دارت فيه العديد من أحداث رواياته

وكنت أحيانًا أذهب للاستماع إلى شاعر الربابة وأقف على باب المقهى أستمع إلى حكايات لا أدرك معناها بسبب صغر سننى فى ذلك الوقت، لكننى تأثرت بها، وظهر هذا التأثير فى بعض أعمالى التى تناولت الحارة الشعبية مثل «زقاق المدق».

وكانت هذه الظاهرة - شاعر الرابة - منتشرة قبل ظهور «الراديو» الذي ما إن ظهر حتى كان من الأسباب القوية في اختفاء شاعر الرابة، والحقيقة أن الحكايات المسلسلة التي نسمعها في الإذاعة أو نشاهدها في التلفزيون هي صورة حديثة من شاعر الرابة الذي كان يلتفت حوله في مقاهي الأحياء الشعبية.

وكانت المسارح مزدهرة في ذلك الوقت، وذهبت مع والدي مرتين، الأولى: لمشاهدة مسرحية لنجيب الريحاني، والثانية: لمشاهدة رواية «البربري حول العالم» بطولة بربري مصر الوحيد «على الكسار». وكان «الكسار» مشهوراً بأنه يدخل في حوارات ساخرة دائماً مع المتفرجين، وفي الليلة التي ذهبنا فيها لمشاهدته دخل في حوار ساخر أو «قافية» مع زوج «عقيلة راتب» الأول، وهو ممثل ومطرب اسمه «حامد مرسى»، وهو من تلاميذ الشيخ سيد درويش. وكان «حامد مرسى» مطرباً مشهوراً أيامها وله شكل مميز في الأداء، ومعروفاً بأنه «زير نساء»، وأظنه مات منذ فترة، ليلتها قال «حامد مرسى» لـ «على الكسار»: «لف بنا حول الأرض». أحد المتفرجين في الصالة «ظרט» له بقمه، فرد «على الكسار» بسخرية: «يظهر إننا رجعنا لمصر ثاني.. حتى اسمع».. وأشار بيده حيث يجلس المتفرج الذي أخرج من قمه هذا الصوت.

والحقيقة أن «على الكسار» كان سريع البديهة وكان ممتعاً، ولكنني أحببت «نجيب الريحاني» أكثر، لأن الريحاني لديه موهبة إلهية، وهو فنان كوميدى ليس له نظير، عمل «الريحاني» في البداية في الروايات القديمة وتعرض لأزمة مالية وأشهر إفلاسه، ولكنه عاد مرة أخرى بلون جديد هو النقد الاجتماعي الذي استمر فيه حتى مات، رحم الله الريحاني الذي كان فناناً كوميدياً رهيماً، ولهذا ذهلت عندما قرأت دراسة ليحيى حقى يفضل فيها الكسار على الريحاني على أساس أصالة الكسار وبساطته وأنه أقرب للشخصية المصرية المسحوقة، في حين أن الريحاني - في رأي يحيى حقى - طبعة غربية. صحيح أن «الكسار» كان صادقاً في بساطته، ولكن لم يكن له تعبيرات «وجهية» - إذا صح التعبير - وكان يضحك الجمهور من خلال حركاته وطريقة كلامه، إنما «الريحاني» كان يضحك الجمهور بنظراته وتعبيرات وجهه، وأحب هنا أن أشير لملاحظة هامة وهي أن تلاميذ الريحاني جمعوا بين النجاح في المسرح والسينما أكثر من الريحاني نفسه، لأن المسرح هو بيت الريحاني ونجاحه فيه كان ساحقاً، أما في السينما فقد نجح بنسبة ٦٠٪ فقط.

وكما قلت شاهدت الريحاني مرة واحدة على المسرح وأنا طفل، ولكن عندما كبرت

أصبحت من عشاقه، وكنت أذهب لمشاهدة مسرحياته باستمرار فى فترة الثلاثينيات والأربعينيات عندما بدأ يعيد أعماله القديمة مثل: «كشكش بيه» و«ألف ليلة وليلة». وفى تلك المرحلة كانت مسرحياته من البيئة المحلية مثل «عمدة كفر البلاص» الذى باع القطن وجاء ليسهر فى ملاهى القاهرة فيتعرض لعملية نصب، وهى أعمال غير مقتبسة، ولكن فى المرحلة التالية من حياته، عندما بدأ يجدد نفسه، اعتمد على التمصير والاقتباس، وساعده فى ذلك بديع خيرى. ولقد صافحت «بديع خيرى» ذات مرة عندما كنت أعمل فى مصلحة الفنون، فى تلك المرحلة حضرت كل أعمال الريحاني، وأتذكر مسرحية «حكم قراقوش» التى شاهدتها عشرين مرة لأنها كانت عملاً هائلاً، وفى رأى أن الريحاني يتفوق على فنانيين كوميديين عالميين كبار مثل «فرنانديل» الفرنسى، ولم يسبق الريحاني فى عصره سوى «شارلى شابلن». وشابلن أذهلنى هو الآخر بحركاته وغرابته وطرافته، لقد تابعت «شابلن» منذ أيام السينما الصامتة، كانت فى حى الحسين أقدم دار سينما فى القاهرة، واسمها «الكلوب المصرى»، وقد أغلقت الآن، ودخلتها وعمرى خمس سنوات وربما أقل. كنت أذهب إلى هذه السينما مع الخادمة، وأقضى فيها أوقاتاً طويلة حتى تمنيت أن أنام فيها ولا أغادرها إلى البيت. كنت مغرماً «بشارلى شابلن»، و«ماكس ليندر»، والشجيع، والشخصيات المشهورة على شاشة السينما فى ذلك الزمان.

بعد ذلك جاءت السينما «السونور» وكانت أكثر تطوراً من السينما الصامتة، حيث كنا نسمع أصواتاً من غير كلام، لم نكن نحتاج إلى كلام أو ترجمة لأن أغلب رواد السينما كانوا أميين، كنا نتتبع الصور ونفهم معنى الأحداث بدون كلام أو شرح، وإذا ما رجع البطل على ركبتيه أمام البطلة ومد لها يديه، نفهم مباشرة أنه يقول لها: «أحبك»..!

ولما بدأت أعرف القراءة كنت أتابع الترجمة العربية على الشاشة، وأحياناً يكون الحوار المكتوب - المترجم - لا يتفق مع المشهد، عندها كنا نطلق صفارات الاستهجان ونهتف: «اعدل.. اعدل..»، وكانت هناك هتافات ظريفة ترددها أحياناً داخل دار العرض، فإذا تعطلت مراوح الهواء فى سقف السينما - مثلاً - نهتف فى صوت واحد: «مراوح.. مراوح»..!

## الفتوة

كانت ظاهرة «الفتوة» معروفة ومنتشرة فى الحارات الشعبية، وكان نظام «الفتونة» يكاد يكون معترفاً به، بمعنى أن البوليس كان يعرف الأشخاص الذين يمارسون «الفتونة»،

وأحياناً يستعين بهم عند حدوث سرقات أو جرائم أخرى، فيتم تكليف الفتوة بالبحث عن الفاعل، كان الفتوة هو حامى الحارة، وكان أغنياء الحارة بغدقون عليه العطايا خاصة فى الأعياد والمناسبات، وهذه ليست إتاوة، بل هى مقابل حماية الفتوة للحارة، ففى حفلات الزفاف والأفراح والمناسبات الأخرى كان الفتوة يسير أمام الزفة حتى لا يعترضها أحد. وكانت تحدث مصادمات بين فتوات الحارات المجاورة، ويخرجون للعراك والتشاجر فى أرض قضاء اسمها «أرض الممالك»، وكان «اللورى» يذهب عقب نهاية المعركة لحمل الجرحى والمصابين إلى المستشفى، وكأنها معركة عسكرية، ويعود المنتصر من أرض المعركة مزهواً بقتوته.

وظل نظام الفتوة شبه معترف به من البوليس حتى حدثت واقعة «عرايى» فتوة الحسينية، وكان رجلاً رهيماً له سطوة وبطش، كما كان مشهوراً فى المنطقة كلها، وحدث أن شاباً غنياً يدعى «عبدالحليم البرى»، وهو ابن لأحد الجزائريين، تعرض للضرب من فتوة منطقة «القيصى» عندما ضبطه وهو يغازل فتاة فى الحى التابع له، فذهب «عبدالحليم» إلى «عرايى» يشكو له فتوة «القيصى»، واعتبرها «عرايى» إهانة شخصية له لأن «عبدالحليم» من أبناء الحسينية، فذهب عرايى إلى «القيصى» وضرب وكسر وحطم وأطاح بعين أحد الأشخاص، قبض البوليس على «عرايى» وقُدم للمحاكمة التى قضت بسجنه ٢٠ عاماً. وقررت الحكومة بعد هذه الحادثة إلغاء نظام «الفتوة»، وكان ذلك فى بداية الثلاثينيات. عندما وقعت حادثة «عرايى» - واسمه «كامل عرايى» - كنت فى الإسكندرية، وقرأت التفاصيل فى الصحف التى تابعت الحادثة بدقة باعتبارها حدثاً مهماً، وشاهدت صورة «كامل عرايى» تنصدر مواضع مهمة فى الصحف الوفدية التى كنت أتابعها مثل «الجهاد» و«كوكب الشرق». ونشرت له صور وهو يمتطى الحصان، لأنه عندما هاجم منطقة «القيصى» كان يركب حصانه، وربما كان سر الاهتمام الإعلامى به يرجع إلى أنه كان أكبر وأشهر فتوة فى مصر، وكان فتوة الحسينية بالذات مهما وله شأن للدرجة التى ظهرت معها أغنية تعبر عن هذه الأهمية، وأذكر من كلماتها:

إيش يسابو داود..

ده إحنا فسرى جود..

ده إحنا فتوات الحسينية..

وعندما خرج «عرايى» من السجن افتتح مقهى، وهو موجود حتى الآن ومشهور، ومازال

يحمل اسمه، ولم يكن المقهى يحمل اسمه في البداية، حيث كان ممنوعاً من ذلك، فاضطر لوضع اسم خاله «أحمد عطية» عليه، ولكنه اشتهر باسم «عراي».

تعرفت على عراي بعد خروجه من السجن وكنا - أنا وأصدقائي - نذهب للجلوس في مقهاه، وكان أحياناً يتشاجر معنا لأنه كان محباً للهدوء والنظام، ويكره أن يصفق أحد يديه لاستدعاء «الجرسون». وكان صوتنا يعلو كثيراً وندخل في فاصل من المشاغبة البريئة، فلما يضيق بنا يتجه نحونا ويقول في غضب: «هذا مقهى أم مدرسة أيها الأفندية؟ من الغد لا تدخلوا هذا المقهى».. فنتنقل إلى مقهى «الفتى»، وهو مقهى صغير في آخر العباسية. وبعد عدة أيام يمر علينا «عراي» في بيوتنا، بصالحنا ويعلن انتهاء فترة الطرد، ونعود إليه من جديد.

في أيام الانتخابات كانت «قهوة عراي» تتحول إلى معسكر لأنصار الوفد، لأن عراي كان وفدياً، وكان كبار السياسيين من أهل الحسينية مثل الشواربي باشا وأحمد ماهر باشا يخطبون و«عراي» حتى يساعدهم في كسب أصوات الناس بما يتمتع به من تأثير جماهيري رهيب. ورغم السنوات العشرين التي قضاها في السجن إلا أنها لم تؤثر على شخصيته، وكان شكله وتركيبته يوحيان بالزعامه، وفيه هبة سعد زغلول، وكان في صوته شموخ لأنه تعود أن يأمر فيطاع.

وعندما كان نظام الفتوات شبه معترف به من الحكومة، كان الفتوة لا بد أن يتمتع بصفات خاصة مثل القوة الجسمانية والبدنية والشجاعة - لأنه يدخل في معارك مستمرة - وكان لا بد أن يتمتع بالذكاء الحاد حتى يستطيع كسب الناس، كما كان يتمتع بقدر كبير من الشهامة والرجولة، وبعد إلغاء نظام الفتوة تحول الفتوة إلى «بلطجي» لا يتورع عن فعل أى شئ، ومنهم من تحول إلى «قواد» في البيوت السرية في فترة الحرب العالمية الثانية. وسبحان مغير الأحوال، فقد كان للفتوات دور وطني حين كان معترفاً بهم، وخاصة في أيام ثورة ١٩١٩، وأكبر مقاومة واجهها الإنجليز على المستوى الشعبي كانت من الفتوات، وأحياناً كانوا يحفرون في الأرض حفراً كبيرة للإيقاع بالسيارات العسكرية التابعة للجيش الإنجليزى.

ومن الحوادث التي لا أنساها أيام اشتداد المظاهرات والثورة، قيام الفتوات باحتلال قسم الجمالية، ففي يوم كنت أجلس في النافذة المطلة على ميدان «بيت القاضي» - وكنا في عز

النهار - وفجأة شاهدت مجموعة فتوات خلعجين من حارة «الكبابجي»، ومجموعة أخرى تخرج من حارة «الحسيني»، وثالثة تخرج من «خان جعفر»، ورابعة من عطفة «النحاسين»، والتقت المجموعات الأربع في ميدان «بيت القاضي»، وكانوا يحملون «شوم» - عصا غليظة - في أيديهم، وهجموا على مقر قسم الجمالية وقاموا بالاستيلاء على الأسلحة التي كانت بحوزة عساكر البوليس في القسم، هذا الهجوم رأيته بعيني وأتذكر كل تفاصيله، وظلت هذه الذكريات عن الفتوات مختزنة في ذاكرتي منذ أن شاهدتها في طفولتي وصورتها في عدد كبير من أعمالي الروائية.

## المجاذيب

في حي الحسين توجد منطقة مشهورة تسمى «الكوم الأخضر»، وهو مرتع للمجاذيب - رجالاً كانوا أم نساء - يفترون أرصفتها، وكان شكلهم مخيفاً، وكل مجذوب منهم يدعى «أن فيه شيئاً لله»، وأحياناً يصرخ أحدهم ويقول كلاماً غريباً، وكان أشهرهم «حسن تهامي» الذي رشح نفسه ضد جمال عبدالناصر!

وفي نفس المنطقة كنت تجد مجاذيب محترفين، الواحد منهم يجلس خلف طاولة وتلتف من أمامه وحوله السيدات الجاهلات لكي يقرأ الطالع، حيث تقدم له كل سيدة مندبلاً قماشياً يسمونه «الأثر»، فيأخذه المجذوب وينظر فيه ويشرها بشيء أو بحل مشكلة، ويحصل منها على الأجر. وكنت اضطر للمرور من هذه المنطقة عندما أذهب مع أمي لزيارة الحسين، حيث كان باب دخول السيدات في مسجد الحسين قريباً من شارع «الكوم الأخضر»، وكنت صغيراً في السن، فكنت أمر منه وأنا أشعر بالرعب من منظر المجاذيب، فشكلهم غريب وحركاتهم وكلامهم أشد غرابة، ولم أحاول الاقتراب منهم أبداً. وفي أيام مولد الحسين كنت تجد مجاذيب من نوع آخر، وهم هؤلاء الذين يقومون بأداء ألعاب غريبة مثل «أكل النار»، وكانوا من معالم المولد، وهؤلاء كنت أستمتع بالفرجة عليهم.

## الكتاب

أول مدرسة دخلتها في حياتي هي «كتاب» يقع في بيت قديم في حارة «الكبابجي». وعندما ذهبت إليه مع جمال الغيطاني منذ سنوات قليلة، وجدناه متهاكاً، سقط سقفه، ولم

يبقى منه إلا درجات السلم، وفي ذلك الكتاب حفظت جزءاً من القرآن وبدأت أتسلم مبادئ القراءة والكتابة. «الكتاب» في تلك الأيام كان مهماً جداً، لأن الالتحاق بالمدرسة الابتدائية يتم عن طريق امتحان، ولا يُقبل التلميذ إلا إذا كان لديه قدر من المعرفة.

كنت أذهب إلى الكتاب سيراً على الأقدام لأنه كان قريباً من بيتنا، ويقع الكتاب في بيت قديم يعد من الآثار، وكنا نفترش الأرض. والحقيقة أن «الكتاب» لم يكن وحده من الآثار، وإنما هناك مبان كثيرة في تلك المنطقة كانت مشيدة على الطراز الإسلامي الجميل خاصة في حي الصاغة، وما زال بعضها قائماً حتى الآن، ولكنها للأسف معرضة للانهايار حالياً بسبب الإهمال، وقد لا تصمد كثيراً أمام تحديات الزمن، وتجد بيوتاً كثيرة في حي «الصاغة» الآن بعد أن خلا منها السكان يستغل منها - فقط - دكاكين بيع المشغولات الذهبية أسفل هذه البيوت. وأذكر، عندما كنت طفلاً، بيتاً يقع على ناصية «الصالحية» كان عامراً بالحياة وتخرج منه فتيات ونساء جميلات، وعندما شاهدته أخيراً، أصبح خالياً من السكان ونوافذه محطمة، وأناشد الدولة بالتدخل لتجديد حي «الصاغة» لأنه من الممكن أن يتحول وبسهولة شديدة إلى منطقة تجارية عالمية.

## النيل

النيل هو أحب الأماكن إلى نفسي بعد الحسين وكنت أستمتع وأنا صغير بمنظر النيل، عندما أقف مع أمي فوق كوبري أبو العلا أو كوبري قصر النيل. وعندما التحقت بالجامعة، كنت أحب الجلوس على النيل في المكان الذي شيدت فوقه حالياً الكازينوهات، ولكنه في تلك الأيام كان أرضاً خضراء، كنت أحمل معي «مخدة» من المطاط وأجلس عليها أمام النيل إلى منتصف الليل، خاصة في الليالي القمرية. وكان الشارع المجاور للنيل هادئاً وتصطف فيه «السرايات»، وعندما تكونت «شلة الحرافيش» أرشدتهم إلى هذا المكان. وأظن أن أول من أطلق اسم «الحرافيش» على الشلة هو الفنان أحمد مظهر، ويبدو أنه قرأ اللفظ في كتاب قديم للجبرتي، ووجدناه مناسباً لحالة الصعلكة التي كنا نعيشها، وبدأت «الحرافيش» تسهر في هذا المكان الذي اكتشفته، وأطلقوا عليه اسم «الدائرة المشنومة». ولا أذكر من هو صاحب هذه التسمية، ولكنها كانت تدل على حالة الإحباط والتشاؤم التي كنا نعيشها في تلك الفترة، وظللنا نلتقي في هذه «الدائرة المشنومة» إلى أن انتقلنا إلى بيت محمد عفيفي في شارع الهرم.

وفى الأوقات التي كنت أجلس فيها بمفردى على شاطئ النيل، كنت أشعر وكأن هناك علاقة حب ومودة تربطني بالنيل، فأناجيه وأتجاوز معه كأنه شخص آخر، وأحياناً كنت أظل محددًا فيه لا أشبع من النظر إليه، كنت أعادر العباسية بعد الظهر لكي أمشي على شاطئ النيل مارًا بالجزيرة والروضة، وكانت أرضًا خلاء، ليس فيها مقاهٍ أو كازينوهات، وأستمر في المشي والنزهة حتى أصل إلى «الدائرة المشنومة».. أما تأثير النيل علىّ فقد ظهر في أكثر من رواية بداية من «كفاح طيبة»، والتأثير الأوضح في رواية «ثرثرة فوق النيل»، وبشكل أقل في «بداية ونهاية». و«بداية ونهاية» كتبها من وحى قصة حقيقية لأسرة مصرية كنت أعرفها جيدًا، وإن اختلفت النهايات. فبعد أن مات عائل هذه الأسرة عاش أفرادها في ضيق، وبدأوا في ممارسة أنواع من النصب والاحتيال على الناس حتى يستطيعوا تدبير أمور معيشتهم، مما أصابني بالغضب والحنق، وخطر لى أن أكتب رواية كوميدية عن هذه الأسرة، وبعد أن بدأت الكتابة وجدتها رواية مأساوية وليست كوميدية. وبالنسبة للنهاية الحقيقية لهذه الأسرة، فقد مات الأخ الأكبر في مستشفى «قصر العيني» بسبب إدمان الكوكايين، أما الأخت «نفيسة» فظلت عانسًا لسنوات طويلة إلى أن تزوجها رجل طاعن في السن وكان بحاجة لمن يخدمه، ولم يكن مصيرها كما صورته في الرواية.

إن روايات قليلة هي التي كتبها بوحى من أحداث حقيقية جرت في الحياة من حولي، ومن هذه الروايات «خان الخليلي» التي كتبها تأثرًا بموت صديق عزيز لى اسمه «شكري عاكف» تربينا ونشأنا سوياً ومات هو بالسل، ولذلك تجد في الرواية دراسة عن السل وآثاره النفسية والصحية. وموت «شكري عاكف» لم يكن السبب الوحيد الذي دفعني لكتابة «خان الخليلي»، كان هو السبب الأقوى، ولكن هناك أسباباً أخرى منها حبي للخان وذاكرياتى عنه، وعندما كنا نحتمي في مخبأ عمارات الأميرة «شويكار» زوجة الملك فؤاد الأولى أثناء الغارات في الحرب العالمية الأولى وكانت الأميرة «شويكار» تمتلك عدة عمارات قديمة في الخان، وعندما قامت بهدمها لبناء عمارات حديثة مكانها ثار الناس عليها وقالوا لها: «أنت أضعت أجمل أثر في القاهرة». فبنت العمارات الجديدة على نفس طراز العمارات القديمة، وأسفلها كانت توجد مخابئ جميلة تحتوى على مقاعد وإضاءة كهربائية ومياه نظيفة وحمامات. ولكن هذا المخبأ أطاح بمقهى «أحمد عبدالله» الشهير الذي كان موجوداً تحت الأرض، فاضطرت الأميرة «شويكار» لهدمه وضمه إلى المخبأ، وعندما ذهبت منذ فترة إلى خان الخليلي، وجدت المباني أصبحت أحدث، والشوارع أفضل، وحالة الدكاكين أحسن من الدكاكين القديمة مليون مرة.

## الإسكندرية

علاقتى بالإسكندرية تعود إلى عام ١٩٢٠، حيث اصطحبني والدى لقضاء إجازة الصيف فى ضيافة صديق حميم له اسمه «محمد بك عمرو»، وهو من عائلة «عمرو» المعروفة والتي منها الآن السفير عبدالفتاح عمرو صديق الملك فاروق، وسفيرنا فى لندن على أيامه، وكان «محمد بك عمرو» من الأعيان، وله سرايا كبيرة فى «سان استيفانو»، وفى حديقة «السرايا» يوجد بيت صيفى صغير أقمنا فيه طوال فترة الإجازة، فى حين سافر «محمد بك» إلى أوروبا حيث اعتاد قضاء الصيف مع أسرته، وكانت تلك هى المرة الأولى التى أشاهد فيها الإسكندرية.

وكان مكان إقامتنا قريباً من كازينو وحمام «سان استيفانو»، ورسم دخول الكازينو والحمام «قرشان صاغ». وبالحمام قسمان، الأول: للرجال، والثانى: للسيدات. ونظرًا لصغر سنى كانوا يسمحون لى بدخول حمام السيدات، وكانت نساء الطبقة الراقية يرتدين «المايوه» ويضعن قبعات على رؤوسهن. لم يكن فى الإسكندرية الكورنيش الموجود حاليًا، وكانت الحمامات فى منطقتين فقط: «سان استيفانو» و«الأنفوشى»، وبعد ذلك تم إنشاء الكورنيش المعروف سنة ١٩٣٠ فى عهد حكومة إسماعيل صدقى باشا، كانت الإسكندرية هادئة، وكان الأثرياء يذهبون لقضاء الصيف فى أوروبا، فى حين كانت الطبقات الشعبية تفضل قضاء الصيف فى روض الفرج حيث تتمركز الفرق المسرحية، أما شواطئ رأس البر فكانت خاصة بأهل دمياط.

بعد الزيارة الأولى انقطعت عن الإسكندرية سنوات، حتى عدت إليها فى الثلاثينيات تقريبًا، بعد حصولى على شهادة «البكالوريا». وكان لى صديق تعيش أسرته فى قرية قريبة من الإسكندرية، فعرضت عليه أن نذهب لقضاء الصيف هناك، فوافق. وأبلغت والدى الذى أسعده تفوقى فى الشهادة، فرحب، ومنحنى عشرة جنيهات كاملة، رغم معارضة أمى وثورة عمى الذى قال لوالدى: «أنت سوف تفسد الولد... تعطيه عشرة جنيهات مرة واحدة». كانت الجنيهات العشرة فى ذلك الوقت مبلغًا محترمًا، حيث كان مرتب الموظف الحاصل على البكالوريا لا يزيد على ستة جنيهات.

أخذت منحة أبى وذهبت مع صديقى «إبراهيم فهمى دعبس» إلى الإسكندرية وأمضينا

ثلاثين يومًا في الأكل والشرب والسهر اليومي، وأحيانًا كنا نشرب الخمر، ونذهب إلى «الكباريهات» وتوابعها التي كانت أرخص من «كباريهات القاهرة» وتوابعها، وكان ذلك من عبث الشباب.

بعد ذلك اعتدت أن أمضي شهرًا من كل عام في الإسكندرية، وكنا ننزل في «بنسيون» في شارع السلطان حسين، ومن هناك نستقل الترام حتى نصل إلى الكورنيش. وعندما بدأ صدقي باشا في تنفيذ مشروع الكورنيش الحالي، تعرض لهجوم شديد في الصحف واتهامات بالرشوة والتشكيك في ذمته المالية، على الرغم من أهمية الكورنيش الذي أضاف للإسكندرية بعدًا جماليًا آخر. وعندما تخرجت في الجامعة وعملت في وزارة الأوقاف، كنت أحرص على ادخار جنيه واحد كل شهر إلى أن يأتي الصيف فأجد بحوزتي ميزانية مناسبة للسفر وقضاء شهر بالإسكندرية. واستمرت هذه العادة السنوية حتى اندلعت الحرب العالمية الثانية، فأصبحت الإسكندرية منطقة خطيرة، وهاجر منها بعض أهلها بعد أن تعرضت للقصف الألماني، وانقطعت عن عاداتي السنوية حتى انتهت الحرب عام ١٩٤٥، وعدت من جديد. وحتى عندما أصابني مرض الحساسية ونصحني الأطباء بعدم التزول إلى البحر والابتعاد عن جو الإسكندرية المشبع بالرطوبة، والذهاب إلى منطقة صحراوية حيث الهواء الجاف، لم أعمل بالنصيحة، وكنت أذهب إلى الإسكندرية، وتورم عياني ولا أتنازل عن شهر الصيف. بل ازددت تعلقًا بها بعد أن تزوجت من الإسكندرية، ورغم حبي للإسكندرية فإن تأثيرها لم يظهر في رواياتي الأولى، ولذلك أسباب موضوعية. فلم يكن من المعقول أن يأتي ذكرها في «الثلاثية» لأن أجواء الإسكندرية لا تتفق مع شخصية «السيد أحمد عبدالجواد» الحادة الصارمة، المنعزلة عن أسرتها، فلم يكن من المقبول أن يصحب أسرته أو أحد أبنائه إلى الإسكندرية مثلاً. في حين ظهرت الإسكندرية بشكل واضح في رواية «السمان والخريف» وفي رواية «ميرamar»، وكانت في الروايتين بمثابة الملجأ والمفر من المشاكل التي يتعرض لها الأبطال خاصة عامر وجدي الصحفي العجوز في «ميرamar». وفي الإسكندرية كانت لي ذكريات مع توفيق الحكيم سيأتي ذكرها في حديث لاحق.

### الريف والصعيد

لم أذهب إلى الريف إلا مرة واحدة عندما كنت طفلًا، أخذني أقرباء والدي من أسرة «آل عفيفي» بالفيوم لقضاء الصيف هناك. وكانوا يملكون دوارًا كبيرًا، أمامه حديقة عنب،

وبجانبه أرض فضاء واسعة كنت ألعب فيها كرة القدم، ورغم استمتاعي إلا أنني طلبت إعادتي إلى القاهرة ولم يمض على إقامتي في الفيوم أسبوع واحد. حاولوا إرضائي لأبقى، ولكنني كنت شديد التصميم فأعادوني.

كانت تلك هي تجربتي الوحيدة في الريف. وخلال هذه التجربة لم أر الفلاحين ولم أتعلم في تفاصيل حياتهم، وربما كان ذلك هو السبب القوي الذي جعلني لا أتناول حياة الفلاح وقضاياهم في رواياتي. بعكس الطبقة العاملة المسحوقة في المدينة والتي تناولتها بشكل مكثف، وإن كنت أعتقد أن المعاناة متشابهة في الحالتين، والفرق الوحيد أن العامل أو الموظف المسحوق في المدينة لديه وعي أعمق من الفلاح.

وإذا كانت لي تجربة واحدة مع الريف، فإنني لم أذهب للصعيد في حياتي كلها، ولم أزر الأقصر أو أسوان أو أيًا من الأماكن الأثرية المشهورة هناك، مع أنني أسمع أنها مناطق جميلة ويأتي إليها السائحون من كل أنحاء العالم، ولكنه الكسل، ورغم عدم زيارتي للصعيد، فقد تعرفت عليه من خلال الأعمال الأدبية التي تناولته مثل رواية «دعاء الكروان» و«الأيام» لطفه حسين، وما زالت معرفتي بالصعيد تتم من خلال القراءة والاستماع إلى الآخرين.

## الفصل الثانى

### الوظيفة والأدب

الوظيفة أخذت نصف يومى لمدة ٣٧ سنة - الوظيفة علمتنى النظام وأمدتنى بنماذج بشرية - القيمة الحقيقية للإنسان فى مجتمعا لا تزال مستمدة من البيروقراطية وقيمة الوظيفة - لم يتفرغ للأدب بطريقة كاملة فى مصر سوى العقاد - أحمد عاكف شكرنى لأنى جعلته بطل «خان الخليلي» - كنت أرد على شكاوى الناس فى وزارة الأوقاف - الأسباب الحقيقية لإلغاء ترقيتى إلى الدرجة الرابعة بعد الحصول عليها بأقل من ٢٤ ساعة - كامل كيلانى نصحنى بإخفاء شخصيتى الأدبية عن زملائى الموظفين - عرفت «برلنت» بظلة فيلم «أميرة حبي أنا» فى وزارة الأوقاف - فى «المرايا» كثيرون ممن قابلتهم بالوزارة - الحارة والوظيفة والمقامى مصادر أساسية فى أدبى - رئاستى لمؤسسة السينما أسوأ فترة فى حياتى الوظيفية - أعلى مرتب وصلت له ١٠٠ جنيه شهرياً، ومعاشى الآن وصل إلى ١٦٠ جنيهًا.



■ في هذا الفصل يتحدث نجيب محفوظ عن أهم مصادره التي اعتمد عليها في حياته وأدبه وهي «الوظيفة الحكومية». حيث عمل موظفًا لمدة ٣٧ سنة بعد تخرجه في الجامعة مباشرة، تنقل خلالها في وظائف عدة بوزارة الأوقاف والجامعة ثم مؤسسة السينما التابعة لوزارة الثقافة. وارتقى وظيفيًا حتى وصل إلى درجة «نائب وزير» في مؤسسة السينما ثم أُحيل إلى المعاش سنة ١٩٧١. ويعترف نجيب محفوظ بأنه رغم استفادته القصوى من الوظيفة كمتحف حي للنماذج البشرية، ونقله تفاصيل كثيرة من شخصيات عرفها إلى أدبه، وهو نوع من النقل الفني وليس نقلًا تسجيليًا فوتوغرافيًا، إلا أنه كان يمتنى أن يكون للأديب وضع مختلف في مصر، يمكنه إذا ما أصدر كتابًا مميزًا من التفرغ للأدب بصورة كاملة. إن محفوظ ينقلنا في هذا الفصل إلى دهاليز الوظيفة الحكومية في مصر وأسرارها في عصر ما قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ وما بعدها، وفي هذا الحديث عن الوظيفة يساعدنا نجيب محفوظ على رسم خلفية دقيقة لفهم أدبه، ويتميز محفوظ هنا كمادته بخفة الظل والروح الفكاهية وهو يتذكر تفاصيل دقيقة مرت عليها سنوات طويلة. ■

نجيب محفوظ: أعطتني حياتي في الوظيفة مادة إنسانية عظيمة وأمدتني بنماذج بشرية لها أكثر من أثر في كتاباتي، ولكن الوظيفة نفسها كنظام حياة وطريقة لكسب الرزق، لها أثر ضار أو يبدو كذلك. فلقد أخذت الوظيفة نصف يومي ولمدة ٣٧ سنة، وفي هذا ظلم كبير، ولكن الوظيفة في الوقت نفسه علمتني النظام، والحرص على أن أستغل بقية يومي في العمل الأدبي قراءة وكتابة، وجعلتني أستغل كل دقيقة في حياتي بطريقة منظمة، مع عدم تجاهل أوقات الراحة والترفيه، وهذا في تصوري هو أثر إيجابي للوظيفة في ظل ظروف المجتمع الذي نعيش فيه، فمن المستحيل أن يتفرغ الأديب في مصر، ولو كنا مثل أوروبا، وصدر لي كتاب متميز لتغيرت حياتي، وكنت استقلت من الوظيفة وتفرغت للأدب، لأن الكتاب المتميز يحقق إيرادًا يكفي لاتخاذ مثل هذه الخطوة.

أمدتني الوظيفة بنماذج بشرية كانت غائبة عن حياتي. فأنا أعرف الأسرة والجيران والمدرسة والجامعة والمقهى، ثم أتاحت لي الوظيفة مجالاً حيويًا مختلفًا فعرفت نماذج جديدة لم أكن أعرفها، وعرفت مكانة الوظيفة في مجتمعنا، وكيف أنه مجتمع «بيروقراطي» والقيمة الحقيقية فيه هي قيمة «البيروقراطية» والمكانة الوظيفية، والجميع يحرص على

الوظيفة حتى أن أى متخصص فى مجال فنى أو هندسى قد يحرص على الترقية ليصبح إدارياً، وينسى الفن والهندسة وهما عماد حياته وتألقه، ويكون هدفه الوحيد أن يصبح «وكيل وزارة» مثلاً، الوظيفة أهم شىء وهى القيمة والمكانة ومصدر الوجاهة والنفوذ. جوائز الدولة تذهب كلها إلى موظفين كبار، ولذلك لا أستغرب رؤية أديب نابغ يبحث عن وظيفة فى مؤسسة إعلامية أو صحفية، أو يرأس صفحة أدبية ليصبح نجماً بالموقع وليس بالقيمة الحقيقية. وقد يكون إنتاج هؤلاء الأدباء جيداً ويستحق الإشادة به، ومع ذلك فإنهم لا يتألقون إلا إذا تمكنوا من الحصول على وظيفة تتيح لهم الترقية والظهور.

ولقد كان عباس محمود العقاد استثناء من هذا كله، وأصبح عظيمًا ومرموقًا بلا وظيفة أو مكانة «بيروقراطية». وكان يدافع عن مكانته بكل قوة، وكان أى وزير يتجنب هجوم العقاد عليه لسلطوته ونفوذه بين الناس، وهو الوحيد «غير البيروقراطى» الذى كان يخشاه «البيروقراطيون». فهم العقاد أن مصر «بلد وظائف»، وعندما يأتى أديب ورائد فى فن القصة مثل «محمود تيمور» المستغنى عن الوظيفة لثرائه، فإنه يحصل على منزلته بماله الخاص، هذه هى مصر منذ أيام الفراغة، الفرعون إله، وهؤلاء الموظفون أنبيأوه ورسله. وقد دعم المجتمع هذه النظرة للوظيفة. فالمرضى لا يذهب إلى عيادة طبيب ليس موظفًا فى وزارة الصحة أو فى كلية الطب. والمحامى الشهير الذى يكسب الآلاف سنوياً يترك المهنة وربما يغلق مكتبه ليصبح مستشارًا ويعتبرها ترقية. وكما قلت فإن تركيبة المجتمع فى مصر على هذه الحال منذ قديم الزمان، ربما منذ أن فكر مينا فى توحيد القطرين، وتأمين الفلاح على رزقه، وتوزيع المياه، وأصبح للحاكم مندوبيون فى الأقاليم، ومن يومها تكوّن جهاز وظيفى بيروقراطى مقدس، وينظر أغلبية المصريين لهذا السبب إلى الموظف على أنه مندوب الله، وصرفوا النظر عن العقل والذوق والمهارات. تذكرنا مينا، ونذكر خوفو، ولكننا لا نعرف صاحب المعجزة الهندسية فى بناء الأهرامات، ولا أحد منا يعرف اسم المهندس الذى بناها، وهذا شىء غير طيب، ومعظم فنوننا القديمة مجهولة الأسماء، أما على الجدران فنجد أسماء بعض المحترفين على شكل إمضاء.

وقد يحمل المستقبل أملاً فى تغيير نظرة المجتمع إلى الوظيفة والموظفين، ونحن نسمع الآن عن بعض الذين يحملون شهادات عليا ومع ذلك فهم يعملون فى مجالات بعيدة عن تخصصهم تمامًا، وقد حكى لى صديقى المخرج السينمائى توفيق صالح أنه زار ابنته ذات مرة فوجدها مهمومة لأن الرجل الذى ينفذ لها أعمالاً فى حمام بيتها تأخر عن مواعده، ولما

سألها عن هذا الرجل قالت: إنه يعمل في الصباح مأمور ضرائب وفي المساء يقوم بأعمال «السباكة». وهذه ظاهرة طيبة خاصة إذا كان من يمارسها يحترمها ويحترم نفسه معها، فهو يقوم بعمل شريف لترقية حياته وسد احتياجاته. وسوف ينظر المجتمع بالتدرج إلى مثل هذه الظاهرة بالاحترام، لأنها تسعى شريف من أجل الرزق، ومحاولة للبحث عن النجاح في أى مهنة ذات موارد جيدة قد تغنى عن الوظيفة الحكومية، بصرف النظر عن الشهادة الجامعية التى يحملها صاحبها، والتي ينبغى أن يكون الأصل فيها هو التحصيل والتعليم أولاً وقبل كل شيء.

ومع التغيير فى نظرة المجتمع إلى الوظيفة ونوعها، تعودنا على احترام كل جهد يقوم به الإنسان من أجل ترقية حياته مهما كان هذا الجهد متواضعاً، ومن الممكن أن تساعدنا هذه النظرة الجديدة على تعميق الديمقراطية، فى حياتنا، ولن نجد صعوبة فى تقبل وضع وزير سابق يدير مكتبة لبيع الكتب، أو رئيس جمهورية ترك منصبه بعد نهاية مدته المقررة، وأخذ يعيش حياته العادية، وقد نراه يجلس بيننا فى مقهى «ريش» بعد أن انتقل من وظيفته الرسمية كرئيس وأصبح مواطناً عادياً يعيش بين الناس كما يعيش كل الناس. وهذه هى روح الديمقراطية الحقيقية التى نأمل أن تتحقق فى بلادنا بالتدرج.

وقد روى لى الأديب القاص مصطفى أبو النصر أنه كان فى رحلة له إلى روما، وأثناء جلوسه فى أحد المقاهى العامة، سأل «المرشد السياحى» الذى كان معه عن شخص جالس يتكلم ويضحك مع مجموعة تلتف حوله، فأجابه بأنه رئيس جمهورية إيطاليا السابق. وفى مصر إذا ما أنهى الوزير عمله فإنه يسعى إلى العمل فى وظيفة أستاذ فى الجامعة، وذلك على طريقة هنرى كيسنجر فى أمريكا، ولكن الوزير عندنا بعد أن يترك الوزارة لا يعمل مزارعاً مثلاً ولا يتحمل أن يصبح مواطناً عادياً من بين الملايين فى المجتمع. ويظل هذا الوزير متمسكاً بلقب «وزير سابق» إلى النهاية. كذلك فإن من ذبول نظرة المجتمع المتخلفة إلى الوظيفة إصرارنا على أن يلحق باسم الموظف لقب دكتور أو أستاذ أو كاتب كبير، وكلها أشياء يجب أن نتخلص منها فى المستقبل حتى يصبح الإنسان فى حد ذاته أكبر من أى وظيفة مهما كانت قيمتها، وحتى تصبح حياة المواطن العادى محترمة، ولا تؤدى بصاحبها إلى فقدان احترام الآخرين لمجرد أنه فقد وظيفته.

وقد عملت فى وزارة الأوقاف ومجلس النواب وإدارة الجامعة، وفى الأوقاف كنت ألتقى بالمستحقين فى الوقف للعائلات القديمة. وفى مجلس النواب كنت أتابع الصراعات

الحزبية. وكنت أرد على مشاكل الناس التى تصل إلى وزير الأوقاف مباشرة أو عن طريق النواب. ولاحظت كم أن الحزبية والمصالح الشخصية تتدخل بشكل سافر يضر بمصالح الناس. أما فى إدارة الجامعة فقد اصطدمت بنماذج بشرية أخرى، فبطل «القاهرة الجديدة» عرفته وهو طالب وتبعته إلى أن حصل على وظيفة، ولكن «سقوطه» بدأ وهو طالب. وبطل «خان الخليلي» كان زميلاً لنا فى إدارة الجامعة واسمه أحمد عاكف، وقد جاء يشكرنى بعد قراءته للرواية على محبتى له، للدرجة التى جعلتنى أطلق اسمه على بطل الرواية. والإبقاء على اسم «أحمد عاكف» كما هو كان تحدياً منى، لأننى أغير فى الشخصية ومصيرها للدرجة التى تجعل صاحب الشخصية لا يعرفها. وشخصية «أحمد عاكف» فى «خان الخليلي» بها الكثير من ملامح الشخصية الحقيقية ولكنه لم يكن يشعر بها، ومن هذه الملامح الأساسية: غروره الكاذب. ولأن أحداً لا يعترف بأن لديه غروراً كاذباً، فإننى كنت مطمئناً وأنا أضع اسمه كبطل للرواية، من أن الأمر لا يحمل أى خطر. كان «أحمد عاكف» أعلى منى وظيفياً، وأذكر أنه تم تكليفه بتأسيس إدارة جامعة الإسكندرية عند إنشائها، وكان أول مدير لجامعة الإسكندرية «جامعة فاروق الأول فى ذلك الوقت» هو الدكتور «طه حسين». وقد كتب «أحمد عاكف» إحدى الرسائل فأدخل عليها الدكتور «طه حسين» بعض التعديل. فثار «أحمد عاكف» ودخل وهو نصف مجنون على «طه حسين» مستنكراً أى تعديل على ما يكتبه، قائلاً له: «أنا لا أقل عن أى أحد منكم». فرد «طه حسين»: «إن هذا شيء يسعدنا جداً»، واتصل بالقاهرة ونقله فوراً. لم يستمر «أحمد عاكف» فى جامعة الإسكندرية بضعة أيام وكانت خسارة كبيرة له، وضيّع عليه غروره الكاذب ووظيفة السكرتير المساعد لإدارة جامعة الإسكندرية والتى كانت تعنى حصوله على رتبة البكوية، مثل أحمد بك عمر السكرتير المساعد فى الجامعة. هذا هو «أحمد عاكف» الذى خسر الكثير بسبب كبريائه الزائفة عندما رفض تعديل طه حسين لكلمة واحدة فى خطاب له.

كذلك عرفت شخصية تتميز بالانتهازية الذكية وهو «عباس محمود» سكرتير كلية الآداب، وكان حاصلاً على ماجستير آداب فى موضوع يتصل «بدائرة المعارف الإسلامية»، وترجم بعض الكتب مثل «التجديد فى الفكر الإسلامى». وقد عينه الشيخ مصطفى عبدالرازق مديراً للمكتب.

كما اصطدمت فى الوظيفة بأشياء كثيرة مثل الشذوذ الجنسى بين الموظفين، وهو ما أتاح للبعض الحصول على وظائف كبيرة لا لشيء إلا بسبب ممارسته للشذوذ مع أحد

كبار الموظفين، وكان شذوذ البعض معروفاً ولا يكاد صاحبه يخفيه، وأذكر أن رئيس لجنة المستخدمين بوزارة الأوقاف قدم لى فى أحد الأيام تهنئة على اختياري للدرجة الرابعة، حيث إننى أمتاز على منافسى فى الدرجة وأتفوق عليه فى كل شىء، فأنا حاصل على الليسانس وهو حاصل على «الكفاءة» فقط، وأنا «سكرتير برلمانى» وهو «فى موقع وظيفى أقل» والوزير الشيخ على عبدالرازق يعرف صلتى بشقيقه الشيخ مصطفى عبدالرازق، فحصلت على الدرجات النهائية والترقية، وانصرفت من العمل وذهبت لأبلغ والدتى بالترقية، كما أبلغت أصدقاء مقهى عرابى، خاصة أننى قبل انصرافى اطلعت على القرار وإمضاء الوزير. ثم حدث لى أمر محرج، وهو من أشد المواقف التى صادفتنى فى حياتى حرجاً. ففى اليوم



الشيخ على عبدالرازق (١٨٨٧ - ١٩٦٦)

تولى وزارة الأوقاف سنة ١٩٤٧ بعد وفاة شقيقه مصطفى عبدالرازق، وأبقى نجيب محفوظ فى نفس وظيفة السكرتير البرلمانى لوزارة الأوقاف.

التالى مباشرة دخلت على زملائى فى مكتب الوزير فوجدتهم فى حالة وجوم، كنت على علاقة صداقة مع رئيس السكرتارية فى المكتب «عبدالسلام فهمى»، وهو زوج الفنانة مارى منيب، وله صلة قرابة بعبد الحميد باشا بدوى، وقد بدأ «عبدالسلام فهمى» حياته ممثلاً

فى فرقة عبدالرحمن رشدى، ونشأت الصداقة بيننا بسبب النزعة الفنية لكلينا، وقد رحل «عبدالسلام» فى مطلع التسعينيات، وعاش سنواته الأخيرة حزينا على وفاة رفيقه عمره «مارى منيب». وجدت «عبدالسلام» واجمًا وهو يستقبلنى فى مكتب الوزير، وانتحى بى جانبًا، وقال لى: «إن هناك شيئًا سيئًا، وهو أن ترفيتك للدرجة الرابعة ألغيت!». ذهلت، وقلت له: «كيف حدث هذا وقد وقعها الوزير؟!». وحكى لى «عبدالسلام فهمى» أن «عمر باشا» وكيل الوزارة - وهو قريب الوزير - أخذ كشف الترقيات بعد توقيعه من الوزير ومزقه أمام الوزير. وقال له: إن إبراهيم باشا عبد الهادى، رئيس الديوان الملكى فى ذلك الوقت، أوصى بحصول شخص آخر على الدرجة الرابعة، وأصبح علينا أن نقوم بإعداد كشف جديد بذلك، وكان لإبراهيم عبد الهادى علاقة شخصية خاصة بمنافسى على الدرجة الرابعة هذه. ونادانى الشيخ على عبدالرازق واعتذر لى ووعدنى بالتعويض فى أقرب فرصة، وقال لى: إن ما جرى تم فى ظروف قهرية. وانتابنى الخجل، فماذا أقول لأمى ولأصدقاء مقهى عرابى عن الترقية التى لم أحصل عليها أكثر من ٢٤ ساعة؟ ومن المؤكد أن حرمانى من الترقية هو خطأ قانونى، فمادام الوزير وقعها فلا يلغياها إلا قرار وزارى آخر، ولم أكن أستطيع أن أتخذ أى إجراء أو شكوى ضد على عبدالرازق. كانت مثل هذه الحادثة من الأشياء المتكررة فى الحكومة، وكان الشاذون جنسيًا فى نعيم حقيقى، وكانوا يجدون دائمًا من يساندهم، وكان الأديب «كامل كيلانى» يسخر من هؤلاء الشاذين، ويقول لى إذا كان الشذوذ أوصلهم للدرجة الرابعة فإنه لن ينفعهم أكثر من ذلك، سيظلون فى الرابعة. وكان كامل كيلانى، وهو باحث وفتان ومن ظرفاء تلك الأيام، موظفًا معنا فى وزارة الأوقاف، ونصحنى ذات يوم بضرورة ألا يعرف أحد أننى أديب، وأن أعمل فى صمت، حتى إذا سألنى أحد عما إذا كنت أنا الأديب الذى تنشر له الصحف قصصًا، فينبغى أن أنفى ذلك. لقد شرب «كامل كيلانى» السم لأنه أديب، ولم يسلم من التعليقات الحادة ومن الحقد، خاصة إذا جاء وزير يكن احترامًا للأدب، فيهيج الجهاز البيروقراطى كله، وإذا منحه الوزير ترقية فإن الموظفين لا يسكتون، ويسخرون منه لأنه «كاتب الأطفال»، وقد حملوا له كراهية شديدة بسبب منزلته الأدبية، ويزدادون كراهية له بعد أن رأوا كل الوفود العربية القادمة إلى مصر فى مكتبه ومنهم وزراء. ولذلك نصحنى بالأقول للموظفين فى الوزارة إننى أديب حتى لا أضيف إلى حياتهم هاجسًا جديدًا يندب بالخطر عليهم. قبلت النصيحة وعملت بها على قدر المستطاع، وتقريبًا عندما تركت العمل فى وزارة الأوقاف لم يكن أحد يعرف أننى أديب سوى «كامل كيلانى»، و«عبدالسلام مصطفى فهمى» رئيس السكرتارية وزوج «مارى منيب».

وتجد في أعماله، خاصة رواية «المرايا»، شخصيات عديدة من تلك التي قابلتها في حياتي الوظيفية، ومنها شخصية البطلة في إحدى قصص «المرايا» والتي أفسدوها وحولوها إلى فيلم «أميرة حبي أنا». وهي قصة واقعية كانت تصلح لفيلم كوميدى، لأن اثنين من الانتهازين أراد كل منهما استغلال الآخر، فضاعا وهلكا. ولا أذكر أسماء الأبطال في أعمال مثل «المرايا» و«أحاديث الصباح والمساء»، لأن بها شخصيات كثيرة. ولكنني أتذكر الشخصيات الحقيقية لهذه القصة الواقعية التي تحولت إلى فيلم «أميرة حبي أنا». فبطلها «مذكور» - وهذا ليس اسمه الأول إنما اسم العائلة - شاب من عائلة معروفة وعمه هو «عبدالخالق باشا مذكور»، وكان متزوجاً من ابنة عمه الغنية، وألحقوه بوظيفة في وزارة الأوقاف، وكان شديد التأني. والبطلة واسمها «برلنت» كانت موظفة جديدة في إدارة «التحري» بالوزارة، وعملها هو إجراء تحريات عن العائلات التي تتقدم للوزارة طالبة الإحسان، وكانت بهذه الإدارة فتيات وسيدات، حتى لا تتخرج العائلات أثناء هذه التحريات. و«برلنت» فتاة جميلة ومتحررة، وكثيراً ما كنا نمازحها أنا و«عبدالسلام فهمي»، ولقد قمت بتغيير اسمها في الرواية. وضع «مذكور» عينه على «برلنت» التي لم تمنع في إقامة علاقة معه، واتفقا على الزواج في السر، خوفاً من بطش حميه «الباشا»، وأمضيا أسبوع عسل في الإسكندرية، وفي نهاية الأسبوع طلقها، بعد أن استمتع معها ونال ما اشتهاه. عادت «برلنت» إلى العمل وقصت علينا - أنا وعبدالسلام فهمي - ما جرى، ووجهنا إليها اللوم.. واكتشفت «برلنت» بعد ذلك أنها حامل، ولم يكن مصيرها مأساوياً، لأن شخصاً آخر يعمل مقاولاً أعجب بها وتزوجها، ومنحها الستر، وكانت نهايتها حسنة.

وأذكر أن «برلنت» كانت زميلة لابنة «رتيبة رشدي» أخت «فاطمة رشدي»، وكانت «رتيبة» صاحبة صالة، وابتنتها بطبيعة الحال تعرف تاريخ أمها، وكانت مثلاً للأخلاق الضعيفة، وحصلت على ترقيات وعلاوات، وسمعت أنها سهلت الأمور لكبار الموظفين من الوزراء ووكلاء الوزارة، وأصبحت أقوى شخصية في وزارة الأوقاف.

أما «مذكور» فإن نهايته جاءت مثل روايات يوسف بك وهبي. فبعد سنوات طويلة كنت أسير في ميدان التحرير وسط الحديقة المواجهة للميدان، ووجدت أمامي شخصاً شكله بائس للغاية، واقترب مني، وصافحني، وعرفته، إنه «مذكور». وعلمت أن عمه «عبدالخالق باشا» حاول إصلاحه وعلاجه من الشم والإدمان ولم يفلح، فأجبره على طلاق ابنته، وأخذ أحفاده ورباهم. وكان «مذكور» قد تم فصله من وزارة الأوقاف، هذا الشاب الذي كان

وسيمًا وجميلًا ويتمتع بالصحة والعافية طلب منى بضعة قروش ليأكل، وحين لقيته لم يكن قد ذاق الطعام لمدة ثلاثة أيام، ولم أره بعد ذلك.

أخذت من الجمهور وأصحاب المصالح نماذج لقصصى ورواياتى، وكان يتردد علينا كثيرون فى وزارة الأوقاف، ومن هؤلاء نماذج كثيرة فى رواية «المرايا»، ووزارة الأوقاف كانت بمثابة حكومة مصغرة، وزارات مصر كلها تلتقى عند الأوقاف، من زراعة وصحة وتربية وتعليم، والحقيقة أن وزارة الأوقاف ظلت شبه مغلقة حتى فتحها الوزير «عبد الحميد عبد الحق باشا». حيث كان لوزارة الأوقاف ميزانية محدودة، بالإضافة إلى ما يرد من الأوقاف الخيرية لإنفاقه على الخير. فى الوقت الذى كانت توجد فيه للوزارة ملايين الجنيهات هى ودائع فى البنوك لا تمس، وليس لها فوائد، لأن فوائد البنوك حتى ذلك الحين فى نظر وزارة دينية كالأوقاف كانت تعتبر من الربا المحرم. فتظل الأموال فى البنوك بلا أرباح وأصحابها لا يجدون قوت يومهم. فجاء «عبد الحميد عبد الحق»، وهو رجل صاحب خيال، وكان محاميًا وسياسيًا ومحبًا للفن، وكان صديقًا للموسيقار محمد عبد الوهاب، وكان ضد الروتين.

وجد عبد الحميد عبد الحق أرضًا خرابا تابعة للأوقاف، فأمر ببيعها، وحول الأرض إلى نقود، وكان ذلك أيام الحرب العالمية الثانية، فبيعت الأراضى بأسعار جيدة، وتحققت للأوقاف موارد مالية لم تكن نحلم بها، واستثمرت هذه الأموال فى بناء أجمل عمارات فى تاريخ الأوقاف، بعد أن كانت عماراتها قديمة متهاكة تشبه السجون. وأصبحت وزارة الأوقاف فى عهده من أغنى الوزارات فى الحكومة. واستفاد من هذا التطوير المتفجعون بالوقف من الأهالى، وأصبحوا شركاء للوزارة، كما قام الوزير بتجديد مبنى الوزارة.. وهو فى كل ذلك لم يخالف الدين أو اللوائح، إنما حارب الخوف والجمود.

وأذكر أن الوزير عبد الحميد عبد الحق عيّن الشاعر البائس المعروف عبد الحميد الديب فى الوزارة أثناء خدمتى بها. كنت أعرف «الديب» وألتقى به فى مقهى «الفيشاوى». وعندما تم تعيينه فى الوزارة، احتفل به أصحابه واشتروا له بدلة جديدة لكى يسافر ويستلم الوظيفة التى كانت بمحافظة القليوبية تقريبًا. ثم وجده أصدقاؤه جالسًا على مقهى الفيشاوى مرتديًا البدلة الجديدة، ولم يسافر إلى عمله، ولكنه على كل حال تسلم وظيفته. وهنا أربط بين نموذجين، الأول نموذج تقديس المجتمع للموظف ورفضه لوظيفة الفنان، والثانى نموذج الشاعر «الديب»، وهو الفنان الذى لا يطيق أن يصبح موظفًا. كان «الديب» صعلوكًا كبيرًا،

حياته هي الشعر فقط، وليس مهما أن يسكن أو يأكل أو يرتب أمور معيشته، أو يبحث عن مصدر رزق من أي نوع، وإذا ما حل النوم فإنه ينام في أي مكان، وكان مغرمًا بالنوم في المراحض العمومية. لم أختلط بالشاعر «الديب» جيدًا، وأحيانًا كنا نلتقى وأسمع منه قصيدة جديدة، أما يؤسه وشقاؤه وحكايات صعلكته المثيرة، فكنت أعرفها عن طريق الآخرين، كما كنت أعرف أنه شخصية ظريفة وساخرة ومحبوبة من أصدقائه.

أعطتني الوظيفة فكرة جيدة عن النظام والبيروقراطية، وعرفتني بنماذج بشرية كثيرة. وأظن أن الوظيفة والتمهي والحارة هي مصادر ثلاثة رئيسية في أدبي، وتجد الموظف في الكثير من أعمال القصصية والروائية. أما بالنسبة لرواية «حضرة المحترم»، فإن المستوى المادي في الرواية هو الوظيفة والموظف، ولكن في المستويات الداخلية لها فإن البطل يتطلع للعناية الإلهية، ولذلك غلبت عليها اللغة الدينية، ومن يقرأ «حضرة المحترم» - خطأ - على أنها رواية عن موظف وحياته في الوظيفة، سوف يجد تناقضًا بين موضوعها وأسلوبها. فبطل «حضرة المحترم» يتدرج في مقامات الصوفية، ويترقى في الوظيفة، وكلما وقع في خبطة فإنه يعتبرها خطأيا السائر في الطريق الصوفي، وكل مطالعته ليست بهدف التغيير أو الصعود الاجتماعي وإنما من أجل «الوصول» بالمعنى الصوفي أيضًا. وعندما تأتيه الترقية في الوظيفة فإنه يسمع المرسوم أو القرار وهو راقد، لأنه لا يستطيع أن يصل إلى أكثر من ذلك، وفي كتاباتي أعتنى بالجزء المادي وأعطيه حقه الواقعي، وربما بسبب هذا حدثت مشكلة رواية «أولاد حارتنا». ولو كنت معنيًا بالرمز وحده لكنت غيرت من رسم شخصيات هذه الرواية إلى شخصيات نظيفة في المظهر والسلوك، بدلاً من هؤلاء الصعاليك والفتوات والحشاشين، وبعد صدور الرواية قال البعض إن أبطالها هم الأنبياء وهذا غير صحيح بالمرّة.

أما عملي في السينما فقد أمدني بنماذج من ممثلين وممثلات ومخرجين ومنتجين اختلطت بهم، بالضبط كما أمدتني وزارة الأوقاف والجامعة ومجلس النواب بمثل هذه النماذج من قبل. الأخلاق العامة واحدة ومتقاربة، ولكن اختلاف المهنة يعطى هذه النماذج ألوانًا مختلفة. ولكل فنان رؤية واحدة، وقد يكتب ثلاثين رواية لكي يصل إلى رواية واحدة في آخر الأمر.

ومن نماذج الشخصيات التي التقيت بها في مجال السينما والمسرح، استفدت من بعضها في «الحب تحت المطر» و«أفراح القبة» وأعمال أخرى. إلا أن عملي في وزارة

الأوقاف يظل هو أكبر احتكاك لى مع الوظيفة والموظفين. وجاء وقت عملت فيه فى مكتبة تابعة لوزارة الأوقاف «بقبة الغورى»، وكان مديرها اسمه «السندوبى». كانت المكتبة نطل على الغورية، حيث المشهد من الشرفة يجعلنى فى نشوة، وكنت أتمنى أن أبقى فيها حتى أصل إلى المعاش. وأنا الذى اخترت المكتبة فى أعقاب تغيير وزارى حيث طلب منى مدير المستخدمين الجديد اختيار وظيفة أخرى بعيداً عن مكتب الوزير الجديد، فاخترت المكتبة، وتصور مدير المستخدمين أن اختيارى للعمل فى المكتبة كان احتجاجاً منى، ولم يكن الأمر كذلك. كنت سعيداً بالعمل فى المكتبة - كما قلت - فمن يعمل فيها لا يتذكره أحد بعدها أبداً، وتكون بذلك فرصة لى لكى أعمل وسط الكتب، مثل مديرها «السندوبى» الذى لم يكن يفعل شيئاً سوى القراءة والتأليف، وأظنه أصدر شرحاً وتحقيقاً لديوان المتنبى. ولكن لم يمض وقت طويل على هذه «النعمة» حتى عيننى مدير الشئون الدينية الشيخ «سيد زهران» مديراً لمكتبه وقال لى: «نحن الوفديين لا نضطهد الآخرين». وكان الوفديون فى وزارة الأوقاف يعتبروننى من الأحرار الدستوريين بسبب صلتى بالشيخ مصطفى عبدالرازق، بينما أنا وفدى، وعملت مع «الشيخ سيد زهران» بسعادة بالغة، ولكن كم كنت أتمنى البقاء فى المكتبة هناك فى «قبة الغورى» حيث قرأت الرواى العظيم بروس. كان ذلك فى فترة وزارة الوفد بين ١٩٥٠ و ١٩٥٢. و«الشيخ سيد زهران» الذى عملت معه كان يمت بصلة نسب للنحاس باشا، فشقيق الشيخ سيد كان متزوجاً من بنت شقيق النحاس. وقال لى «الشيخ سيد زهران» يوم أن ألغى النحاس المعاهدة<sup>(١)</sup>: «الوفد انتهى». كان النحاس بعد المعاهدة صديقاً للديمقراطية ولم يكن التفاهم بينه وبين الإنجليز عسيراً، وبإلغائه للمعاهدة وضعه الإنجليز فى سلة واحدة مع الملك فاروق، هذه كانت وجهة نظر الشيخ زهران. والشيخ زهران كان رجلاً كبيراً وصاحب خبرة ويعيش فى الأجواء السياسية، ومن هنا أصدر حكمه بانتهاء الوفد. أوجدت المعاهدة عند توقيعها سنة ١٩٣٦ نوعاً من الصداقة بين الإنجليز والوفد، فانقطعت هذه الصداقة بإلغاء المعاهدة، والملك لا يريد الوفد، والشعب سلبى، ومن هنا فإن استنتاج الشيخ زهران كان قائماً على قراءة دقيقة للواقع الحى، ولكن الواقع السياسى لم يكن متفقاً مع رؤية الشيخ زهران، فقد ظن الوفديون أنهم الراحون بمعاهدة

(١) كان ذلك مساء يوم الاثنين ٨ أكتوبر ١٩٥١ حيث أعلن مصطفى النحاس باشا رئيس الوزراء فى ذلك الوقت إلغاء معاهدة ١٩٣٦ وقال كلمته المشهورة: من أجل مصر وقعت معاهدة ١٩٣٦ ومن أجل مصر أطالبكم اليوم بإلغائها. وكان يتحدث إلى نواب الأمة. «ر. ن»

١٩٣٦ ولكن اتضح أن الرابع الوحيد هو الملك فاروق، فلم يحكم الوفديون بعدها إلا في وزارة الحرب «١٩٤٢ - ١٩٤٤» ثم في الوزارة الأخيرة (٥٠ - ١٩٥٢). أى أنهم لم يكونوا في السلطة أغلب سنوات ما بعد المعاهدة.

لقد اقتربت من المجال السينمائي من قبل أن أصبح موظفًا فيه. حيث أخرج لى حسن الإمام «بين القصرين»، وتعاقدت على «قصر الشوق» و«السكرية». فى تلك الأيام شغلت منصب رئيس صندوق دعم السينما. وعندما أصبح الدكتور ثروت عكاشة وزيرًا للثقافة حوّل الصندوق إلى مؤسسة دعم السينما، وأصبحت رئيسًا لها طوال فترة وزارة ثروت عكاشة (١٩٥٩ - ١٩٦٢) أى حوالى ثلاث سنوات. وطلبت تأجيل تنفيذ «قصر الشوق» و«السكرية» لأننى أخجل من إنتاج قصص لى عن طريق مؤسسة دعم السينما وأنا رئيس لها، فرفض المسئولون ذلك لسبب اقتصادى وهو أننى كنت أخذت «عربونًا» عن القصتين. كان عمل مؤسسة دعم السينما التى رأسها محدودًا، ولم تكن تنتج أكثر من فيلم واحد فى السنة. وبعد د. ثروت عكاشة جاء الدكتور محمد عبدالقادر حاتم فقرر إدماج مؤسسة دعم السينما مع مؤسسة السينما، ورأس المؤسسة الجديدة المهندس صلاح عامر، وعُينت أنا فى وظيفة مستشار أدبى. كان حاتم يعتبرنا رجال ثروت عكاشة. ولكن فى الحقيقة فإن حاتم عاملنا معاملة غاية فى الذوق، وأنا والدكتور على الراعى لم يتعرض أحد منا للتجريح فى عهده، ولكن حاتم لجأ إلى أسلوب آخر، حيث استبعدنا فى ركن من أركان وزارة الثقافة من غير عمل أو سلطة. حتى عاد ثروت عكاشة مرة أخرى سنة ١٩٦٦ وعرض على رئاسة المؤسسة واعتذرت. قبل الدكتور ثروت عكاشة اعتذارى عندما قلت له إن هذه الوظيفة سوف تقضى على حياتى، وأريد أن أعطى معظم وقتى للكتابة الأدبية. ووعدنى بالبحث عن شخص غيرى، ثم فوجئت به يستدعيني من الإسكندرية ليقول لى: «انتهى الأمر.. أنت رئيس مؤسسة السينما.. هل تحب أن تخذلنى أمام عبدالناصر؟»، وقبلت الوظيفة. وهذه أول وظيفة كبيرة أقبلها كارهاً ومرغمًا. وعرفت أن الدكتور ثروت عكاشة رشحنى لهذا المنصب أمام الرئيس عبدالناصر، فرد عليه الرئيس بأن آرائى فى السينما سلبية فكيف أتولى هذا المنصب؟ وكنت تحدثت فى مجلة الكواكب مستهينًا بالسينما فدافع ثروت عكاشة عن آرائى، وأكد أننى الأصلح لهذه الوظيفة، ولذلك طلب منى ألا أخذله بعد أن حصل على موافقة من الرئيس. ولم يكن رأى عبدالناصر فى ذلك الحوار بينه وبين عكاشة رأيًا سياسيًا، وأنا لم تأت لى أبدًا من ناحية عبدالناصر ملحوظة واحدة عما أكتبه أو عن آرائى السياسية.

وعملت رئيساً لمؤسسة السينما لمدة عامين لم أفتح فيهما كتاباً ولم أكتب كلمة، وعشت في اكتئاب عام، وكانت السينما مفلسة ولا توجد لدينا سيولة، وأستطيع القول إنها أسوأ فترة في حياتي الوظيفية. لكننا حاولنا تحريك الأمور واقترضا مليون جنيه من البنك الصناعي وبدأنا نعمل في بطاء. كانت وظيفة مقلقة للراحة، كان الممثلون يأتون لمكتبى فى شارع طلعت حرب ويهددون بالقاء أنفسهم من النافذة بسبب البطالة. وكنا نعمل فى أجواء من الاتهامات والتشكيك، وهى الفترة التى حدثت فيها هزيمة ٦٧. وعندما اقترضا مبلغ المليون جنيه وبدأنا نعمل فى بطاء وجدت أمامنا ثمانية أفلام فى اللمسات الأخيرة، فانتبهنا منها، وبدأنا بعرضها فى دور السينما. وتزامن العرض مع هزيمة ٦٧، فتعرضنا كمؤسسة سينما لهجوم حاد، كيف نعرض هذه الأفلام والبلد فى هذه الحال. ولم يتذكر أحد أن تلك الأفلام تم إنجازها قبل الكارثة. كانت أجواء جحيم، فالرأى العام لا يرضى، والصحافة معه، بهذه الأفلام، وديوان المحاسبة يطالبنا بالعمل وعرض الأفلام، والدكتور ثروت عكاشة يطلب منا إنتاج روائع سينمائية، وإذا طلبنا ميزانية من وزير المالية آنذاك الدكتور عبدالعزيز حجازى يقول لنا: «اعملوا مثل فؤاد المهندس واكسبوا. البلد خربت». كانت ورطة كبيرة لى، خرجت منها بالعناية الإلهية. فقد اختلف الدكتور عبدالرازق حسن المسئول المالى عن الإنتاج مع الأديب والضابط جمال حماد كاتب قصة «شروق وغروب». طلب حماد من عبدالرازق حسن أن يكون كاتب السيناريو هو عبدالرحمن الشرقاوى. فانفجر فيه عبدالرازق كعادته ووقعت مشاجرة هائلة، خرج حماد على أثرها إلى جمال عبدالناصر مباشرة. ويبدو أن عبدالناصر طلب من ثروت عكاشة إبعاد عبدالرازق حسن. واستدعانى ثروت عكاشة فى حضور الأستاذ حسن عبدالمنعم وكيل الوزارة، وكان حسن عبدالمنعم - رحمه الله - على خلاف مع عبدالرازق، بسبب عصبيته وانفعالاته الحادة المتكررة، حيث جمعهما اجتماع فى لجنة التنسيق وكنت موجوداً، وأراد حسن عبدالمنعم أن يبدى رأياً فأسكتة عبدالرازق طالباً منه عدم الكلام قائلاً له - وهو كلام غريب: «أنت هنا فقط كوكيل وزارة وليس لك الحق فى إبداء الرأى!» قال لى ثروت عكاشة إن عبدالرازق فشل فى تنفيذ الخطة، فقلت له أبداً أنا مقتنع أنه نفذ الخطة الاقتصادية كأحسن ما يكون. وهنا لم يجد عكاشة منى ما يريد أن يعتمد عليه فى إبعاد عبدالرازق. قلت له: «كلنا تحت أمرك، وأنا مسئول عن عبدالرازق رسمياً، وإذا تم إبعاده فلا بد من إبعادى أنا أيضاً». أبلغنى ثروت عكاشة أننى يمكن أن أستمر فى منصبى إذا أردت، فقلت له: «إننى أفضل أن أكون مستشارك وهى الوظيفة التى عرضتها على من قبل». وتم إبعادى أنا وعبدالرازق حسن عن مؤسسة السينما. وما شهدت به كان

هو الحقيقة في نظري وكانت هذه الشهادة لصالح الدكتور عبدالرازق حسن، فأنا رئيسه في العمل، وكان الرجل موقفه سليماً من الناحية المالية والاقتصادية والإدارية، فهو أستاذ من أكفأ أساتذة الاقتصاد في مصر. أما انفعالاته وتصرفاته مع الفنانين، فأنا لم أختره، بل ثروت عكاشة هو الذي قدمه لي، ثم هو يشكو منه بعد ذلك، ويطلب مني التدخل لأصلح علاقاته مع الفنانين، والتي كانت تتعرض للفساد بسبب انفعالاته، مع ماجدة وكمال الشناوي وغيرهما. وكان عبدالرازق رجل اقتصاد، ولم تكن له علاقة بالسينما. ولا حتى عن طريق المشاهدة، وإنما أتى به ثروت عكاشة ليحل المشاكل المالية للسينما، وبعد هذه الواقعة بين عبدالرازق وحماد ثم لقائي مع ثروت عكاشة في حضور حسن عبدالمنعم، استدعاني ثروت عكاشة مرة أخرى، وقال لي: «إن المنطق يقتضي إبعادكما أنت وعبدالرازق عن مؤسسة السينما، ولكن إذا كان هذا سيضايقك فيإمكانك البقاء رئيساً للمؤسسة، وسأعين عبدالحميد جودة السحار رئيساً للإنتاج». رجوت ثروت عكاشة أن يعفني، وذكرته باعتذارى قبل ذلك عن هذا العمل لولا أن طلب مني ألا أخذه أمام عبدالناصر، وأكدت له أنني أفضل أن أكون مستشاراً له، وتقبل الرجل مني هذا الموقف، وحقق مطلبي بتعييني مستشاراً له.

حل عبدالحميد جودة السحار مكاني كرئيس للمؤسسة، وغير كثيراً في نظامها الإداري، ولم يعد رؤساء الشركات مستقلين عن رئيس المؤسسة، وإنما أصبحوا نواباً له في القطاعات المختلفة بالمؤسسة. أما أنا فأصبحت مستشاراً لوزير الثقافة حتى خرجت للمعاش سنة ١٩٧١ مختتماً حياتي الوظيفية الحافلة. وكانت أعلى درجة وظيفية حصلت عليها هي «رئيس مؤسسة»، وهي تساوي درجة «نائب وزير». أما أعلى مرتب حصلت عليه في الحكومة فكان ١٠٠ جنيه شهرياً، وحالياً أحصل على معاش يصل إلى ١٦٠ جنيهًا شهرياً بعد ٣٧ سنة في الوظيفة والحمد لله.



## الفصل الثالث

### هكذا اخترت طريق الأدب

فى الابتدائية كتبت قصة حياتى وأسميتها «الأعوام» - فى عام الحسم تركت الفلسفة وفضلت الأدب - كدت أصبح شاعرًا لولا سوء ذاكرتى - من الرواية التاريخية إلى الواقعية - الجلوس فى المقاهى للتعرف على الناس والاستماع إلى الحكايات - توفيق الحكيم كان عنده حق - قلت لأنصار اللا رواية: «أفهمونى ما تقصدون وخذوا أموالى!» - الغموض فى الأدب مطلوب بشروط - «اللمص والكلاب» ولغة الشعر.



■ في هذا الفصل يتحدث نجيب محفوظ عن بدايته الأدبية ويكشف لنا لماذا اختار فن الرواية بالذات، مع أنه سار في طريق الدراسات الفلسفية عقب التحاقه بكلية الآداب جامعة القاهرة. ثم كتب الشعر وتخلّى عنه. وأخيرًا سار في طريق الرواية الصعب. ويجيب نجيب محفوظ بصراحة عن هذا السؤال: لماذا رفض تيار اللا رواية واللا معقول؟ وما هو رأيه في تنقل توفيق الحكيم بين المذاهب الأدبية المختلفة.. ■

نجيب محفوظ: في سنوات الدراسة الابتدائية قرأت لكبار الأدباء في ذلك الوقت وحاولت تقليد أساليبهم، حاولت تقليد أسلوب المنفلوطي في «النظرات» و«العبرات»، وحاولت كتابة قصة حياتي على غرار «الأيام» لطفه حسين، وأسميتها «الأعوام». وكان عام ١٩٣٦ هو العام الفاصل في حياتي، فيه قررت احتراف كتابة القصة، بعد أن مررت بصراع نفسي رهيب في المفاضلة بين الفلسفة والأدب. ولم أحاول أن أشرك أحدًا في تفكيري أو أطلعه على ما يعتمل في نفسي من صراع، اخترت طريق الرواية رغم صعوبته، وتركت طريق الفلسفة رغم سهولته بالنسبة لي، حيث كنت قد كونت أساسًا متينًا في الدراسات الفلسفية. وصعوبة الطريق الذي اخترته تعود إلى عدة أسباب، أهمها: أن الأدب العربي كان يفتقر إلى فن الرواية بشدة، وكان التراث الروائي الموجود في ذلك الوقت محدودًا للغاية، والأعمال الموجودة قليلة، وهي أقرب إلى فن «السيرة الذاتية» مثل «عودة الروح» لتوفيق الحكيم و«زينب» للدكتور محمد حسين هيكل و«الأيام» للدكتور طه حسين. كما أن هذا الطريق كان يقتضي منى قراءات واسعة في الأدب العربي والعالمي على حد سواء.

في تلك الأثناء كان أمامي طريق مههد هو طريق الشعر، كنت أحب الشعر، وكتبته، وكان في إمكاني الاستمرار خاصة أن الشعر له تراث عريق في الأدب العربي، بل هو كما يقال - بصدق - ديوان العرب. والسبب الأساسي الذي جعلني أترجع عن كتابة الشعر هو افتقادي لمملكة الحفظ التي يقوم عليها الشعر.

كانت الرواية هي الفن الذي وجدت نفسي فيه، وكانت أعمالي الأولى عبارة عن روايات

تاريخية كتبها تأثراً بقراءاتي في التاريخ الفرعوني القديم، خاصة أعمال «رايدر هاجارد» صاحب الرواية المعروفة «هى أو عائشة» والذي حصل على لقب «سير». وأعمال «هوك كين» الأديب الإنجليزي الذى اشتهر بالكتابة عن التاريخ الفرعوني، وزار مصر وأقيم له احتفال مشهور فى دار الأوبرا، وكتب أحمد شوقي قصيدة له احتفاء به. هذا بالإضافة إلى سلسلة الروايات التاريخية المعروفة «الجورجى زيدان»، والتي أوحى إلى بكتابة تاريخ مصر كاملاً من خلال الأعمال الروائية، وهو المشروع الذى توقف ولم يتم.

عندما بدأت قراءاتي تتسع وتعمق خاصة فى الأدب الحديث قل حماسى للكتابة التاريخية. بل مات الحماس فى داخلى، بعد أن أدركت أن المسألة أخطر وأعمق، وأن الرواية يمكن أن يكون لها دور مؤثر فى معالجة قضايا المجتمع والتعبير عن هموم الناس ومشاكلهم، ومن هنا اتجهت إلى الرواية الواقعية.

وفى تلك الفترة كنت أجلس فى المقاهى، أتابع تفاصيل الحياة اليومية وحكايات الناس. لأن الواقعية تقتضى الاهتمام بالتفاصيل مهما كانت صغيرة، واستغرقتنى الواقعية فترة طويلة، حتى قيام ثورة يوليو سنة ١٩٥٢، فوجئت عندئذ بواقع جديد وقضايا جديدة ونوع جديد من التفكير طرأ على المجتمع، يختلف عما كان سائداً من قبل، هذه التغيرات أدخلتني فى حالة من التأمل والتفكير استمرت خمس سنوات، لم أكتب خلالها أى عمل أدبى. وكان العمل الأول الذى كتبه بعد الثورة وبعد سنوات الانقطاع هو «أولاد حارتنا». ولا تحتاج هذه الرواية إلى تفكير عميق حتى يدرك القارئ أنها لا تنتمى إلى الأدب الواقعى، وليس فيها الإغراق فى التفاصيل، الذى كان يميز أعمالى السابقة، بل تنتمى إلى منهج مختلف أقرب إلى مستوى الرمز.

والحقيقة أن المذاهب الأدبية لا تجذبني لذاتها، ويظل المذهب الفنى بالنسبة لى مجرد أداة، وليس هدفاً فى ذاته، مثلما حدث مع توفيق الحكيم. ففى أوقات كثيرة كان الحكيم يتجاوز مع المذاهب الفنية لذاتها. فعندما كان التيار الماركسى له سطوة ونفوذ فى الأوساط النقدية كتب «الصفقة»، ولما ازدهر تيار اللا معقول فى أوروبا ومصر كتب «يا طالع الشجرة». وفى مرحلة ازدهار الدعوة للفرعونية كتب «إيزيس». ولما بدأت الفكرة الإسلامية تظهر وتوثر كتب عدداً من الأعمال فى هذا المجال، منها كتابه المعروف «محمد»، وفى كل مرحلة من هذه المراحل كان التيار النقدي السائد متجاوباً مع المذهب الأدبى الذى يميل إليه. وإن كنت أعتقد أن الحكيم كان لديه إحساس داخلى - وهو فيه على حق - بأنه

رائد ومن واجبه أن يعطى نماذج للأجيال الأدبية الناشئة عن كل مذهب أدبي جديد يظهر في الآداب العالمية.

وإذا كانت المذاهب الأدبية لم تستهوني لذاتها، إلا أنني كنت أتابعها متابعة جيدة وأنظر إليها بعين الناقد، وبعض هذه المذاهب رفضته رفضًا تامًا، خاصة تيار اللارواية. ولقد قرأت ما كتبه رموز هذا التيار مثل «آلان روب جرييه» و«ناتالي ساروت» في فرنسا، وكنت أجد



وهب نجيب محفوظ حياته للأدب والفن والثقافة ولم يشغل نفسه بأى شئ آخر

صعوبة كبيرة فى فهم ما يقصدون، وعرضت على بعض النقاد المؤيدين لهذا التيار أن نجلس معاً لنقرأ أى عمل ينتمى لهذا التيار، وقلت لهم إننى على استعداد لتسديد خمسة جنيهات عن كل ساعة قراءة، وكان لدى النية للدفع، ولم أكن أرغب من وراء فهم هذا التيار أن أقوم بتقليده أو الاستفادة منه، بقدر ما كنت أبغى الاستمتاع الفنى لذاته. ومع ذلك هرب هؤلاء النقاد منى، وحاولت أن أقرأ بنفسى الكتابات النقدية عن تيار اللا رواية، فلم تزدنى إلا غموضاً. وهذا الموضوع يقودنى إلى مناقشة نقطة هامة. حيث ينادى بعض النقاد بضرورة أن يكون الأدب به بعض الغموض، وأنا لا أعترض على هذه الأفكار، لأن الأدب الواضح المباشر الذى يعطى القارئ كل شىء بطريقة بسيطة ومباشرة، يعطل ملكة الخيال لدى القارئ، ولا يمنحه الفرصة للتفكير والتحليل. والأدب بطبيعته رمزى، حتى الواقعى منه يجب أن يتصف بمستوى من الرمزية والغموض، بشرط ألا يصل لحد الإبهام والتعتيم وإرهاق ذهن القارئ. وحتى الشعر العربى القديم رغم واقعيته وبساطته، كان يتضمن هذا المستوى المقبول من الرمز.

وفى الروايات الواقعية نفسها تجد مستوى من الغموض. صحيح أنها لا تتيح لمؤلفها الإغراق فى الغموض، ولكنها تمنحه منطقة لا بأس بها. ففى رواية «زقاق المدق» توقف النقد عند شخصية «حميدة». منهم من اعتبرها شخصية إنسانية حية تجسد شخصية الفتاة فى الحارة الشعبية، ومنهم من اعتبرها معادلاً موضوعياً لأحوال مصر فى تلك الفترة، على أساس أن ظروف «حميدة» تتشابه مع الظروف التى كانت تمر بها مصر، فهى جميلة ومغربة ومطمع للكثيرين، فهذا يحاول تضليلها عن طريق السياسة، وهذا عن طريق الحب... وهكذا.

ومع المتاعب التى واجهتها فى محاولة فهم اللا رواية، فإننى لم أجد الصعوبة نفسها فى فهم المدرسة التعبيرية<sup>(١)</sup>. وقرأت أعمال كافكا وغيرها من رواد هذه المدرسة،

(١) أعتقد أن من الضرورى تقديم تفسير سريع لمعنى كلمة «التعبيرية» الواردة هنا، والفرق بين هذه المدرسة الفنية ومدرسة «اللا معقول»، فالتعبيرية هى مذهب أدبى وفنى ظهر فى أوروبا فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، والأصل فى هذا المذهب أن الفنان لا يصور الأشخاص والأحداث عن طريق التقليد والمحاكاة للواقع، بل يعتمد على إحساسه الخاص بالواقع كما يبدو له فى داخل نفسه وليس كما يراه بعينه فى واقع الحياة، فالفنان إذا أحس بأن المرأة هى زهرة، رسم صورتها على شكل زهرة، وهكذا «المذهب التعبيرية» هو تصوير للحياة كما يحس بها الفنان وليس كما هى عليه فى الواقع الخارجى، ومن أشهر أعلام «المذهب التعبيرية» فى الرسم «فان جوخ» و«جوجان»، وفى الموسيقى «ريتشارد فاغنر»، وفى الأدب «يوجين أونيل» الأمريكى و«كافكا» =

ووجدت فيها عالماً موازياً للواقع، بل أشد واقعية. لقد قرأت لكافكا عملاً جميلاً، هو رواية «المحاكمة»، حول شخص يجد نفسه متهمًا في جريمة ولا يعرف تهمته أو الذنب الذي ارتكبه، حتى يبدو للقارئ أن الحكاية أقرب إلى النكتة مع أنها منطقية جدًا. فأحيانًا تقابل في الطريق شخصًا شاردًا ينظر إلى السماء ويتحدث إلى الله: «يارب.. ماذا فعلت حتى يجرى لى ما جرى؟». تنتهى الواقعية فى تصوورى. ورواية كافكا «مصير صرصار» تدور حول شخص يستيقظ فى الصباح فيجد نفسه وقد تحول إلى صرصار. رواية جميلة ومفهومة وتعبّر عن حالة الانسحاق التى يتعرض لها الإنسان فى العصر المادى. أما أعمال «صمويل بيكت» الروائية فلم أفهم منها شيئًا، أجواء غريبة وأحداث غير مبررة وشخصيات مجنونة ورؤية عبثية للعالم. أين هذا العبث من بعض أعمال «بيكت» المسرحية الجميلة مثل «لعبة النهاية»، و«فى انتظار جودو»، وغيرها من الأعمال التى تتميز بجمال فى الأسلوب والإيحاءات والسرد، وقد كان لهذه الأعمال المسرحية تأثيرها على بعض الأدباء العرب مثل إدوار الخراط فى «حيطان عالية» حيث يتأثر الخراط بأعمال بيكت، وقد قرأت «حيطان عالية» وأعجبتنى كثيرًا.

= التشيكي الأصل الألماني اللغة، وهو الذى تصور تحول الإنسان الحديث إلى «صرصار» نتيجة لما يتعرض له من انسحاق وقهر، فكتب روايته القصيرة «مصير صرصار»، وتابع حياة هذا «الصرصار البشرى» وما يعانيه حتى نهاية الرواية. هذه هى المدرسة «التعبيرية». التى أشاد بها نجيب محفوظ واعتبر أنها مفهومة ومقبولة فنيًا وفكريًا، أما مدرسة «اللا معقول» التى رفضها فهى مدرسة أخرى تختلف عن «التعبيرية» تمامًا. وكلمة «اللا معقول» هى المقابل العربى لكلمة «drusba» الإنجليزية، وهى فلسفة أدبية وفنية، تقوم على الاعتقاد بأن الإنسان يعيش حياة غير قائمة على العقل، وغير محكومة به، وغير مفهومة منه، وأن الوجود كله «عبث»، وأنه «خال من المعنى»، وأنه «فوضى لا نظام فيه»، وأن صراع الإنسان من أجل الوصول إلى معنى واضح محدد للحياة هو صراع بلا نتيجة، وقد انتشر «مذهب اللا معقول» فى أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ - ١٩٤٥ وما شاهده الناس فيها من أهوال وتجارب أليمة، وامتدت موجة هذا المذهب إلى الخمسينيات وما بعدها، وعرفها أدبنا العربى فى الستينيات، وبعد تقديم مسرحيات لـ «بيكت» و«يونسكو» على خشبة المسرح المصرى، وكتب رائد المسرح المصرى توفيق الحكيم مسرحيته الشهيرة «يا طالع الشجرة» متابعًا فيها مدرسة «اللا معقول» أو «العبث». ولكن هذه المدرسة خفت صوتها الآن بعد أكثر من ثلاثين سنة. ومدرسة «اللا معقول» أو «العبث» يسودها الغموض والتعقيد فى التعبير والأفكار والمشاعر، كما أنها تعتمد على التجريد الشديد للأشخاص والأحداث، وتنزع إلى الانفصال التام عن الواقع. ومدرسة «اللا معقول» تنطوى على فلسفة شديدة التشاؤم تقول بعدم جدوى الحياة أو العقائد الدينية أو المذاهب السياسية أو أى أفكار منطقية منظمة أخرى. ويوحى إنتاج مدرسة «اللا معقول» بأن الحياة مأساة تستعصى على الفهم أو التفسير أو التبوير، وأن وجود الإنسان فى هذه الحياة لا هدف له ولا معنى فيه.

أعتقد أن مذهب اللا رواية أصبح الآن فى ذمة التاريخ، ولم يعد له صوت فى ساحة الأدب الأوروبى. وبعد فوزى بجائزة نوبل زارنى بعض الأدباء الفرنسيين، فسألتهم عن مذهب اللا رواية وهل ما زال له أنصار فى أوروبا، فبسموا ضاحكين فى سخرية، وقالوا لى إنه كان بدعة وانتهت، ومما يزعجنى أنهم ينسبون الروائية «دوارس» صاحبة رواية «هيروشيما حبيبتى» لهذه المدرسة، مع أن رواياتها مفهومة وبديعة وليس فيها أى تعقيد، بدليل أن رواية «هيروشيما حبيبتى» قد تحولت إلى فيلم سينمائى، ولا يمكن للرواية أن تتحول إلى السينما إن لم تكن مفهومة للجماهير.

يتبقى لنا أن نتحدث عن عدة نقاط:

**الأولى:** خاصة بالعلاقة بين فن الرواية والتاريخ. وفى رأى أن العلاقة وطيدة، فالرواية عبارة عن استعراض للحياة اليومية بكل مشاكلها وقضاياها وأشخاصها. وهذا جزء من التاريخ لم يكتبه المؤرخون. ثم إن التاريخ عبارة عن أحداث وتفسير ورؤية وأشخاص، والرواية كذلك.

**الثانية:** عن العلاقة بين الرواية والشعر، وفى اعتقادى أن الشعر هو روح الأدب، وكما أشار النقاد، فإن هناك عددًا كبيرًا من رواياتى يتضمن لغة شعرية كانت تصل فى بعض الأحيان إلى لغة صوفية كما فى «اللص والكلاب»، بل إن هناك رواية أدخلت فيها الشعر بشكل مباشر هى «الحرافيش»<sup>(١)</sup>.

والأمر الذى لا شك فيه أن الفنون الأدبية تستفيد من بعضها البعض، لذلك تجد أن دراسة الفن تتم بشكل شامل وليس كفروع منفصلة. وفى أوروبا نلاحظ أن المدارس أو المذاهب الفنية لا تقتصر على مجال دون آخر. فالمذهب الرومانسى امتد - مثلاً - إلى الرواية والقصة والشعر والفن التشكيلى، بل وصل إلى فن العمارة. وإن كان هذا لا يمنع أن يستقل كل فن بذاته، ويكون له خصائصه المميزة، وأنا أعتبر نفسى من قراء الشعر ومحبيه ومتذوقيه، وكان لى تجربة فى كتابته، ولو كان عندى ملكة الحفظ لاستمرت التجربة، لأن الشاعر لا بد أن يتمتع بهذه الصفة التى لا غنى عنها، ولكن القدر كان له تصريف آخر.

(١) فى هذه الرواية استخدمت نجيب محفوظ نصوصًا كاملة من ديوان «حافظ الشيرازى»، ووضعها نجيب فى رواية «الحرافيش» بنصها الفارسى، وقد قدمت ترجمة لهذه النصوص فى كتابى «فى حب نجيب محفوظ»، وذلك اعتمادًا على ترجمة الدكتور أمين الشواربى لديوان حافظ الشيرازى. «ر. ن»

## الفصل الرابع هؤلاء علموني

الشيخ عجاج علمنى الوطنية واللغة العربية - البوليس يحاصر مدرستا والطلاب  
يقاومون بالملاعق والأطباق - الشيخ عجاج يتهمنى بالخروج عن المقدسات  
- الشيخ مصطفى عبدالرازق مثال للحكيم كما تصورته كتب الفلسفة - «مسيو  
كوربيه» الأستاذ الذى توقع لى النبوغ فى مجال الفلسفة. أستاذ اللغة الإنجليزية  
الذى دخلت معه فى معركة - كرهت الإنجليزية ولكننى تعلمت لغتهم وقرأت أدبهم  
- «مستر بلا كنبرى» الإنجليزي الذى عشق مصر.



■ في هذا الفصل يتحدث نجيب محفوظ عن أساتذته في مراحل الدراسة المختلفة، وهو يتوقف طويلاً عند الشيخ عجاج مدرس اللغة العربية بمدرسة فؤاد الأول الثانوية. ذلك الرجل الذي علمه معنى الوطنية وأرشدته إلى عيون الأدب العربي. ومن الشيخ عجاج إلى الأساتذة الإنجليز. وهو هنا يجيب عن عدد من الأسئلة الهامة، مثل: علاقته بهؤلاء الأساتذة الأجانب ونظراته إليهم وصراعه معهم بسبب آرائهم الاستعمارية.. ■

نجيب محفوظ: قبل أن أتحدث عن أساتذتي في المدرسة والجامعة والحياة الذين تركوا أثراً في شخصيتي وحياتي. أحب أن أتوقف أولاً عند ملاحظة جديرة بالتسجيل، وهي أن ذلك الجيل من الأساتذة لا يمكن أن يتكرر في ظل ما نسمع عنه الآن من المستوى الذي انحدر إليه الجيل الحالي. كان ذلك الجيل من الأساتذة متمكناً من عمله، وعلى درجة كبيرة من الثقافة والموهبة، وانعكس ذلك بالطبع علينا نحن تلامذة ذلك الزمان، وفي مقدمة هؤلاء الأساتذة الذين علموني الشيخ عجاج أستاذ اللغة العربية بمدرسة فؤاد الأول الثانوية، وهو من خريجي دار العلوم إن لم تخني الذاكرة، ولم يكن الشيخ عجاج مدرساً للعلم فقط بل كان معلماً للوطنية، حيث كان أحد الأسباب المباشرة التي جعلتنا نحن تلاميذ تلك المدرسة ننفعل بثورة ١٩١٩ ونعشق زعيمها سعد زغلول، كان الشيخ عجاج داعية من دعاة الثورة، وحتى في دروس اللغة العربية كان يستشهد بمواقف وأقوال زعمائها، وأذكر أنه ثار ذات مرة ثورة عارمة على زميل لنا من أبناء الذوات لأنه رفض الخروج معنا في إحدى المظاهرات، ويبدو أن أسرته كانت قد حذرته من المشاركة في هذه المظاهرات أو الخروج من المدرسة مع الخارجيين، حتى لو بقي وحده في المدرسة، ونال ذلك التلميذ قسطاً هائلاً من التعنيف والتوبيخ على لسان الشيخ عجاج الذي اتهمه بالخنوع وقلة الوطنية، وقال له في غضب: «زملاؤك يعرضون أنفسهم للموت من أجل استقلال الوطن وأنت جالس هنا. إنك تأتي للمدرسة من أجل اليمخانة!». و«اليمخانة» هو المكان الذي يتناول فيه التلاميذ وجبة الغداء. فاليوم الدراسي كان يمتد ساعات طويلة مما جعل وزارة المعارف تقدم وجبة غداء مجانية في المدارس، وحدث ذات مرة أن حاصر البوليس مدرستا في عهد حكومة

إسماعيل صدقي باشا، فدخل التلاميذ إلى «اليمخانة» وأخذوا منها السكاكين والملاعق والأطباق والأواني لمقاومة قوات البوليس ومنعهم من اقتحام المدرسة، وكان أن عاقبتنا إدارة المدرسة بالحرمان من وجبة الغداء، وكم تألمنا من هذا العقاب!!

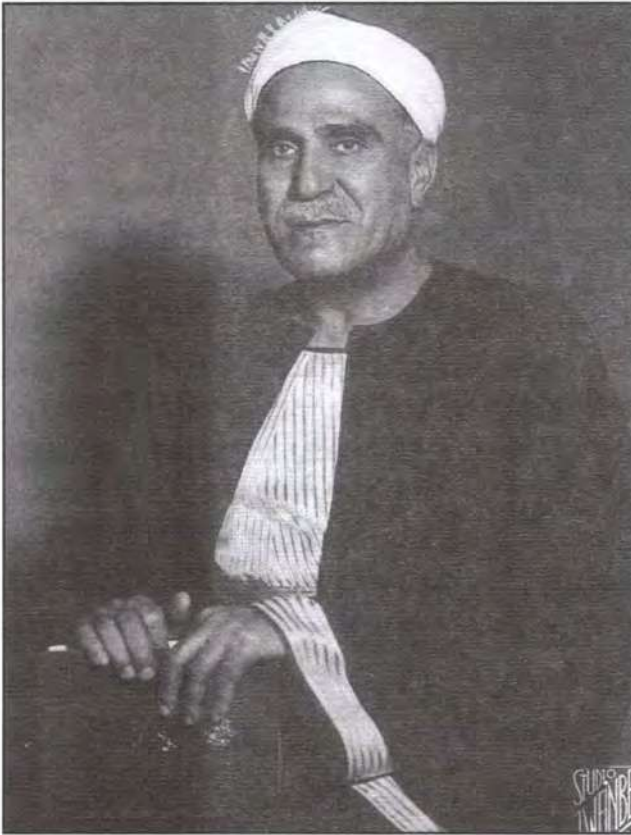
كان الشيخ عجاج من أوائل الذين لفتوا انتباهي إلى جمال التراث العربي وروعه وثراته، ففي دروس «البيان» كان يستشهد بأبيات شعرية - وأغلبها من شعر الغزل - وبحوادث ليست في المقرر الدراسي، وكنت أسأله عن مصادرهما فيدلني على عيون التراث العربي، مثل: «البيان والتبيين» للجاحظ. وذهبت إلى مكتبات خان الخليلى وبحثت عن هذه الكتب طويلاً حتى اهتديت إليها، ونفعتني قراءتها كثيراً فيما بعد.

كانت العلاقة بيني وبين الشيخ عجاج ودية للغاية، وكان من المعجبين بأسلوبى فى الكتابة، كما كان يعتبر موضوعاتى فى الإنشاء نماذج تحتذى للتلاميذ. وكان يعكر صفو هذه العلاقة أحياناً بعض الأفكار التى أضمنها هذه الموضوعات ويعتبرها الشيخ مساساً بالدين، ففي تلك الفترة كانت نظرتى للدين تتسم ببعض التحرر، ولكنى أؤكد أنها كانت نظرة تحررية وليست كافرة، كنت مثلاً أكتب موضوعاً عن عظماء التاريخ وأضع من بينهم محمداً «ص»، فكان الشيخ عجاج يعتبر هذا مساساً بقدر النبى وإتزالاً من شأنه، ويعتبرنى خارجاً على المقدسات. وكان الشيخ عجاج عندما رأبته لأول مرة يصير على ارتداء الملابس الأزهرية، وهى القفطان والعمة، وبعد فترة خلعها وارتدى الملابس الأفرنجية.

كانت تلك هى نقطة الخلاف الوحيدة بيني وبين الشيخ عجاج، وما عدا ذلك كانت العلاقة بيننا على أحسن ما يكون بين تلميذ وأستاذ، ولهذا الرجل فضل كبير فى إتقانى لقواعد اللغة العربية، والملاحظة الجديرة بالذكر هى أن أساتذة اللغة العربية فى تلك الفترة كانت لديهم مقدرة هائلة على تبسيط قواعد اللغة العربية للتلاميذ، ولذلك تجد أغلبية تلاميذ تلك الأيام لديهم تفوق واضح فى قواعد اللغة العربية إذا ما قورنوا بمستوى التلاميذ الآن، كان عندى اهتمام خاص باللغة العربية فى سنوات دراستى الأولى، وانعكس ذلك فى موضوعات الإنشاء التى كنا نقوم بكتابتها، وفى إجادتى لقواعد النحو والصرف. وإلى وقت قريب كنت أحرص على وجود قواميس اللغة العربية وكتب النحو بجوارى أثناء الكتابة، حتى أستعين بها إذا اختلط على الأمر بين الكلمات الفصحى والعامية. ومنذ بدأت الكتابة وأنا حريص على استعمال العربية الفصحى والبعد قدر الإمكان عن استعمال العامية، خاصة أن لدينا عدة لهجات من العامية. فتجد لأهل الصعيد لهجة، ولأهل الوجه البحرى لهجة،

وداخل البلد الواحد قد لا يفهم سكانه بعضهم بعضا بسبب اختلاف اللهجات المحلية، وأذكر أن فيلم «بياع الخواتم» بطولة فيروز ترجم إلى اللغة العربية الفصحى عندما عرض في القاهرة بسبب صعوبة اللهجة المحلية اللبنانية بالنسبة للمشاهد المصري.

وتمسكى باللغة العربية الفصحى يرجع إلى أسباب عديدة منها، أنها لغة عامة وقومية ودينية وغير ملفقة. ولكن كان على أن أعطيها نوعاً من الحياة وأعمل على تقريبها إلى أذهان الناس. وأبتعد عن الألفاظ الصعبة التي تزخر بها، حتى تصلح للاستخدام الأدبي الروائي، وإن كان هذا لم يمنع استعمالى بعض الألفاظ العامية عندما تكون أكثر دلالة وتعبيراً عن المعنى، خاصة إذا كانت - هذه الألفاظ - لها أصول في اللغة الفصحى.



الشيخ مصطفى عبد الرزاق (١٨٨٥ - ١٩٧٤)

أستاذ نجيب محفوظ بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن) ثم وزير الأوقاف سنة ١٩٣٨ حيث اختار تلميذه نجيب محفوظ سكرتيراً برلمانياً.

وإذا كان الشيخ عجاج هو أكثر أساتذتي تأثيراً في نفسي أثناء مرحلة المدرسة، فإن الشيخ مصطفى عبدالرازق هو أكثرهم تأثيراً خلال الدراسة الجامعية. والشيخ مصطفى عبدالرازق هو مثال للحكيم كما تتصوره كتب الفلسفة، رجل واسع العلم والثقافة، ذو عقلية علمية مستنيرة، هادئ الطباع، خفيض الصوت، لا يفعل ولم أره مرة يتملكه الغضب. كان الشيخ مصطفى عبدالرازق من أنصار حزب الأحرار الدستوريين، ويعرف أنني وفدي صميم، ومع ذلك لم تتأثر علاقتنا أبداً. كان جيلنا يتمتع بصفة جميلة، وهي التفرقة بين قضايا الأدب والسياسة. فنحن مثلاً كنا نختلف مع الدكتور محمد حسين هيكل والدكتور طه حسين في السياسة على طول الخط، ومع ذلك نحترمهما كأديبين ونعتبرهما على رأس أساتذتنا الذين نتعلم منهم. وكان هذا الجيل يحافظ على تلك الصفة بشكل يدعو للإعجاب، كان العقاد وطه حسين مختلفين سياسياً وبينهما خلافات مستحكمة، ولكن عندما تعرض طه حسين لحملة ضارية بعد صدور كتابه «في الشعر الجاهلي» وقف العقاد إلى جانبه ودافع عنه على صفحات الصحف وتحت قبة البرلمان. كما أننا كنا في صدام مع الإنجليز ونظايرهم ونهتف ضدّهم: «الاستقلال التام أو الموت الزؤام»<sup>(١)</sup>، وفي الوقت نفسه نضع الأدب والفكر الإنجليزى فوق رؤوسنا ونقدّره ونتابع بشغف ما يكتبه ه.ج. ويلز وبرنارد شو وغيرهما. كنا نفرق بين الوجه الاستعماري القبيح والوجه الحضاري المشرق. وإن لم يمنع هذا التفريق من ظهور أصوات بيننا تنادى برفض تعليم الإنجليزية والفرنسية لأولادنا، وتعتبر اللغتين تجسيدا للغزو الاستعماري. وهي أصوات لم تفرق بين الوجهين.

أذكر أن من بين الذين زاروني بعد حصولي على جائزة نوبل عام ١٩٨٨ إعلامياً إنجليزياً كبيراً. وفي أثناء حديثه معي قال لي إن «بريتشارد» يرسل لك تحياته. وأذهلتني المفاجأة ورن الاسم في أذني وقلت في انفعال: «هل ما زال يذكرني؟»... و«بريتشارد» هذا كان مدرّساً إنجليزياً شاباً درس لنا علم الاجتماع بقسم الفلسفة في كلية الآداب حوالي سنة ١٩٣٤. والعلاقة بيننا لم تكن وطيدة، خاصة أن مادة علم الاجتماع لم تكن من المواد الأساسية، وكنت مجرد طالب يتلقى على يديه العلم. وأصبح «بريتشارد» بعد ذلك من كبار علماء الاجتماع أو «السوسيولوجيا» في أوروبا، وهو واحد من بين أساتذة أجنبية عاصرتهم في

(١) الموت الزؤام هو الموت العاجل، وكلمة الزؤام أطلقها سعد زغلول في ثورة ١٩١٩ ورددها شعب مصرى كله وراءه. وهكذا أصبحت هذه الكلمة الصعبة المهجورة كلمة شعبية بفضل زعيم مثقف. «د. ن»

المرحلة الجامعية. أذكر منهم «مسيو كورييه» أستاذ الفلسفة وهو فرنسي الجنسية، وكان يتوقع لى النبوغ فى مجال الفلسفة، حتى أن أحد زملائى فى قسم الفلسفة قابله بعد تخرجنا بسنوات، فسأله عنى. ولما عرف أنني تركت الفلسفة واتجهت إلى المجال الأدبى أبدى «مسيو كورييه» انزعاجاً شديداً وأسفاً عميقاً، وقد أصبح من أساتذة الفلسفة المعدودين فى أوروبا.

فى أثناء دراستى بالمرحلة الثانوية كان بعض أساتذتى من الإنجليز والفرنسيين. وبينما كانت علاقاتنا بالأساتذة الفرنسيين يشوبها قدر من الود وتربطنا بهم صداقات وإن لم تصل إلى درجة العمق، كانت علاقاتنا بالأساتذة الإنجليز سيئة، ولم يقم بيننا وبينهم أى نوع من الصداقة والتعاون، لقد كنا ننظر إليهم باعتبارهم مستعمرين دخلاء، وكان أغلب هؤلاء المدرسين - إن لم يكن كلهم - غير مؤهلين للتدريس، وجاءوا إلى مصر سعيًا وراء المال والراتب المجزى، وليس حبًا فى العلم. وكان هؤلاء الأساتذة يعيشون فى مجتمع شبه مغلق لا تربطهم بنا أى علاقات إنسانية، وكانوا يرفضون التحدث معنا فى غير الموضوعات الدراسية. وذات مرة تغيب مدرس اللغة الإنجليزية وكنا فى نهاية العام الدراسى، وكان هناك عدد قليل من التلاميذ داخل الفصل، وفضل أغلب التلاميذ البقاء فى المنازل لمراجعة دروسهم استعدادًا للامتحانات، فى ذلك اليوم دخل الفصل مدرس إنجليزى اسمه «مستر براين» كبديل لأستاذنا الأصيل الذى غاب، ولأنها حصة إضافية فقد جلس «مستر براين» على مقعده دون أن يفعل أى شئ، كنت أجلس أمامه فى المقعد المواجه له مباشرة، وبدون مقدمات قال «براين» باللغة الإنجليزية إنه مندهش من أن بلدًا مثل الهند وبلدًا آخر مثلكم - مصر - يريدان الاستقلال عن التاج البريطانى. وواصل كلامه: «الاستقلال ليس لعبة، أنتم شعوب غير مؤهلة للحكم وعندما يأتى بلد مثل إنجلترا العظمى لتحكمكم، فإن هذا فضل منها ونعمة تستحق عليهما الشكر!»

اعتبرت كلام «مستر براين» ورأيه بمثابة إهانة وهو كذلك بالفعل، فدخلت معه فى حوار ساخن، محاولاً إقناعه بخطأ فكرته عن دول العالم الثالث مثل مصر والهند. قلت له إنها دول ذات حضارات عريقة وأنها أهل للاستقلال، وقادرة على أن تحكم نفسها بنفسها، ولكن الدول الاستعمارية هى التى لا تمنحها الفرصة، وتريد إبقاء الوضع القائم على ما هو عليه حيث تستنزف خيراتها وثرواتها وتستعبد لها للأبد.

والحقيقة أن النظرة الاستعمارية العنصرية كانت تسيطر على الإنجليز، والأوربيين بشكل

عام، فى تعاملهم معنا فى تلك الفترة. واستطاعت الحكومات الأوروبية أن تخدع شعوبها حتى تقبل إرسال أبنائها إلى تلك البقاع البعيدة ليواجهوا مصيرًا مجهولاً، ويقوموا بارتكاب أعمال وحشية ضد سكان هذه البلاد. كان هناك فى أوروبا شعب مسيحي يحمل ضميرًا إنسانيًا، يتساءل ويريد إجابة تقنعه باستعمار دول العالم الثالث. وحاولت الحكومات الأوروبية تشويه صورة شعوب العالم الثالث وتقديمهم للرأى العام هناك على أنهم همج ومن أكلة لحوم البشر، وأن رسالة الرجل المسيحي الأبيض، تقتضى أن يقوم بنشر الحضارة فى هذه البلاد مهما كانت التضحيات. وفى سبيل ترسيخ تلك النظرة حاول الغرب تشويه صورة الإسلام وتقديمه على أنه السبب الرئيسى لتخلف الشعوب التى تعتنقه. ولم تكن المشاريع والإصلاحات التى قام بها الإنجليز فى مصر نابعة من نظرة إنسانية أو من رسالة الرجل الأبيض التى خدعوا بها شعوبهم، بقدر ما كانت ضرورة لخدمة مصالحهم الذاتية.

فإنشاء إدارة الأمن العام وحفظ النظام كان بهدف حماية الموظفين والرعايا الإنجليز. وإنشاء الإدارة الصحية كان خوفًا على أنفسهم من الأوبئة والأمراض، وإنشاء السكك الحديدية كان لتسهيل مهمة نقل الأقطان إلى الموانئ ومنها إلى إنجلترا.

وهكذا كانت كل المشروعات من أجل الإنجليز وفى خدمة مصالحهم قبل أن تكون فى خدمة أهل البلد، وحتى إنشاء المدارس والجامعات لم يكن الهدف منه بعث النهضة العلمية، بل تخريج موظفين محليين لخدمة الإدارة الإنجليزية.

وكما قلت فإن المفكرين المصريين كانوا يفرقون فى نظرتهم للأوربيين بين وجههم الاستعماري القبيح، والوجه الحضارى المشرق. وحدثت معركة شهيرة بين أنصار الاتجاه الساكسونى، أى الإنجليزى، وعلى رأسهم العقاد، وأنصار الاتجاه اللاتينى، أى الفرنسى، وعلى رأسهم طه حسين، وكان لكل فريق حججه ومبرراته. ولم يكن لى موقف شخصى من هذه المعركة، وعندما دخلت المجال الأدبى قرأت فى كل آداب العالم بلا تفرقة، ذلك لأننى دخلت مجال الأدب باعتباره أدب الأسرة البشرية كلها، لا أدب الإنجليز أو الفرنسيين أو غيرهما. لدرجة أننى فى قراءتى للأدب العالمية كانت تختلط عندى جنسية الأدباء، لأننى كنت أتوقف أمام المعانى الأدبية والمضامين الإنسانية وليس أمام الجنسيات، ولم تمنعنى وطنيتى وانتمائى لحزب الوفد من تعلم اللغة الإنجليزية، ولم أجد أى غضاضة فى ذلك كما لم أجد فيه تعارضًا مع الوطنية.

والحقيقة التي لا يمكن إنكارها أن هناك عددًا من الرعايا الإنجليز الذين عاشوا في مصر قد أحبوا هذا البلد من قلوبهم، ومن هؤلاء «مستر بلاكنبري» مؤلف كتاب «الأجرومية الإنجليزية» الذي كان مقررًا علينا في المرحلة الثانوية. وبعد خروجه إلى المعاش، فضل البقاء في مصر، والعيش فيها، وتعلم اللغة العربية. ولقد قابلته مرة بصحبة «كامل كيلاني» وجلست معه وأدركت مدى حبه لمصر. ورغم ندرة هذه الحالات التي يمثلها «بلاكينبري» إلا أنها كانت موجودة ولا يمكن إغفالها.



## الفصل الخامس

### أدباء عرفتهم

ارتبطت بتوفيق الحكيم وجدانيًا وروحياً - اكتشفت مقهى «بثرو» بالإسكندرية وأست فيه «ركن الحكيم» - لماذا تميت الموت ذات يوم للحكيم؟ - فيلم «السراب» يتسبب في طلاق زينب الحكيم - هل كان الحكيم بخيلاً أو عدواً للمرأة؟ - الحكيم لم يكن روائياً وعظمته في المسرح - ما هي مأخذي على الحكيم وملاحظاتي على شخصيته؟ - الحكيم أطلعني على «عودة الوعي» قبل نشرها في كتاب - ما هو سر عنف العقاد وعصبيته وشخصيته الصعبة؟ - لم يعجبني هجوم العقاد الظالم على أحمد شوقي - أضاعت الصحافة وعدم المبالاة موهبة أدبية فذة مثل المازني - المازني تنبأ لي بالمتاعب بسبب الواقعية - سلامة موسى أول من نشر لي، وكان تأثيره كبيراً على وعلى جيلنا كله.



■ يعترف نجيب محفوظ بأن واحداً من أبرز عيوبه يتمثل في عدم سعيه للقاء الأدباء الكبار الذين أحبههم وتأثر بكتاباتهم وتركه الأمور للمصادفة. لذلك فإن ذكرياته مع الأدباء قليلة إذا ما قورنت بذكرياته مع الفنانين.

وفي هذا الفصل يتوقف نجيب محفوظ أمام أربعة من الأدباء الذين التقى بهم وعاش في عصرهم ويحمل لهم في نفسه كل تقدير واحترام وهم: توفيق الحكيم والمقاد والمازني وسلامة موسى. فماذا قال نجيب محفوظ عن كل واحد من هؤلاء؟ ... ■

نجيب محفوظ: توفيق الحكيم له مكانة خاصة في قلبي. وربما أكون أحببت العقاد وتعلقت به وتربيت على يديه، وربما أكون تأثرت بطفه حسين إلى حد بعيد، ولكن توفيق الحكيم هو الوحيد الذي ارتبطت به وجدانياً وروحياً وعشت معه سنوات طويلة كظله. وعلاقتي بالحكيم تعود إلى عام ١٩٤٧. ففي ذلك العام صدرت روايتي «زقاق المدق»، وكان الحكيم من نجوم الأدب، وقد قرأ هذه الرواية بناء على نصيحة من مدير الأوبرا آنذاك محمد متولى. ثم طلب الحكيم مقابلي، وذهبت إليه في مقهى «اللواء» الذي كان يقع في مواجهة البنك الأهلي المصري وجلست معه في حضور مترجم اللغة الألمانية المعروف «محمود إبراهيم دسوقي»<sup>(١)</sup>. في نهاية اللقاء سألتني الحكيم عما إذا كنت أسافر إلى الإسكندرية لقضاء الصيف ومتى. فأبلغته بأنني أسافر في شهر سبتمبر بانتظام. فطلب مني مقابله في مقهى سيدى بشر، ولما كان لقاءنا الأول في القاهرة في نهاية صيف عام ١٩٤٧، فلم يكن هناك بد من مرور عام كامل قبل أن ألتقي بالحكيم في الإسكندرية في شهر سبتمبر عام ١٩٤٨. وفي الطريق إلى المقهى الذي يجلس عليه الحكيم في سيدى بشر اكتشفت مقهى آخر أجمل وأنسب اسمه «بترو»، كما أنه أقرب إلى البيت الذي يسكن فيه الحكيم. وعرضت عليه أن نتقل إلى هذا المقهى ونشئ ركناً نسميه «ركن الحكيم» ووافق.

(١) محمود إبراهيم دسوقي مترجم مشهور في الجيل وله ترجمات كثيرة عن الألمانية، منها كتاب «نابليون بونابرت» للكاتب الألماني إميل لودفيج.

كان «ركن الحكيم» فى «مقهى بترو» يؤمه الباشوات والإقطاعيون من المهتمين بالأدب والثقافة، وأذكر منهم شمس الدين باشا عبدالغفار وبرهان باشا نور. وعندما انضمت إليهم شعرت بتحفظهم نحوى وخوفهم من وجودى. ولاحظ الحكيم ذلك فحاول إزالة هذه التحفظات والمخاوف ونجح فى ذلك، وأصبحت من أعضاء الشلة، ودخلت فى نسيجها الإنسانى، وأخذنا نتبادل الضحك والمزاح.



لم ينقطع الحوار بين نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم منذ لقائهما فى عام ١٩٤٧، والصورة بمكتب الحكيم فى الأهرام

وبعد قيام الثورة استمرت لقاءات «شلة الحكيم» وأصبح روادها من الباشوات السابقين، وكنت أستغل تحفظهم فى أحاديث السياسة لأداعبهم وأسخر منهم. فمثلاً أتحدث عن أحد الأفلام السينمائية المعروضة، وأستخلص منه مغزى سياسياً خطيراً وأشير إلى اتفاق شمس الدين باشا معى فى رأى الذى توصلت إليه، فيقفز شمس باشا من مقعده وهو فى حالة هلع مؤكداً أنه لا رأى له فى شىء، كان الإقطاعيون والباشوات القدامى فى تلك الأيام يعيشون فى حالة خوف وذعر بعد قيام الثورة خشية الاعتقال والمطاردة.

منذ أن قابلت الحكيم لأول مرة فى عام ١٩٤٧ لم تنقطع علاقتنا حتى آخر مرة زرته فى المستشفى عام ١٩٨٧، وكانت قبل وفاته بأيام. كانت حالة الحكيم الصحية متدهورة جداً،

حتى أنه لا يكاد يتعرف على زواره. ويبدو أنه أصيب بضمور في عروق رأسه أثرت على ذاكرته، وهى شبيهة بالحالة التى أصابت الأستاذ أحمد بهاء الدين رحمهما الله. وعندما خرجت من حجرة توفيق الحكيم بالمستشفى قلت لمرافقى خلال الزيارة، الدكتور محمد حسن عبدالله، إننى لم يحدث أن تمنيت الموت لأحد من قبل، ولكن حالة الحكيم جعلتني لا أتمنى له الحياة بهذا الشكل. لقد أحزننى أن الحكيم يتوهم أشياء غريبة، ويشتكى لى من مرضته وكيف أنها تريد دس السم له، وكانت الممرضة تنظر إلينا بإشفاق وهى تسمع ما يقوله الحكيم وهى صامتة لأنها تعرف مدى خطورة حالته.

كانت علاقتى بالحكيم حميمة للغاية، وكان يأتمنى على أسراره الشخصية والعائلية. فحكى لى بالتفصيل قصة فشل ابنته «زينب» فى زواجها الأول، وقال لى إننى السبب فى اكتشاف الأسباب الحقيقية لفشل زواجها، حيث إنها ذهبت مع أختيها من أمها لمشاهدة فيلم «السراب» المأخوذ عن رواية لى، وفوجئت ببكاء زينب الحار أثناء عرض الفيلم. وضغظن عليها لمعرفة أسباب هذا البكاء وعلمن بمشاكلها مع زوجها، وقصصن الأمر على الوالد، فأحضر الحكيم زوجها وأقنعه بالانفصال عنها.

على المستوى الإنسانى كنت أحب الحكيم إلى أقصى حد، فهو لطيف، وعلى خلق، وحلو الحديث، وخفيف الروح. أما الحكايات الشهيرة عن بخله وعدائه للمرأة، فهى أقرب إلى الدعاية منها إلى الحقيقة. فكيف يكون بخيلاً من يزوج ثلاث بنات فى عام واحد ويتفق على زواجهن ١٥ ألف جنيه، ومنهن اثنتان هما ابنتان لزوجته من زواج سابق، أى أنه أنفق خمسة آلاف على كل بنت فى وقت كان هذا المبلغ يشكل ثروة طائلة. ولو كان بخيلاً حقاً ما أنفق مليوناً واحداً.. ومما أعرفه أنه أعطى كل مدخراته لابنته عندما تزوجت، ووصل هذا المبلغ إلى ثلاثين ألف جنيه، أعطتها بدورها إلى زوجها الذى خسر تجارته وكاد يشهر إفلاسه وأنقذته مؤقتاً، لأن زوجها خسر الثلاثين ألفاً من الجنيهات بعد ذلك، ولو كان الحكيم بخيلاً حقاً لحدثت له صدمة عنيفة بسبب ضياع أمواله، وعندما حكى لى الحكيم تلك الواقعة ضرب كفاً بكف ثم استغرق فى ضحك متواصل وانتهى الأمر.

ولكن للحكيم عيباً اعتبره عيباً ظريفاً لا بد أن نقبله. كنا - نحن أبناء الجيل القديم من الأدباء - معتادين فى أحاديثنا الخاصة أن نحيل أمورنا الشخصية إلى حالة عامة فتتسع المناقشة وتمتد، وكان الحكيم يفعل العكس، إذ يحول القضايا العامة إلى قضايا شخصية. وقد سافر إلى أوروبا مراراً وتعرف على تيارات أدبية وفنية حديثة، وبدلاً من أن يحدثنا عن

هذه التيارات أحال الموضوع إلى حديث عن حياته الخاصة ومواقف له مع أسرته التي اعترضت على اشتغاله بالأدب وهكذا، وكانت جلساتها كثيرًا ما تستغرق ست ساعات كاملة يستولى خلالها توفيق الحكيم على هذه الجلسات ويظل يتحدث ونحن نستمع إليه. ولكننا لم نكن نمل منه. وكان هو وزكريا أحمد الوحيدين اللذين نقبل منهما الانفراد بالحديث. ومن المآخذ التي أخذتها على توفيق الحكيم عدم اعتنائه بالسؤال عن أصدقائه إن غابوا، وكنت أنا الذى أسأل عن بعض الأصدقاء الذين قدمهم هو لى، أما هو فلا يهتم. والحكيم من الشخصيات المنحصرة فى ذاتها، ولديه سائر نفسى يحصنه ضد العالم الخارجى، وأظن أن هذه الصفات قد وفرت له الحماية من الإصابة بالانهيار العصبى أمام فواجع عديدة مر بها فى حياته مثل موت زوجته، وموت ابنه إسماعيل فى عز شبابه. لقد حزن الحكيم عليهما ما فى ذلك شك، ولو أن إنسانًا آخر غيره ابتلى بما جرى له ما استطاع أن يتحمل ما تحمله الحكيم. وكثيرًا ما حكى لى عن ابنه إسماعيل وعشقه للموسيقى وأنه شجعه على ذلك، وقد ذهبت مع الحكيم عدة مرات إلى حفلات يعزف فيها إسماعيل واستمعنا إليه ونحن فى غاية السرور والسعادة. كان إسماعيل الحكيم موهوبًا حقًا، ولمع نجمه باعتباره أول من أدخل موسيقى الجاز إلى مصر، ولكنه للأسف أدمن الخمر التى تسببت فى وفاته.

وبعد وفاة إسماعيل ووالدته عاش توفيق الحكيم وحيدًا فى بيته باستثناء سيدة كانت تقوم بتجهيز طعامه ورعاية البيت. ولم أزر الحكيم فى بيته إلا فى مرات نادرة، مع إبراهيم باشا فرج، ومرة أخرى مع ثروت أباطة. فالحكيم لم يكن يحب أن يزوره أحد فى البيت، ويفضل أن تتم الزيارات فى مكتبه بجريدة الأهرام أو فى المقهى.

كان العمل الأول الذى قرأته للحكيم هو «أهل الكهف»، أما أكثر أعماله تأثيرًا فى نفسى فهو رواية «عودة الروح». فلم أقرأ قبلها رواية بهذا الجمال وهذه الخفة والرشاقة. وعندما نضجت أدركت أن منزلة الحكيم الحقيقية هى فى الكتابة المسرحية وليست فى الرواية. وأن «عودة الروح» ما هى إلا مسرحية مكتوبة بأسلوب روائى، وأنها عبارة عن حوار ومناظر مسرحية. ولقد تأثرت بـ«عودة الروح» فى أعمالى الروائية مثلما تأثرت بأعمال المازنى وطفه حسين. وكان تأثير «عودة الروح» علىّ يفوق تأثير رواية «زينب» للدكتور محمد حسين هيكل، والى لم تترك فى نفسى أثرًا يذكر وأظن أننى نسيتها بعد قراءتها.

توفيق الحكيم هو أول أديب مصرى يتفرغ للكتابة، ويعطى كل وقته للأدب الذى أصبح حرفته التى يعيش منها. وقبله كان أدباؤنا الكبار غير متفرغين للكتابة، ويعملون بها على

هامش وظيفة أساسية أخرى. فالدكتور طه حسين كان أستاذًا في الجامعة وناقدًا ومفكرًا. وفي فصل الصيف يكتب رواية على الهامش. وأذكر أن العمل الوحيد الذي عرضه على توفيق الحكيم لأقرأه قبل نشره هو كتاب «عودة الوعي»، كما عرضه على كثيرين غيري. وماعدا ذلك لم يعرض على أي عمل له قبل النشر، وربما يعود ذلك في تصوري إلى أن أعظم أعمال الحكيم ظهرت قبل عام ١٩٤٧ أي قبل تعرفي عليه وبدء صداقتنا التي استمرت ٤٠ عامًا إلى آخر يوم من حياته.

وكان عباس محمود العقاد هو سبب معرفتي بتوفيق الحكيم. حيث قرأت مقالاً للعقاد وكنت مازلت طالبًا في الجامعة عن مسرحية «أهل الكهف»، ولم أكن سمعت اسم الحكيم من قبل. وقلت لنفسى إنه مادام العقاد كتب عن هذا المؤلف الشاب فلا بد أنه موهوب حقًا، وكتابة العقاد تلك شهادة خطيرة لصالح الحكيم. وعلى الرغم من أن شهرة توفيق الحكيم تعود إلى المقال الشهير الذي كتبه عنه الدكتور طه حسين، فإن طه حسين كان إذا ما أعجبه مؤلف أو كتاب فإنه يطرب له ويتغنى به، أما العقاد فقليلاً ما تقرأ في كتاباته كلمات الإطراء والثناء. ولذلك فمقالته عن الحكيم كانت أوقع في نفسى من مقالة طه حسين. فالناقد المخلص يجب أن تتصف أحكامه بالموضوعية والبعد عن المجاملة. ولذلك تعجبنى طريقة النقاد الأوروبيين الكبار في العمل، حيث يكون الناقد وكأنه مرشد يوضح لك طريقة السير في معبد الكرنك، ويشرح لك لماذا كان هذا التمثال هنا، ولماذا بنيت تلك الأعمدة هناك، ولا يستخدم تعبيرات مثل «المؤلف العبقري» أو «الكاتب الكبير» أو أى من كلمات المدح والذم، بل يلتزم الموضوعية.

وثقافة العقاد الموسوعية كان من المفترض أن ينتج عنها نوع من التسامح وسعة الصدر، ولكن حدث العكس، واتصف العقاد بالعنف والتعصب للذين يميزان ضيق الأفق. وتفسير ذلك عندي أن العقاد له عقل موسوعي، كان له جهاز عصبي مشدود على آخره، ولذلك كانت طبيعته الداخلية صعبة وكلها حساسية لا تتحمل أى شيء، مما جعله - ولم يكن يصح - يدخل سنة ١٩٦٣ في معركة مع كاتب من سن أحفاده في ذلك الوقت وهو رجاء النقاش، وربما كان لعدم حصول العقاد على شهادة جامعية دور في عصبية الزائدة وعنفه. فالعقاد بدأ الكتابة عام ١٩٠٦ ولم تكن في مصر جامعات فعلم نفسه بنفسه. وحكى لى الدكتور عبد الحميد يونس أن الجامعة كلفته بالذهاب إلى العقاد ليعرض عليه «الدكتوراه الفخرية» تكريمًا له، والدكتور يونس من أصدقاء العقاد ومن المترددين عليه. وقد ثار

العقاد وهاج وسب الجامعة، ورد على الدكتور يونس فى سخرية: «من الذى سيسلمنى الشهادة؟»!

هذه العصبية أفسدت حياة العقاد الحزبية، وضيعت عليه فرصًا كثيرة وتسببت فى خروجه من حزب الوفد. كان زعيم الوفد سعد زغلول مدرّكًا لأبعاد شخصية العقاد، وحاول التعامل معها بذكاء، فعندما خالف العقاد سعدًا فى بعض مقالاته قال الزعيم لأنصاره: «دعوه يختلف معى أو حتى يسبنى»!... وعندما شوهد العقاد بعد ذلك خارجًا من بيت الأمة، وهو بيت سعد زغلول، تعجب أصدقاء سعد زغلول الذين ظنوا أن هناك ثأرًا بين سعد وبين العقاد، وشرح لهم سعد أنه طلب العقاد وتحاور معه واستطاع تهدئته. وظل العقاد كاتب الوفد الأول حتى سنة ١٩٣٥ ثم اختلف مع النحاس باشا وخرج على الوفد.

ورغم حبي الشديد للعقاد فإن موقفه وهجومه الحاد على أحمد شوقى والمدرسة الكلاسيكية فى الشعر العربى لم يعجبني، ففى دعوته للتجديد حاول العقاد أن يهدم الكلاسيكية، وشن حملته المشهورة على أحمد شوقى باعتباره رائدًا لهذه المدرسة. وموقف العقاد من شوقى يتضمن كثيرًا من التجنى والظلم الفادح، فقد تراجع الكلاسيكية ولكن تبقى أصوات منها تفرض نفسها على الساحة والزمن، ولا يمكن أن نهدم رمزًا من رموز المدرسة الكلاسيكية مثل شوقى لمجرد التبشير بظهور مدرسة جديدة. فالهرم الأكبر مثلاً مازال إعجازًا على مر التاريخ ولم يفكر أحد فى تقليده، ونظر إليه باعتباره من الآثار التاريخية القديمة، ولم يحدث أن وصفناه يومًا بالتفاهة أو اتهمنا الفراعنة بأنهم تركوا أثرًا فارغًا من المعنى. ولقد سمعت أن أحمد شوقى - رغم ذلك - صمم على حضور العقاد لمهرجان تنويجه أميرًا للشعراء، وذهب إليه ودعاه وقال له إن الحفلة لن تتم بغير حضورك، وأخذ يكيل المدح للعقاد، الذى تركه وخرج دون أن ينطق بكلمة، ولم يحضر العقاد الاحتفال.

بينما كانت شخصية إبراهيم عبدالقادر المازنى على النقيض تمامًا من شخصية العقاد، فهو رجل لطيف ومحب للنكتة ولديه قدر كبير من التسامح والمرونة، ومع ذلك كان أقرب أصدقاء العقاد إلى قلبه، وكان العقاد يحبه إلى درجة العشق، والفضل فى الحفاظ على هذه الصداقة يعود إلى المازنى بسبب طبيعته المرنة السهلة والتى تتناقض تمامًا مع شخصية العقاد.

وأرى أنه كان من الممكن أن يكون للمازني شأن خطير في عالم الأدب لو أنه أخذ الأمر بجدية أكثر مما سار عليه في حياته، فلم يكن يكتب إلا عندما يطلب منه ذلك، واستغرقه العمل الصحفي بدافع من الاحتياجات المالية، فكان الأدب يأتي في مرتبة متأخرة من اهتماماته. لذلك بلغ به الاستهتار - ربما بسبب ضيق الوقت - لأن ينقل فصلاً مترجماً<sup>(١)</sup> من عمل أدبي عالمي ويضيفه إلى إحدى رواياته، وهي رواية «إبراهيم الكاتب»، ويبدو أن حس السخرية عنده كان مرتفعاً لدرجة أنه ينظر لهذه الأمور باستهانة، وكانت مسألة الاقتباس في ذلك الوقت شائعة ومقبولة.

كل هذا لا يمنع أن المازني كان يملك موهبة جبارة وأسلوباً فريداً في الكتابة الساخرة، ولم يكن أحد يجاريه في أسلوبه أو ترجمته البديعة أو خدمته للغة العربية.

وكانت لدى المازني قدرة عجيبة على انتقاء الألفاظ الشعبية ذات الأصول العربية، وأنا اعتبره فريداً في التعبير الساخر السهل العميق، ولو أن المازني استغل موهبته الاستغلال الأمثل لأصبحت له مكانة أكبر بكثير من المكانة التي وصل إليها في تاريخ الأدب العربي. فالأسلوب الساخر والحس الفكاهي يمكن أن يصل تأثيرهما وسحرهما إلى مرتبة الجنس، بل إن السخرية يمكن أن يكون تأثيرها أقوى وأشمل.

وللأسف لم يستغل المازني هذه الموهبة الكبيرة النادرة التي كان يملكها، واستغرقه العمل بالصحافة والبحث عن لقمة العيش والتي في سبيلها تنقل بين الأحزاب المختلفة، ولم يثبت على ولاء حزبي واحد، لدرجة أن العقاد قال عنه ذات مرة إنه يترك المازني في الصباح متتمياً لحزب الوفد ويعود إليه في الليل ليحجده مع الأحرار الدستوريين. ومع أن المازني يمتلك ثقافة عظيمة وأسلوباً بديعاً وقدرة على الاستيعاب، فإنه كان محروماً من إرادة العقاد الصلبة وكبريائه، فأضربه ذلك كثيراً. ولم يقدر المازني نفسه التقدير اللائق بها، وضاعت علينا موهبة جبارة. وأنا لم ألتق بالمازني سوى مرة واحدة بعد صدور روايتي «زقاق المدق»، حيث أبلغني عبدالحميد جودة السحار أن المازني يريد أن يراني. كنت في ذلك الوقت من قراء المازني المدمنين وأحبه كأديب. وكان من عاداتي السيئة أن كثيراً من الأدباء الذين أحببتهم، لم أحاول الاتصال بهم أو زيارتهم، إذ كنت أترك هذه الأمور

---

(١) اعترف المازني نفسه بهذه السرقة وسجلها على نفسه في مقال طريف له عنوانه «السرفقات الأدبية»، مجلة الرسالة - العدد ٢١٣ في ٢ أغسطس ١٩٣٧.  
«ر. ن»

للمصادفة. ذهبت إلى المازنى فى موعد حدده هو مع السحار، واستقبلنى استقبلاً حاراً وأفاض علىّ من المديح ما أخرجنى منه. ثم صمت قليلاً وقال لى إنه يريد أن ينصحنى وأنا فى بداية حياتى الأدبية، ومازالت كلمات المازنى محفورة فى ذاكرتى حتى الآن. قال لى إن الأدب الذى أكتبه هو الأدب الواقعى، وأن هذا النوع من الأدب يسبب لصاحبه مشاكل كثيرة، وفى أوروبا حدثت مشاكل متعددة للأدباء الواقعيين، وطالبنى المازنى بالحرص لأننا فى مصر لم نعود على فن الرواية، والفكرة الشائعة عن الروايات هى أنها اعترافات شخصية، فطه حسين كتب حياته فى «الأيام»، والدكتور هيكمل فعل نفس الشئ فى رواية «زينب»، وأنا - أى المازنى - فى رواية «إبراهيم الكاتب». ثم قال لى المازنى: «إذا كنت سوف تستمر فى كتابة الأدب الواقعى فسوف تجلب لنفسك المتاعب والمنغصات دون أن تدري». وقد شكرت المازنى على النصيحة وانصرفت ولم ألتق به بعدها.

عرفت سلامة موسى عن طريق متابعتى لمجلته «المجلة الجديدة» وأنا تلميذ فى المرحلة الثانوية. وفى تلك المرحلة المبكرة بدأت فى إرسال كتاباتى الأولى إلى «المجلة الجديدة» عن طريق البريد. وأدهشنى أن سلامة موسى ينشر كل ما أرسله إليه، كانت كتاباتى عبارة عن مقالات فلسفية، وملخصات لأعمال إبداعية لكبار الأدباء الغربيين خاصة «هنريك إبسن» و«تشيكوف» و«سترنديج» و«برنارد شو»، بالإضافة إلى قصص قصيرة هى أول ما كتبت. وذات مرة ذهبت إلى مقر «المجلة الجديدة» لأسلم أعمالى مباشرة إلى سلامة موسى، وكم كانت دهشة سلامة موسى حينما رأتى، فقد ظن أنى أكبر من ذلك، ولست مجرد تلميذ فى المرحلة الثانوية، وقد استمرت علاقتى «بالمجلة الجديدة» وأنا طالب فى الجامعة، وبعد تخرجى أصبحت من كتابها، إلا أن علامات الدهشة لم تفارق سلامة موسى فى كل مرة يرانى فيها، ولم أحصل على مليم واحد مقابل كل ما نشرته فى «المجلة الجديدة».

لا أستطيع أن أحكم على سلامة موسى الإنسان من خلال تلك اللقاءات البسيطة. أما سلامة موسى الأديب والمفكر، فاستطيع القول إن تأثيره كان كبيراً فى جيلنا. ولقد أضاءت كتبه ومؤلفاته الطريق أمامنا نحو الحياة الحديثة والأفكار المعاصرة، فمن خلال سلامة موسى عرفنا معنى «الغاية» و«الاشتراكية» و«حرية الفكر»، وكل المصطلحات الغربية الجديدة بالنسبة لنا. وقبل لقائى مع سلامة موسى كنت قرأت معظم كتبه، وجذبنى إليه أسلوبه البسيط المعبر وحججه القوية المقنعة، وثقافته الواسعة وحماسة الشديد لأرائه. وقد صدرت أول طبعة من روايتى «عبث الأقدار» عن دار «المجلة الجديدة» التى يملكها

سلامة موسى، وكان أجرى عن التأليف عبارة عن ٥٠٠ نسخة. وقد احترت ماذا أصنع بكل هذه النسخ، فاستأجرت عربية «حنطور» ووضعت الكتب فيها وسرت حائراً لا أدري إلى أين أذهب بها، ولم يكن باستطاعتي حملها معي إلى المنزل، وفي «باب اللوق» لمحت مكتبة اسمها «مكتبة الوفد»، وبدون تردد أوقفت العربية وناديت على صاحب المكتبة الذي أنزل النسخ، ثم عرضت عليه شراءها دفعة واحدة، وبيعها في مكتبته. وبعد فترة من التفكير وافق الرجل وعرض قرشاً واحداً للنسخة، أى ما مجموعه خمسة جنيهات. ولكنه اشترط أن يحاسبني بعد البيع، وأنه كلما باع نسخة سيدفع لى قرشاً. واضطرت للموافقة على هذه الصفقة العجيبة. وأذكر أن سلامة موسى أثناء عملية تجهيز طبعة «عبث الأقدار» أعطاني بروفات الرواية لأصححها بنفسى، ولم تكن عندي أى فكرة عن مسألة التصحيح



سلامة موسى (١٨٨٧-١٩٥٨)

المفكر المصرى المستنير الذى كان أول من اكتشف موهبة نجيب محفوظ الروائية ونشر له أولى رواياته، وهى «عبث الأقدار».

هذه، فأخذت البروفات وجلست أقرأها، وكلما وجدت كلمة خطأ أشطبها وأكتب الكلمة الصواب فوقها مباشرة. وعرفت بعد تلك التجربة أن التصحيح ينبغي أن يكون فى هامش الصفحات. لأننى عندما أعدت البروفات بعد تصحيحها لعمال المطبعة ووجدوا أن هامش الصفحات نظيف، طبعوا الرواية كما هى. وظهرت طبعاتها الأولى مليئة بأخطاء غريبة، لم أتدركها إلا فى الطبعات التالية، بعدها طبعت عند سلامة موسى كتابى «مصر القديمة»، وكان أجرى - أيضًا - عدة نسخ من الكتاب. وبعد ظهور رواية «زقاق المدق» بدأ اسمى فى الانتشار، وفوجئت بصاحب «مكتبة الوفاء» يخبرنى أن نسخ «عبث الأقدار» تلاقى إقبالاً من القراء الذين بدأوا يتابعون أعمالى الأولى، ومع ذلك لم أحصل منه على المبلغ المتفق عليه وهو خمسة جنيهات!

استمرت علاقتى مع سلامة موسى، وأذكر أنه كتب عني مقالاً وحيداً عن صدور رواية «بين القصرين» وأشاد بها، وذلك فى «يوميّات الأخبار» عام ١٩٥٧ أى قبل رحيله بعام واحد. وقام سلامة موسى بزيارة واحدة لشلة كازينو «أوبرا»، وجلس معنا وقتاً طويلاً، وتناقشنا فى مجالات شتى، ومن يومها لم أر سلامة موسى حتى طالعت فى الصحف نبأ وفاته بعد زيارته لنا فى كازينو «أوبرا» بشهور قليلة. ولا يزال تأثير سلامة موسى حياً فى نفسى.

عرفت الأستاذ يحيى حقى فى الوظيفة. فقد أنشأ وزير الإرشاد فتحى رضوان «مصلحة الفنون»، واستمرت هذه المصلحة خلال الفترة الممتدة من سنة ١٩٥٥ إلى ١٩٥٩، وتم تعيين يحيى حقى فى منصب مدير المصلحة. وطلب حقى اثنين من المساعدين واختارنى أنا وعلى أحمد باكثير وعملت مديراً لمكتبه. كان «حقى» هو أول وآخر من تولى إدارة مصلحة الفنون، وبسبب علاقتى الوظيفية معه اقتربت منه أكثر. كنت قرأت له رواية «قنديل أم هاشم» سنة ١٩٤٥، ووجدت فيها عدوية وفناً رفيعين، وتعرفت على «حقى» أول مرة فى نادى القصة، ثم حضرت دعوات فى بيته بالزمالك ضمن آخرين. البساطة التى وجدتها فى أدب يحيى حقى، كانت هى نفسها ما يميزه فى الوظيفة، قد كان صديقاً لمروسيه، أما صداقتنا الخاصة فقد ازدادت بمرور الأيام عن طريق الحوار والمؤانسة، وكنا نمضى اليوم معاً فى مصلحة الفنون، ثم يصطحبني فى سيارته، لتوصيلنى إلى بيتى فى العباسية، قبل أن ينطلق إلى مسكنه الجديد بحى مصر الجديدة. كان «حقى» يقضى يوم العمل كله تقريباً فى مكتبى الملاصق لحجرة مكتبه وقد استنكر منى القيام لتحيته إذا أقبل فى الصباح، قائلاً

لى: «أنت أديب كبير»، ولكننى كنت موظفًا، وهو المدير، وهذا الوضع الأدبى الذى يقدره لى يحيى حقى لا يعجز لى التجاوز فى علاقته الوظيفية معه، نعم كنا أصدقاء ولدينا ما نتواصل فيه إنسانيًا، ولكننى دائماً كنت أعطى الوظيفة حقها. وبعد إغلاق مصلحة الفنون، لم تعد الوظيفة تجمعنى مع يحيى حقى، ولكن صلاتنا الإنسانية لم تنقطع، وكان كل منا دائم السؤال عن الآخر عبر التليفون وعن طريق أصدقاء مشتركين، ولقد تذكرت يحيى حقى بقوة حينما فزت بجائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٨٨، وقلت لأول من سألنى عمن يستحق نوبل من الأدباء العرب، فوضعت اسم «حقى» فى المقدمة، كما أننى أهديت له الجائزة باعتباره واحدًا من الأدباء العرب الكبار الذين يستحقونها عن جدارة. لقد أسس «حقى» للقصة القصيرة فى مصر والعالم العربى قاعدة قوية، وأخلص لهذا الفن طوال حياته، وقدم فى هذا النوع من الأدب أجمل ما كتب وأعذبه، وبخلاف القصة القصيرة فإننى استمتعت واستفدت من كتابات «حقى» فى فن المقال وفى النقد.



## الفصل السادس

### مع أهل الفن

الشيخ زكريا أحمد كان «ابن نكتة»! - الشيخ زكريا يلحن أغاني أم كلثوم في سهرات السمر! - مغامرات مع سيد درويش في حواري القاهرة - الشيخ الكفيف صاحب أجمل حنجرة عرفتها مصر - بيرم التونسي الساخر الحزين - حفلات «الموالم» في بيتنا - الذوق المصري من الفرانكو آراب إلى الأغنية الشبابية - أسمهان «لم أستخف دمه» وكذلك شقيقها فريد الأطرش - التحاقى بمعهد الموسيقى العربية عام ١٩٣٣ - العقاد بك صاحب «الشخير» الغريب - شاهد على حفلات أم كلثوم في مسرح «الماجستيك» - لقائي الوحيد مع كوكب الشرق - حضرت آخر حفلات منيرة المهدية التي اعتزلت بعدها الغناء - عبدالحليم نورية وهل استغل صلة نسبه بالسادات؟! - أحمد مظهر ودوره في ثورة يوليو و«شلة الحرافيش».



■ ما هي أغرب هواية كان يمارسها الشيخ زكريا أحمد مع صديقه سيد درويش؟! ولماذا شعر نجيب محفوظ بصدمة عندما قابل بيرم التونسي لأول مرة؟ وما رأى نجيب محفوظ في الأغاني الشبابية؟ ولماذا امتنع عن حضور حفلات أم كلثوم في حديقة الأزبكية؟ وما قصة المطرب الكفيف الذي يعتبره نجيب محفوظ صاحب أقوى حنجرة عرفتها مصر؟ وما قصة عميد معهد الموسيقى العربية صاحب «الشخير» العجيب؟ وهل استغل صديقه عبدالحليم نويرة صلة نسبه بالرئيس السادات؟. الإجابات عن هذه الأسئلة كلها تعرفها من خلال هذا الفصل الذي يتحدث فيه نجيب محفوظ عن ذكرياته مع الفنانين الذين التقى بهم خلال مشواره... ■

نجيب محفوظ: الشيخ زكريا أحمد من أطرف الشخصيات التي قابلتها في حياتي. فهو على المستوى الإنساني ابن بلد لطيف «حبوب» و«ابن نكتة». بالإضافة إلى صفة طريفة كانت تجمع بينه وبين صديقه توفيق الحكيم، فكلاهما إذا جلس في مجلس فإنه يظل ممسكًا بناصية الكلام منذ حضوره حتى نهاية الجلسة. والفارق الوحيد بينهما أن «الحكيم» يتحدث عن نفسه فقط، وعن ذكريات مر بها أو حوادث وقعت له. أما «الشيخ زكريا» فإنه يقوم بدور الراوى، ويتحدث ربما طوال الليل دون أن يذكر كلمة عن نفسه، حتى يبدو للسامعين أن مؤلف قصص «ألف ليلة وليلة» والشيخ زكريا أحمد هما من نسيج واحد وتجمعهما العقلية نفسها، كانت حكايات الشيخ زكريا لا تنتهي، حكاية تجرّك إلى حكاية أخرى في تسلسل عجيب وترابط مذهل، وقد يبدأ في سرد حكايته الأولى في «التاسعة مساء» ويعود إلى نقطة معينة من نفس الحكاية في الثالثة صباحًا، وما بينهما عبارة عن استدراك وملاحظات وتنويعات.

وكان من الأسباب التي تجعل أصدقاء الشيخ زكريا أحمد يتحملون سطوته وسيطرته على الجلسة، إلى جانب حبهم له، أنه يمثل الحكايات التي يرويها بخفة دم ليس لها مثل. وكل من يحضر مجلسه لم يكن يتمالك نفسه من الضحك وهو ينظر للشيخ زكريا أثناء تمثيل حكاياته، وربما تكون الحكاية بسيطة وسطحية ولا معنى لها من نوع أن جارة له مرت به وقالت له «صباح الخير يا زكريا يا ابني». فيقلد صوت السيدة، وطريقة سيرها وحركاتها،

ورد فعله على «صباح الخير» هذه بشكل «كاريكاتيرى» ساخر ومثير للضحك الشديد. وكثيراً ما كنا نفاجأ به وهو يسرد الحكاية مندمجاً ومنفعلاً وفي منتهى التركيز، فإذا به يترك حكايته بدون مقدمات ويمسك عوده ويغنى، وكنا نحب هذا أيضاً، فصوت الشيخ زكريا أحمد يتميز بقوة ورخامة لا نظير لهما، وقد يترك العود ويعود لحكايته من النقطة التي توقف عندها!

تعود معرفتى بالشيخ زكريا أحمد إلى صديق مشترك هو «صلاح زيان»، وهو من «الأعيان». كان «صلاح زيان» من سكان العباسية، وقد تعود على إقامة سهرة يومية فى منزله يحضرها الشيخ زكريا أحمد. وكنت أسأل نفسى: متى يعمل الشيخ زكريا ويتم ألحانه وهو يداوم على تلك السهرات اليومية؟ واكتشفت أن لديه القدرة على أن يلحن فى أى وقت. وأذكر أنه لحن أغنية «حبيبى يسعد أوقاته» لأم كلثوم وهو يجلس معنا، وفى مرات عديدة كان يضع لحنين مختلفين لأغنية واحدة ويعرضهما علينا لنختار الأفضل.

عندما كان الشيخ زكريا يتحدث لا تشعر أبداً فى كلامه بأى محاولة من جانبه لاستخدام مصطلحات ثقافية أو فكرية، ولكنك تشعر أنك أمام رجل شعبى وابن بلد، رأسه ملىء بالموسيقى، أما شخصيته فكانت فى غاية الطيبة والإحساس بالمودة الدافئة نحو الناس، وما كنت أظن أنه يمتلك كل هذا القدر من الكبرياء الذى جعله يختلف مع أم كلثوم.

كانت أم كلثوم تدفع للشيخ زكريا أجراً مماثلاً لما تدفعه لبقية الملحنين الذين يتعاملون معها، فى حين أنه كان يشعر بالفوق وبأن ألحانه متميزة عن ألحانهم، ولقد عاصرت فترة خلافه مع أم كلثوم عن قرب، وكان يعتبرها مسألة كرامة.

لم يكن الشيخ زكريا يحب القراءة، وربما كانت «زقاق المدق» هى روايته الوحيدة التى قرأها، وأبدى إعجاباً بها للدرجة التى جعلته يعيد صياغتها ويحكيها أمامنا كأنه المؤلف، بطريقته المثيرة للضحكنا وضحكه هو أيضاً، ولا أعرف من أين جاء الشيخ زكريا بالوقت اللازم لقراءة «زقاق المدق»؟ فقد كان يسهر يومياً حتى الصباح، وينشغل دائماً باللحانه وأعماله الجديدة والكثيرة جداً التى لا يجد لها الوقت الكافى، للدرجة أنه - كما قلت - كان يلحن وهو يجلس بيننا. ويذكرنى الشيخ زكريا بما سمعته عن أمير الشعراء أحمد شوقى، الذى كان يستقل الترام أحياناً ويأتيه الإلهام فيخرج علبه سجائره ويكتب قصيدة عليها. وكان الشيخ زكريا ينقطع عن سهراتنا أحياناً، وذلك عندما يرتبط باللحان عاجلة فى إحدى تمثيليات الإذاعة المصرية.

كان الشيخ زكريا يحب سيد درويش إلى درجة العبادة، وكان يتكلم عنه بانفعال شديد، ولا يمل أبدًا من الحديث عن أيام صعلكة مشتركة بينهما، وأنه كثيرًا ما كان يصطحب الشيخ سيد درويش في جولة بعد منتصف الليل في حواري القاهرة الشعبية المظلمة، ثم يختاران نوافذ منخفضة ومساوية لسطح الأرض، يجلسان القرفصاء بجوار هذه النوافذ، ويتصافيان أن يكون صاحب البيت في حالة خاصة جدًا مع زوجته، فيسمعان الأصوات الصادرة عن ذلك الوضع في سعادة، وربما تلهمهما تلك الأصوات الليلية نغمة موسيقية جديدة.

ويبدو أن الشيخ سيد درويش كان مثل الشيخ زكريا أحمد يميل إلى حياة الصعلكة والتحرر الكامل من القيود، وجاء موت سيد درويش المفاجئ صدمة للشيخ زكريا. وطبقًا لروايته التي قصها علينا، فإن سيد درويش كان يجهز لحناً جديدًا لاستقبال الزعيم سعد زغلول. وحجز لنفسه حجرة في أحد الفنادق القديمة بالإسكندرية حتى ينتهي من اللحن سريعًا، وحدث أن تناول جرعة زائدة من المخدر، ولأنه بمفرده في حجراته أخذ ينزف حتى مات، وأظن أن الرواية صحيحة، لأن سيد درويش كان قوى البنيان وفي عز الشباب، ومن ثم لا بد أنه ارتكب غلطة من هذا النوع أودت بحياته، وهو نفس ما حدث لموسيقى آخر كنت أحبه، وهو الشيخ محمود صبح. ورغم أن محمود صبح كان ضريبًا، فإنه كان يهوى «الملاكمة» و«رفع الأثقال» و«ركوب الدراجات»، وكان يتمتع بصحة جيدة، ويبدو أنه أخذ كمية زائدة من المخدرات سببت له هبوطًا حادًا في الدورة الدموية فمات، وكما قال لي ذات مرة صديقي الدكتور أدهم رجب، إن هناك خطأً أحمر في تعاطي المخدرات، وأي تجاوز له يكلف صاحبه حياته كلها.

جلست إلى الشيخ محمود صبح أكثر من مرة وكنت أجده شخصية ممتعة، ومتحدثًا لبقًا، وعاشقًا للنكتة، وللشيخ محمود صبح صوت رهيب لم تر الحنجرة المصرية مثله. وأطرف ما في حياته تلك المشاجرات على الهواء والتي كان يمارسها في محطات الإذاعة الأهلية، وأذكر مشاجرة له مع مدحت عاصم على الهواء، حيث دخل الشيخ صبح الاستوديو وغنى لبضع دقائق ثم سكت فجأة ليقول: «اسمع الأغنية القادمة يا مدحت عاصم يا أعمى!» ثم واصل الغناء. والطرافة هنا أن الشيخ محمود صبح هو الذي كان ضريبًا وليس مدحت عاصم، والشيخ «صبح» مثله مثل الشيخ «زكريا» وكل الملحنين في ذلك العصر، لم يدرس الموسيقى في مدرسة أو معهد، إنما تعلمها مباشرة على يد أستاذ في الموسيقى الشرقية،

وهو نوع من التعليم أشبه بطريقة دراسة الأدب العربي قديماً، حيث كان طالب العلم يذهب إلى أستاذ معروف يدرس على يديه ويتعلم منه ويلزمه فترة طويلة حتى يأخذ عنه العلم، وكان الشيخ صبح صاحب موهبة عظيمة وله شخصية جبارة، ولكن المخدرات أضاعته كما أضاعت سيد درويش.

عن طريق الشيخ زكريا أحمد تعرفت على الشاعر والساخر الكبير «بيرم التونسي»، وكان اللقاء الأول بيننا في سهرة «صلاح زيان». وكنت أظن أن الجلسة سوف تنقلب إلى المزيد من الفكاهة والضحك في وجود بيرم التونسي، ولكنني فوجئت بشخص مختلف تماماً عن تلك الصورة التي رسمتها له في ذهني. جلس بيرم في ركن بعيد عنا ولم يفتح فمه طوال الجلسة، وفي المرات القليلة التي تحدث فيها كانت كلماته مقتضبة وملئية بالأسى والمرارة، ويبدو أن مرد ذلك للمأسى التي مر بها في حياته ومعاناته وعذابات.

توطدت صلتى ببيرم التونسي إلى حد ما بعد أن عملنا معاً في كتابة سيناريوهات بعض الأعمال السينمائية مثل فيلم «ريا وسكينة»، حيث شارك بيرم في كتابة الحوار والأغاني. وعلى الرغم من ندرة اللقاءات بيننا والفترة القصيرة التي جمعتنا معاً في العمل، فإن بيرم كان متابعاً لأعمالى كأديب أكثر مما تابعنى الشيخ زكريا فى عملى الأدبى.

من أبرز ما يميز الشيخ زكريا كموسيقى ألحانه الشرقية الأصيلة، ومع ذلك لم يكن له موقف معاد من الموسيقى الغربية، ولم أسمعه يوماً يهاجمها، بل كان يرى فيها فناً جميلاً، ولكنه كان يرى أن مذاقها مختلف تماماً عن موسيقانا. وفي رأى الخاص أن الانفتاح على الثقافة الغربية لا يعنى بالضرورة إضاعة أصالتنا وتراثنا، ولذلك فإننى أختلف مع الذين زعموا أن محمد عبدالوهاب أفسد الموسيقى الشرقية، بإدخاله للآلات الغربية وتأثره بالموسيقى الغربية، وأرى أن عبدالوهاب أغنى موسيقانا وأثراها وطورها من خلال هذا التأثير بالغرب، وقد مزج بين اللونين الشرقي والغربي ببراعة، وجعل منهما نسيجاً واحداً متناغماً. وهذا هو سر عبقرية عبدالوهاب، لأن المزج يحتاج إلى حس وذكاء غير عاديين. أما الآخرون الذين حاولوا مزج الموسيقى الشرقية بالغربية، فأشعر فى ألحانهم بالتناقض بين هذين اللونين وبالاقتعال فى التراكيب الموسيقية.

وفى اعتقادى أن سيد درويش لو امتد به العمر لفعل ما فعله محمد عبدالوهاب وسار فى نفس الطريق، خاصة أنه كان ينوى السفر لدراسة فن الأوبرا فى أوروبا. ومن المعروف

أن سيد درويش كان ثائرًا على الموسيقى التقليدية السائدة في أوائل هذا القرن، ولديه رؤية  
عصرية متطورة، ويميل إلى أسلوب الأغاني الجماعية والاستعراضية، كما وجد نفسه في  
«الأوبريت» المسرحي.

استمرت علاقتي بالشيخ زكريا أحمد منذ بداية الحرب العالمية الثانية وحتى وفاته عام  
١٩٦٢. ولقد تأثرت بشخصيته في قصة قصيرة كتبها بعنوان «الزغبلاوى».

تعلقت بالغناء منذ الطفولة، وفي بيتنا وجدت عددًا كبيرًا من الأسطوانات لكبار مطربي  
ذلك الزمان. وفي بيتنا أيضًا أقيمت حفلات غنائية في المناسبات السعيدة، وكانت هذه  
الحفلات تجمع بين لونين من الغناء: «العوالم» في مكان خاص بالسيدات، والمطربين  
في مكان خاص بالرجال. وبما أنني كنت طفلًا فقد تنقلت بين المكانين واستمعت إلى  
اللونين في تلك الحفلات. وصل حبي للغناء إلى درجة العشق، وحفظت ذاكرتي الكثير  
من الأغنيات كنت أرددها مع نفسي أو بين الأصدقاء وفي الرحلات، وكنت أشعر بمتعة  
بالغة عندما يصطحبني والدي إلى مسارح روض الفرج، وكانت «روض الفرج» هي مصيف  
أهل القاهرة في شهور الصيف آنذاك. كانت الفرق المسرحية في «روض الفرج» تقلد فرق  
شارع عماد الدين الشهيرة، فتجد من يقلد «على الكسار» أو «نجيب الريحاني» أو يعرض  
«أوبريت» لسيد درويش. ومن خلال مسارح روض الفرج شاهدت كثيرًا من العروض  
المسرحية الشهيرة التي لم تتح لي الفرصة لمشاهدتها عند أصحابها الأصليين في مسارح  
عماد الدين.

وعندما بدأت الإذاعة المصرية عام ١٩٣٤ أخذت مسارح روض الفرج في التلاشي.  
فقد قدمت الإذاعة الأوبرا والأوبريتات القديمة فاكتفى الناس بسماعها في الراديو. وأذكر  
يومًا أنني كنت أجلس في غرفتي منهمكًا في الكتابة، وفجأة سمعت في الراديو مشهدًا من  
إحدى المسرحيات التي شاهدها في «روض الفرج»، فقفزت من مكاني وألصقت أذني  
بالراديو، واكتشفت أن المسرحية من أعمال سيد درويش، وكنت أحفظها وأرددها دون  
أن أعرف اسم المؤلف. وكثير من الأعمال التي شاهدها في روض الفرج كنت أحفظها  
وأرددها دون أن أعرف مؤلفها الأصلي.

وإذا كنت لم أحضر حفلات مطربي الجيل القديم مثل «صالح عبدالحى» و«عبد اللطيف  
البنا» وغيرهما إلا أنني عرفتهم جيدًا، وحفظت أغانيهم من خلال الأسطوانات. وعندما

ظهر «عبدالوهاب» و«أم كلثوم» تعلقت بهما وتابعتهما فى شغف. ولقد ظهرت أصوات أخرى مواكبة لهما زمنياً إلا أنها لا تقارن بهما. ثم ظهر نوع آخر من المطربين الذين يقلدون الفرق الغنائية الغربية وروجوا للأغاني المسماة «الفرانكو آراب»، ورغم أننى اعتبرتها خارجة عن الموضوع وعن الغناء والطرب الشرقى، فقد وجدت فيها بعض الملاحظة وكنت أتابعها. ثم جاءت الموجة الحالية من الأغاني (الشبابية) وأحياناً أستمع إليها وأنا أركب السيارة مع ابنتى، ولكننى لا أستطيع التمييز بين أصوات أصحابها، ودائماً ما أخطئ فى أسمائهم، لأن الأنغام متقاربة والأصوات متقاربة، استمعت منهم إلى أغنيات لطيفة، ولكننى لم أجد فرقاً يذكر بين حنجرة وأخرى، كما لم أجد من بينها صوتاً له شخصية خاصة. والمطرب الوحيد الذى استطاع الحفاظ على تميزه وسط هذا الطوفان الغنائى منذ وفاة عبدالحليم حافظ وحتى الآن هو «أحمد عدوية». و«عدوية» فى رأى صاحب صوت قوى ومؤثر، وله أسلوبه الشعبى المميز، وأغانيه «الكاريكاتيرية الطريفة» لا يجاريه فيها أحد.

قبل قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ كانت هناك أصوات ممتازة، لكنها كانت بالنسبة لى ثانوية إلى جوار عبدالوهاب وأم كلثوم. كانت هناك «أسهمان» بصوتها القوى المعبر الذى لا يستطيع أن تجد فيه عيباً واحداً، ومع ذلك لم أتعاطف مع هذا الصوت، بالضبط كما تلتقى بشخص جميل ولا تميل نفسك إليه رغم جماله، وكان إحساسى بصوت شقيقها «فريد الأطرش» هو نفس الإحساس، فهو يمثل نوعاً من الجمال لا تميل إليه نفسى، هذا على الرغم من إعجابى بالغناء الجبلى الشامى، وخاصة أصوات «صباح فخري» و«وديع الصافى» ومن قبلهما «فيروز». فصور فيروز يسحرني ويترك فى نفسى تأثيراً عميقاً.

وقد بلغ من حبنى للموسيقى والغناء أننى التحقت بمعهد الموسيقى العربية ودرست فيه لمدة عام كامل، ويبدو لى الآن أننى لو كنت وجدت توجيهاً سليماً من أحد لتغير مسار حياتى واخترت طريق الموسيقى وليس الأدب. أنا لم أفكر يوماً فى أن أصبح فناناً تشكيمياً رغم حبنى للفن التشكلى، ولكن كان ممكناً أن أحترف «الموسيقى» من شدة افتتاني بها، ولكن - على أى حال - فقد كان للقدر تصارييف أخرى.

كان التحاقى بمعهد الموسيقى العربية عام ١٩٣٣، وكنت وقتذاك طالباً بالسنة الثالثة فى كلية الآداب جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة الآن). وكانت النظم الجامعية المعمول بها تسمح لمن هم فى السنة الثالثة بأداء امتحان الليسانس مباشرة، وبذلك لا أكون ملزماً بأداء

امتحانات السنة الثالثة. فانتهزت الفرصة وقررت دراسة الموسيقى، والتحقّت بالمعهد لمدة عام وحصلت في نهايته على أعلى الدرجات. ولكنني لم أواصل الدراسة في العام التالي، فقد كان على الاستعداد لامتحان اللسانس في كلية الآداب. وإلى وقتنا هذا مازلت أحفظ أداؤاً من تلك التي درستها في معهد الموسيقى العربية، ومازلت أحفظ من دور «السماعي الدارج» أجزاء «بالصولفيج»، وذلك لأنني كنت أعزف على آلة القانون، وعزفت خمسة «بشارف». ولكنني نسيتهما الآن. وكان أستاذي في آلة القانون حفيداً للعقاد الكبير عازف آلة القانون في فرقة أم كلثوم الأولى، وابن العقاد بك مدير المعهد. و«العقاد بك» حادثة معي لا أنساها. حيث كان لديه عيب في حنجرته يجعل صوته أشبه «بالشخير» أحياناً، وفي أول مرة أذهب فيها إلى المعهد طلبوا مني مقابلة المدير، فدخلت مكتبه، وطلبت الالتحاق بالمعهد، فجعّلني أجلس أمامه وأبدى ملاحظة عن تقدمي في السن قليلاً بالنسبة لمبتدئ في الموسيقى. وأبلغته أنني طالب في الجامعة، فوافق على انتسابي للمعهد، وسألني عما إذا كنت اخترت آلة موسيقية معينة لكي أدرسها، فقلت له إذا كانت دراسة الآلة الموسيقية إجبارية فإنني أختار آلة القانون. ففوجئت به يصدر هذا الصوت الذي هو أشبه «بالشخير»، فاعتقدت أنه يعبر به عن رفضه لي أو احتجاجه على اختياري لآلة القانون، فتألمت واحمر وجهي خجلاً ولكنني التزمت الصمت. إلا أنه قدم لي استمارة بيانات لأملأها، وأثناء تدويني للبيانات المطلوبة تكرر منه هذا الصوت الغريب وهو صوت «الشخير» أكثر من مرة، ففهمت أن ذلك صادر عن عيب في الحنجرة وليس فيه أي قصد، ولم يكن أحد قد نبهني إليه قبل أن ألتقي به، كما حكى لي المرحوم الموسيقار عبدالحليم نويرة حكاية طريفة عن هذا الرجل. ففي افتتاح معهد الموسيقى صمم «العقاد بك» على أن يشارك في الأوركسترا التي ستقوم بعزف السلام الملكي في الحفل الذي سيحضره الملك فؤاد. وحاول كثيرون إنشاء عن عزمه وشرحوا له إمكانية أن تفاجئه عادته الغريبة وهي «الشخير» أمام الملك، لأن الصالة ستكون هادئة وإذا خرج هذا الصوت فلا بد أن يسمعه الملك، ولا بد أن يعتبر ذلك إهانة شخصية له فيغلق المعهد قبل أن يفتتحه. ولكن الرجل صمم على موقفه ووعدهم بالألا يتنفس، وبأنه سوف يسيطر على نفسه ويتحكم في صوته إلى أن تنتهي الحفلة. وبالفعل صدق فيما وعد طوال الحفلة التي ما إن انتهت حتى اختبأ خلف الستار وفعلها وكأنه كان مكتوماً.

أما العقاد الكبير، وهو والد «العقاد بك»، فكان أعظم عازف قانون في عصره، ومن

الأعضاء البارزين في فرقة أم كلثوم الأولى. ولقد استمعت إلى عزفه في حفلات أم كلثوم في مسرح «الماجستيك»، الذي تحول بعد ذلك إلى عمارة ضخمة في أول شارع عماد الدين من ناحية شارع فؤاد. كانت هذه الحفلات في العشرينيات، وواظبت على حضورها منذ أن كنت طالبة في الصف الأول الثانوي وحتى التحاقى بالجامعة. بعدها انتقلت أم كلثوم بحفلاتها إلى حديقة «الأزبكية».

في حفلات «الماجستيك» كانت أم كلثوم تبدأ بـ «مونولوج»، أى أغنية فردية، وكل أغانيها الفردية كانوا يسمونها «المونولوج»، ثم تغنى قصيدة، ثم تختتم حفلتها بـ «طقطوقة»، أى أغنية خفيفة من نوعية «حود من هنا». وأحياناً تستبدل «بالمونولوج» دوراً من أدوارها القديمة. و «الدور» يتميز بوجود «كورال» يرد وراء المطرب. وكان لمحمد عبدالوهاب في بداياته أدوار يستعين فيها «بالكورال». وعندما ظهر «الراديو» كنت أفضل الاستماع إلى حفلات أم كلثوم في راديو المقهى. خاصة أن أسعار تذاكر الدخول أخذت ترتفع بمرور الوقت، بل تحول أمر الحصول على تذكرة لإحدى حفلاتها إلى أمر شاق. وكانت آخر حفلة حضرتها لأم كلثوم في مسرح «الماجستيك»، ورافقنى فيها مثل كل الحفلات صديقى «إبراهيم فهمى دعبس»، وهو ضابط مهندس تولى فيما بعد رئاسة شركة كبرى وأظنه مازال حياً يرزق.

ومع حبى لأم كلثوم لم أعرفها معرفة شخصية ولم أتحدث إليها مباشرة إلا مرة واحدة فقط، وذلك فى الحفلة التى أقامتها جريدة الأهرام لتكريمى بمناسبة بلوغى الخمسين من عمرى سنة ١٩٦١. حيث اتصل بها الأستاذ محمد حسين هيكى وعرض عليها حضور الحفلة فوافقت بدون تردد. وكانت مفاجأة لى، لأننى لم أتوقع أن يكون لها اهتمامات بالقصة والرواية، وكنت أسمع الكثير عن ثقافتها واهتمامها بالشعر. ولم أتخيل أن توافق بهذه السهولة على المشاركة فى احتفال أدبى خالص. وكانت هذه هى المرة الوحيدة التى ألتقى فيها مباشرة بالسيدة «أم كلثوم» ويدور بيننا حوار. وكذلك لم أقابل محمد عبدالوهاب سوى مرتين، وكانت المراتن فى منزل الدكتور مصطفى محمود، ولم أتمكن من التعرف على شخصيته عن قرب نظراً لوجود عدد كبير من الضيوف، أذكر منهم محمود السعدنى، الذى سيطر كماداته على الجلسة بخفة ظله وحديثه المتصل، ومن خلال ما سمعته عن محمد عبدالوهاب تأكد لى أنه من نفس فصيلة الشيخ زكريا أحمد: عاشق الكلام، وخفيف الظل.



نجيب محفوظ بين السيدة أم كلثوم والأستاذ هيكل في احتفال «الأهرام»  
بعيد ميلاد نجيب محفوظ الخمسين في ديسمبر سنة ١٩٦١.

فى بداية عصر أم كلثوم كانت توجد مطربة أعتبرها من أجمل الأصوات النسائية التى عرفتها مصر، وهى «منيرة المهدية». فصوتها من نفس طبقة صوت أم كلثوم أو أقل درجة، وقد شاهدت منيرة المهدية واستمعت إليها مرتين، الأولى فى مسرح رمسيس فى أحد العروض المسرحية مع يوسف بك وهبى. والثانية فى إحدى حفلاتها العامة وكان معى صديقى «إبراهيم فهمى دعبس». واكتشفنا أننا الشبان الوحيدان بين جمهور حفلة «منيرة المهدية»، أما باقى الحاضرين فقد كانوا من كبار السن، مما أدهش صديقى «إبراهيم» فسألنى: «ما الذى جعلك تأتى بنا وسط هؤلاء العجائز؟». وعندما غنت «منيرة المهدية» ظهر عليها التأثير بتقدم العمر، فكانت تغنى قليلاً وتسعل قليلاً، إلى أن أتمت الحفل، وأعلنت بعده اعتزالها الغناء. فكان لى شرف حضور آخر حفلة من حفلات «منيرة المهدية» التى حملت لها فى قلبى إعزازاً بالغاً. وقد أسست «منيرة المهدية» مجدداً على خشبة المسرح، عندما كان المسرح فى أوج ازدهاره وعظمته، ويعود الفضل فى شهرة عبدالوهاب

الأولى إلى «منيرة المهدية». فبعد الموت المفاجئ لسيد درويش دون أن يتم ألحان مسرحية «كليوباترا»، أسندت منيرة إلى عبدالوهاب مهمة إكمال الألحان، كما أسندت إليه القيام بدور البطولة «الرجالية» أمامها، وكان عبدالوهاب لا يزال شابًا صغيرًا في سن أبنائها، وكانت هذه الفرصة نقطة فاصلة في حياة محمد عبدالوهاب دفعته كثيرًا إلى الأمام، ووفرت عليه سنوات من المعاناة.

ربطتني صداقة بالموسيقار المرحوم عبدالحليم نويرة، وكانت أسرته تسكن بجوارنا في العباسية، وشقيقه فؤاد نويرة الذي أصبح طبيبًا بعد ذلك، كان يلعب معنا كرة القدم، رغم أنه أصغر منا بحوالي خمس سنوات. درس عبدالحليم نويرة الموسيقى الشرقية وتعلمذ على يد أستاذ إيطالي. واشترك في وضع ألحان كثير من الأعمال السينمائية الغنائية، وكانت له أمنية حاول تحقيقها قبل وفاته ولم يتمكن، وهي تحويل روايتي «رادوبيس» إلى أوبريت موسيقى. وقد عرض نويرة هذه الرواية على عدد من الشعراء الكبار مثل أحمد رامى لتحويلها إلى أشعار يسهل تلحينها، ولكنهم رفضوا، لأن اسمي لم يكن معروفًا لديهم في ذلك الوقت (سنة ١٩٤٣). وقد جاءني بعد فوزي بجائزة نوبل في الأدب عام ١٩٨٨ موسيقار هاو من كندا، وطلب موافقتي على تحويل رواية «اللس والكلاب» التي قرأها مترجمة في الإنجليزية، إلى عمل أوبرالي شبيه بأوبرا «عايدة». تعجبت وتذكرت «نويرة»، وقلت للشباب الكندي إن «رادوبيس» تصلح أكثر لهذا الغرض، وربما تجد فيها أجواء موسيقية أكثر من «اللس والكلاب» لأن «رادوبيس» تتصل بتاريخ الفراعنة المعروف والمحبوب في العالم كله، ولكنه صمم على موقفه، مؤكداً لي أنه وجد في رواية «اللس والكلاب» جواً موسيقياً درامياً يبحث عنه، وقال لي إنه استمع إلى كثير من الأغاني الدينية التي تناسب شخصية «علي الجنيدى» وهي شخصية الشيخ المتصوف الموجودة في الرواية. ولما رأيت تصميمه أعطيته توقيعى بالتنازل عن الرواية ليقوم بهذه التجربة الغريبة، فكانت فرحته لا توصف. وقال لي إنه ظن بعد فوزي بجائزة نوبل أن التعامل معي سيكون أمراً صعباً، وأنه ما كان يتصور أن أوافق على طلبه بهذه السهولة. وأرسل لي خطاباً بعد سفره يخبرني فيه بأنه انتهى من الجزء الأول من العمل الأوبرالي حيث حول الرواية إلى أشعار ومناظر، ثم انقطعت أخباره عني.

أعود إلى عبدالحليم نويرة لأروى قصة طريفة عنه. ففي أحد الأيام زارني شقيقه «مختار» وقص عليّ بعض الأخبار، ومن بين أخباره تلك أن عبدالحليم تزوج، فسألته

من هي الزوجة؟ فقال لي بالحرف الواحد: «تزوج أخت الضابط أنور السادات الذي كان متهمًا في قضية أمين عثمان». وكان ردي أن دعوت لهما بالتوفيق، وقلت لشقيقه «مختار»: إن الزوجة ليس لها ذنب ولم ترتكب جريمة. كان ذلك قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ قبل أن يلمع اسم السادات، وأنا أختلف مع الذين زعموا أن نورية استغل صلة النسب بينه وبين الرئيس السادات، وصحيح أن بعض الذين يحتلون المناصب العليا في مصر يصلون إلى مناصبهم عن طريق «الواسطة»، ولكن بالتأكيد توجد نسبة من بين هؤلاء تستحق المنصب لكفاءتها وجهدها وموهبتها الخاصة بها، و«عبدالحليم نورية» من هذه النسبة، فهو لم يأخذ إلا ما يستحق، بل وأقل مما يستحق، ويكفي أن «نورية» من خلال الفرقة الموسيقية التي كونها أعاد تراثًا موسيقيًا لا تعرفه الأجيال الحالية مثل أعمال داود حسنى ومحمد عثمان وغيرهما.

وفي سنوات الشباب دخلت في معارك مع أعداء الموسيقى الشرقية وضد المتحمسين إلى أقصى حد للموسيقى الغربية مثل الدكتور حسين فوزى، والذين كانوا يرون أن أفضل مكان لموسيقانا الشرقية هو «صناديق القمامة». كان عندي - ولا يزال - اعتقاد كامل بأن الموسيقى الشرقية فن عظيم، والواقع أن عبدالحليم نورية له أياد بيضاء على هذه الموسيقى، وقد أحدث فيها نهضة رائعة من خلال إعادة التراث القديم.

ومن أمتع البرامج الإذاعية التي كانت تشدني إليها، تلك البرامج التي كانت تقدم الأعمال القديمة، خاصة ألحان سيد درويش ومحمد عثمان وداود حسنى. وعن طريق عبدالحليم نورية تعرفت على «عزيز عثمان»، الذي كانت له شخصية ظريفة ومرحة للغاية انعكست على ألحانه وأغانيه مثل أغنيته الشهيرة «بطلوا ده واسمعوا ده» من فيلم «لعبة الست»، وكذلك مشاركته في أوبريت «اللى يقدر على قلبى» من فيلم «عنبر»، والذي غنى فيه «مربوط على الدرجة الثامنة» حيث تميز بأدائه الخاص والجميل. وعزيز عثمان هو ابن محمد عثمان الذى يعتبر «قاموس» الألحان المصرية. وكان المنافس الأول لمطرب يقال عنه «صاحب أجمل صوت عرفته مصر»، وهو «عبد الحامولى» الذى انفرد بالساحة الغنائية بعد إصابة محمد عثمان فى حنجرته أو إصابته بمرض الزهري، لا أعرف على وجه الدقة. المهم أن جهد محمد عثمان بعد المرض انحصر فى التلحين، وهو فى هذا المجال يتفوق على الحامولى بعشرة أضعاف. فألحانه تميزت بالأصالة والطرب الشرقى الجميل، أما الحامولى فقد اعتمد على جمال صوته لا جمال ألحانه، وإذا ما غنى «ريان يا فجل» فهو قادر على جذب الجمهور حتى الصباح.

لم أحضر حفلات الحامولى أو محمد عثمان، فقد ماتا قبل أن أولد، فالحامولى مات سنة ١٩٠١، ومحمد عثمان مات سنة ١٩٠٠، ولكننى استمعت إلى أعمالهما بصوت صالح عبدالحى، حيث كنت أستمع إلى سهرته الأسبوعية فى محطة الإذاعة، وكان أصدقائى يسخرون منه ويسمونه «حمار المحطة»، أى محطة الإذاعة. أما أنا فكنت أحبه وأقدره وأحترم فنه وموهبته.

لم أتعصب فى حياتى للون من ألوان الغناء، وفى الغالب تجد أن من يحب القديم فإنه لا يميل إلى الجديد، والعكس صحيح، أما أنا فأحببت القديم والجديد معا، الشرقى والغربى، البلدى والريفى والأفرنجى. ووجدت فى كل لون مزاياه وأسلوبه ونكهته، وأعطيت وقتًا للاستماع إلى كل الألوان، وهى نفس الروح التى تعاملت بها أيضًا مع المذاهب الأدبية. فلم أنكر أى لون أو مذهب أدبى باستثناء مذهب واحد عجزت عن فهمه هو «اللا رواية» كما سبق أن ذكرت.

ومن الفنانين الذين عرفتهم واقتربت منهم والتقيت بهم كثيرًا باعتباره من رواد «شلة الحرافيش» الفنان أحمد مظهر. وهو من الضباط الأحرار الأوائل على الرغم من أنه حين قامت الثورة كان خارج مصر. و«مظهر» من نفس دفعة جمال عبدالناصر فى الكلية الحربية، وكان له دور فى التمهيد لقيام الثورة، حيث اختاره تنظيم الضباط الأحرار للاتصال بالدكتور محمد صلاح الدين باشا وزير خارجية الوفد، وكان فى الوقت نفسه والد زوجة أحمد مظهر، وذلك لينقل للنحاس باشا رئيس حزب الوفد ورئيس الوزراء فى تلك الفترة (١٩٥٠ - ١٩٥٢) رسالة خطيرة. كان مضمون الرسالة أن تنظيم الضباط الأحرار يرتب لانقلاب يخلع به الملك، وأن التنظيم مستعد للتعاون مع «النحاس باشا» إذا أعلن موافقته على الانقلاب. ولكن «النحاس» رفض الفكرة على أساس أن الجيش لا يصح أن يتدخل فى السياسة، وقال الدكتور صلاح الدين لمظهر على لسان النحاس: «إن الجيش إذا دخل فى السياسة فإنه لن يخرج منها ثانية». وكلف التنظيم «أحمد مظهر» مرة ثانية بالذهاب إلى والد زوجته الدكتور محمد صلاح الدين باشا برسالة أخرى مضمونها يتعلق بالخلاف بينه وبين فؤاد سراج الدين، حيث كان صلاح الدين يتهم فؤاد باشا بالابتعاد عن مبادئ الوفد، وأنه من كبار الإقطاعيين الذين يحاولون أن يجعلوا من الوفد حزبًا مستأنسًا. وعرض الضباط فى رسالتهم إلى «صلاح الدين» القيام باغتيال فؤاد سراج الدين، ولكن صلاح الدين رفض الفكرة بشدة. وكما عرفت من أحمد مظهر فيما بعد فإن «النحاس باشا» و«سراج الدين باشا»

كانا على علم بوجود تنظيم الضباط الأحرار، خاصة بعد الانتخابات التي جاءت بالنحاس وحزب الوفد إلى السلطة سنة ١٩٥٠، ولكنهما تسترا على التنظيم ولم يبلغا الملك.



نجيب محفوظ وأحمد مظهر عضوان مؤسسان في «شلة الحرافيش»

وحتى تلك الفترة لم أكن أتوقع - ومعى كثيرون - أن يقوم الجيش المصرى بالثورة لأسباب كثيرة. أولها: أن تصورى عن ضباط الجيش آنذاك أنهم مجموعة شبان لا يهتمون بالسياسة، وأن الكثيرين من الضباط كانوا موالين للملك. وثانيها: أن أى حركة للجيش سوف تعيد «السيناريو» الذى حدث مع أحمد عرابى. ولذلك عندما قامت الثورة أصبت برعب شديد على استقلال مصر، وقلت لنفسى إن كل ما بنيناه سوف يهدم. وكان تصورى أن هناك قوة أجنبية ساعدت الجيش فى القيام بالانقلاب، فلم أتخيل أن جيشاً ضعيفاً يمكن أن يقف فى وجه ما بين ٨٠ إلى ٩٠ ألف جندى بريطانى يرابطون بسلاحهم فى منطقة القنال. وقد شرحت رأى بالتفصيل فى حديثى معك عن ثورة يوليو.

والفنان أحمد مظهر هو أحد مؤسسى «شلة الحرافيش»، بل إنه صاحب هذه التسمية. فكما قال لى إنه قرأ هذا اللفظ «الخرافيش» فى كتاب تاريخ قديم - أظنه تاريخ الجبرتى - وأعجبه اللفظ فأطلقه على «شلتنا» لأنه معبر عنها. «الخرافيش» تعنى الصعاليك، وكنا نحن أقرب إلى هذا المعنى بالفعل. و«مظهر» بالإضافة إلى ذلك كله هو من أكثر الفنانين الذين التقيت بهم ثقافة واحتراماً وحباً للحياة وللوطن.



## الفصل السابع

### الحرافيش وشلة العباسية

معنى الصداقة عندي - شلة العباسية ودور شقيق زوجة الرئيس عبد الناصر فيها - وزارة المعارف كانت السبب في تكوين الحرافيش - صديقي الطيب الذي راح ضحية مؤامرة خسيصة - عرفت هؤلاء: صلاح جاهين، محمد عفيفي، وعادل كامل - محمد عفيفي كان يمشق الخمور الرديئة - اختلف مع «إيسن» في هذا الرأي - التزامات الصداقة لم تعطلني عن الأدب أبداً.



■ ماذا تعني الصداقة عند نجيب محفوظ؟ وما هي ذكرياته عن أصدقائه القدامى؟ وما الذي بقي في ذاكرته عن «شلة» العباسية التي ارتبط مع أفرادها بصداقة قوية ما زالت مستمرة حتى الآن مع من بقي منهم على قيد الحياة؟... ثم ما هي حكاية الحرافيش؟ وكيف تكونت؟ ومن هم أقرب أصدقائه في هذه «الشلة» إلى قلبه؟... أسئلة كثيرة يجيب عنها نجيب محفوظ في هذا الفصل، ثم يتوقف عند ثلاثة نماذج من أصدقائه يراهم نماذج ليس من السهل أن تتكرر... ■

نجيب محفوظ: لعبت الصداقة في حياتي دورًا مهمًا. ولا تخلو مرحلة في حياتي من مجموعة أصدقاء أجد عندهم ومعهم التسلية والتجارب. وفي مرحلة الطفولة والصبا كانت الصداقة تحكمها الانفعالات، فبين عشية وضحاها يمكن أن تتحول الصداقة إلى خصومة. وفي اليوم التالي تعود من جديد، وهكذا طبيعة الأطفال وتقلباتهم. وفي العباسية تكونت أول «شلة» في حياتي، ارتبطنا معًا بعلاقة قوية حميمة، وبعض أفراد هذه الشلة ما زالت علاقتي بهم مستمرة حتى الآن، ولم تنقطع على مدار سبعين عامًا.

كانت شلة العباسية تضم «آل نورية» وخاصة فؤاد ومختار. ومنها الدكتور «أدهم رجب» وشقيقه «إسماعيل طلعت»، واسم كل منهما مركب. وعلاقتي بالدكتور «أدهم» ما زالت مستمرة حتى الآن، وملتقى في المناسبات، أو عند زيارتي للإسكندرية، وأحيانًا يتصل بي تليفونيًا. والدكتور «أدهم رجب» من المهتمين بالثقافة والأدب، ساعده في ذلك اتساع وقته حيث اختار دراسة الطب غير «الإكلينيكي». فليس لديه عيادة خاصة تستنزف وقته وجهده، كما أنه من أسرة ثرية. وأذكر أنه عندما بلغ سن الرشد كان يأتيه إيراد شهري من العقارات والأراضي يصل إلى خمسمائة جنيه مصري، وهو مبلغ هائل في ذلك الوقت من منتصف الثلاثينيات. ونظرًا إلى أنه لم يحرص على تنمية هذه الثروة أبدًا، فإن هذا الإيراد تراجعت قيمته مع مرور السنين، وأصبح هذا الإيراد - خاصة في سنوات الانفتاح - لا يساوي شيئًا، ووضع صاحبه ضمن فئة الفقراء.

ومن شلة العباسية: مصطفى كاظم شقيق السيدة تحية كاظم زوجة الرئيس عبدالناصر، وأحمد الحفناوى وهو غير الموسيقار المعروف، والألفى مأمون، والمعلم كرشو.

كما ضمت الشلة «نجيب الشويخي» الذي كنا نعتبره شرير الشلة، وقد اعتدى بالضرب على معظم أعضائها، حاملاً تهديده الدائم لأي عضو يختلف معه، ألا يخرج من بيته حتى لا يتعرض للضرب. وكان «نجيب الشويخي» من عائلة «الشويخ» المعروفة في العباسية، وكان من بين أفراد هذه العائلة شخص ثري، ولكنه مات فقيراً. أما «نجيب» فهو أساساً من الفرع الفقير في العائلة، ولم يكمل تعليمه، ومع ذلك كان بإمكانه الحصول على أى عمل فى أفضل الأماكن، لأن لديه الاستعداد التام لفعل أى شىء دون وازع من ضمير. فمثلاً إذا طلب منه رئيسه فى العمل أن يجلب له نساء عاهرات فلن يتورع عن القيام بهذه المهمة غير النظيفة، وأعتقد أننى قدمت مثل هذه الشخصية فى رواية «المرايا». ورغم طابع الشر الغالب على شخصية «نجيب الشويخي»، فإنه كان لا يخلو من طرافة. وربما كان هذا هو السبب الرئيسى الذى جعلنا نبقى عليه ضمن الشلة بعد أن فشلنا مراراً فى طرده منها.

وأذكر أن «نجيب الشويخي» تسلل فى إحدى الليالى إلى بيت فى العباسية لسرقه «تكعية» غنّب، فوقع فى يد صاحب البيت الذى سلمه للشرطة. وقُدّم «الشويخي» للمحاكمة وحرصنا على حضور جلسة المحاكمة، وكان معنا حسن عاكف طيار الملك. وكنا على ثقة من أن «الشويخي» سينال عقاباً رادعاً يلحقه برواد السجن، كما كنا على ثقة من أن العدالة الإلهية ستخلصنا من شروره بعد أن فشلنا فى التخلص منه، وفوجئنا بالقاضى يطلق سراحه - بعد أن قام بتوبيخه - نظراً لحداثه سنه. فخرجنا من القاعة ونحن فى غاية الأسف، نجر أذيال الخيبة والإحباط. أما حسن عاكف فكان مذهولاً يضرب كفا بكف ومردداً: «هذا ظلم»..

كان مقهى «عرايى» هو المكان الدائم للقاء شلة العباسية، وظللنا سنوات طويلة نحرص على هذا اللقاء حتى باعدت بيننا الأيام، ولقد بقى أغلب الشلة فى العباسية، فى حين لم يهاجر منها سوى عدد محدود: مصطفى كاظم وأدهم رجب وأنا بعد الزواج. ولم يبق على صلة بى من شلة العباسية حتى الآن سوى أدهم رجب.

وإذا كانت شلة العباسية تكونت لأسباب غير أدبية، وإنما بسبب الارتباط بالمكان، فإن الأدب كان هو السبب الرئيسى لنشأة «الحرافيش». فمن خلال مجموعة الأدباء الشبان الذين فازوا بجائزة وزارة المعارف فى مطلع حياتهم الأدبية تكونت «الحرافيش»، وضمت: عادل كامل، على أحمد باكثير، يوسف جوهر، محمد عفيفى، وأنا. وتوطدت صداقتنا بعد أن أنشأ عبدالحميد جودة السحار «لجنة النشر للجامعيين» وطلب منى الاتصال بهذه المجموعة لينشروا أعمالهم من خلال هذه اللجنة. ووافقوا جميعاً على العرض باستثناء محمد عفيفى

الذى قرر طبع مؤلفاته على نفقته الشخصية، كما رفض يوسف جوهر لأنه وجد عملية النشر عند السحار غير مجزية من الناحية المادية.

وتمت عدة لقاءات فيما بيننا من أجل الاتفاق على الأسلوب الذى ستعامل به مع اللجنة، وفى أحد هذه اللقاءات أخبرنى عادل كامل بأنه ومجموعة من أصدقائه يلتقون فى سهرة أسبوعية منتظمة، وطلب منى الانضمام إليهم فوافقت. وعندما انضمت إليهم وجدت بينهم أحمد مظهر والكاتب عاصم حلمى - رحمه الله - ولم يكن للقب «الكاتب» الذى أطلقناه عليه أى ارتباط بممارسة الألعاب الرياضية. ووجدت بينهم أحمد زكى مخلوف الذى كنت أعرفه حيث عملنا معاً فى إدارة الجامعة. وتوطدت صداقتى بهذه المجموعة، وحرصت على حضور الجلسة الأسبوعية. كان «الكاتب» عاصم حلمى يقوم باستضافتنا مرة واحدة كل عام فى مزرعة يمتلكها بناحية «أسطنها» بمحافظة المنوفية. وكان والده وهو من أصل تركى موظفاً فى الديوان الخديوى. «الكاتب» نفسه موظف ويتمتع بخفة ظل لا مثيل لها، وهواياته المفضلة هى: الطعام والحشيش وأم كلثوم، فى حين يكره الكلام فى السياسة. ومن سخرية القدر أنه مات بسبب السياسة. فبعد النكسة فى عام ١٩٦٧ قرر الرئيس عبدالناصر زيارة الجبهة. وبسبب تأمين رحلة الرئيس من القاهرة إلى الجبهة تشكلت لجنة أمنية قررت القبض على أعداء الثورة فى المناطق التى يمر بها موكب الرئيس خشية تعرضه لأى اعتداء. كما قررت اللجنة اعتقال كل الإقطاعيين ممن صادرت الثورة أراضيهم لصالح الفلاحين. وكان خط سير الرئيس يمر بالمنوفية، فاستغل أحد خصوم «عاصم حلمى» الفرصة، وأوعز للجنة بأنه من بين الإقطاعيين الذين يضمرون عداً للثورة وزعيمها. ورغم أن الرجل يكره السياسة ولا يطبق الكلام فيها. كما لم يحمل فى يوم من الأيام صفة «إقطاعى» إلا أن اللجنة أمرت بالقبض عليه، وتركته منسياً لمدة شهرين فى إدارة المخابرات، لقى خلالها معاملة غير كريمة.. وخرج من هذه المحنة فاقداً لذاته وكارهاً للحياة وانعزل عن الناس، وأغلق عليه باب حجرته، وأطلق لحيته. وحكى لنا الدكتور لويس عوض، وكان أحد زملائه فى فترة اعتقال سابقة عن المعاملة التى تعرض لها وكيف أثرت على حالته النفسية، وذهب «الكاتب» عاصم حلمى ضحية مؤامرة لا ذنب له فيها.

والحديث عن الصداقة يجعلنى أتوقف أمام ثلاثة نماذج من الأصدقاء:

• أما الأول فهو المرحوم محمد عفيفى، ومعرفتى به جاءت عن طريق المرحوم صلاح أبو سيف، فقد استعان به أبو سيف لكتابة حوار أحد الأفلام بعد أن اتفق معى على كتابة

السيناريو. كان ذلك عام ١٩٤٩، ومن يومها توطدت صلتى بمحمد عفيفى، فقد اكتشفت فيه شخصية إنسانية رائعة، دعانى محمد عفيفى للانضمام إلى شلة «العوامة»، وهى مجموعة من الأصدقاء كانوا يستأجرون «عوامة» على النيل لقضاء السهرات، التى لم تكن تخلو من البيرة والحشيش، وكما دعانى لشلة «العوامة» دعوته إلى شلة الحرافيش التى سرعان ما اندمج فيها.

بدأت اجتماعات الحرافيش وسهراتهم فى شوارع القاهرة ومقاهيها، ثم انتقلت إلى بيت محمد عفيفى فى الهرم، ولم تنتقل إلى بيت عادل كامل إلا فى السنوات الأخيرة، وبعد وفاة محمد عفيفى.

وإلى جانب شخصيته الممتعة وأخلاقه الرفيعة كان «محمد عفيفى» يتمتع بموهبة أدبية نادرة، ويمتلك حسًا ساخرًا اعتبره امتدادًا للمازنى والجاحظ وفولتير ومارك توين. كانت الصور الفكاهية التى يكتبها محمد عفيفى من أمتع وأرقى ما قرأت فى حياتى، ولم تكن السخرية عند محمد عفيفى نابعة من الألم أو المعاناة فى حياته الشخصية، فقد كان يعيش حياة عائلية مستقرة، كما أن مرض السرطان الذى أودى بحياته لم يكتشفه أو يعلم به إلا مصادفة فى أواخر أيامه، وفى أحد الأيام لاحظ ابنه، وهو طبيب، شيئًا يشبه التبقع الصغيرة فى ذفن أبيه، وأصر على اصطحابه إلى طبيب، ولم يوافق محمد عفيفى إلا بعد إلحاح، معتقدًا أن الأمر بسيط، ثم اكتشف حقيقة مرضه، ومات بعدها بقليل، وأغرب ما فى شخصية عفيفى من طباع حبه للخمر الرديئة وإقباله بشغف على تناولها، بينما يرفض الأنواع الجيدة ولم يذق هذه الأنواع الجيدة طوال حياته. وخسارتنا فى هذا الكاتب الساخر عظيمة، وربما يعوض جزءا من هذه الخسارة أن تتولى إحدى دور النشر تجميع مقالاته المتفرقة من الصحف والمجلات المختلفة التى عمل بها وتصدرها فى مجموعة واحدة حتى تستفيد منها الأجيال الجديدة، وهذا هو ما بدأت تقوم به إحدى دور النشر حاليًا.

• أما النموذج الثانى من الأصدقاء فهو صلاح جاهين - رحمه الله - ولقد تعرفت عليه بعد تكوين شلة الحرافيش بوقت طويل، ولكنه ما إن انضم إلينا حتى واطب على حضور جلساتنا إلى أن اقترن بزوجته الثانية، السيدة «منى قطان»، فشغلته أمور الزواج ومسئوليته، وانقطع عن الحضور، مثلما انقطع الدكتور مصطفى محمود بعد أن دخل فى دور «الدروشة». وفى تاريخ الحرافيش تعودنا على ظاهرة الأعضاء غير الدائمين، الذين يواظبون لفترة من الزمن ثم

ينقطعون، أو الذين ينضمون إلينا في مواسم معينة ثم يختفون بقية السنة، مثل الدكتور لويس عوض وأحمد بهاء الدين، وعندما مات صلاح جاهين بالطريقة المأساوية التي نعرفها، حيث يقال إنه ابتلع كمية كبيرة من الحبوب المهدئة قضت عليه، حزننا وتأثرت لوفاته، وقررت أن أكتب كل ما أعرفه عنه في عمل روائي، وكنت أعرف الكثير، واتضح لي أن هذا القرار قد يسبب لي مشاكل كثيرة، خاصة أن الرواية إذا ما كتبتها سوف تتضمن شخصيات معاصرة بالإضافة إلى وقائع وأحداث ليس لي الحق في سردها، وتوصلت في النهاية إلى أن أكتب رواية عن «شخصية» صلاح جاهين، على أن أعدل وأغير قليلاً في ملامحها حتى لا يتعرف عليها القراء، وكتبت رواية «قشتمر» وعبرت فيها عن مأساة هذا الرجل. والطريف أن ابنه - بهاء جاهين - تعرف على «شخصية» والده بسهولة عندما قرأ الرواية على الرغم مما حاولته من إدخال تغييرات في ملامحها، وإلى جانب صلاح جاهين ضمت رواية «قشتمر» «شخصية» أخرى أكن لها كل التقدير والاحترام والمودة، وكان صاحبها من خارج الوسط الأدبي، وهو المرحوم الألفي مأمون.

أما بقية الشخصيات في رواية «قشتمر»، فهي شخصيات خيالية قصدت بها تصوير نماذج مختلفة تعيش في مجتمعنا.

● والنموذج الثالث الذي أتوقف عنده هو الصديق عادل كامل<sup>(١)</sup>، الذي كانت له بداية

(١) اشتهر عادل كامل في الأوساط الأدبية بروايته: «مليم الأكبر» و«ملك من شعاع». ولكن عادل كامل كان يكتب إلى جانب ذلك القصة القصيرة والمسرحية. وفي سنة ١٩٦٤ قدم له «المسرح الحديث» مسرحيته الوحيدة الطويلة واسمها «ويك عترة». وقد ظهرت المسرحية في «المسرح الحديث» بعد تعديل اسمها إلى «عترة وأنجه». و«أنجه» هو اسم بطللة المسرحية. والمسرحية جميلة جداً في نسيجها الفني الناعم وفي دعوتها الاجتماعية القوية التي كانت تهاجم تعالي الطبقة الغنية على الطبقات الفقيرة. وقد كتبت عن هذه المسرحية مقالاً في جريدة «الجمهورية» سنة ١٩٦٤. ثم أتبعته في نفس السنة، وفي جريدة «الجمهورية» أيضاً بمقال عنوانه «بين الحلم والكاينوس» حاولت فيه أن أقدم اجتهداً خاصاً أفسر فيه توقف عادل كامل عن الكتابة واستمرار نجيب محفوظ فيها، وهما قد بدأ معا في وقت واحد على التقريب، وخلاصة هذا المقال أن عادل كامل كان من «الحالمين»، وكان يتصور أنه يستطيع أن يغير المجتمع بكتابات وليمحو ما فيه من ظلم وأخطاء، ولكنه بعد أن أصدر عدة أعمال، لم يجد صدى لها أكثر من الصدى الأدبي، ولم يتغير المجتمع، فانسحب، لأن أحلامه لم تتحقق أما نجيب محفوظ فقد كان يكتب منذ البداية وهو يشعر أن الواقع الاجتماعي هو «كاينوس» كبير وليس حلمًا، وأن هذا الكاينوس لا يمكن أن يزول بين يوم وليلة، وأنه بحاجة إلى صبر شديد ووقت طويل. ولذلك استمر نجيب محفوظ في الكتابة، ولم يتعرض للصدمة التي تعرض لها «الحالم» عادل كامل. «ر. ن»

أدبية متميزة، ولقيت أعماله خاصة روايته «مليم الأكبر» و «ملك من شعاع» استحسان النقاد والقراء، وذهبت التوقعات إلى انتظار مولد موهبة أدبية كبيرة. وكان من رأى أن عادل كامل هو الأديب الوحيد فى جيلنا الذى يمكنه التفرغ للأدب مثلما فعل محمود تيمور، فقد كانت أحواله المالية مستقرة إلى حد كبير، وكنا نعتبره من الأعيان. فعندما تعرفنا عليه كان يمتلك سيارة خاصة، فى وقت كان فيه عدد السيارات الخاصة فى القاهرة محدودًا، ونعرف أسماء أصحابها بالاسم، وفجأة انقلب عادل كامل على الحياة الأدبية وبدأ يشكك فى الأدب وقيمه، وترجم شكه إلى هجرة عن الأدب واعتزال للكتابة، والاتجاه إلى ممارسة مهنة المحاماة.

وقصة عادل كامل مع الأدب تذكرنى بقصة مشابهة لصديق آخر هو أحمد زكى مخلوف، الذى كتب روايتين، لفتت إحدهما الأنظار إليه وهى «نفوس مضطربة» وقد أعجبتنى، وفجأة اعتزل الحياة الأدبية وترك الكتابة بصورة نهائية.

وفى حديثى عن الصداقة والأصدقاء أحب أن أتوقف عند ملاحظة هامة عن تبعات الصداقة والتزاماتها، فالصداقة لم تؤثر فى وقت من الأوقات على التزاماتى أو مسئولياتى الأدبية، ولم يعطلنى الأصدقاء أبدًا عن الكتابة، ومن هنا أختلف مع ما نقلته أنت لى من رأى «لهنريك إيسن» صاحب مسرحية «بيت الدمية» وغيرها، حيث يقول: «إن الأصدقاء من الكماليات الباهظة وليس فى وسع إنسان يستثمر رأس ماله فى دعوة ورسالة فى الحياة أن يحتفظ بهم، وليست تكاليف الصداقة ناجمة عما يتكبده الإنسان من أجل أصدقائه، ولكن عما يحجم عنه إكراماً لهم». وفى رأى أن كلام «إيسن» هو كلام إنسان لا يعرف قيمة الصداقة، ولم يستمتع يوماً بها، وإذا كان هناك بين الأصدقاء من يمكن أن يزعجك أو يسبب لك متاعب أو يضيع وقتك، ففى إمكان الأديب أو صاحب الرسالة أن يتغلب على هذه المتاعب بسهولة، ولا يسمح لأحد أن يعطله أو يعيقه عن أداء واجباته والتزاماته. وبشئ من التنظيم والانضباط يمكن أن ينسق الأديب بين التزاماته الأدبية والتزاماته تجاه أصدقائه، بحيث لا تجور إحدهما على الأخرى.

## الفصل الثامن

### نساء فى حياتى

فتاة العباسية التى سحرنى وعشت معها أول قصة حب فى حياتى - قبل الزواج  
عشت حياة من العريضة الكاملة - نظرتى للمرأة كانت فى البداية جنسية - زوجتى  
غيرت مفهومي للزواج وللمرأة - الفتاة الثرية التى هربت منها وعصبت أُمى ولم  
أتزوجها - تزوجت سَراو «دخلت» فى بيت شقيقى - زوجتى وابنتاى لا أستشيرهن  
فى أعمالى الأدبية.



■ يصف نجيب محفوظ حياته قبل الزواج بأنها كانت حياة من العريضة الكاملة، ويشير إلى أنه لم يفكر في الزواج ظناً منه أن قيود الزواج ومسئولياته ستعطله عن التفرغ والتركيز في الكتابة والأدب. فماذا حدث وأدى إلى تغيير رأيه في الزواج ونظرته للمرأة، والتي كانت نظرة جنسية خالصة؟ في هذا الفصل يحكي نجيب محفوظ عن زوجته وطبائعها والأسباب التي دفعته للزواج منها، ويعود قبل ذلك بذاكرته إلى سنوات الطفولة والصبا ليحكي عن تجاربه الأولى في الحب... ■

نجيب محفوظ: علاقتي بالمرأة بدأت في سن مبكرة، ففي سنوات طفولتي والتي أمضيتها في حي «الجمالية»، كان متاحاً لنا اللعب مع البنات من نفس عمرنا، وخاصة في شهر رمضان، وكانت الصداقة الطفولية تلك تستمر حتى تصل البنت إلى أعتاب مرحلة المراهقة، وعندها تستقر في المنزل انتظاراً للزواج، في ذلك الجو الطفولي المفعم بالبراءة عشت أول قصة حب، وكانت قصة ساذجة وبريئة وقصيرة، وانتهت بمجرد انتقالنا إلى العباسية.

وفي العباسية عشت أول قصة حب حقيقية في حياتي، وهي قصة غريبة ما زلت أشعر بالدهشة لغرابتها كلما مرت بذهني، وكنت أيامها على أعتاب مرحلة المراهقة، وقبل أن أدخل هذه التجربة كانت علاقتي بالبنات لا تزيد على مداعبات تتجاوز الحد أحياناً. وكانت هذه التجاوزات البريئة تصطدم بالإحساس الديني وهو على أشده في تلك الفترة. لدرجة أنني كنت أتوجه بالتوبة إلى الله يوميًا، وأعيش في عذاب مستمر من تأنيب الضمير، واستمرت هذه الحالة حتى رأيته. كنت ألعب كرة القدم في الشارع مع أصدقائي، وكان بيتها يطل على المكان الذي نلعب فيه، وأثناء اللعب شدني وجه ساحر لفئة تطل من الشرفة، كنت في الثالثة عشرة من عمري، أما هي فكانت في العشرين، فتاة جميلة من أسرة معروفة في العباسية، رأيت وجهها أشبه بلوحة «الجيو كندا» التي تجذب الناظر إليها من اللحظة الأولى، ربما جذبني إليها - بالإضافة إلى جمالها - أنها كانت مختلفة عن كل البنات اللاتي عرفتهن قبلها. لم تكن فتاة تقليدية مثل بنات العباسية، بل كانت تميل إلى الطابع الأوروبي في مظهرها وتحركاتها، وهو طابع لم يكن مألوفاً آنذاك.

ظل حبي قائماً لهذه الفتاة الجميلة من بعيد ومن طرف واحد، ولم أجروء على محادثتها أو لفت انتباهها إلى حبي الصامت، واكتفيت منها بمجرد النظر، وكانت تمتعني الكبرى أن أجلس بعد انتهاء مباراة الكرة قبيل المغرب، وأوجه نظري صوب الشرفة التي تقف فتاتي فيها، وأطيل النظر إلى وجهها الجميل، استمر الحب الصامت لمدة عام كامل، وكم كان حزني شديداً عندما تزوجت فتاتي وانتقلت إلى بيتها الجديد، كنت أعلم أن ارتباطي بها شبه مستحيل، رغم ذلك همت بها حبا، وصبرت على الصمت عاماً كاملاً دون أن أظفر بأي فرصة للحديث معها، وصدمت لزواجها بشدة. انقطعت عني أخبارها، ومضت الأيام، وبدأ حبها يخفت وتنطفئ نيرانه، خاصة بعد أن تخرجت في الجامعة، وانشغلت بالوظيفة وبحياتي الأدبية ثم زواجي بعد ذلك، إلا أن حبي لها لم يهدأ أبداً، وظلت آثاره عالقة بقلبي وذاكرتي، وبعد سنوات طويلة من الفراق، قابلت شقيقتها بالصدفة في مصيف رأس البر، كان ذلك عام ١٩٥١ على وجه التقريب، لأنني سافرت في صيف ذلك العام إلى رأس البر لتمضية أسبوعين هناك، فوجئت بشقيقة الحبيبة القديمة في نفس المصيف بصحبة أسرته، وكان بين أفراد هذه الأسرة شخص أعرفه، فوجدتها فرصة سانحة لأتحدث معهم، وعرفت أن أصل الأسرة من دمياط ثم نزحت إلى القاهرة، ودار بيننا حديث طويل لم أجروء خلاله على السؤال من قريب أو بعيد عن فتاتي القديمة، ولقد صورت قصتي مع تلك الفتاة في رواية «قصر الشوق» مع تعديلات تتفق مع الإطار العام الذي وضعت للرواية.

وأعترف صراحة بأن شخصية كمال عبد الجواد في الرواية تتشابه معي إلى حد كبير، حتى في قصة حبي الأول، وإن كان «كمال» استطاع الوصول إلى حبيته.

في الفترة التي سبقت زواجي عشت حياة عريضة كاملة، كنت من رواد دور البغاء الرسمي والسري، ومن رواد الصالات والكباريهات، ومن يراني في ذلك الوقت لا يمكن أن يتصور أبداً أن شخصاً يعيش مثل هذه الحياة المضطربة، وتستطيع أن تصفه بأنه حيوان جنسي، يمكن أن يعرف الحب أو الزواج، كانت نظرتي للمرأة في ذلك الحين جنسية بحتة، ليس فيها أي دور للعواطف أو المشاعر، وإن كان يشوبها أحياناً شيء من الاحترام، ثم تطورت هذه النظرة وأخذت في الاعتدال بعدما فكرت في الزواج والاستقرار.

كان زواجي من «عطية الله» زواجاً عملياً، بمعنى أنني اخترت الزوجة المناسبة لظروفي، ولم تنشأ بيننا قصة حب سابقة على الزواج، كنت في حاجة إلى زوجة توفر لي ظروفاً مريحة تساعدني على الكتابة ولا تنغص حياتي، زوجة تفهم أنني لست كائناً اجتماعياً، ولا أحب



نجيب محفوظ في ركن صغير من شقته البسيطة اقتطعه ليضع فيه المكتب وبعض الكتب والسيدة الفاضلة زوجته تقدم إليه الصحف.

أن أزور أحداً أو أن يزورني أحد، وأننى وهبت حياتى كلها للأدب. ووجدت فى «عطية الله» هذا التفهم وتلك الصفات المناسبة لى، واستطاعت هذه الزوجة أن توفر لى جواً مناسباً جعلنى أتفرغ للكتابة والقراءة، حتى أن إختوى عندما كانوا يقومون بزيارتهم المعتادة لى، كانت زوجتى تستقبلهم وتجلس معهم لتتركنى وشأنى، حتى لا أضيع وقتى فى مثل هذه الواجبات الاجتماعية.

وليس معنى هذا أننى كنت مشغولاً عنها على الدوام، ففى أوقات الراحة عندما أنتهى من عملى وتفرغ هى من أعمال المنزل، نجلس سوياً لسماع الإذاعة أو مشاهدة التلفزيون. وبعد إنجاب البنيتين «أم كلثوم» و«فاطمة» خصصنا يوماً فى الأسبوع نخرج فيه، وفى الغالب نذهب لمشاهدة أحدث الأفلام السينمائية أو التنزه فى الحدائق العامة، والآن أصبح الخروج بالنسبة لى ولزوجتى أمراً صعباً لأسباب كثيرة منها حالتى الصحية، وطوال حياتى الزوجية لم يحدث أن طلبت مشورة من زوجتى أو بنتى فى أى عمل أدبى أكتبه، ولم يحدث أن عرضت عليهن عملاً لى قبل صدوره، وكن يقرأنه عندما يخرج للنور مع القراء، وأعمالى التى نقلتها السينما أو تحولت إلى أعمال تلفزيونية، كن يشاهدنها أيضاً مع

الجمهور، ويبدن رأيهن فيها، وآراؤهن فى الغالب انطباعية غير متخصصة، مما لا يفيدنى على المستوى الأدبى.

ولا أفسى سرًا إذا قلت إننى لم أكن أنوى الزواج أبدًا، فقد كنت أحسب أنه سيعطلنى عن حبى للأدب الذى قررت أن أعطيه كل وقتى واهتمامى، وساعدنى فيما انتويته طبيعة الحياة التى كنت أحيها، فمنذ مولدى وأنا أجد من يقوم بخدمتى ويقضى لى احتياجاتى. فى البيت والدتى تقوم بتجهيز طعامى وملابسى وحجرتى، وكنت أعيش حياة منظمة لا أثر فيها للتعب أو المشقة، ولم أجرب أبدًا العيش خارج القاهرة بعيدًا عن أهلى مثل صديقى «فؤاد نويرة» الذى اضطرته ظروف عمله لتمضية بعض الوقت فى مدينة أبوتيج بالصعيد، فعاش



أسرة نجيب محفوظ الصغيرة: الزوجة عطية الله، والابنتان: أم كلثوم (يمين الصورة) وفاطمة (يسار الصورة).

في لوكاندة متواضعة عدة أيام حتى عثر على شقة، وكان يخدم نفسه بنفسه، وكنت أتعجب حينما أسمع عن أدباء يعيشون حياة الصعلكة، ولم أتخيل نفسي أبدًا أعيش هذه الحياة. وعندما تقدم العمر بوالدتي وضعفت صحتها، وأصبحت لا تقدر على الأعباء الكثيرة المطلوبة منها، بدأت أشعر بالوحدة، وبدأت أرى تدرك ضرورة زواجي، وعرضت على أمر الزواج مرارًا وألحت فيه، ولكنني كل مرة كنت أرفض وأتذرع بحجج واهية، لم تقبل أمي الهزيمة، وكررت عرضها، واختارت لي بالفعل فتاة من بين أقاربي وتحذت مع أمها في الموضوع. والدلة تلك الفتاة رحبت بي، فابتها ثرية ومطمع للرجال، وتخشى عليها من زوج غريب لا تعرفه قد يحيل حياتها إلى جحيم ويستنزف ثروتها، بينما أنا شاب من الأسرة، ولن تكون لي أطماع في مال ابنتها، كما أنني سأكون حريصًا عليها، وعندما فكرت وجدت أن هذه الزيجة ستكون ماسة بكرامتي بسبب أوضاع الفتاة المالية، فهي شديدة الثراء، وقد تعلمت في أحسن المدارس الأجنبية، ولا يوجد تكافؤ بيننا من الناحية المادية، وليس هناك ما يجبرها على الزواج من أديب له مزاج خاص وطريقة حياة مختلفة ولا يمكن السيطرة عليه، بينما هي تستطيع بحكم ظروفها الممتازة الاقتران بشخص أكثر ثراء واستقرارًا وقدرة على منحها كل متع الحياة. ورفضت عرض أمي هذا، خاصة بعد أن علمت أن أهل الفتاة سيتكفلون بكل تكاليف الزواج من مهر وشبكة وأثاث المنزل. ومرت سنوات، إلى أن قابلت «عطية الله»، ووجدت فيها الصفات التي أبحث عنها كأديب، وتزوجنا في السر، أخفيت أمر زواجي عن أمي، ودخلت بزواجي في شقة شقيقي «محمد» حتى أتجنب ثورة أمي، لأنها كانت رتبت أمر زواجي من قريبها الثرية، وأنا خذلتها أمام الجميع، فلم أستطع أن أفاجئها بزواجي من امرأة أخرى.

والآن وبعد كل هذه السنوات لا يمكنني أن أنكر حقيقة أن زوجتي «عطية الله» تحملتني كثيرًا وساعدتني على تطبيق النظام الصارم الذي فرضته على حياتي، ووفرت لي جواً مكنني من التفرغ للكتابة، وحاولت بقدر طاقتها أن تبعدني عن كل ما يعطلني ويشغل تفكيري، وإذا كان لأحد فضل في المكانة التي وصلت إليها، فزوجتي في المقدمة، جزاها الله كل خير.



## الفصل التاسع

### في عالم السينما

علاقتي بالسينما بدأت في سن الخامسة - مغامراتي مع الشغالة في سينما الكلوب المصري - قرأ صلاح أبو سيف، عبث الأقدار، فدخلت إلى عالم السينما كسيناريس - مصور أمي يكتشف صلاحية رواياتي للسينما - اختارني ثروت عكاشة كمدير للرقابة فقررت اعتزال كتابة السيناريوهات - جريدة «الأهرام» تنقذني من ورطة مالية - لماذا قبلت أن أكون رقيباً على الإبداع رغم إيماني المطلق بالحرية؟ - رقيب الأغاني يمنع «أنا بحبك يا مصطفى» لأسباب عجيبة - مدير الأفلام يتحدثني ويصرح بعرض فيلم يسء إلى اليابان - عز الدين ذو الفقار يشكوني لأنني منعت أغنيات للمطربة صباح - حلمي سلام يهاجمني بعنف وعبد المنعم الصاوي يتدخل - وزير يتسبب في تركي للرقابة - استفدت مادياً من السينما ودفعت الثمن من دمي وأعصابي - كم من مهازل ترتكب باسم الفن - منتج فيلم يصمر على تعديل السيناريو حتى لا يموت فريد شوقي في الفيلم - تعرضت لعملية نصب غريبة - هذا رأيي في مخرجي أفلامي - توفيق صالح أقرب المخرجين إلى قلبي ولكن... أزمة السينما المصرية ومشاكل النقد السينمائي.



■ في سينما «الكلوب المصري» بدأت علاقة نجيب محفوظ بالسينما، حيث دخلها وعمره خمس سنوات، ومنذ ذلك الحين سيطر حب السينما على قلبه مما جعله في ذلك الحين يتمنى لو يقيم طوال حياته أمام الشاشة الفضية ولا يتركها أبداً، في هذا الفصل يتحدث نجيب محفوظ عن علاقته بالسينما، ويتوقف عند الفترة التي اشتغل فيها بكتابة السيناريو، ويتناول نجيب محفوظ بالتفصيل أيامه في الرقابة عندما أسند إليه الدكتور ثروت عكاشة وزير الثقافة منصب «مدير عام الرقابة على المصنفات الفنية»، وقد أدى نجيب محفوظ من خلال هذا المنصب خدمات جليلة للفن والإبداع في مصر، ولم يخن مبادئه في الإيمان بحرية الفن والفنانين، ويتحدث نجيب محفوظ عن ذكرياته مع مخرجي السينما، ويجيب بصراحة عن هذا السؤال: من هو أقرب مخرج إلى قلبه؟ ويتناول محفوظ أزمة السينما المصرية ويحللها ويكشف أبعادها، ويتطرق إلى قضايا النقد السينمائي.. ■

نجيب محفوظ: علاقتي بالسينما بدأت في سن مبكرة جداً، كنت لا أزال طفلاً في الخامسة من عمري عندما دخلت سينما «الكلوب المصري» في «خان جعفر» المقابل لمسجد سيدنا الحسين، وكانت سينما «الكلوب» من أقدم دور السينما في مصر، وإلى جوارها لوكاندة وكافيتريا يحملان الاسم نفسه، ومنذ اللحظة الأولى عشقت السينما وواظبت على الذهاب إليها مع الشغالة، حيث كانت أمي ترسلها معي، وتظل ملازمة لي حتى انتهاء العرض، ثم تصحبني إلى المنزل، كانت كلمة «النهاية» على آخر الشريط، من أشق اللحظات على نفسي، فقد كنت أتمنى أن أمضي اليوم كله داخل دار العرض، وتمنيت لو أنني أسكن في دار عرض سينمائي فلا أخرج منها أبداً، كانت السينما وقتذاك تعرض الأفلام الصامتة، ولا نرى في دار العرض إلا صوراً متحركة بدون أصوات، ومع ذلك كانت متعة مشاهدة فيلم صامت لا تعادلها - عندي - أي متعة أخرى.

أما علاقتي المباشرة بفن السينما، فقد بدأت في أواخر الأربعينيات، وعلى وجه التقريب عام ١٩٤٧، ففي ذلك العام أخبرني صديقي «فؤاد نورية»، وكان من المهتمين بالفن ويهوى التمثيل وله علاقات بالوسط الفني، بأن المخرج صلاح أبو سيف يرغب في مقابلتي، لكي أعمل معه في كتابة سيناريوهات الأفلام، فرفضت متعللاً بعدم معرفتي بهذا المجال، حيث

إننى أفهم فى الكتابة الأدبية أما السينما فهى أمر صعب بالنسبة لى.. إلا أن «فؤاد نورية» أقنعنى بأن المخرج صلاح أبوسيف سيعلمنى ما يفيدنى فى مجال كتابة السيناريو، وهمس «فؤاد» فى أذنى بأننى سأتقاضى مبلغًا محترمًا نظير كتابة السيناريو وأنا الذى أصرف من جيبى على الأدب ولم أكسب منه مليمًا واحدًا حتى ذلك الحين.

وذهبت إلى صلاح أبوسيف، وعرفت منه أنه يعد لفيلم جديد عن «عتر وعبله»، ويريد أن يكلفنى بكتابة سيناريو الفيلم. وعلى مدار عدة جلسات متواصلة، علمنى صلاح أبوسيف التفاصيل والدقائق فى كتابة السيناريو، ثم بدأت فى الشروع فى كتابة السيناريو بالفعل، واستطعت إنجاز ما طلبه أبوسيف، وكانت النتيجة مبهرة من وجهة نظره، ثم أعطانى أبوسيف مجموعة كتب عن فن السيناريو فقرأتها بنهم شديد، كما قمت بشراء مجموعة كتب أخرى ودرستها بعناية، حتى أتقنت هذا الفن.

الغريب أن صلاح أبوسيف عندما طلبنى للعمل معه فى فيلم «عتر وعبله» لم يكن قرأ من أعمالى المنشورة سوى رواية «عبث الأقدار»، واستشف من بين سطورها أننى أصلح لكتابة السيناريو، وحصلت على مبلغ مائة جنيه مصرى نظير عملى فى الفيلم الذى كان حدثًا فريدًا فى حياتى وفتحًا جديدًا أشبه بظهور «النفط» فى دول الخليج العربية!!.

ورغم الكسب المادى كنت أشعر ببعض الضيق فى عملى الجديد، فقد تعودت فى الأدب أن أكون أنا كل شىء فى العمل، أمضى بأحداثى وشخصياتى طبقًا لرؤيتى الخاصة، ودون تدخل من أحد، أما السينما فهى عمل جماعى، لا تستطيع أن تفرد فيه بالقرار، حيث تحكمه أهداف مختلفة منها ما هو فنى وما هو تجارى، وله أطراف عديدة من منتج وموزع ومخرج وممثلين، وينبغى أن ترضى كل الأطراف رغم اختلاف أهداف كل منها.

والحقيقة أن «حلاوة» المكسب المادى جعلتنى أتغاضى عن تلك المتاعب وأبلغ ضيقى، خاصة أن كتابة سيناريوهات الأفلام لم تعطلنى عن عملى الأساسى وهو الأدب. فصلاح أبوسيف الذى أعمل معه لم يكن يخرج سوى فيلم واحد فى السنة، ويبدأ عمله فى الفيلم خلال الصيف، وكنت أنقطع عن الكتابة فى ذلك الفصل من العام بسبب مرض الحساسية الذى يصيب عيني فى شهور الصيف، فكنت أعمل مع أبوسيف فى هذه الشهور، واستغرقتنى كتابة السيناريو طيلة الفترة ما بين عامى ١٩٥٢ و ١٩٥٧، وسجلت اسمى خلالها كسيناريسست محترف فى نقابة المهن التمثيلية، وبعد «عتر وعبله» توالى أعمال سينمائية أخرى، أذكر منها: «ريا وسكينة» و «الوحش» و «إحنا التلامذة».

وفى تلك الأيام لم يفكر منتج أو مخرج فى الاستعانة بأعمالى الروائية المنشورة وتحويلها إلى أعمال سينمائية. فقد كان الاعتقاد السائد آنذاك قائماً على التفرقة بين الأدب والسينما، ويعتبر المجالين يسيران فى خطين متوازيين لا يلتقيان، ولكن بعد ذلك تم هذا اللقاء بين الأدب والسينما بطريق المصادفة، وذلك عندما قام أحمد عباس صالح بتحويل رواية «بداية ونهاية» إلى مسلسل إذاعى فى «صوت العرب»، وتصادف أن تابع المسلسل المنتج والمصور السينمائى عبدالحليم نصر. ونصر هو نابغة التصوير السينمائى فى عصره على الرغم من أنه كان آمياً لا يقرأ ولا يكتب، وإلى جانب التصوير كان يقوم أحياناً بإنتاج الأفلام لحسابه الخاص، أعجب نصر بالرواية وهو يستمع إليها فى الإذاعة، ولاحظ أنها تصلح لأن تكون فيلمًا سينمائيًا، وقام بالاتفاق معى، واشترى الرواية لاستغلالها سينمائيًا فى أواخر الخمسينيات، وأسند الإخراج إلى صلاح أبوسيف، وكتابة السيناريو إلى صلاح عز الدين. ولم أشارك فى كتابة سيناريو هذا الفيلم، ولم أشارك فى كتابة السيناريو لأى عمل سينمائى مأخوذ عن رواية لى، ومع ذلك اعتبر نفسى من خلال أعمالى الأدبية ومساهماتى فى كتابة سيناريو عدد من الأفلام من أكثر الأدباء الذين أفادوا السينما، ولا يسبقنى فى ذلك إلا إحسان عبدالقدوس. واستمرت إسهاماتى فى كتابة سيناريوهات الأفلام حتى عام ١٩٥٩ حيث اختارنى الدكتور ثروت عكاشة وزير الثقافة لمنصب مدير عام الرقابة على المصنفات الفنية، فاشتريت بشكل أساسى اعتزال كتابة السيناريو حتى لا يتعارض ذلك مع طبيعة منصبى، مضحيان - فى ذلك - بدخل مالى كبير كنت أحصل عليه من عملى فى كتابة سيناريوهات الأفلام، وواجهتني عقبة أخرى تتمثل فى مجموعة من العقود وقعتها مع منتجين لكتابة سيناريوهات خلال فترات زمنية محددة سلفاً، وحتى أتخلص من الحرج عند عرضها على الرقابة اتفقت مع الدكتور عكاشة على إحالة أعمالى أنا تحديداً إلى عبدالمنعم الصاوى وكيل وزارة الثقافة فى ذلك الحين.

ومنذ اليوم الأول الذى تسلمت فيه عملى كرفيق انقطعت صلتى بالمنتجين، ولم أعد أبيع لهم أى قصص لى، إغلاقاً لباب المجاملات، ولكن قبولى لمنصب مدير عام الرقابة رسم على وجه الكثيرين من أصدقائى وقرائى علامة استفهام كبيرة، فكيف أكون رجلاً يدعو للحرية وينادى بها ويتخذ من الديمقراطية شعاراً ثابتاً له ثم يرضى أن يكون رقيباً على الفن ويحد من حرية الفنانين؟

ولكى أزيل علامة الاستفهام الكبيرة هذه، أقول إن الرقابة كما فهمتها ليست فنية ولا

تعرض للفن أو قيمته، ووظيفتها ببساطة هي أن تحمى سياسة الدولة العليا وتمنع الدخول في مشاكل دينية قد تؤدي إلى الفتنة الطائفية، ثم المحافظة على الآداب العامة وقيم المجتمع وتقاليدته في حدود المعقول، وفيما عدا ذلك يحق للفنان أن يقول ما يشاء ويعبر عن نفسه بالأسلوب الذي يراه مناسباً، وأثناء عملي حاول البعض أن تمتد الرقابة إلى الفن وتتدخل في مضمونه، ولكنني قاومت هذه المحاولات، وطوال الفترة التي أمضيتها في الرقابة كنت منحازاً للفن، وكانت الأجواء داخل الرقابة عندما تسلمت عملي بها تحمل روح العداء للفن، وكانت وظيفة الرقابة - لدى البعض - سبيلاً للرشوة والفساد.

فكان السائد هو أن يتقدم صاحب الفيلم بالسيناريو إلى الرقابة التي ترده إليه بعد الاطلاع عليه، ومرفقا به عديد من الملاحظات والتعديلات المطلوب إجراؤها، حتى يحصل على الموافقة ويبدأ تنفيذ فيلمه. وكانت هذه الملاحظات والتعديلات تستوجب كتابة السيناريو من جديد، وقد تعرضت أنا شخصياً قبل عملي في الرقابة لمثل هذا الموقف، فقد عملت مع المخرج نيازي مصطفى في كتابة سيناريو أحد الأفلام، وبعد أن كتبته طلبت الرقابة تعديل أجزاء كثيرة منه، مما يعنى إعادة كتابته بصورة كاملة، وفهمت من نيازي مصطفى أنني لن أكتب السيناريو ثانية ولن أعدل فيه شيئاً، وسنحصل على موافقة الرقابة، وأنه يفهم في مثل هذه الأمور جيداً، ولم تمض سوى أيام قليلة حتى تسلمنا السيناريو مصححاً بموافقة الرقابة، وسألت نيازي مصطفى عما فعله؟ فأجابني بأنه فعل مثل كل مرة، أى أنه لجأ إلى طريق الرشوة، ومن خلال احتكاكي بالوسط السينمائي عرفت أن شركات الإنتاج لها طرق خاصة مع الرقابة لتمير السيناريوهات، وهذا ليس له سوى معنى واحد، أى الرشوة.

وعندما توليت إدارة الرقابة كنت أمتلك فكرة شاملة عما يجري، وفي أول اجتماع لي مع الرقباء أوضحت لهم الأسلوب الجديد الذي سأبنته، وشرحت لهم وجهة نظري في الرقابة وأسلوبها وهدفها. أتذكر أنني قلت لهم إن الرقابة ليست قيداً على الفنان، والرقيب ينبغي أن يكون صديقاً للفن لا عدواً له، وأن دورنا كرقابة هو مساعدة شركات الإنتاج حتى لا تتعرض لخسارة مادية لا داعي لها، وبالتالي فإن أي ملاحظات في السيناريوهات المقدمة لنا يمكن حلها بالمناقشة والحوار، مع الأخذ في الاعتبار أن الأصل في الفن هو «الإباحة»، أما «المنع» فهو مثل الطلاق، أى أبغض الحلال.

لم يمض وقت طويل حتى أصبح تمرير السيناريوهات عن طريق الرشوة من ذكريات الماضي، حتى أن أحد ضباط الشرطة من العاملين في جهاز الرقابة أعرب لي عن دهشته،

ليس لأننى لا أقبل الرشوة، وإنما لأننى استطعت أن أمنع الرشوة فى الجهاز الرقابى كله. والإجابة ببساطة أن شركات الإنتاج لم تعد فى حاجة إلى رشوة الرقباء، لأنها شعرت أن الرقابة أصبحت مع الفن ولا تقف فى طريق الفن أو تتعامل معه بشكل متعسف، فكانت الملاحظات التى تصدر الرقابة على إجراءاتها فى السيناريوهات، تقوم الشركة المنتجة بتنفيذها فى رضاء تام ودون العودة لممارسة الأسلوب القديم، وربما لأول مرة فى تاريخ الرقابة تصلها خطابات شكر من شركات الإنتاج السينمائى لتعاونها معهم وتذليل كافة العقبات أمامهم. وأستطيع القول إننى أدت من خلال عملى فى الرقابة خدمة للفن ما كان يمكن أن أؤديها فى موقع آخر، ولم أشعر فى لحظة من اللحظات أنى أخون نفسى كأديب وفنان. بل كانت أسعد أيام حياتى الوظيفية هى تلك التى أمضيتها فى الرقابة، رغم المضايقات الكثيرة التى تعرضت لها من هؤلاء الذين لا يؤمنون بأن الرقابة يمكن أن تكون نصيرًا للفن. لقد اختلفت مع أصحاب هذه العقليات، وكثيرًا ما ذهبوا - خاصة أولئك الذين تربطهم صلات مع القيادة السياسية - للشكوى منى عند وزير الثقافة، وفى كل مرة يأمر الوزير بتشكيل لجنة لبحث الشكوى، وفى كل مرة تنحاز اللجنة لموقفى وتؤيد وجهة نظرى، ولم تخذلنى اللجنة مرة واحدة، والأمثلة كثيرة. فعندما ظهرت الأغنية التى تقول كلماتها:

يا مصطفى يا مصطفى

أنا بحبك يا مصطفى

سبع سنين فى العطارين...

إلخ.. فوجئت بمراقب الأغاني يصدر قرارًا بمنعها، وكانت الأغنية تذاع فى الراديو ويغنيها الناس فى الشارع، ولم يكن أمام المراقب سوى مشروع لطبعها فى أسطوانات، ولكنه أصدر قرارًا بالمنع، ولما سألته عن سبب قراره أعطاني أغرب إجابة يمكن أن أسمعها فى حياتى، إذ قال لى إن مؤلف الأغنية يقصد «مصطفى النحاس» وأن «سبع سنين» الواردة فى الأغنية تشير إلى مرور سبع سنوات على قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، إلى هذا الحد من ضيق الأفق كانت العقليات التى تعمل معى فى جهاز الرقابة.

كما اختلفت ذات مرة مع مدير الرقابة على الأفلام محمد على ناصف لأنه سمح بعرض فيلم سينمائى أجنبى يسىء إلى اليابان، وكنت أرى ضرورة منعه من العرض. فاليابان فى ذلك الوقت كانت قد وقفت إلى جانب مصر والرئيس عبدالناصر، وساندتنا ضد الولايات

المتحدة الأمريكية، مما وضع اليابان في موقع الرضا والصدقة من النظام والشعب في مصر. واستند محمد على ناصف في موقفه على العلاقة القوية التي تربطه بالمشير عبدالحكيم عامر وسمح بعرض الفيلم، وفي اليوم الأول للعرض - بعد حفلة العاشرة صباحاً - في دور السينما، كان السفير الياباني في مكتب عبدالناصر لتقديم احتجاج على عرض الفيلم. وأمر عبدالناصر برفع الفيلم من دور العرض فوراً، وبالفعل لم يعرض في حفلة الثالثة من بعد الظهر في نفس اليوم الأول، وحدث ارتباك لدى هذه الدور خاصة أن الجماهير حصلت على تذاكر حفلة الثالثة، مما اضطرها إلى رد ثمن التذاكر وإلغاء العرض.

وفي أحد أفلام المخرج الراحل عزالدين ذوالفقار رأيت حذف بعض الأغاني لأن المطربة صباح تؤديها بطريقة مثيرة، وألحان عبدالوهاب لهذه الأغاني كان فيها إثارة جنسية فاضحة. ولأن عزالدين ذوالفقار كانت له علاقة قوية بالضباط الأحرار، فقد استطاع بنفذه استصدار قرار بتشكيل لجنة للفصل في أمر تلك الأغاني، وأيدتني اللجنة في موقعي بإجماع الآراء وأقرت ضرورة حذف هذه الأغاني.

وأثناء عملي بالرقابة لم أنقطع عن كتابة السيناريوهات المتفق عليها، وحتى أتخلص من الحرج عند عرضها على الرقابة، كنت أترك القرار النهائي لمدير الرقابة على الأفلام، وأعطيه حرية اتخاذ ما يراه بشأنها دون تدخل مني، ومع ذلك ها جمعت حلقى سلام في بعض مقالاته مستنكراً أن يكون كاتب السيناريو هو الرقيب، حيث لا يجوز أن يكون الخصم هو نفسه القاضى، ولم تكن كتابات حلمى سلام هجوماً صريحاً بقدر ما حملت روح العتاب، لأنه سرعان ما عاد واعتذر بعد أن اتصل به عبدالمنعم الصاوى وشرح له موقعي وطريقة عملي في الرقابة، وعدم تدخلى أو تصرفى حيال السيناريوهات التي أقوم بكتابتها.

وعلى الرغم من أننى بقبولى لمنصب فى الرقابة قد ضحيت بدخل مالى كبير، وكانت أسرتى أكثر الناس تأثراً بعملى فى الموقع الجديد، لأن راتبى فى الرقابة يقل كثيراً عما كنت أحصل عليه من كتابة السيناريو، إلا أننى لم أسقط فى أزمة مالية. فسرعان ما حدث تحسن سريع فى دخلى ببدء جريدة «الأهرام» فى نشر رواياتى المسلسلة، مع دفع مقابل مادى عن النشر، ورغم أن ما تدفعه «الأهرام» لا يصل إلى أجرى عن السيناريو، فإنه أحدث نوعاً من التوازن فى الدخل الذى كاد يهتز بسبب قبولى لوظيفة مدير الرقابة.

ظللت فى موقعى كـرقيب لمدة عام ونصف العام تقريباً، وجاء خروجى منه كنتيجة

من نتائج أزمة رواية «أولاد حارتنا» التي نشرتها «الأهرام» سلسلة في تلك الفترة. ففي مجلس الوزراء شن الدكتور حسن عباس زكي وزير الاقتصاد حملة على ثروت عكاشة، وكانت وجهة نظر حسن عباس زكي هي أن الدكتور عكاشة أسند مهمة الرقابة لرجل «متهم في عقيدته الدينية»! وفي تلك الأثناء تعرضت لمواقف كان بعضها أشبه بمسرحية هزلية، ففي أحد الأيام اتصل بي مدير مكتب كمال الدين حسين، وفوجئت به يلغني لوم الوزير لأنني سمحت بعرض «أولاد حارتنا» على المسرح القومي، ولم تكن الرواية تحولت إلى مسرحية، واكتشفت أن كمال الدين حسين خلط بينها وبين «بداية ونهاية» التي كانت تعرض آنذاك بالفعل على خشبة المسرح القومي. ولوضع حد للمشاكل طلب مني الدكتور ثروت عكاشة ترك الرقابة والانتقال إلى رئاسة مؤسسة دعم السينما التي كانت تحت الإنشاء، وكانت مهمتها تنحصر في إعانة نقابة السينمائيين ودعم جوائز السينما والاشتراك في المهرجانات وإنتاج أفلام قصيرة، ولم يكن لها علاقة مباشرة مع المنتجين السينمائيين.

بعد خروجي من الرقابة انهالت على عروض كثيرة لكتابة سيناريوهات الأفلام من جديد، ووجدت المنتجين يأتونني أفواجا حتى أصبحوا مثل «طابور العيش»، ولكنني اعتذرت لهم جميعاً ورفضت العودة إلى هذه المهنة. وكان آخر الذين عرضوا على العودة لكتابة السيناريو المخرج صلاح أبو سيف الذي زارني وهو يحمل في يده قصة أدبية طالباً مني تحويلها إلى قصة سينمائية، وهي عملية لا تستغرق مني أكثر من أسبوع، على أن يتولى هو كتابة السيناريو. ولكنني اعتذرت - أيضاً - لصلاح أبو سيف، فلم يعد لدى استعداد لذلك، كما أن ظروفى الصحية لم تعد هي الأخرى تمكنتني من هذا العمل.

لا أنكر أنني استفدت مادياً من السينما، بل كنت أستغل عائدها المادى من كتابة السيناريوهات فى الإنفاق على الأدب. ولكنني فى المقابل دفعت من دمي وأعصابي ووقتي، ولم أشعر براحة فى تعامللى مع السينمائيين، فكم من مهازل ارتكبت باسم الفن ورأيته بعيني، ولم أكن أفرض شروطاً فى التعامل مع المنتجين والمخرجين طوال فترة كتابتى لسيناريوهات الأفلام، لأننى أفهم اللعبة جيداً، وكنت أضع كل جهدى فى كتابة السيناريو، وأترك لهم حرية اختيار الممثلين، ولا أتدخل إلا إذا طلب المنتجون منى ذلك.

ومن خلال تجربتى فى السينما لفتت انتباهى ملاحظة جديرة بالتوقف عندها، وهى أن

الموزع الخارجى يفرض ذوقه وشروطه لدرجة قد تصل إلى التدخل فى سيناريو الفيلم وبشكل يخل بالقصة المتفق عليها. وأذكر فى أحد الأفلام التى قمت بكتابة السيناريو لها أن الموزع اللبنانى اعترض على موت البطل، وكان بطل الفيلم، وهو فريد شوقى، يجسد شخصية مجرم شرير يلقى حتفه فى النهاية جزاء ما ارتكب من جرائم. وأصر المنتج على تعديل السيناريو بحيث يبقى فريد شوقى على قيد الحياة، وكان مبرره أن الجمهور يحب فريد شوقى، ومن هنا يجب أن يظل فريد شوقى أمام أعين الجمهور حتى المشهد الأخير من الفيلم، مهما كانت الجرائم التى ارتكبها ومهما كانت النتيجة وجاءنى منتج الفيلم يرجونى أن أصنع أى شىء حتى لا يموت فريد شوقى.

وفى سبيل الكسب المادى قد لا يتورع البعض فى الوسط الفنى عن ارتكاب عمليات نصب وخداع، وكنت ضحية لإحدى هذه العمليات، وسأروى القصة دون ذكر الأسماء، فقد خطر لأحد الممثلين المعروفين بلعب الأدوار الجادة على الشاشة، أن يجرب نفسه فى الأدوار الكوميديّة، ولأنه كان منتجاً لأغلب أفلامه، فقد استدعى المجموعة التى اعتاد العمل معها من إخراج وتمثيل ودعاية، مقترحاً عليهم فكرة فيلم كوميدى، وحدد الفكرة بأنها تتناول شخصاً فقيراً هبطت عليه ثروة ضخمة فانقلب حاله إلى الغرور وأخذ يمارس حياة العريضة حتى فقد الثروة وعاد إلى الفقر من جديد، وتحمس المخرج للفكرة واتصل بى يخبرنى بأنه اختارنى لكتابة السيناريو، وفى جلسة العمل التى ضمتنى مع الممثل والمنتج وبحضور المخرج وكاتب الحوار تم توقيع ثلاثة عقود وتقاضينا الأتعاب. وبدأت فى كتابة السيناريو واستغرق ذلك منى شهرين كاملين، حتى انتهيت منه وأنا راضى عنه، ولدى اعتقاد جازم بأننى أنجزت ما طلب منى، وانتظرت من يتسلم منى السيناريو ويدفع لى بقية أتعابى، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث، وبدأت أرتاب وأخذت أبحث عن حقيقة الأمر، واكتشفت أن كل ما جرى هو مجرد تمثيلية قصد بها كل من المخرج وكاتب الحوار الحصول على شىء من المال من الممثل والمنتج، وبعد أن حصلوا على ما أرادوا أقنعاه بأنه لا يصلح للأعمال الكوميديّة، ومن الأفضل له أن ينسى فكرته حتى لا يخسر جمهوره، وأقنعاه بأن نصيحتهما مبعثها الوحيد ودافعها الأول هو الصداقة، وأنهما يضحيان بالمال الذى يمكن أن يأتيهما من هذا الفيلم فى سبيله وخوفاً عليه من الفشل. وعندها لم يستطع صاحبا أن يطالبهما برد مقدم الأتعاب، وبذلك أفلتتا بالغنيمة. إلى هذه الدرجة يمكن أن يصل الكذب والخداع فى الوسط الفنى، فمن أجل المال يمكن ارتكاب أى شىء حتى ولو على حساب صديق أو كاتب مثلى ظل يعمل لمدة شهرين متواصلين، وكان عمله بلا جدوى ولا فائدة.

ربما تكون رواية «ميرamar» هي الوحيدة من بين أعمالى التى تعرضت لبعض التغييرات عند تحويلها إلى فيلم سينمائى. حيث ركز الفيلم على شخصية «طلبة بك» التى جسدها يوسف وهبى، وهى شخصية خفيفة الظل وقرية من المزاج الشعبى. هذا التركيز قدم الشخصية فى صورة تقلب الهدف الذى قصده منها رأساً على عقب، ففى الرواية حاولت تقديم هذه الشخصية فى صورة رجعية مكروهة، أما الفيلم فقد حولها إلى شخصية محبوبة، فتحولت بذلك إلى وسيلة دعائية للرجعية، وساعد على ذلك الأداء البارع للفنان الكبير يوسف وهبى. وما عدا «ميرamar» التزم المخرجون بروح النص الأصلى لأعمالى، ولا شك أن الفضل فى ذلك يعود إلى أن رواياتى كانت فى أيدي كبار مخرجينا من أمثال صلاح أبوسيف وكمال الشيخ وحسين كمال وعاطف سالم وحسام الدين مصطفى وعلى بدرخان وحسن الإمام.

ورغم أن حسن الإمام التزم إلى «حد ما» بروح النصوص التى قدمها لى فى السينما، وهى «الثلاثية» و «زقاق المدق»، إلا أنه أخضعها لمدرسته التى تميل إلى الإثارة الحسية والميلودراما، حتى بدا السيد أحمد عبد الجواد بطل «الثلاثية» وكأنه شخص لا هم له سوى «العوالم» والمتعة الجسدية. وربما كان لنشأة حسن الإمام فى جو «العوالم» بمدينة المنصورة حيث ولد، ثم عمله فى مطلع حياته بالقاهرة فى «صالات» عماد الدين أثر كبير فى الأسلوب الذى سار عليه عندما عمل بالإخراج السينمائى، دخل حسن الإمام السينما وهو ممتلئ بالحس «البلدى»، وهو شئ آخر غير الحس الشعبى. فالثانى متأثر بالثقافة والتراث، أما الأول فهو حس مصرى صميم غير مخلوط.

ويعتبر صلاح أبوسيف أكثر مخرج تعاملت معه. فمن بين اثني عشر سيناريو كتبها للسينما، أخرج أبوسيف تسعة منها. كما أخرج من رواياتى التى نقلت إلى السينما روايتى «بداية ونهاية» و «القاهرة ٣٠»، ومع ذلك فأقرب مخرجى السينما إلى قلبى هو توفيق صالح الذى لم يجمعنا سوى عمل واحد هو فيلم «درب المهاييل». وكان من المفروض أن يقوم توفيق صالح بإخراج «الثلاثية» بعد أن أسند إليه صلاح أبوسيف مهمة إخراجها عندما كان رئيساً لشركة السينما، حيث يعرف أبوسيف العلاقة الحميمة التى تربطنا، وبدأ توفيق صالح فى التحضير للجزء الأول، وفجأة اختلف مع صلاح أبوسيف ووقعت بينهما مشادة عنيفة، ترك على أثرها الفيلم، فأسندوه إلى حسن الإمام.

إن المشكلة الأساسية عند توفيق صالح، أو قل عيبه الأساسى هو التشدد، ولا يختلف

اثنان فى مصر على موهبته وقدرته الفنية وثقافته، وأنا أعتبر أفلامه على قتلها من أفضل الأعمال فى تاريخ السينما المصرية. ولكن تشدده وتدخله فى كل صغيرة وكبيرة وشروطه الصعبة التى يفرضها، أضاعت عليه فرصًا كثيرة، وجعلت المنتجين والنجوم يهربون من العمل معه، وبعد عودة توفيق صالح أخيرًا من سفره الطويل نصحته بتغيير سلوكه هذا وأن يحاول التأقلم مع الظروف الجديدة التى تحكم حال السينما الآن، ولكنه مازال مصرًا على أسلوبه وسلوكه القديم.

لقد راودنى أمل كبير عندما بدأت الكتابة للسينما فى أن يصبح هذا المجال امتدادًا لحياتى الفنية، وقلت لنفسى إن الكتابة للسينما تتضمن عناصر مشابهة إلى حد كبير للعناصر التى يقوم عليها بناء الرواية من خيال وحبكة وشخصيات وصراع... إلخ، فلماذا لا تكثف عملك فى هذا المجال وتعطيه مزيدًا من الاهتمام، مادام هو قريبًا من الأدب؟

وبعد فترة اكتشفت استحالة الاستمرار فى هذا الميدان، فقد وجدت أن عملية الكتابة للسينما تقوم على جهد جماعى، وأنى لست حر التصرف مثلما هو الحال فى الرواية. فهناك قيود كثيرة تكبل حركتك ولا تعطيك الفرصة لأن تكتب ما تريد، هناك شروط المنتج والموزع الخارجى والمخرج، بالإضافة إلى الشرط الأهم وهو الجمهور ومطالبه ورغباته التى ينبغى أن تراعى مهما كانت النتائج. وجدت أن تلك الضغوط الخارجية مزعجة، ولا أستطيع الاستمرار فى ظلها، وفى أول فرصة للانسحاب من مجال الكتابة للسينما انسحبت غير أسف على ذلك، وبعد أن اكتشفت تلك القيود فى بداية عملى بالسينما، وضاع الأمل الذى راودنى فى لحظة من اللحظات، تحولت نظرتى لهذا العمل على أنه مجرد حرفة أو صنعة لزيادة دخلى المالى فحسب، بدليل أننى كتبت اثنى عشر عملاً للسينما ولم أنشرها فى كتاب أو أحتفظ بأصولها، بل لا أتذكر حتى أسماءها. تحولت المسألة عندى إلى حرفة، وتحولت أنا إلى «صناعى» أو «حرفى» أعمل ما يطلبه منى الآخرون، وأستجيب لرغبات صاحب العمل الذى هو المنتج، وهو فى أغلب الأحيان يحمل عقلية التاجر، بما فيها من نظرة مادية واقعية هدفها الربح أولاً وقبل كل شىء.

والحقيقة أن كلمة «الإنتاج السينمائى» التى تحمل معنى ماديًا عندنا تجدها تحمل معنى مغايرًا فى السينما العالمية، فمعناها هناك أقرب إلى الفن والتذوق، ولذلك تجد فى السينما العالمية أعمالاً رفيعة من الناحية الفنية وهى أيضًا ناجحة تجاريًا، وحتى فى التجارب الجديدة التى لا يتوقع أحد أن يقبل عليها الجمهور، تجد أن هناك جمعيات فنية

تدعمها وتقف وراءها. هذا الدعم للفن الرفيع ليس مقصوراً على السينما وإنما يمتد إلى مجال الأدب، ففي أغلب البلدان الأوروبية تجد نوادي أدبية تدعم دور النشر التي تصدر أعمالاً رفيعة المستوى فنياً وغير مضمونة التوزيع، حدث هذا مع روايتي «زقاق المدق» عند ترجمتها إلى اللغة الألمانية، حيث قام أحد هذه النوادي بدعم دار النشر التي ترجمت الرواية تشجيعاً لدور النشر في ترجمة الأدب العربي لتحقيق مكاسب متعددة، منها تدعيم العلاقات العربية - الألمانية - وتعريف القارئ الألماني والأوروبي بصفة عامة بثقافة جديدة بالنسبة له. وفي اعتقادي أن تلك النوادي تقوم بنفس الدور الذي كان يقوم به الأمراء والنبلاء في أوروبا القديمة تشجيعاً للأدب والفن، وعندما توليت مسئولية مؤسسة دعم السينما حاولت تقديم أكبر دعم للأعمال الرفيعة، وفي فترة رئاستي لها أنتجنا عدداً من الأعمال الجيدة على رأسها فيلم «المومياء»، الذي ما كان ليرى النور لولا دعم المؤسسة، فقد عرض على الدكتور ثروت عكاشة سيناريو «المومياء» طالباً إبداء الرأي في مسألة إنتاجه، وعندما قرأته وجدت فيه عملاً رائعاً يجب أن يتفد فوراً، وحدث ما توقعت، حيث حقق نجاحاً فنياً هائلاً، ولكنه أخفق جماهيرياً.

وإلى جانب فيلم «المومياء» قدمنا عدداً من الأعمال السينمائية المتميزة ومنها: «الأيدي الناعمة» و «الناصر صلاح الدين». وإن كان هذا لا يسلب القطاع الخاص السينمائي دوره في إنتاج أعمال جيدة ومتميزة فنياً في نفس الفترة، لكن عددها قليل مقارنة بمجموع الأفلام المنتجة عن طريق مؤسسة دعم السينما.

لا يخفى على أحد أن السينما المصرية مرت بمأزق حاد أثناء حرب الخليج الثانية وظروف غزو العراق للكويت ثم إخراجها منها، ذلك لأن سوق التوزيع الخارجية الرئيسية للأفلام المصرية، وهي البلدان الخليجية، أغلقت أبوابها، ومن أكبر أخطاء السينما المصرية اعتمادها على سوق التوزيع الخارجية، ذلك لأن هذه السوق معرضة في أي وقت لأزمة حادة تهددها بالتوقف، نظراً لارتباطها بالأحداث السياسية، والسياسة متقلبة ولا تدوم على حال، ونتيجة لهذا الارتباط توقفت سوق التوزيع الخارجية للسينما المصرية مرات عديدة. فقد توقفت في عهد عبدالناصر نتيجة لخلافاته العربية، وفي فترة ما بعد نكسة ٦٧، وهذه السوق معرضة للتوقف في أي وقت، وهذا يقتضي إيجاد حل حاسم لهذا المأزق، وهو في تصوري، الاعتماد على سوق التوزيع الداخلية، هذا يقتضي بدوره إصدار «قانون للفيديو» يحمي حقوق المنتجين، ويمنع عمليات السرقة والقرصنة، ويحمي حقوق الفيلم المصري في الأسواق الخارجية.

وفى اعتقادى أن النقد السينمائى هو أحد أبعاد الأزمة التى تعيشها السينما المصرية. ومن خلال متابعتى المحدودة لما ينشر فى الصحف والمجلات، تعرفت على مجموعة من الأسماء، تمتلك أدوات النقد السينمائى ولديها موهبة الكتابة، أذكر منها سمير فريد والمرحوم سامى السلامونى وهاشم النحاس. ومع تقديرى لهؤلاء وغيرهم فإننى آخذ عليهم مسألة تحيزهم «الأيدىولوجى»، فهم لا يفرقون بين الفن والسياسة، وما يتفق مع فكرهم السياسى يرفعونه إلى أعلى عشرين، وما يختلف معه، ينزلونه إلى أسفل سافلين بدون أسباب موضوعية. وهذه نقطة خلاف أساسية بين جيلنا والجيل الحالى، فقد كان جيلنا يفرق تمامًا بين السياسة والأدب ولا يخلط بينهما، الدكتور طه حسين مثلاً كنا نختلف مع مواقفه السياسية ونعارضها بشدة أحياناً، ولكننا كنا نتلمذ على يديه كأديب ومفكر ومبدع، ونقف إلى جواره فى معاركه الأدبية والفكرية، فالفنان أو المبدع يجب أن نحاسبه على فنه أو إبداعه فقط، ولا نخلط بينهما وبين مواقفه الشخصية أو السياسية، فالفنان الكبير أحياناً يحمل بداخله إنساناً ضعيفاً، وتاريخ الأدب العربى ملئ بنماذج كثيرة من هذا الصنف، وعمر بن أبى ربيعة مثلاً كان شاعراً عبقرياً، ولكنه فى المقابل كان إنساناً تافهاً، فلماذا نحاسبه كشاعر على هفواته الشخصية؟ هذا هو مأخذى الأساسى على الجيل الحالى من نقاد السينما.

## الفصل العاشر

### متاعبي مع السلطة

السمي إلى السلطة لا يتوافق مع طبعي ومزاجي - سلطة الأدب أهم عندي من السلطة الإدارية - من أجل الأدب ابتعدت عن العمل السياسي - توقعات أصدقائي التي خابت بعد زواجي - لهذه الأسباب كنت أنتقد عبدالناصر دون خوف من العقاب - فريد أبو حديد أنقذني من ورطة - المشير يهدد بتأديبي بعد «ثورة فوق النيل» وعبدالناصر يتدخل - المخبرون يراقبون زوجتي في سوق الخضار - هيكل رفض نشر «الكرنك» في «الأهرام» وراح يشكوني إلى توفيق الحكيم - طلعت خالد هو الرقيب الذي قام بتشويه «الكرنك» - أزمة «ميرامار» والمفاجأة التي لم أتوقعها من السادات - صلاح نصر يسجنوني حول رواية «أولاد حارتنا» دون أن أعرفه - البيان الشهير ومتاعبي مع السادات - الصديقان اللذان نسيا ما بيننا من ود وهاجماني لإرضاء السادات - في عهد عبدالناصر أطلقوا سراح «الأدب» واعتقلوا «الفكر».



■ لم يدخل نجيب محفوظ معتقلات عبدالناصر أو السادات، رغم الانتقادات الصريحة التي كان يوجهها عن طريق رواياته وقصصه لسلبات موجودة في المجتمع في عهديهما، محاولاً تمريرتها ولفت الأنظار إليها، ومع ذلك فلم يكن محفوظ بعيداً عن المخاطر أو «نائماً في العسل» - على حد تعبيره - وفي مرات كثيرة كاد يتعرض لمشاكل جدية تحد من حريته الأدبية والشخصية معاً.

وفي هذا الفصل يحكي نجيب محفوظ عن مناعبه مع السلطة في عهدي عبدالناصر والسادات، والمآزق التي تعرض لها بعد صدور روايات «ثرثرة فوق النيل» و«الكرنك» و«أولاد حارتنا» و«ميرamar» وكذلك بعد البيان الشهير الذي وقع عليه بالاشتراك مع كتاب وصحفيين آخرين قبيل حرب أكتوبر لحد السادات على كسر حالة «اللا سلم واللا حرب» .. ■

نجيب محفوظ: «أنا مش بتاع سلطة»... هذه حقيقة ليس فيها أى نوع من المبالغة. فلم تكن السلطة فى يوم من الأيام هدفى ومأربى وذلك لسبب بسيط، هو أننى ما كنت أستطيع الجمع بين السلطة والأدب، فالأديب الذى يقدر مهنته ويعشق قلمه، يفضل أن يتعد عن السلطة بهومها ومتاعبها ومشاكلها والتزاماتها، وفى خلال المدة التى عملت فيها بمؤسسة السينما - وتبلغ حوالى عام ونصف العام - لم أقرأ أو أكتب كلمة، وكان كل وقتى محصوراً فى الوظيفة وما يتصل بها من متاعب وقيد.

وليست السلطة هى الهدف الذى يتوافق مع مزاجى وطبعى، بل إننى أعتبرها معطلة لى عن مهنتى الأساسية وهى الأدب، والسلطة الحقيقية التى طالما حلمت بها هى سلطة الأدب والفن، وليست السلطة الإدارية، فالأدب فى حد ذاته يمكن أن يكون سلطة مؤثرة إذا أحسن الأديب استخدامه، والأديب يمكن أن يكون صاحب سطوة ونفوذ وتأثير على رأى العام بكتاباته، خاصة إذا تحولت هذه الكتابات إلى أعمال سينمائية أو تليفزيونية أو مسرحية أو إلى أى شكل من هذه الأشكال الجماهيرية، وسلطة الأدب أسمى وأرفع وأبقى من السلطة الإدارية.

وأحب هنا أن أؤكد نقطة هامة، وهى أن هذا الرأى هو توجه خاص بى لا أفرضه على أحد، ولا أعيب على أى مفكر أو أديب عمل بالسياسة أو سعى إلى السلطة وتمناها، فربما

عن طريق السلطة يخدم الأدب والحياة الثقافية أكثر من تأليف كتاب أو رواية، وهناك نماذج كثيرة لأدباء ومفكرين قدموا خدمات جليلة للحياة الثقافية، بل للمجتمع كله، عندما وصلوا إلى مناصب قيادية، الدكتور طه حسين مثلاً ما كان يمكن أن يصل بأفكاره الخاصة بالتعليم إلى حيز التنفيذ، ويطبق شعاره الشهير «التعليم كالماء والهواء» ما لم يصل إلى السلطة، ويشغل منصب وزير المعارف من سنة ١٩٥٠ إلى سنة ١٩٥٢.

وربما كان توفيق الحكيم من القلائل الذين توافق مزاجهم مع مزاجى فى تفضيل سلطة الأدب على السلطة الإدارية، فقدم استقالته من النيابة العامة، فى وقت كان فيه منصب «وكيل النيابة» من أرفع المناصب وأسمائها، وقد يتعرض للاتهام بالجنون من يتخلى عنه من أجل الأدب والتفرغ له.

من أجل الأدب ابتعدت عن العمل السياسى، فلم أنضم إلى حزب أو تنظيم سياسى لا قبل الثورة أو بعدها، لقد كنت من أنصار حزب الوفد، بل من عشاقه، ولا يقل ولائى له عن ولاء أى زعيم من زعمائه، كما لم تجر أى انتخابات برلمانية إلا واشتركت فيها بصوتى لصالح الوفد، كما لم تقم مظاهرة مؤيدة له وأتيحت لى الفرصة للمشاركة فيها وأنا شاب إلا وفعلت ذلك، ومع هذا كله لم أنضم إلى لجنة من لجان الحزب، ولم تكن هناك أى صلة رسمية تربطنى به، حتى الدكتور محمد مندور وعزيز فهمى، وهما من كبار كتاب الوفد، فقد عرفتهما عن طريق الأدب لا عن طريق السياسة.

لم تكن وفديتى نابعة من تأثرى بأسرتى فقط، بل كان مصدرها الرئيسى هو الشارع. فقد فتحت مداركى على مظاهرات ثورة ١٩١٩، وكنت وقتذاك فى سن السابعة تقريباً، ورأيت شباباً يسقطون برصاص الإنجليز وهم يهتفون لزعيم الأمة: سعد زغلول، وشعرت فى حينها بتعاطف شديد مع هؤلاء الشباب وأهدافهم، وشيئاً فشيئاً أصبحت من أشد المؤمنين بالوفد ومبادئه وزعمائه، بل لم أكن أرى أن الحياة فى مصر تستقيم بدون الوفد، ورغم عشقى لسعد زغلول فإننى لم أره رأى العين أبداً، وكانت الفرصة الوحيدة المواتية لرؤيته، عندما خرجت فى مظاهرة حاشدة لتأييده عندما كان ذاهباً للقاء الملك فؤاد من أجل تقديم استقالته فى أوائل سنة ١٩٢٤، بسبب خلافه الشهير مع الملك<sup>(١)</sup>. كان سعد زغلول

---

(١) كان موضوع الخلاف بين الملك فؤاد وسعد زغلول هو: من يملك الحق فى اختيار أعضاء مجلس الشيوخ المعينين. وكان الملك فؤاد يرى أنه صاحب هذا الحق، أما سعد زغلول فكان يرى أن الوزارة هى صاحبة الحق الدستورى فى التعيين. وقدم سعد استقالته من رئاسة الوزارة ثم سحبها بعد أن نزل الملك فؤاد على رأيه تحت تأثير الضغط الشعبى المؤيد لسعد زغلول.

آنذاك رئيسًا للوزراء ووزيرًا للداخلية، وعرفت الجماهير أنه سوف يذهب للقاء الملك في قصر عابدين، وخرجت أنا مع الآلاف إلى ميدان عابدين، ننتظر قدوم سيارته، ونحن نهتف: «سعد أو الثورة». وبمجرد أن لمحت الجماهير سيارة سعد زغلول اندفعت إليه كالطوفان، فلم أتمكن من الاقتراب منه، كما حدث نفس الشيء عند خروجه من القصر بعد انتهاء المقابلة، وهكذا ضاعت الفرصة الوحيدة لرؤيته.

عندما تزوجت في عام ١٩٥٤ بعد أن ظللت سنوات عازفًا عن الزواج بسبب تفرغي للأدب، توقع العديد من أصدقائي أن تراجع جرائتي في تناول قضايا المجتمع، وتقل شجاعتي في نقد الأخطاء والسلبيات، خوفًا على أسرتي، كما توقعوا أن مسئولياتي العائلية الجديدة التي تحملتها لا شك ستدفعني إلى أن أكون مسالمًا وبعيدًا عن الصدام مع السلطة، ولكن خابت توقعاتهم، حيث ازدادت كتاباتي عنفًا وجرأة، ولهذا الأمر أسبابه. يأتي على رأس هذه الأسباب أنني عندما أمسك بالقلم أنسى كل شيء: خوفي، مسئولياتي، أسرتي، وأنسى حتى نفسي. ثم إن انتقاداتي دائمًا موضوعية، ولا تحيط بي أي شبهات، كما أنني ليس لدى أي شعور بالإثم. وكانت ثورة يوليو ١٩٥٢ تدرك تمام الإدراك أنني لست من بين خصومها، وقد أعلنت عن تأييدي للكثير من القرارات التي ظننت وقتذاك أنها سليمة وحتمية مثل: تأميم القناة، ومجانية التعليم، والوحدة مع سوريا، والحرب في اليمن.. فانا - إذن - لم أكن ضد النظام، وليس هناك أحد من رموز النظام يأخذ مني موقفًا عدائيًا، بل كنت أعمل في «نادى القصة» مع يوسف السباعي أحد رجال النظام، وأعمل مع محمد حسنين هيكل في «الأهرام»، وكان هيكل أقرب كاتب وصحفي إلى عبدالناصر وكان المعبر عنه وعن نظامه، وفي عهد الثورة حصلت على جائزة الدولة في الآداب عام ١٩٥٧، كما منحنى الرئيس جمال عبدالناصر وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى الذي تسلمته منه شخصيًا.

لم تكن انتقاداتي لثورة يوليو في أي من كتاباتي موجهة ضد النظام، بل كنت أنقد غياب الديمقراطية في هذا النظام، ولم تكن الديمقراطية من المحرمات، بل هي المبدأ السادس من مبادئ الثورة، والتي أعلنت الثورة أنها تسعى لتحقيقه، وربما كان الكاتب الوحيد الذي كتب رواية يهاجم فيها النظام بشكل مباشر هو ثروت أباظة: ففي روايته «شيء من الخوف» أظهر بوضوح موقفه من الثورة، وأعلن بما لا يدع مجالاً للشك أن النظام القائم غير شرعي، وأن «زواجه» من مصر باطل، ليس معنى ذلك أنني كنت «نائمًا في العسل» بعيدًا عن المخاطر والمتاعب، بل في مرات عديدة، كنت على حافة الهاوية.

أولى هذه المرات كانت بسبب قصة قصيرة نشرتها في «الأهرام» بعنوان «سائق القطار»، وبعد النشر سرى همس في أوساط المثقفين، بأننى أقصد عبدالناصر، والقصة تدور حول سائق قطار يفقد صوابه، ويتسبب في حادث تصادم مروع، وكان التفسير السائد هو أننى أشير إلى أن عبدالناصر يقود مصر إلى كارثة، ولك أن تتصور ما نتيجة هذا التفسير؟! ومن خلال مكالمات الأصدقاء التليفونية عرفت مدى خطورة القصة، وتأثيرها على الناس، وتوقع بعضهم اعتقالى...، حتى أن صديقى محمد غيفى اتصل بى على غير عادته بدون مناسبة وفى ساعة متأخرة من الليل لكى يطمئن - فقط - على أننى مازلت موجودًا فى منزلى ووسط أسرتى، كل هذا جعلنى أتوقع شرًا محددًا، ولكن أنقذنى من تلك الورطة محمد فريد أبو حديد رئيس تحرير مجلة «الثقافة» فى ذلك الوقت. إذ كتب مقالاً فى افتتاحية المجلة - ولم يكن بيننا سابق معرفة - عن قصة «سائق القطار»، توصل فيه إلى أن كاتب القصة يرمز للصراع بين الشرق والغرب، وبالتحديد بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى، وهو الصراع الذى كان مستعرًا فى ذلك الوقت (حوالى عام ١٩٦٥)، وكيف أن هذا الصراع قد يتسبب فى تدمير الكرة الأرضية، والكرة الأرضية ترمز إليها القصة بالقطار.

حمدت الله لأن «فريد أبو حديد» توصل إلى هذا التفسير، وشعرت بالراحة، وبأن المقال أزاح عن صدرى همًا ثقیلاً، لدرجة أننى - وبشىء من الحماسة - اتصلت بـ «فريد أبو حديد» لكى أشكره، ولم ألتفت إلى أننى بهذا الاتصال التليفونى أؤكد التهمة، لكننى لا أنسى لـ «فريد أبو حديد» هذا الموقف النبيل، فهو كان على علم بحجم الورطة التى وقعت فيها بعد نشر القصة، فساعدنى على اجتياز الأزمة فى سلام.

الأزمة أو قل الورطة الثانية كانت بسبب رواية «ثرثرة فوق النيل». فبعد نشرها ثار المشير عبدالحكيم عامر، وبلغنى أنه هدد وتوعد بإزالة العقاب بى، بسبب النقد العنيف الذى ضمنتها الرواية، عن سلبيات قائمة فى المجتمع، وسمعه البعض وهو يقول: «نجيب زودها قوى ويجب تأديبه ووقفه عند حده». وعندما تخرج كلمة «ويجب تأديبه» من المشير عامر، فإنها تحمل معانى لا تخفى على الذين عاشوا فى ذلك العصر، كما أن لها معانى خاصة عندى، حيث ربطت صداقة حميمة بين المشير وابن أختى «حازم النهري»، وتزاملا فى الدراسة الابتدائية والثانوية، وكان المشير مقيمًا تقريبًا فى بيت أختى وينادىها بـ «طنط». وفى حفل زفاف ابنة أختى بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ حضر المشير واصطحب

معه أنور السادات، كان ذلك قبل نشر رواية «ثروة فوق النيل» بسنوات، وعلمت أن المشير - في ذلك الحفل - سأله عنى، فأبلغوه بأننى انصرفت بعد عقد القران، مباشرة. ومن عاداتي الثابتة أننى إذا دعيت لحفل زواج واضطرت لحضوره، فإننى أنصرف بعد عقد القران فوراً، لأننى من أعداء الصخب والضجيج اللذين يعقبان عقد القران. سأله المشير يومها عنى لكى يناقشنى فى مقال كنت كتبته فى جريدة «الجمهورية» فى ذلك الوقت، فى أوائل الستينيات، وكنت أدعو فى هذا المقال إلى الخروج من حالة التراجع بين الكتلتين الاشتراكية والرأسمالية، وما دمننا قد اخترنا الميل إلى الكتلة الاشتراكية، فلماذا لا ننضم إلى «الكوميكون»<sup>(١)</sup>، وسوف نكسب من ذلك مزايا عديدة، وذلك كان فى نظرى أفضل من أن نبقى معلقين بين الاتحاد السوفيتى ورابطة عدم الانحياز والكتلة الرأسمالية الغربية، وعلى الأقل فلن نتعرض لاعتداء عسكري إلا فى حالة قيام حرب عالمية ثالثة. كان هذا هو رأى فى ذلك، وكان المشير يخالفنى فى وجهة نظرى ويرى أن اتجاه مصر إلى ذلك يمثل ضرراً بالغاً عليها.

وعندما جاء ثروت عكاشة لتهنئتنى بجائزة نوبل حكى لى تفاصيل ما دار فى كواليس السلطة عن أزمة رواية «ثروة فوق النيل». فقد كان عكاشة وقتئذ وزيراً للثقافة، وبينما هو يستعد لرحلة عمل إلى إيطاليا، استدعاه جمال عبدالناصر، وسأله عما إذا كان قد قرأ الرواية، ولما لم يكن قد قرأها، فقد طلب منه عبدالناصر قراءتها وإبداء رأيه فيها بعد عودته من إيطاليا، قرأ الدكتور ثروت عكاشة رواية «ثروة فوق النيل» فى أثناء رحلته، وفى أول لقاء له مع الرئيس عبدالناصر دافع عنها وفند اتهامات المهاجمين لها، وأكد للرئيس أننى أثبتت إلى أخطاء موجودة وليس لدى سوء نية فى مهاجمة نظام الحكم، ثم قال له: إن من الضرورى أن يتوافر للأدب قدر من الحرية، لينقل صورة واقعية حقيقية عن المجتمع، وإذا لم يجد الأدب هذا القدر من الحرية مات واضمحلت تأثيره، واستطاع الدكتور ثروت عكاشة إقناع عبدالناصر بأن حرية الأدب هى أفضل دعاية للنظام فى الخارج، وبالفعل اقتنع عبدالناصر، وقال للدكتور ثروت عكاشة: «اعتبر المسألة منتهية».

وهكذا تراجع المشير عبدالحكيم عامر عن تهديده بعقابى بعد تدخل عبدالناصر،

(١) «الكوميكون» هو السوق المشتركة لدول الكتلة الاشتراكية، وقد أنشئ سنة ١٩٤٩ وكان مركزه موسكو. ويطلق عليه البعض اسم «السوق المشتركة الحمراء».

ولكن مصدر دهشتي من تهديد المشير هو أنه لم يراع صداقته القوية بابن أختي، وكنت أظن أن هذه الصداقة ستشفع لي ولو قليلاً، وابن أختي «حازم النهري» كان قد تخرج من مدرسة التجارة، وعندما قامت الثورة كان مفتشاً للضرائب على الدرجة السادسة في الكادر الوظيفي، وبسبب علاقته بالمشير تولى مناصب عليا عديدة، ثم انتقل إلى رحمة الله عقب حرب أكتوبر ١٩٧٣. ولموته حكاية مؤلمة، فقد كان ابنه ضمن صفوف قواتنا المسلحة التي خاضت الحرب، واستشهد هذا الابن من بين الذين استشهدوا، وكان «حازم النهري» مصاباً بمرض في القلب، فلم يتحمل الصدمة، ورحل عن دنيانا في نفس الأسبوع الذي علم خلاله نبأ استشهاد ابنه.

أثناء نشر رواية «أولاد حارتنا» مسلسل في «الأهرام»، كنت في تلك الفترة من رواد كازينو «أوبرا». وفي الندوة الأسبوعية لاحظت وجود فتاة جديدة، وعرفت أنها ابنة أخت الدكتور حسن صبرى الخولى الممثل الشخصى للرئيس عبدالناصر، كانت فتاة ظريفة ولا أذكر اسمها الآن، وبعد إحدى الندوات التي حضرتها همست في أذني بأن سيارة محملة بمجموعة من العسكر ومعهم ضابط برتبة كبيرة ذهبت إلى بيتي لاعتقالى، وقبل أن تصل إلى منزلى جاءها الأمر بالعودة وعدم إكمال المهمة، ولم تذكر لى الفتاة أى تفاصيل أخرى. لا أعرف مدى صدق هذه الواقعة، كما لم أحاول التأكد من صحتها، ولكن أثناء نشر الرواية كانت زوجتى تشكو لى من وجود مراقبة مستمرة لها، وأن أشخاصاً لا تعرفهم يتتبعون حركتها كلما نزلت إلى الشارع، وحتى أثناء تجولها فى السوق لشراء احتياجات البيت، وربما لو كنت أنتبه أثناء سيرى فى الطريق لاكتشفت أننى مراقب، ولكن الأفكار التى كانت تدور فى ذهنى وأنا أمشى كانت تشغلنى عن مثل هذه الأمور.

كل تلك المتاعب لا تذكر بجانب تلك التى حدثت بعد النكسة، ولم تكن خاصة بى وحدى، بل قاسى منها كل أدباء مصر، وكانت أغلب معاناتى مع إدارة «الأهرام». رفض الأستاذ هيكल نشر رواية «المرايا» فنشرتها أنت<sup>(١)</sup> فى مجلة «الإذاعة والتليفزيون»، ورفض الأستاذ أحمد بهاء الدين عندما كان رئيساً لتحرير «الأهرام» نشر رواية «الحب

(١) كنت فى ذلك الوقت رئيساً لتحرير مجلة الإذاعة والتليفزيون، وحصلت من نجيب محفوظ على الرواية واستأذنت الأستاذ محمد فائق وزير الإعلام فى نشر الرواية فأذن لى، بعد أن أخبرته باعتذار «الأهرام» عن عدم نشرها، وقد تم نشر الرواية فى مجلة الإذاعة والتليفزيون ابتداء من أول مايو سنة ١٩٧١.

تحت المطر» فنشرتها أنت في مجلة «الشباب»<sup>(١)</sup> بعد أن حذفت منها الرقابة أشياء كثيرة، أما رواية «الكرنك» فقد كانت أكثر الروايات التي عانيت في نشرها، حيث قدمتها إلى الأستاذ محمد حسين هيكل، وبعد أن قرأها ظن أنها هجوم مباشر على عهد عبدالناصر، فحمل أصول الرواية، وذهب إلى مكتب توفيق الحكيم يشكوني إليه، وقد حكى لي الحكيم استنكار هيكل لما جاء في الرواية وقال له: «يرضيك كده... خد شوف نجيب باعت لي إيه؟!».

رواية «الكرنك» لها وضع خاص بين رواياتي، فقد كنت أجلس في مقهى «ريش» عندما سمعت أخبار المعتقلات والقصص التي تروى عما حدث للمعتقلين السياسيين في سجون عبدالناصر، وقد تألمت كثيراً مما سمعت، وقلت في نفسي إن الكتابة عن هذا الموضوع مغامرة، وأغلب الكتاب سيجدون رهبة وخوفاً من إثارته حتى لا يتعرضوا للأذى، فلماذا لا أكتب أنا عنه؟ إنني لم أعش تجربة الاعتقال ولا أعرف تفاصيلها. ولكنني اقتنعت بإمكانية سرد الأحداث على لسان «الراوى». وعندما انتهيت من كتابة «الكرنك» قدمتها إلى عبدالحميد جودة السحار لإصدارها من «مكتبة مصر». وكان الأسلوب المتبع في ذلك الحين أن تقوم دار النشر بجمع الرواية وإرسالها إلى الرقابة، وكان الرقيب - آنذاك - هو طلعت خالد، وكان يداوم على الاتصال بى تليفونيا بصفة شبه يومية ليطلب حذف فقرة أو تغيير جملة أو يبدى اعتراضاً على رأى معين، وهكذا إلى أن تم طبع الرواية، فاكشفت أنه تم تشويهها، وأن الأصل مختلف تماماً عن النسخة التي طبعت وظهرت في المكتبات، واعترضت وطلبت من السحار وقف عملية النشر، ولكنه أقنعني أن الوقف معناه خسارة مادية كبيرة له، ومن خلال تعامله مع أسرة «السحار» تأكدت من أنهم تجار يتميزون بالشطارة، ويهمهم الربح وعدم الخسارة في المقام الأول. أقنعني «السحار» أن الرواية طبعت، وإذا أردت أن أوقف النشر، فلا بد من أن أتحمل التكاليف المادية، وسلمت أمرى إلى الله ووافقت على ظهورها بهذا الشكل المشوه. وهاتان الروايتان وهما: «الكرنك» و«الحب تحت المطر»، هما العملاقان الروائيان الوحيدان اللذان ظهرا بهذه الصورة الناقصة، حيث يختلف الأصل إلى حد ما عن الصورة التي ظهرت للناس، وللأسف ليس عندى أصول الروايتين لأعيد نشرهما كاملتين من جديد.

(١) كنت مسئولاً عن تحرير مجلة «الشباب» التي كانت وزارة الشباب تصدرها عندما كان وزيرها هو الأستاذ الدكتور أحمد كمال أبوالمجد، وقد استأذنته في نشر هذه الرواية بعد رفض الأهرام قراء الرواية وأذن لي بنشرها، وكان ذلك في أواخر سنة ١٩٧٢.

كانت السلطة فى عهد عبدالناصر وثقة من حسن نواياى فى كتاباتى، ومن أننى أقصد من انتقاداتى صالح الوطن لا الإثارة أو تأليب الجماهير، وأظن أن عبدالناصر نفسه كان مدرکاً لهذه الحقيقة، بدلیل أنه تدخل لصالحى بعد نشر رواية «ثرثرة فوق النيل» ولم يترك الأمر لانفعال المشير.. وأذكر أن المرة الوحيدة التى قابلت فيها عبدالناصر وكلمته وجهًا لوجه كانت أثناء زيارته لمبنى «الأهرام» الجديد، فى ذلك اليوم مر عبد الناصر على حجرة يجلس فيها أدباء «الأهرام»، وكان يرافقه الأستاذ هيكل فى جولته. وأذكر ممن كانوا موجودين معنا فى الحجرة: حسين فوزى وصلاح جاهين وصلاح طاهر، وعندما جاء دورى فى مصافحة عبدالناصر قال لى وهو يتسم: «إيه يا نجيب.. بقى لنا زمان ماقريناش لك حاجة؟!». ورد عليه هيكل: «ستشتر له الأهرام قصة غدا». ويبدو أن زيارة عبدالناصر للأهرام كانت يوم خميس، وكنت أنشر قصصى إذا ما كتبت فى عدد الجمعة، ثم أردف هيكل قائلاً عن القصة التى ستشتر: «ولكنها من النوع الذى يودى فى داهية!». وعقب عبدالناصر على الجملة الأخيرة موجهًا حديثه إلى هيكل: «يوديك أنت!». ولذلك كان لدى شعور بالاطمئنان والثقة، وبأننى لن أتعرض لأى نوع من الغدر، وشعورى بالثقة - وإن كان يشوبه أحيانًا بعض الاهتزاز - لم يكن نابعًا من فراغ، بل كان مبنياً على أسس وأدلة. منها أن كل الروايات أو الأعمال الأدبية التى أثارت أزمات، وعرضت على عبدالناصر لكى يفصل فيها، جاء رأيه بشأنها إيجابيًا، حيث انحاز إلى جانب حرية التعبير، جرى هذا لروايتى «ثرثرة فوق النيل» ولرواية ثروت أباطة «شىء من الخوف». وبالنسبة لـ «شىء من الخوف» فإن عبدالمنعم الصاوى الذى كان وكيلًا لوزارة الثقافة فى ذلك الوقت هو الذى لفت أنظار السلطة إليها، وأكد أن ثروت أباطة يقصد الرئيس عبدالناصر بشخصية «عتريس» فى الرواية، وأن زواجه من «فؤادة» - أى مصر - باطل. وعندما شاهد عبدالناصر الفيلم المأخوذ عن الرواية سمح بعرضه فورًا، وقال جملة مشهورة لا أنساها: «لو كنا إحنا الحرامية، وأنا عتريس، يبقى مانستاهلش نقعد فى الحكم». وكانت هذه الواقعة هى بداية تراجع سلطة عبدالمنعم الصاوى فى عهد عبدالناصر، لأنه - بعدها - بدأ نجمه فى الأفول، وإذا كان لخلاف الصاوى مع الدكتور ثروت عكاشة دور كبير فى أفول نجم الصاوى، إلا أن واقعة «شىء من الخوف» لها دور لا ينكر.

أما روايتى «ميرamar»، فقد نشرت كاملة دون حذف كلمة واحدة منها فى جريدة «الأهرام»، ثم ظهرت بعد ذلك فى فيلم سينمائى، وشاهدها عدد من أعضاء الاتحاد الاشتراكى فى عرض خاص، فاعترضوا على الفيلم، وقالوا إنه يتضمن هجومًا صريحًا على النظام،

وطالبوا بمنع عرضه، وجن جنون منتج الفيلم جمال الليثي، وراح يشكو في كل مكان حتى وصل صوته إلى الرئيس عبدالناصر، وكلف عبدالناصر نائبه أنور السادات بمشاهدة الفيلم وكتابة تقرير عنه ليأخذ قرارًا عادلاً في القضية، ولما سمعت أن عبدالناصر اختار السادات للفصل في أزمة الفيلم، قلت في نفسي: «عليه العوض.. الفيلم راح». وفي اليوم التالي للعرض الخاص الذي شاهد فيه السادات الفيلم، فوجئت بخبر منشور في جريدة «الأهرام» أصابني بالاستغراب والدهشة، فالسادات لم يوافق فقط على عرض الفيلم، بل إنه أدلى بتصريح يمثل دعاية صريحة له، فقد أكد السادات أن الفيلم برىء تمامًا من تهمة العداء للنظام، ودعا الجمهور إلى مشاهدة الفيلم، ضربت كفاً بكف ولم أفهم تفسيراً لهذا الموقف إلا بعد وفاة عبدالناصر، حيث اتضح لي أن السادات لم يفعل ذلك إلا من منطلق عدائه للاتحاد الاشتراكي ونكاية فيه، وتم عرض الفيلم وحقق نجاحاً جماهيرياً كبيراً بفضل دعاية السادات له، وحقق رقماً قياسياً في أسابيع العرض وقتذاك، فقد استمر عرضه ١٩ أسبوعاً متصلة، وأذكر أن الشخصية التي أداها الفنان يوسف وهبي في الفيلم كانت شخصية «شريرة» لا يمكن التعاطف معها، ولكن بفضل براعة يوسف وهبي الفائقة وخفة ظله، تحولت إلى شخصية محبوبة، وهكذا فعل يوسف وهبي عكس ما أردته، فقد أردت الهجوم على الرجعية، أما يوسف وهبي فقد قلب هدفي إلى دعاية للرجعية.

إن ثقتي واطمئناني من جانب الثورة شابهما - كما قلت - بعض الاضطراب والاهتزاز، وأتذكر أن الفنان فريد شوقي عرض على الدكتور ثروت عكاشة فكرة فيلم سينمائي يدور في إطار عمل المخابرات المصرية، وطلب تدخله لدى المخابرات لكي تساهم في تمويل الفيلم، وافق ثروت عكاشة وأسند إليّ مهمة كتابة السيناريو، وعندما فرغت من كتابته، استدعاني للقاءه في مكتبه، وطلب مني الذهاب إلى مبنى المخابرات ومقابلة المسئولين هناك، واستطلاع رأيهم في السيناريو، ومعرفة مدى رغبتهم في تمويل الفيلم. ولم أكن أعرف مكان مبنى المخابرات، فحدده لي، وذهبت. وفي المبنى التقيت مع نائب رئيس المخابرات، طلعت خيرى، الذى كان مختصاً بمثل هذه الأمور، وقدمت له نفسي: «نجيب محفوظ مدير مؤسسة السينما». لاحظت عند دخولي مكتب نائب رئيس المخابرات وجود شخص يحرق فى، ثم هم بالانصراف، فاستبقاه طلعت خيرى، طالباً منه الانتظار، لأن الحديث سيدور عن السينما ويمكن أن يفيدنا هذا الشخص في المناقشة. لم يعرفنى هذا الشخص بنفسه، وفتح معى مباشرة حواراً طويلاً، وقال إنه قرأ رواية «بين القصرين» فى إجازته الصيفية، وأنها

أعجبته كثيرًا، ثم حدثني عن رواية «أولاد حارتنا» والمشكلات التي ثارت حولها، وسألني عما أقصده من ورائها، ومدى صحة ما يقال عن وجود تجاوزات دينية بها؟. نقل طلعت خيرى الحديث إلى موضوع الفيلم الذى جئت من أجله، وبعد مناقشة قصيرة، أخبرني بأن المخابرات ليس لديها اعتراض على فكرة الفيلم من حيث المبدأ، أما مسألة التمويل فتحتاج إلى محادثات مطولة مع ثروت عكاشة، وانتهى اللقاء وانصرفت، وبعد هذا اللقاء بعدة شهور شاهدت صورة فى الصفحة الأولى لجريدة «الأهرام» للرئيس عبدالناصر فى إحدى جولاته فى إفريقيا، وتوقفت أمام صورة شخص يظهر فى الصورة خلف عبدالناصر، ودققت فى ملامحه، فاكشفت أنه نفس الشخص الذى كان يتحدث معى فى مكتب طلعت خيرى، وكانت دهشتى شديدة عندما علمت أنه رئيس المخابرات صلاح نصر، وقفز إلى ذهنى خاطر غريب، وهو أن ذهابى إلى مبنى المخابرات سبقته ترتيبات ما، وأنهم أرادوا مناقشتى حول رواية «أولاد حارتنا» بشكل غير مباشر، وقال لى بعض الأصدقاء إن المخابرات كان لديها اعتقاد بأن الرواية موجهة ضد النظام، وأنهم اشتموا فيها رائحة مؤامرة، وذهب أصدقاء آخرون إلى أن الأزمة التى أثارها الأزهر ضد الرواية كانت بتدبير المخابرات نفسها، والتى أرادت أن تستفز مؤسسة دينية كبرى بهدف النيل منى، ولكننى استبعدت هذه التفسيرات لأسباب كثيرة، منها أن ثروت عكاشة لا يمكن أن يشارك فى تدبير خطة تقودنى إلى مبنى المخابرات ليناقشونى فى الرواية دون أن أدري، وكذلك فإن المخابرات تستطيع تقديمى للمحاكمة إذا كان هناك ما يدل على أن الرواية موجهة ضدها أو ضد النظام الحاكم، أما الشئ المحير والذى لا أجد له تفسيرًا حتى الآن فهو: لماذا جلس صلاح نصر فى مكتب طلعت خيرى بهذه الصورة؟ ولماذا لم يقدم لى نفسه بشكل مباشر؟ ولماذا سألنى عن رواية «أولاد حارتنا» بالذات؟!

ربما كانت أصعب المتاعب التى واجهتها فى علاقتى مع السلطة هو ما حدث فى بدايات عصر السادات، وأقصد هنا تداعيات البيان الشهير الذى كتبه توفيق الحكيم ووقع عليه عدد كبير من الأدباء - وكنت من بينهم - يعترضون فيه على حالة «اللاحرب واللاسلم» التى كانت تعانى منها مصر، كان ذلك فى أوائل عام ١٩٧٣ وفى شهر فبراير من ذلك العام إن لم تخنى الذاكرة. وسرعان ما صدر قرار بعزل الموقعين على البيان ومنعهم من الكتابة، ونشرت الصحف أسماء هؤلاء الممنوعين، وتم منع الحكيم وأنا، على الرغم من عدم نشر اسمينا فى قائمة الممنوعين فى الصحف، فتوقفت «الأهرام» عن نشر أعمالى، ومنعت من

الحديث في الإذاعة والتلفزيون كما حدث مع غيرى من الذين وقعوا على البيان. ولكن بالنسبة لى كان هناك عقاب إضافى، وهو منع عرض أفلامى فى التلفزيون، سواء كانت هذه الأفلام مأخوذة عن رواياتى، أو كانت من الأفلام التى شاركت فى كتابة السيناريو لها، أما العقاب الأشد إيلاّما فى نفسى، فهو ذلك الهجوم الجارح الذى شنّه علىّ كتاب كنت أعتبرهم من الأصدقاء وفى مقدمتهم حسن إمام عمر وصالح جودت، وألمى هنا ينبع من مصدرين: الأول- هو أن علاقتى بهذين الشخصين على وجه التحديد كانت حميمة أو كنت أظنها كذلك. فحسن إمام عمر تعرفت عليه عن طريق المخرج السينمائى أحمد بدرخان، وكنا نسهر فى منزله حتى الصباح، وبيننا ود ظاهر، أما صالح جودت، فتوطدت علاقتى به فى أثناء رحلتنا إلى اليمن، حيث عشنا معاً فى حجرة واحدة فى الباخرة التى أقلتنا لمدة ١٥ يوماً، أسبوعاً فى الذهاب، وآخر فى العودة، وفى فترة عزله فى أيام عبدالناصر كان أصدقاؤه يفرون منه، ويتجنبون ذكره فى أحاديثهم الصحفية والإذاعية والتلفزيونية، ولم أكن أرى مبرراً لهذا التجاهل، وأصر من جهتى على ذكر اسمه إذا استدعى الأمر ولا أخشى فى ذلك غضب السلطة. وإذا ما حدث وذكرته فى أحاديثى العلنية إلى وسائل الإعلام، يتصل بى تليفونياً على الفور وهو فى غاية التأثر شاكرًا لى هذا الصنيع، فما الذى يجعلهما يتناسيان الصداقة والمودة بهذه السهولة؟

المصدر الثانى للألم هو أن هذين الشخصين لم يكونا من كتاب السياسة، فأحدهما ناقد فنى وهو حسن إمام عمر، والآخر أديب وشاعر وهو صالح جودت، ومن ثم ليس هناك ما يضطرهما للكتابة فى المسائل السياسية.

الطريف أن صالح جودت قبل أن يشن علينا هجومه ببضعة أيام اتصل بتوفيق الحكيم غاضبًا، لأن الحكيم لم يطلب منه التوقيع على البيان الذى أثار هذه الأزمة، وأنه - على حد ما أبلغ به الحكيم - كان على أتم الاستعداد للتوقيع عليه، ثم انقلب علينا بعد ذلك، فسبحان مغير الأحوال.

بعد صدور البيان الشهير استدعانا الدكتور عبدالقادر حاتم إلى مكتبه، توفيق الحكيم وثروت أباطة وأنا، ودار بيننا حوار طويل. كان الدكتور حاتم عاتبًا علينا لأننا وقعنا بأسمائنا ضمن قائمة من الشيوعيين، وبعضهم - كما ذكر لنا - كانوا يتقاضون مرتبات شهرية من السفارة السوفيتية بالقاهرة، وعاتبنا أيضًا لأن الصحافة اللبنانية حصلت على نسخة من البيان واستغلته فى الهجوم على نظام السادات، وقد أكدنا للدكتور حاتم أننا لا نعلم شيئًا عما ذكره

عن هؤلاء المتصلين - من بين الموقعين البيان - بالسفارة السوفيتية، كما أننا لا ذنب لنا في وصول البيان إلى الصحافة اللبنانية، وأنا وقعنا على البيان من منطلق حرصنا على المصلحة القومية وعلى كرامة الأمة العربية المهذرة.

واستمرت أزمة هذا البيان من ٤ فبراير إلى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٣، ففي خطاب السادات في ذكرى رحيل عبدالناصر أعلن العفو عن الكتاب والأدباء المعزولين، وبعد قرار العفو طلب السادات لقاء الحكيم، وقد حدثني الحكيم عما دار في هذا اللقاء، وأنه دافع عني أمام السادات وأكد له أنني وقعت البيان بحسن نية، ولم أقصد الإثارة أو الإساءة، وأن السادات قد اقتنع بما قاله الحكيم، وحكى لى الحكيم أنه حاول تبرئة ثروت أباطة أمام السادات، فما إن ذكر اسمه حتى انفعل السادات وغضب، ورفض تبريرات الحكيم. والغريب في الأمر أن ثروت أباطة بعد وقت قصير أصبح من أصدقاء السادات المقربين، واختاره السادات ضمن أعضاء مجلس الشورى، وعينه رئيساً لتحرير مجلة «الإذاعة والتلفزيون»، وعندما كتب ثروت أباطة مقاله الشهير «في أى شيء صدق»، والذي هاجم فيه عبدالناصر بوضوح وصراحة، اضطر السادات لتنحيته من رئاسة تحرير المجلة تجنباً لحدوث أزمة مع الناصريين، ونقله إلى جريدة «الأهرام».

أستطيع أن أقول وأنا مرتاح الضمير إننى قلت كل ما أريد قوله في أعمالى الروائية، وعبرت عن كل آرائى خلال فترة حكم عبدالناصر، والرأى الذى لم أستطع التصريح به مجاهرة أوصلته للناس عن طريق الرمز. فمن مزايا الفن الكبرى أن الفنان يمكنه أن ينقد ويعترض ويقول كل ما يريد قوله بشكل غير مباشر، لقد كنت معترضاً على ممارسات جهاز المخابرات، والأساليب التى يتبعها، فكتبت قصة أقرب إلى الفانتازيا اسمها «روبايكيا» أسخر فيها من تلك الممارسات، وسمحوا بنشرها.

وأزعم أن الفن ازدهر إلى حد كبير فى العهد الناصرى، وجزء كبير من هذا الازدهار يرجع إلى نظام الحكم نفسه، لأنه سمح بهامش من الحرية، وكانت وجهة نظر النظام هى أن هذا الهامش بمثابة متنفس للناس، لأن الكبت الكامل من الطبيعى أن يؤدى إلى انفجار، ثم إن حرية الفن هى أفضل دعاية للنظام فى الخارج، ووسيلة فعالة لتحسين صورته أمام العالم، مما يكون له صدى طيب فى المحيط العربى على وجه الخصوص. وأذكر أن الدكتور عائشة عبدالرحمن حكى لى ذات مرة أنها كانت فى المغرب وقت صدامى مع الأزهر بسبب رواية «أولاد حارتنا»، وانتشر خبر بين طلاب الجامعة عن اعتقالى، فأضرب الطلاب

احتجاجًا، وخرجوا في مسيرة يطالبون فيها بالإفراج عني! الخبر كاذب، ولم أعتقل يومًا، ولكن من المؤكد أن السلطة في مصر أدركت أو كانت تدرك بالفعل، النتائج التي يمكن أن تترتب على قيامها بخلق الفنان وما يتبع ذلك من ترسيخ صورة سيئة لها في العالم العربي إذا هي أقدمت على ذلك فكانت من الذكاء بحيث سمحت بهذا الهامش من الحرية، وقد امتد هذا الهامش أحيانًا حتى ظهرت أعمال فنية اتخذت موقفًا صريحًا في معارضة بعض مواقف النظام، وقد سمحت السلطة بعرضها على الجمهور وظهورها للنور، مثل مسرحية «الفتى مهران» لعبد الرحمن الشرفاوي، وهي المسرحية التي عارضت صراحة اشتراك مصر في حرب اليمن.

وفي مقابل هامش الحرية الذي تمتع به الفن في العهد الناصري، تعرض الفكر لتضييق شديد، ذلك أن الفكر لا يعرف الرمز أو الالتفاف والتحايل الموجود في الفن، فالأعمال الفكرية صريحة ومباشرة، ومن هنا كان أي خروج من جانب المفكرين عن الخطوط الحمراء يقابل بقبضة حديدية، فلم تسمح السلطة للمفكرين بالمناقشة والمعارضة والدخول في المناطق الحساسة، فعندما انتقد الدكتور لويس عوض فكرة «القومية العربية» في محاضراته بكلية الآداب، خرج من كرسيه كأستاذ في الجامعة ومستشار لوزارة الثقافة إلى سجن الواحات مباشرة. وهذا ما جرى مع كل مفكر سولت له نفسه الخروج على فكر النظام ومبادئه.



## الفصل الحادى عشر

### «أولاد حارتنا».. رواية وأزمة

انقطاعى عن الكتابة لمدة ٥ سنوات متصلة بعد ثورة يوليو - قررت احترام كتابة السيناريو بعدما ظننت أننى انتهيت كأديب - «أولاد حارتنا» تعيدنى إلى الكتابة من جديد - على حمدي الجمال أقنعنى بنشر «أولاد حارتنا» مسلسل فى جريدة «الأهرام» - خبر صغير فى جريدة «الجمهورية» يفجر الأزمة - أدباء يطالبون بوقف نشر الرواية وتقديمى للمحاكمة - هيكل يدافع عنى ويصمم على نشر الرواية كاملة - مناظرة لم تتم مع شيوخ الأزهر - انفجار الأزمة من جديد بعد حصولى على جائزة نوبل - أنور الجندى يهاجمنى ويتهم أعمالى بالكفر - فتوى الشيخ عمر عبدالرحمن بإهدار دمي - الأمن عرض تزويدي بحراسة خاصة وأنا رفضت - الصديق الذى قرر قتلى بسبب رواية «السراب» - شتائم والفاظ جارحة فى رسائل القراء - «أولاد حارتنا» تنقذ ناقداً أمريكياً من أزمة.



■ لم نثر رواية من الجدل والخلاف مثلما أثارته رواية «أولاد حارتنا» التي كانت أول رواية يكتبها نجيب محفوظ بعد ثورة يوليو ١٩٥٢، وبسببها اتهم في دينه وعقيدته، وصدرت فتاوى متطرفة تبيح دمه. وفي هذا الفصل يتحدث نجيب محفوظ عن وجهة نظره الحقيقية التي كتب على أساسها الرواية، وعن المتاعب التي تعرض لها، ويحجب صراحة عن هذا السؤال: هل حاولت الرواية الإساءة إلى شخصيات الأنبياء؟!... ■

نجيب محفوظ: «أولاد حارتنا».. هي أول رواية أكتبها بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، وسبقها خمس سنوات من الانقطاع التام عن الكتابة، وتحديدًا بين عامي ١٩٥٢ و ١٩٥٧، وهي من أشق الفترات التي عشتها في حياتي وأصعبها على نفسي. والحقيقة أنني لم أعرف شيئًا واضحًا لهذا الانقطاع، بعض الأصدقاء قالوا لي إنه نتيجة إجهاد حدث لي بعد كتابة «الثلاثية»، والتي استغرقت في كتابتها ٤ سنوات متصلة ابتداء من عام ١٩٤٨ وحتى ١٩٥٢. ولكن ربما كان السبب هو أن قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ قتل الرغبة عندي في الكتابة، فقد كنت أعتبر الهدف الرئيسي لكتاباتى هو نقد المجتمع المصرى ودفعه للتغيير والتطور، وبعد قيام الثورة واتجاهها لتحقيق ما كنت أنادى به، كان السؤال الذى يلح على: ما جدوى الكتابة حينئذ؟! الطريف أنه كان فى مكتبى سبعة مشروعات لروايات كنت أنوى كتابتها، منها رواية اسمها «العتبة الخضراء». وقد حكيت فكرتها لعبدالرحمن الشرقاوى فأعجبته جدًا، وقال لى يومها إنه تمنى أن يكتب فى هذا الموضوع واستنكر عدم إكمال الرواية، ولما طالبت فترة التوقف وأصبحت كالتائه، استقر فى وجدانى أننى انتهيت كروائى، وأنه لم يعد عندي جديد أقدمه للناس، لدرجة أننى ذهبت إلى نقابة الممثلين وقيدت اسمى ككاتب محترف «للسيناريو»، وكنت قبل ذلك أعمل كهوا فى كتابة «السيناريو» مع المخرج صلاح أبو سيف، وتصورت أن كتابة «السيناريو» سوف تكون هى عملى الوحيد الذى يمثل لى العزاء ويسد الفراغ الذى تركه الأدب فى حياتى، وكنت فى تلك الأيام مقبلاً على الزواج، وتزوجت بالفعل فى عام ١٩٥٤، وكان لابد لى من عمل أحصل منه على دخل إضافى أواجه به مسئوليات الزواج والأسرة الجديدة. وفى أيام عملى كسيناريست محترف زاد دخلى بشكل

ملحوظ مقارنة بأيام عملي كروائي، والحقيقة أن فترة عملي في كتابة «السيناريو» كانت من أحسن فترات حياتي من الناحية المادية.

في عام ١٩٥٧ شعرت بدبيب غريب يسرى في أوصالي، ووجدت نفسي منجذباً مرة أخرى نحو الأدب. وكانت فرحتي غامرة عندما أمسكت بالقلم مرة أخرى، ولم أصدق نفسي عندما جلست أمام الورق من جديد لأعاود الكتابة. وكانت كل الأفكار المسيطرة عليّ في ذلك الوقت تميل ناحية الدين والتصوف والفلسفة. فجاءت فكرة رواية «أولاد حارتنا» لتحى في داخلي الأديب الذي كنت ظننته قد مات. ولذلك لاحظ النقاد تغييراً في أسلوبى واتجاهاتى الأدبية وهم يقارنون رواية «أولاد حارتنا» بما سبقها من أعمال. فهى لم تناقش مشكلة اجتماعية واضحة كما اعتدت في أعمالى قبلها، بل هى أقرب إلى النظرة الكونية الإنسانية العامة، ومع ذلك فرواية «أولاد حارتنا» لا تخلو من خلفية اجتماعية واضحة. ولكن المشكلات التى صاحبته والتفسيرات التى أعطيت لها، جعلت كثيرين لا يلتفتون إلى هذه الخلفيات.

نشرت رواية «أولاد حارتنا» فى جريدة «الأهرام» كحلقات مسلسل، ولهذا النشر قصة أخرى، لأننى كنت أرفض من قبل أسلوب النشر المسلسل هذا. ففى سنة ١٩٥٧ حصلت على «جائزة الدولة»، وهى جائزة قديمة أخرى غير جائزة الدولة الحالية التى تأسست اعتباراً من العام ١٩٥٨ وكانت قيمتها المالية ألفى جنيه مصرى، وحصل عليها فى نفس العام الدكتور محمد كامل حسين عن روايته «قرية ظالمة». وقد ضاع مبلغ الألفى جنيه بعد ذلك فى عملية نصب تعرضت لها، حيث دفعتهما لشراء فيلا وهمية على النيل، ولمناسبة حصولى على جائزة ونكريماً لى أقام إحسان عبدالقدوس حفلاً فى منزله القديم الكائن بشارع قصر العينى، ودعا إليه عددًا كبيراً من الأدباء والصحفيين على رأسهم كامل الشناوى، وتربطنى بإحسان عبدالقدوس علاقة شبه عائلية، منذ أن كان جازاً لنا فى شارع «رضوان» بالعباسية، وقد ولد إحسان فى هذا الشارع، ونشأت بيننا علاقة حميمة بعد أن انتقلنا من الجمالية لنسكن نفس الشارع، وقبل أن أتعرف عليه ربطت الصداقة بينى وبين ابن عمه له.

فى حفل التكريم الذى أقامه لى إحسان عبدالقدوس اقترب منى على حمدى الجمال مدير تحرير «الأهرام» فى ذلك الوقت، وقال لى: إنه يكلمنى باسم الأستاذ محمد حسين هيكل رئيس التحرير، وأنه يريد منى رواية لتنشر فى الجريدة على حلقات مسلسل، لم أكن

بدأت في كتابة رواية «أولاد حارتنا»، وبالتالي اعتذرت بأنه ليس لدى الآن رواية جاهزة للنشر، ووعدت «الجمال» بأن أول رواية أكتبها سأرسل بها إلى «الأهرام». وانتهت من كتابة رواية «أولاد حارتنا» في شهر أبريل سنة ١٩٥٨، حيث استغرقت كتابتها سنة «نجيبة»، حيث تبدأ سنة الكتابة عندي في شهر أكتوبر وتنتهي في شهر أبريل، وتذكرت بعد أن انتهت من الرواية الوعد الذي قطعته على نفسي، فاتصلت بالأستاذ على حمدي الجمال، واتفقنا على موعد، وذهبت إليه بأوراق الرواية التي قرأها وأعجب بها وصرح بنشرها دون أي ملاحظات. ويبدو أن الأستاذ الجمال قرأها على أنها رواية عادية عن حارة مصرية يقع بها صراع بين مجموعة من الفتوات.

وبدأت جريدة «الأهرام» في نشر الرواية، ومرت حلقاتها الأولى دون أن تظهر أي ملاحظات عليها، فالجزء الأول من الرواية لا يسبب أية مشاكل. ولكن الأزمة بدأت بعد أن نشرت الصفحة الأدبية بجريدة «الجمهورية» خبراً يلفت فيه كاتبه النظر إلى أن الرواية المسلسلة التي تنشرها جريدة «الأهرام» فيها تعريض بالأنبياء. بعد هذا الخبر المثير، بدأ البعض، ومن بينهم أدباء للأسف، في إرسال عرائض وشكاوى إلى النيابة العامة ومشخة الأزهر، بل وإلى رئاسة الجمهورية، يطالبون فيها بوقف نشر الرواية وتقديمي إلى المحاكمة. وبدأ هؤلاء يحرضون الأزهر ضدي على أساس أن الرواية تتضمن كفراً صريحاً، وأن الشخصيات الموجودة في الرواية ترمز إلى الأنبياء، وقد عرفت هذه المعلومات عن طريق صديق لي هو الأستاذ مصطفى حبيب الذي كان يعمل سكرتيراً لشيخ الأزهر، وكان شقيقه يعمل وكيل نيابة، وهو الذي أخبرني أن أغلب العرائض التي وصلت إلى النيابة العامة أرسلها أدباء.

وخدع رجال الأزهر في هذه الأزمة، لأنهم لم يحسنوا قراءة الرواية وفهمها، بل إن بعضهم لم يقرأ رواية أدبية من قبل، ومن هنا فسروا رواية «أولاد حارتنا» تفسيراً دينياً، ورأوا أن شخصية أدهم في الرواية ترمز إلى آدم، وشخصية جبل هي موسى، وشخصية رفاعه هي شخصية المسيح، أما شخصية قاسم فهي شخصية محمد عليه الصلاة والسلام... وهكذا. دافع عن الرواية الأستاذ محمد حسنين هيكل، ولولاه لكان توقف نشرها في «الأهرام» فوراً.

وبعد انتهاء نشر رواية «أولاد حارتنا» في «الأهرام» قابلني الدكتور حسن صبري الخولي الممثل الشخصي للرئيس عبدالناصر، وكان رجلاً في غاية اللطف، وقد سبق لنا العمل معاً

فى الرقابة، هو فى رقابة النشر، وأنا فى الرقابة على المصنفات الفنية. قال لى «الځولى» إنه لا يستطيع أن يسمح بنشر رواية «أولاد حارتنا» فى مصر - ككتاب - لأنه فى حال صدوره ستحدث مشكلة كبيرة مع الأزهر، ولكن من الممكن أن تنشر الرواية خارج مصر. واقترح على «الځولى» ترتيب لقاء مع عدد من شيوخ الأزهر لمناقشة الرواية، ورحبت بالاقترح، فاتفق معى على أن أحضر إلى مكتبه فى يوم محدد، وسوف يدعو هو بعض شيوخ الأزهر لإجراء المناقشة معى. وفى الموعد المحدد ذهبت إلى مكتب «الځولى»، فلم أجد أحدًا. وقال لى «الځولى» إنه سوف يتصل بى لإتمام اللقاء المقترح عندما يتجمعون، ومازلت فى انتظار المقابلة منذ أكثر من خمسة وثلاثين عامًا، ولم تتم. وأذكر أنه فى أحد اجتماعات المجلس الأعلى للثقافة جلس إلى جانبى شيخ الأزهر، ودار بيننا حديث ودى للغة، لكنه كان متحفظًا على قضية رواية «أولاد حارتنا».

نامت الأزمة فترة طويلة حتى انفجرت فى اليوم التالى لحصولى على جائزة نوبل، خاصة بعد ما تردد أننى حصلت عليها بسبب هذه الرواية، على الرغم من أن آخر ما جاء ذكره فى تقرير الجائزة هو هذه الرواية. وفى اعتقادى أن سبب الأزمة هو التركيز على التفسير الدينى للرواية، مع أن هناك تفسيرات أخرى، فالرواية الواحدة يمكن تفسيرها بأكثر من تفسير. رواية «ثرثرة فوق النيل» مثلاً كتبها كتعبير عن عزلة المثقفين وعلاقتهم المضطربة بالسلطة، ولكن قد يفسرها البعض على أنها رواية فلسفية تعبر عن عزلة الإنسان فى الكون. ورغم أن رواية «ثرثرة فوق النيل» تعبر عن مشكلة محلية إلا أن البعد الإنسانى فيها جعلها تحظى بشعبية كبيرة فى الخارج عند ترجمتها إلى عدة لغات منها الفرنسية والألمانية. وبهذه المناسبة أذكر أنه بعد حصولى على جائزة نوبل تولت الجامعة الأمريكية بالقاهرة تنظيم عملية ترجمة رواياتى للغات الأجنبية بالاتفاق مع دور النشر العالمية، كلما ترجمت رواية إلى أى لغة، فإن الجامعة ترسل لى نسخة منها.

وكدليل على صحة وجهة نظرى الخاصة بتعدد التفسيرات بالنسبة للرواية الواحدة، أن نافذاً وأديباً شاباً يعمل فى مجلة عالمية أظنها «النيوزويك» بعث لى برسالة طويلة يشرح لى فيها أنه كان يمر بأزمة إبداع لازمته فترة من الوقت، وأثناء هذه الأزمة قرأ بالمصادفة رواية «أولاد حارتنا» - مترجمة إلى الإنجليزية - فوجد فيها معانى إنسانية جميلة حركت بداخله المياه الراكدة، كتب نقداً جميلاً للرواية، أرفقه برسالته، هذا الحماس الذى بعثه الرواية فى داخله دفعه لكتابة عمليتين قال لى إنهما قيد الطبع، وأنه سيبحث بنسخ منهما لى بمجرد خروجهما من المطبعة.

بعد حصولي على جائزة نوبل بفترة كتب الأستاذ أنور الجندى مقالاً في مجلة - أظنها «الاعتصام» - بها جمني فيه بعنف ويقول إن أدبي كله فسق وكفر. والجندى هو نفسه الذي كفر طه حسين من قبل، وكتب أن فن القصة فن استعماري مخالف للإسلام. مع العلم أن القرآن يحتوي على قصص من أجمل ما يمكن، والنقلات في القصص القرآني من أعذب وأحدث ما يمكن، وفي طريقة القصص القرآني ملامح الأساليب الحديثة في فن القصة من ناحية الصور والأساليب واللغة.

بعد أنور الجندى جاءت فتوى الشيخ عمر عبدالرحمن الذي قال في حديث صحفي نشرته له جريدة «الأنباء» الكويتية: «إننا لو كنا قتلنا نجيب محفوظ عندما نشر رواية (أولاد حارتنا) ما ظهر إلى الوجود سلمان رشدي». وأحضر لي الصحفي الأستاذ سليمان الحكيم نسخة من جريدة «الأنباء» الكويتية التي تحتوي على الحديث وأطلعني عليها. وبعد هذه الفتوى اتصل بي ضابط شرطة من مباحث أمن الدولة واستأذن في زيارتي بالمنزل. وفهمت وقتئذ سبب الزيارة بطبيعة الحال. جاء الضابط وتحدث معي، وعرض تزويدي بحراسة خاصة، خشية تعرضي للاغتيال، وأوضح لي أن فتوى الشيخ عمر عبدالرحمن والتي جاءت عرضاً في حديث صحفي، لا تعد تهديداً صريحاً بالقتل، ولكن قد يقرأ الحديث أحد أتباعه، ويعتبرها فتوى ملزمة، ويقوم باغتيالي. اعتذرت عن قبول الحراسة الخاصة، وكانت أسبابي في ذلك كثيرة، وأهمها أن تلك الحراسة ستكون مقيدة لحريتي في الحركة والتنقل، وسوف تحول حياتي إلى عذاب لا يطاق. فإذا ذهبت إلى سهرة «الحرافيش» فلا بد أن يكون الحارس بجواري، وكذلك إذا فكرت في الذهاب إلى أي مكان لا بد أن يتبعني الحارس كظلي. وكانت تجربة ثروت أباطة مع الحراسة الخاصة لا تزال ماثلة في ذهني. فعندما كان يأتي ليسهر معنا في الإسكندرية وحارسه معه، كان الحارس يجلس معنا، فيلتزم الجميع الصمت، ولذا امتنع ثروت أباطة عن الحضور بعد أن شعر بالإحراج. وقلت لضابط الشرطة معتذراً: «لو مشي ورائي حارس فإنه هو الذي سيقتلني، لأنني سوف أعذبه بسبب حبي للمشي، وسوف يضطر للمشي معي يومياً. وبعد فترة سوف يضيق بي ويقتلني!!»، فضحك الضابط وتقبل اعتذاري.

ويستقر في وجداني أن الحراسة لن تمنع وقوع الضرر، فالنقراشي باشا قتل في مبنى وزارة الداخلية بين صفين من الجنود، وأنور السادات قتل وسط الجيش في احتفال عسكري مهيب. ومن هنا كان رفضي للحراسة، لأنها لن تمنع قدراً، وستعكر حياتي في أيامي الأخيرة في هذه الدنيا.

وبعد اعتذارى للضابط عن قبول الحراسة الخاصة بعدة أيام، فوجئت أثناء عودتي للبيت بوجود عسكري شرطة فى مدخل العمارة. فسألت زوجتى فقالت لى إن هذا العسكري جاء اليوم وطرق باب الشقة وتأكد من أننى أسكن فيها، ثم خرج ليقف أمام مدخل العمارة. اتصلت فوراً بضابط الشرطة الذى سبق أن زارنى عارضاً أمر الحراسة الخاصة، وكان قد ترك لى رقم تليفونه، فأخبرنى أنها مجرد إجراءات لتأمين وضمان سلامتى من بعيد، ومن غير إزعاج لى، وأنه لم يخبرنى بذلك قبل تنفيذه، لأنه ليس من حقى أن أرفض.

إلى جانب تلك المتاعب التى سببتها لى رواية «أولاد حارتنا»، من صدام مع الأزهر ومجمع البحوث الإسلامية وفتاوى التكفير، كنت أتلقي أحياناً رسائل مليئة بالشتائم وبألفاظ الألفاظ، ولكنها لم تصل إلى حد التهديد بالقتل.

وهناك متاعب سببها لى أشخاص عاديون، فعندما كتبت رواية «السراب» ظن أحد أفراد شلة المقهى أننى أقصده بشخصية بطل الرواية الذى يعانى من ضعف جنسى. ورغم أن هذا الشخص لم يقرأ الرواية، فقد صدق الشائعة التى روجها صديق آخر من الشلة كنوع من المزاح. ولكنه غضب وقرر قتلى، ولما وجدت أن المسألة ستخرج عن نطاق المزاح، وبطريقة لم تخطر على بالى قط، اتصلت به، وحاولت إقناعه بأننى لم أقصده إطلاقاً، وشرحت له الاختلافات الشاسعة بينه وبين الشخصية الموجودة فى الرواية، ورجوته أن يقرأ الرواية حتى يتأكد بنفسه.

الطريف أن هناك شخصية حقيقية نقلتها باسمها وملاحمها فى رواية «خان الخليلى»، وهى شخصية أحمد عاكف وكان موظفًا معنا فى إدارة جامعة القاهرة، وقرأ الرواية وعرف أنه هو المقصود بالشخصية، وزارنى وهنأنى وشكرنى على الرواية، واعتبر ذكرى لاسمه وشخصيته فى الرواية نوعاً من التكريم له أستحق أنا عليه الشكر والتهنئة.

باستثناء هذه الحوادث، لم يحدث أى صدام بينى وبين رأى العام، ولم أتلق فى يوم من الأيام خطاباً أو مكالمة تليفونية من أى شخص يهددنى فيها بالقتل<sup>(١)</sup>.

(١) كان هذا الوضع قائماً حتى ١٩٩٤ بالنسبة لنجيب محفوظ، ولكن هذه الصورة كلها تغيرت بعد محاولة اغتياله فى ذلك العام، فقد تبين أن ما قاله البعض عن رواية «أولاد حارتنا» من أنها تصور الأنبياء وتسخر من الدين قد وجد صداه عند بعض المتطرفين فقرروا قتله، وقد نجا من هذه المحاولة التى كادت تنجح، بعد علاج استمر عدة شهور، ومازال يعانى من آثار هذه المحاولة حتى الآن. ومن يومها وهو لا يتحرك إلا ومعه حراسة كافية. والحقيقة أن الفكرة الأساسية فى «أولاد حارتنا» هى تصوير الكفاح الإنسانى فى البحث عن العدالة والمعرفة. وهذا هو هدف الرواية الأساسى، ولم يكن فيها قصد للإساءة إلى الأنبياء عليهم السلام ولا التعريض بالدين.

## الفصل الثاني عشر

### من جائزة «قوت القلوب» إلى جائزة «نوبل»

قوت القلوب الدمرداشية تمنحني أول جائزة في حياتي - جائزة المجمع اللغوي حسنت أحوالي المادية أكثر من جائزة نوبل - منصور باشا فهمي يتهمني بالجنوح الجنسي في رواية «السراب» - المقاد يمنحني جائزة وزارة المعارف ولجنة التحكيم تعترض - مدير إدارة البعثات بالجامعة يشتمني: «يلعن أبو تأليف أمك»! - نوبل.. لم أتوقع الحصول عليها ولم أسع إليها - غضبت من زوجتي لأنها أبقتني من نومي لكي تخبرني بفوزي بجائزة نوبل - سفير السويد في بيتي وشقتنا تحولت إلى سوق - هربت إلى الحرافيش وظللت ساهراً حتى الصباح - القرار الذي أصدره إبراهيم نافع وأنقذني من الفضيحة - الرئيس مبارك حدثني تليفونيًا ورئيس الوزراء زارني في البيت - سوء الفهم الذي وقع فيه يوسف إدريس، وإثارته عاصفة ضدى يؤكد فيها أن الصهيونية العالمية وراء فوزي بالجائزة - التيار الإسلامي يثير عاصفة أخرى - توفيق الحكيم يستحق الجائزة أكثر من طه حسين - الاتهامات الموجهة لجائزة نوبل وردى عليها - سائقو التاكسي يسابقون على توصيلي بدون أجر - زوجتي هي صاحبة الاقتراح بسفر بناتي إلى السويد لتسلم الجائزة - المتاعب التي سببتها لي جائزة نوبل وتأثيراتها الإيجابية.



■ كان حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل في الأدب سنة ١٩٨٨ حدثاً مدوياً لا في تاريخه الخاص فحسب، بل في تاريخ الأدب العربي الحديث. ورغم مرور عشر سنوات على هذا الحدث، فما زال هناك الكثير من أسرارها التي لم تكشف بعد. وفي هذا الفصل يكشف لنا نجيب محفوظ كل التفاصيل والأسرار، ويحكي لنا عن اللحظات الحرجة يوم إعلان الجائزة، ومكالمة الرئيس مبارك الهاتفية له، ولماذا هرب من بيته بعد إعلان الخبر؟... وغيرها من حكايات مثيرة. ثم يتوقف ليرد على الاتهامات الشهيرة التي ردها الكاتب الراحل يوسف إدريس من أن الصهيونية العالمية هي التي سمّت لحصول نجيب محفوظ على الجائزة، لماذا كان رد نجيب محفوظ؟. هذا ما سوف نعرفه في هذا الفصل.. ■

نجيب محفوظ: أول جائزة أدبية حصلت عليها في حياتي هي جائزة «قوت القلوب الدمرداشية»<sup>(١)</sup> للرواية، فهذه السيدة كانت محبة للأدب، ونظمت مسابقة في فن

(١) «قوت القلوب الدمرداشية» (١٨٩٢ - ١٩٦٨) هي سيدة مصرية غنية كان لها مكانة كبيرة في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في مصر قبل ثورة ١٩٥٢. وقد ورثت عن والدها الشيخ «محمد الدمرداش» شيخ الطريقة الصوفية «الدمرداشية» ثروة طائلة كان من بينها خمسة آلاف فدان، و«مستشفى الدمرداش» الشهير الآن، وكان والدها قد أقام هذا المستشفى كمؤسسة صحية خيرية خاصة. وكانت «قوت القلوب» تكتب بالفرنسية ولها مؤلفات بها تتناول فيها جوانب متعددة من الحياة الاجتماعية في مصر. وكانت تملك قصراً في الزمالك، اشترته منها العراق سنة ١٩٣٩، وقد أصبح مقراً للسفارة العراقية حتى اليوم. وأقامت بعد ذلك في قصر جميل يطل على النيل إلى جانب المبنى القديم لوزارة الخارجية المصرية اشترته من المليونير اليهودي المصري «يوسف أصلان قطاوى باشا»، وقد تمت إزالة هذا القصر لإقامة نفق كوبري قصر النيل. وكانت «قوت القلوب الدمرداشية» مهتمة بتشجيع الأدب والأدباء، وأنشأت لذلك جائزتها الأدبية السنوية، وهي أول جائزة يفوز بها نجيب محفوظ. وقد هاجرت «قوت القلوب» إلى أوروبا بعد ثورة ١٩٥٢، وعاشت بين باريس وروما، وانتهت حياتها نهاية مأساوية حيث تقول جريدة «الأخبار» في عددها الصادر في ٦ ديسمبر ١٩٦٨: «ماتت المليونيرة «قوت القلوب الدمرداشية» في روما على إثر مشادة بينها وبين ابنها «مصطفى الدمرداش» بعد أن رفضت منحه مبلغاً من المال فقذفها بكرسي، وتم نقلها إلى المستشفى حيث توفيت. وقبض البوليس على الابن، حيث تبين أنه مصاب بالجنون. وقد ماتت «قوت القلوب» في السادسة والسبعين. وقد كان «لقوت القلوب» ابنة هي «زينب»، وكانت متزوجة من الصحفي الكبير «علي أمين». وحيات «قوت القلوب» تصلح مادة لرواية مهمة.

الرواية عام ١٩٤٠، كانت جائزتها أربعين جنيهاً مصرياً، وتشكلت لجنة تحكيم المسابقة من بعض أعضاء مجمع اللغة العربية، وأذكر منهم: طه حسين وأحمد أمين وفريد أبو حديد. تقدم للمسابقة عدد كبير من الأدباء الشبان، وفزت أنا بالجائزة الأولى مناصفة مع علي أحمد باكثير عن روايته «سلامة» بينما فزت عن روايتي «رادوبيس»، وحصلت على نصف الجائزة الأولى وهو مبلغ عشرين جنيهاً مصرياً، وقد كان هذا المبلغ في ذلك الوقت - لو تعلمون - عظيماً، يقارب «أعراض الثراء» الآن، وقد يكون سكان العباسية كلهم علموا بالأمور.

لم يكن مبلغ الجنيهاات العشرين هو المهم، بل كان الأهم منه أن الجائزة ساهمت في رفع روعي المعنوية إلى حد كبير. ففي تلك الفترة تعرضت للفشل وأنا أحاول نشر رواياتي في الصحف، بما فيها الصحف غير المعروفة. فكنت أكتب وأضع ما أكتبه في الدرج انتظاراً للفرج. وبعد جائزة «قوت القلوب» تشجعت وتقدمت لمسابقة مجمع اللغة العربية بروايتي «كفاح طيبة». وحقت نجاحاً هنا - أيضاً - وكنت من بين الخمسة الفائزين بجوائز، وهم: عادل كامل، علي أحمد باكثير، يوسف جوهر، وأنا، وخامس لا أذكره، وكانت هذه الجائزة سبباً في لقائي وتعارفي على هذه المجموعة من الأصدقاء. كانت تلك الجوائز فاتحة خير، لأنه بناء عليها قرر عبد الحميد جودة السحار إنشاء «لجنة النشر للجامعيين»، حيث وجد أمامه مجموعة من الأدباء الشبان الموهوبين بشهادة أساتذة كبار هم أعضاء لجنة التحكيم، وأنه يمكنه أن ينشر أعمالهم الفائزة ويضمن توزيعها، خاصة أن الجوائز الأدبية في ذلك الوقت كانت تتمتع بالاحترام والثقة في جديتها، وكلفني السحار بالاتصال بالفائزين والتفاوض معهم لنشر أعمالهم من خلال «لجنة النشر للجامعيين» ووافقوا، وكان ذلك عام ١٩٤٣.

حصلت على جائزة مجمع اللغة العربية ومقدارها مائة جنيه مصري، وقد نتج عن حصولي على هذا المبلغ تحسين في أحوالي المادية إلى حد كبير، وربما كان في وقته أكثر فائدة من «فلوس» جائزة نوبل الآن! وهذا ما جعلني أتقدم إلى نفس المسابقة في العام التالي برواية أخرى هي «السراب»، ولكنني فوجئت بمنصور باشا فهمي يصدر قراراً بحجب الجائزة. وكانت وجهة نظره هي أن الروايات المقدمة فيها شطط، وقال عن روايتي «السراب» إن بها جنوحاً جنسياً، وعن رواية عادل كامل «مليم الأكبر» قال إن بها جنوحاً أيديولوجياً سياسياً نحو اليسار. فلما اعترضنا، جلس معنا وحاول تهدئتنا، وقال لي إن الجنس في الرواية يمكن معالجته ولكن بأسلوب أخف يتناسب مع المجتمع المصري،

وأن التطرف في مسألة الجنس له أضرار بالغة، وقد تكون معالجتي كما جاءت في الرواية مقبولة في المجتمع الأوروبي، ولكنها لا تصلح في مجتمعنا الشرقي، وتحدث بكلام قريب من ذلك عن الأفكار التي جاءت في «مليم الأكبر» لعادل كامل، وحجبت الجائزة في ذلك العام ولم يفز بها أحد.

وفي نفس الفترة نظمت وزارة المعارف مسابقة أدبية، فتقدمت إليها برواية «زقاق المدق» فقبِلت بالرفض، وكان نظام المسابقة يسمح للوزارة برفض العمل المقدم مبدئيًا، ويسمح للمشارك في المسابقة بتقديم عمل آخر. فتقدمت برواية «القاهرة الجديدة» فلم يقبلوها أيضًا، وأخيرًا وافقوا على اشتراكي برواية «خان الخليلي». وكان أقوى المنافسين لي في هذه المسابقة هو سعيد العريان لأن كل أعضاء لجنة التحكيم كانوا منحازين له، باستثناء إبراهيم عبدالقادر المازني، فقد كان الوحيد الذي يقف في صفي. وأثناء مداوالات اللجنة اقترح المازني تقسيم الجائزة مناصفة بيني وبين العريان، إلا أن العريان رفض الاقتراح، وارتفعت حدة المناقشات، وتصادف دخول عباس محمود العقاد، فتساءل عن سبب هذه الضجة، فأخبروه.. وما كان من العقاد إلا أن طلب «خان الخليلي» ليقرأها حتى يفصل في هذه الأزمة، وبالفعل قرأها وأعجب بها، وطلب من اللجنة منحها الجائزة الأولى. ولكن أعضاء اللجنة رفضوا رأي العقاد، وانتهت الأزمة بتقسيم الجائزة بيني وبين العريان.

لم يكن من بين أعلامي الحصول على جائزة نوبل في الأدب، ولم أنطلق إليها في يوم من الأيام، وكنت أعجب من الكتاب العرب المهتمين بها. ربما يعود ذلك إلى أسباب كثيرة، منها: أننا جيل نشأ على «عقدة الخواجة»، وهي العقدة التي أحدثت في نفوسنا نوعًا من عدم الثقة بإمكانياتنا، خاصة أن ذلك العصر كان مليئًا بالعمالقة من الكتاب العالميين، الذين كانوا يمثلون بالنسبة لي رموزًا وأساتذة، مثل: برنارد شو وتوماس مان وأناطول فرانس، وجان بول سارتر، وألبير كامو. كما كان لدينا كتاب عمالقة من أمثال عباس محمود العقاد الذي كنت أرى أنه يستحق الجائزة عن جدارة، وربما فاق في موهبته عددًا من الأدباء الذين حصلوا عليها. لم أضع جائزة نوبل في ذهني أبدًا، وأحمد الله على ذلك، فلو كنت أعطيتها اهتمامًا مبالغًا فيه، لكان حدث لي «حرق دم» من متابعتها سنويًا، أو من انتظار وصولها إلي. وحتى يوم إعلان الجائزة، الخميس ١٣ أكتوبر ١٩٨٨، لم يكن عندي أي توقع للفوز بها. ذهبت إلى جريدة «الأهرام» كعادتي، وجلست مع الأصدقاء والزملاء، وتحدثنا في موضوعات شتى، كان من بينها «جائزة نوبل» المنتظر إعلانها في ذلك اليوم، وقلت لهم إننا

سوف نقرأ فى الصفحة الأولى من «الأهرام» يوم غد الجمعة خبرًا صغيرًا عنها كالمعتاد، ونعرف من فاز بها!. وعدت إلى البيت، وكانت زوجتى بمفردها ترتدى زى المطبخ وتكاد تنتهى من إعداد الغداء، أما ابتناى فهما فى عملهما. تناولت الغداء ودخلت غرفة النوم لأستريح، ولم تمض دقائق معدودة إلا ووجدت زوجتى توقظنى من النوم فى لهفة: «قوم.. قوم..» «الأهرام» اتصلوا بك ويقولوا إنك أخذت جائزة نوبل!».!

فاستيقظت وأنا فى غاية الغضب، معتبرًا كلام زوجتى مجرد هلوسة خاصة بها، لأنها منذ عدة سنوات سابقة، وهى دائمة الحديث عن جائزة نوبل وأحقيتى فى الفوز بها. وكنت أقول لها إننى أرجوها أن «تعقل» وتفهم أن جائزة نوبل ليست سهلة المنال، كما أننى لا أفكر فيها، وأرجوها ألا تأتى بسيرتها أمامى، أو تفكر هى فيها. كنت أقول لها إن حياتنا ممتازة ومستورة، ولا أريدك أن تصورى أنه سيحدث لنا مثلما يحدث فى كتاب «ألف ليلة وليلة» من مفاجآت خيالية. وفيما أتكلم مع زوجتى دق جرس التليفون، وكان المتحدث الأستاذ محمد باشا الصحفى بالأهرام، وبادرنى بالتهنئة: «مبروك يا أستاذ!». فرددت عليه: «خير إن شاء الله». قال لى إننى فزت بجائزة نوبل، فلم أصدق، فأعطى سماعة التليفون إلى الأستاذ سلامة أحمد سلامة مدير تحرير الأهرام الذى حدثنى بصوت تملؤه الفرحة: «مبروك يا أستاذ.. شرفتنا!». و «جاءتنا نتائج جائزة نوبل وأنت فزت بجائزة الأدب»...

حتى تلك اللحظة كنت أظن أنها مجرد دعابة من الأستاذ محمد باشا، وأنه ربما أراد أن يدبر لى مزاحًا باردًا، واستعان بأى شخص بجانبه يمكنه تقليد صوت الأستاذ سلامة أحمد سلامة. ولكن لم تمض سوى دقائق معدودة، كنت أجلس خلالها فى فراشى محتارًا وغير مصدق، حتى دق جرس باب الشقة. وفتحت زوجتى الباب وهى بعد بملابس المطبخ، ودخل رجل طويل ومعه مجموعة من المرافقين، فنهضت من فراشى، إلى الصالة مرتديًا ملابس النوم «البيجامة»، ونظرت إلى الرجل الذى حسبته فى البداية صحفيًا، وفوجئت بأحد مرافقيه يقدمه لى: «سعادة سفير السويد وحرمة».

هنأنى السفير بالجائزة وقدم لى هدية رمزية عبارة عن قدح من البنور أشبه بصناعات خان الخليلي، واستأذنت منه ودخلت غرفتى وارتيديت بدلة، لأننى تأكدت أن المسألة جد. وبمجرد انصراف سفير السويد بالقاهرة تحولت شقتى الصغيرة إلى شىء أشبه بالسوق. صحفيون ومصورون ومهنتون وفرحة غامرة فى المكان، وأحاديث صحفية سريعة، والتليفون لا يتوقف عن الرنين، وأحيانًا أرد بنفسى، وأحيانًا يتولى صديق أو أحد الصحفيين الموجودين معى فى البيت الرد، وابل من الأسئلة، وكنت أجيب بما أستطيع الإجابة به فى

مثل هذا الحدث الطارئ الذي لم أحسب له حساباً من قبل. وكانت زوجتي في غاية الحيرة وهي وحدها في المنزل، تحاول القيام بواجب الضيافة قدر استطاعتها.

رجعت مرة أخرى إلى مكتبي في «الأهرام» حيث التقطت لى مئات الصور الفوتوغرافية مع الزملاء والمهنيين. ووسط كل هذه الضوضاء تذكرت سهرة الحرافيش، فموعدنا اليوم الخميس كالمعتاد. فقررت العودة إلى منزلي، حيث نسيت علبة سجائري، فأحصل عليها وأطلق بعدها إلى «الهرافيش». ففوجئت بمظاهرة أمام البيت، عدد كبير من الصحفيين ورجال الإعلام وكاميرات التلفزيون، فخشيت إن دخلت ألا أتمكن من الخروج مرة أخرى. وقلت للسانق: خذني إلى كازينو قصر النيل، وهو على بعد ثلاثة كيلو مترات من المنزل. وهناك وجدت مظاهرة أخرى لم أنج منها إلا بعد عناء حقيقي، وذهبت إلى بيت توفيق صالح حيث جلسة الحرافيش وأمضينا الليل عنده، ثم نزلت مع الصديق عادل كامل وركبت سيارته، وأخذنا جولة في شوارع القاهرة، حتى أوصلني إلى بيتي في حدود الواحدة والنصف صباحاً. اقتربت من باب الشقة ولاحظت أن كل أنوارها مضاءة، فدخلت لأجد زوجتي وابنتي في وسط الصلاة، ومعهن حوالى ستة من الأجانب. أخبرتني زوجتي أنهم صحفيون أجانب ومرتبطون بالسفر في الصباح، ولا بد أن يجرؤوا معي أحاديث صحفية، وسلمت أمري لله. غسلت وجهي من عناء يوم طويل وجلست معهم وأجبت عن كل الأسئلة التي طرحوها. لم تعرف جفوني النوم في تلك الليلة، وظللت مستيقظاً حتى مطلع النهار.

عرفت إحدى ابنتي خبر فوزي بجائزة نوبل من زملائها في العمل، ولذلك لم تفاجأ بالمظاهرة التي وجدتها في البيت لدى عودتها. أما ابنتي الأخرى فقد عادت من عملها وهي لا تعلم بالأمر، فلما دخلت الشقة، ووجدت بابها مفتوحاً على مصراعيه، وفي الداخل عشرات الناس، أصيبت بالفرع الشديد، وظنت في البداية أن أنبوية البوتاجاز انفجرت، أو أن كارثة وقعت، فكاد يغمي عليها، لولا أن تدارك المجتمعون في بيتي الموقف، وأخبروها بالنبأ.

وفي الأيام التالية بعد إعلان الجائزة كانت أعصابي في أسوأ حالاتها، بسبب شدة الزحام وضيق البيت وعدم قدرته على استيعاب الزائرين الكثرين. وما إن علم إبراهيم نافع، رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير «الأهرام»، بالأمر من الصحفي فتحي العشري، حتى أصدر قراره بفتح مكتب توفيق الحكيم وتخصيصه لي كي أستقبل فيه الزوار والضيوف بدلاً من بيتي الذي عجز عن استيعاب الطوفان، كما قرر - جزاء الله كل خير - تكليف فتحي العشري

والسيدة كوثر البطراوى بمعاونتى فى هذه المهمة الصعبة. ولولا قرار إبراهيم نافع لأصبح الأمر فضيحة أمام العالم، لأننى كنت سأعجز عن استقبال الوفود الأجنبية من صحفيين ومراسلين ومصورين وأدباء، خاصة أن مكتبى - فى البيت - تحول إلى شىء آخر، ولا يصلح للجلوس فيه بسبب ما حدث يوم الجائزة. كما كنت سأعجز عن الرد على آلاف الرسائل التى وصلتني من كل أنحاء العالم من دون مساعدة.



الرئيس حسنى مبارك يقلد نجيب محفوظ قلادة النيل وذلك بمناسبة حصوله على جائزة نوبل سنة ١٩٨٨.

وأصبحت لقاءاتى بعد ذلك فى جريدة «الأهرام»، باستثناء لقاءات بسيطة كان أصحابها يصرون على زيارتى فى منزلى، ومنهم رئيس الوزراء فى ذلك الحين الدكتور عاطف صدقى وبعض الوزراء. وأذكر أن الرئيس حسنى مبارك اتصل بى فى منزلى عقب إعلان خبر فوزى بجائزة نوبل بساعات، وتحديدًا قبل نزولى إلى سهرة الحرافيش، وهنأتى بالجائزة، وكان حوارى مع الرئيس مبارك من طرف واحد، طرفه هو، لأننى لم أكن أسمعه جيدًا، لضعف فى أذنى اليسرى. تمامًا مثلما لم أسمع ممثل لجنة نوبل، الذى اتصل بى، ولم أعرف ما الذى

قاله بالضبط، ولم أتمكن بالتالي من الرد عليه، ولم أقل له إنني لا أسمعه، لأن الموقف كان محرّجاً للغاية. وقد تفضل الرئيس مبارك بإهدائي قلادة النيل بمناسبة هذا الفوز.

أستطيع القول إن أحدًا من أبناء جيلي من الأدباء لم يسع إلى جائزة نوبل، ولم أسمع أحدهم في يوم من الأيام يتحدث عن احتمالات فوزه بالجائزة. ويعود هذا إلى أسباب عديدة - تحدثت عن بعضها من قبل - منها أننا كنا نؤسس أشكالاً أدبية جديدة على الأدب العربي، بعض منا في الرواية، والبعض الآخر في القصة، وثالث في المسرح، وآخرون في الشعر.. وهكذا. والذي يقوم بتأسيس لون أدبي جديد لا يتطلع إلى جائزة، بل يكون كل همه هو وضع البذرة، حتى ولو كانت أجيال تالية هي التي ستجني الثمار. وكانت «عقدة الخواجة» بالفعل مسيطرة علينا - كما أشرت من قبل - لدرجة أن بعض أدباء جيلنا كان يكتب القصة القصيرة ويضع عليها أي اسم أجنبي حتى تنشر. أنا لم أقدم على مثل هذا التصرف، وكل أعمالي وضعت اسمي عليها، ولكن البعض فعل ذلك.

هذه العقدة بدأت في الثلاثينيات مع عهد عبدالناصر، لأن الروح الجديدة التي شعرنا بها أعطتنا ثقة بأنفسنا لم تكن موجودة من قبل. فحدث نوع من التطلع نحو العالمية، وبدأ بعض الأدباء في السعي نحو الجائزة، وسافروا إلى الخارج للتعريف بأنفسهم وإنتاجهم، وطلبوا من بعض الجهات ترشيحهم لدى هيئة جائزة نوبل. ومن هنا بدأت صورة الأدب العربي تلتفت الأنظار في الخارج. والسبب الأهم - في رأيي - يتعلق بالدراسات الأكاديمية والترجمات المحدودة للأدب العربي، التي قامت بها بعض المؤسسات مثل «سندباد» في فرنسا، ودار «ثرى كونتننت» المعروفة. ورغم أن ترجمات دور النشر هذه من الأدب العربي كانت موجهة لدارسي اللغات الشرقية في الجامعات والمراكز العلمية، وليس للسوق الأدبية أو القارئ العادي، إلا أن تأثيرها كان ملموساً للغاية في لفت انتباه لجنة نوبل للأدب العربي. لأن اللجنة لا تشترط أن يكون الناشر مرموقاً، بل إن شرطها الأساسي هو أن تكون الأعمال الأدبية مترجمة إلى اللغات الأوروبية. وبذلك يمكن أن تحصل على التزكية من الجامعات والمراكز العلمية المعتمدة لدى اللجنة.

هناك ملاحظة يجب الالتفات إليها، وهي أن بعض الناس يقعون في سوء فهم نتيجة لعدم معرفتهم بالفرق بين التزكية والترشيح لجائزة نوبل، فالتزكية تأتي بناء على توصية من الجامعات. فجامعة الإسكندرية مثلاً زكت الدكتور طه حسين، واللجنة السياسية العليا زكت توفيق الحكيم. وهذه التزكية ليست سرّاً، وهي أمر معلن ومعروف للجميع. وبناء

على هذه التزكية فإن لجنة نوبل تقوم بترشيح عدد من الأسماء بعد أن تسأل مجموعة من المتخصصين، وتطلب من كل واحد منهم كتابة تقرير علمي عن أديب معين. وهؤلاء المتخصصون أقسموا على عدم إفشاء أسرار الترشيح حفاظاً على كرامة الأدباء.

وهذا هو الخلط الذي وقع فيه يوسف إدريس، فيبدو أنه علم أن جهة معينة زكته لنيل جائزة نوبل، فظن أنه مرشح للجائزة. التزكية - كما قلت - ليست سرّاً، حتى أن هناك معيذاً يدرس الأدب العربي في جامعة أمريكية أو كندية - لا أذكر بالتحديد - زكاني لنيل الجائزة في السبعينيات، وأرسل لي خطاباً بهذا المعنى. ورددت على خطابه وشكرته، ولم أهتم بمتابعة الأمر، لأن التزكية مجرد لفت نظر، حتى تقوم لجان المتابعة بقراءة الأعمال المترجمة للأديب، أما أن يتم الترشيح أو لا يتم فتلك مسألة أخرى.

في الاحتفال الذي أقامه الرئيس مبارك لتكريمي - في شهر نوفمبر ١٩٨٨ - بعد حصولي على الجائزة، عرفت من سكرتير لجنة جائزة نوبل أن المعلومات والتفاصيل الدقيقة عن ترشيح أي أديب فاز بالجائزة لا تعلن إلا بعد مرور خمسين عاماً من تاريخ فوزه، عندها يكشفون عن أسرار الترشيح وأقوى المنافسين للفاخر، وعدد الأصوات التي حصل عليها، ووجهات نظر المعترضين على ترشيحه.. وهكذا. أما قبل مرور هذه المدة فتظل الأسرار مطوية خشية أن تكون الشخصيات التي شاركت في المداولات، وكذلك الأدباء الذين لم يحالفهم الحظ، مازالوا على قيد الحياة، فيكون في الإعلان عنها حرج لهم.

وكما عرفت فإنني كنت مرشحاً للجائزة منذ سنوات قبل نيلها، وكنت أسمع من يقول لي إن اسمي جاء في التصفيات من بين ثلاثين مرشحاً، أو من يقول لي إن اسمي كان في قائمة ضمت عشرة مرشحين.. وهكذا. لم أكن أعطى بالألّهذه الأقاويل، وأتعجب: من أين يأتون بهذه المعلومات التي لا يعرفها إلا أعضاء لجنة جائزة نوبل؟ وأحياناً كانت تنشر أخبار بهذا المعنى في مجلات وصحف لها وزنها وثقلها واحترامها مثل مجلة «تاييم». وكان البعض يصدقون «التاييم» وكأنها منزلة من السماء، في حين أنها مجرد اجتهادات للقسم الأدبي في المجلة. حيث يجتمع النقاد بالمجلة على أسماء معينة يرون أن الترشيحات لا يمكن أن تخطئهم. ولا أعرف ما إذا كان للأقسام الأدبية في المجلات العالمية حق التزكية لجائزة نوبل أم لا؟. والمؤكد عندي أن النقاد الكبار والجامعات الكبرى في العالم لهما هذا الحق. بدليل أن جامعة الإسكندرية زكت الدكتور طه حسين، كما زكاه صديقه الأديب الفرنسي المشهور «أندرية جيد» صاحب رواية «المزيفون»، ورواية «الباب الضيق» وغيرهما، كما أن

لجنة السياسات العليا برئاسة الدكتور فؤاد محيى الدين رئيس الوزراء الأسبق زكت توفيق الحكيم، ولا أعرف ما إذا كانت هذه اللجنة مازالت موجودة أم اختفت.

فى اعتقادى أن توفيق الحكيم كان أحق من الدكتور طه حسين بجائزة نوبل، لأسباب موضوعية. أهمها أن إنتاج الدكتور طه حسين الفنى محدود، فى حين أن إنتاج توفيق الحكيم الفنى غزير، ويميل إلى الناحية الإنسانية العالمية خاصة فى مجال المسرح. ومن سوء حظ الحكيم وطه حسين معاً أنهما وجدا فى عصر ملء بالعمالقة فى الأدب الأوروبى، مما قلل من فرصة حصولهما على الجائزة، وإن كان الحكيم سعى كثيراً للحصول عليها خاصة فى سنواته الأخيرة، وكان لديه أمل كبير، بل أتصور أن رحلته الأخيرة إلى باريس والتي كتب خلالها مسرحيته «السلطان الحائر» كانت من أجل جائزة نوبل، ومع ذلك لم يتحقق حلمه.

أى لجنة أدبية فى العادة يكون لها إيجابياتها وسلبياتها، وفى تصورى أن اللجنة الأدبية ما هى إلا ظاهرة حضارية، بمعنى أنها تستمد وزنها وقيمتها من المستوى الحضارى العام للبلد الذى توجد فيه. ففى بلد متخلف لا تتوقع أن تكون اللجان الأدبية فيه عادلة ومحيدة، ولذلك أقول إنه لا توجد الآن لجنة أدبية تجمع بين العلم والخبرة والأخلاق أفضل من تلك الموجودة فى أمم الشمال الأوروبية. لأن هذه الدول مرت بظروف مختلفة عنا، فلم تتعرض للاستعمار والحروب المريرة والمآسى التى شهدتها كثير من دول العالم خاصة فى الجنوب، حيث توجد دول العالم الثالث الآن، ومن هنا تأتى الثقة فى جائزة نوبل.

أحياناً يفاجأ الناس بأن لجنة نوبل لم تعط الجائزة لأديب مشهور ومعروف فى كل أنحاء العالم. فى حين تمنحها لآخر أقل منه شهرة. وهذا فى رأى يرجع إلى أن اللجنة تنظر فى الأساس إلى الناحية الإنسانية والفنية فى مضمون العمل الأدبى المقدم لها، لذلك من الممكن أن يفوز أديب تصل موهبته إلى ستة من عشرة، بينما يتم استبعاد آخر تكون موهبته تسعة من عشرة مثلاً، وذلك لأن الأول صاحب أدب إنسانى متميز.. ولهذا السبب لم يحصل أدباء كبار على الجائزة مثل جراهام جرين لأنه كاثوليكي متعصب، واللجنة ضد التعصب الدينى، ولم ينلها الإيطالى ألبرتو مورافيا لتركيزه الشديد على الجنس.

ومن الاتهامات التى توجه لجائزة نوبل أنها أهملت أدباء العالم الثالث لسنوات طويلة، خاصة فى العالم العربى. ليست نوبل وحدها هى التى أهملت أدبنا المعاصر، بل المستشرقون

أيضًا. فرغم وجود حركة الاستشراق منذ القرون الوسطى فإنها اهتمت بالأدب العربي القديم، ولم تعط نفس الاهتمام للأدب العربي المعاصر، وفي السويد نفسها كانوا يستعينون بدارسى الأدب العربي في الجامعات هناك ليتعرفوا منهم على حركتنا الأدبية المعاصرة. وحتى سنوات ليست بالبعيدة لم يحصل على جائزة نوبل من الشرق كله إلا شاعر الهند الكبير طاغور، ولم يكن السبب موهبته فقط، بل كان السبب الأهم هو أنه وجد جسرًا يوصله إلى العالم الغربي، حيث كان يكتب باللغة الإنجليزية، وحتى أعماله المكتوبة بلغة محلية كانت تترجم إلى اللغات الأوروبية. واستطاع طاغور بموهبته اختراق أوروبا وتكوين شعبية ضخمة جعلت الكاتب الفرنسي «أندريه جيد» يفتتن به ويترجم أعماله إلى اللغة الفرنسية، فحصل على جائزة نوبل بسهولة.

وعلى ذلك ففهمة التحيز التي توجه لجائزة نوبل غير صحيحة. خاصة أنها وجدت في عصر ملء بالعمالقة في أوروبا. فلم يكن في مقدورها أن تؤجل منحهم الجائزة حتى تتم ترجمة الآداب الأخرى من لغاتها المحلية إلى اللغات الأوروبية. فلا نلوم لجنة نوبل إذن، بل نلوم أنفسنا لأننا تأخرنا في الاهتمام بترجمة الأدب العربي المعاصر وتقديره لهم ليتعرفوا على فنوننا وأدبائنا.

والتحيز ليس الاتهام الوحيد، فالانتهاكات الموجهة لنوبل عديدة. بل إن «لارفنج والاس» الكاتب الأمريكي عندما قابل مؤسس الجائزة «ألفريد نوبل» خرج من المقابلة يتهمه بالغباء. وهذا حكم شخصي لصاحبه الحق في أن يقوله، ولكن هذا لا يعنى أنه صحيح، ولا يعنى أنه ينطبق على لجنة نوبل أيضًا. وقد يكون هناك شخص فيه مسحة من الغباء، وتظهر مواهبه عندما يخلو إلى نفسه ويفكر بمفرده، وقد كتب «والاس» رواية ضخمة عن جائزة نوبل أسماها باسم «الجائزة»، شن فيها حملة كبيرة على جائزة نوبل<sup>(١)</sup>.

أما برنارد شو فقد وصف جائزة نوبل وصفًا ساخرًا، وقال إنها كطوق النجاة الذى يتم تقديمه للغريق بعد أن ينجو من الغرق. وهو هنا يشير بسخريته المعتادة إلى أن الجائزة تمنح للأديب في سنى حياته الأخيرة، وبعد أن يكون قد وصل إلى تحقيق أغلب طموحاته

(١) رواية «الجائزة» «لارفنج والاس» مترجمة إلى اللغة العربية، وقد نشرتها «الدار القومية للطباعة والنشر» في الستينيات، وصدرت في ٨٤٢ صفحة، وكتب مقدمة لها الأستاذ أنيس منصور، وقامت بترجمتها لجنة كتب جوائز عالمية، وهى رواية مهمة وممتعة.  
«ر. ن»

وأهدافه. وأنا هنا أختلف مع برنارد شو، لأن الأديب لا يكتمل نضجه وعبقريته إلا بعد سنوات طويلة من الكتابة، قبل ذلك تصبح الجائزة تشجيعية أو أشبه بجوائز الأدباء الشبان أو النياشين والأوسمة التي يمكن أن تحصل عليها عندما تزور دولة ما.

أما «نوبل» فجائزة ضخمة، ولها لجنة محترمة، وشروط محددة، وإجراءات صعبة، ولا يحصل عليها إلا من يستحق. وربما كان الأديب الذي أحترمه، ولا أعرف سبباً مقنعاً لعدم حصوله على جائزة نوبل هو «كازانتزاكس» اليوناني صاحب «زوربا» و«المسيح يصلب من جديد». أعتبر «كازانتزاكس» أكثر موهبة من «جراهام جرين» و«ألبرتو مورافيا»، وأعظم من أن تتجاهله لجنة نوبل، ولا بد أن يكون هناك سر خطير منع حصوله على الجائزة خاصة أنه كان دائم السخرية منها ومن صاحبها، وكان يقول: كيف لرجل اخترع الديناميت وتاجر فيه أن ينشئ جائزة للسلام؟! ولعل سبب حرمانه من الجائزة هو اتجاهاته اليسارية والثورية العنيفة.

مهما قيل من نقد في جائزة نوبل، فلا تزال المجمع جائزة في تاريخ الأدب العالمي، وتحظى ببريق هائل، حتى الذين يهاجمونها هم أنفسهم يتكالبون عليها، ويودون لو فازوا بها. وأهمية جائزة نوبل لا تتوقف فقط عند المثقفين والمهتمين بالأدب، بل تتجاوزهم إلى رجل الشارع. فلم أكن أتصور كل هذه الفرحة في عيون البسطاء عندما تم الإعلان عن خبر فوزي بالجائزة، وأستطيع أن أسمى ما جرى وأنا أتذكره الآن بأنه «فرحة قومية».. بعض البسطاء اعتبرها نصراً على الأجانب الذين استعمرونا وتحكموا في مقدراتنا قرونًا طويلة. كما أن فوزي بنوبل جاء في لحظة إحباط عامة كانت تمر بها مصر في ظل العديد من المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وكانت أجواء المقاطعة العربية لمصر مازالت قائمة، فقد عادت العلاقات مع عدد من الدول العربية بفضل حكمة الرئيس مبارك في إدارة الأزمات، ولكن أجواء المقاطعة لمصر بقيت كما هي، خاصة أن الجامعة العربية ومنظمتها كانت لا تزال خارج مصر نتيجة قرارات المقاطعة العربية. حتى في مجال الألعاب الرياضية كنا نمر بانتكاسة بعد دورة سول الأولمبية وخروج فرقنا الرياضية خالية الوفاض، وفي الأدب انتشرت بعض الأصوات التي تشكك في ريادة مصر، وتبشر بانتقال مركز الثقل الثقافي من القاهرة إلى غيرها من العواصم العربية التي ستقوم بالدور نفسه، وكانت هذه الأقاويل تؤذيني عندما أسمعها، لذلك جاءت جائزة نوبل لتعيد الثقة في ريادة مصر ودورها الثقافي في العالم العربي. ولا تتصور فرحتي وأنا أتلقي التهاني من كل الدول

العربية والمنظمات الثقافية، حتى من بعض العواصم العربية التي لم تكن علاقات مصر بها آنذاك على ما يرام مثل سوريا. فقد بعثت محطات الإذاعة والتلفزيون السورية بمندوبيها لإجراء حوارات معي. وأخبرني الصديق يوسف القعيد أن الرئيس السوري حافظ الأسد شاهد حوار التلفزيون السوري معي قبل بثه، وأمر بعرض المقابلة فوراً. كما جاءني وفد من منظمة التحرير الفلسطينية وزارني في بيتي وأبلغني بتهنئة قيادات المنظمة وسعادتهم وفرحهم، ووصلتني رسائل وخطابات تهنئة من كل الأقطار العربية بما فيها الضفة الغربية وعرب إسرائيل. وكان بعض الأدباء الفلسطينيين الشبان من عرب إسرائيل يداومون على الجلوس معي في مقهى شهرزاد ويدخلون معي في حوارات متشعبة<sup>(١)</sup>.

لا أستطيع وصف المدى الذي وصلت إليه فرحة الجماهير العربية البسيطة في مصر بالجائزة. كنت عندما أسير في الطريق يستوقفونني ويأخذونني بالأحضان، وأسمع منهم كلمات تلقائية بسيطة مليئة بالحب والتقدير، ومن أغرب ما صادفت المعاملة التي لقيتها من سائقي التاكسي، لقد كانوا يتسابقون على توصيلي ويرفضون تقاضي أي أجر، وإذا ما وجدني أحدهم مصرّاً على الدفع يقسم بطلاق زوجته ألا يتقاضى مني شيئاً! فأسكت وأنزل من التاكسي وأنا أشعر بحرج شديد.

فوزي بجائزة نوبل للأدب كان له صدى طيب عند المثقفين المصريين على الإجمال. وأنا هنا أعني اللفظ الشامل للمثقف ولا أقصره على الأدباء والمفكرين، وهو بذلك يشمل الأطباء والمهندسين والزراعيين وأساتذة الجامعات. لا توجد هيئة في مصر لم تحتفل بهذا الفوز وتسعى لتكريمي، بما في ذلك نادى القضاة الذى منحني عضويته الشرفية. من هنا لم أتأثر كثيراً بالأصوات التي بدأت تهاجمني وتهاجم الجائزة وتحاول التقليل من قيمة هذا الانتصار الأدبي والقومى، وكانوا كمن يحاول تكسير المصاييح لإسكات مظاهر الفرح.

من خلال متابعتي لتاريخ جائزة نوبل للأدب لاحظت أن هذه الأصوات المعارضة موجودة في كل مكان وزمان. ولم يحصل أديب - مهما علا قدره - على هذه الجائزة

---

(١) أخبرني نجيب محفوظ هنا أن البعض حاول إقناعه برفض الجائزة والاعتذار عن قبولها، وعرضوا أن يعوضوه بقيمتها أو أكثر، ولكنه رفض ذلك. وقد طلب مني نجيب محفوظ عدم ذكر أى تفاصيل عن هذه القصة أو ذكر أى اسم من أسماء هذا العرض. واحتراماً لرغبته فأنا ألزم بما طلبه مني. «ر. ن»

إلا وتعرض لهذا الهجوم. فعندما فاز «جولدنغ» الإنجليزي بالجائزة هاجمته الصحف الإنجليزية، وقالت إن «جراهام جرين» أولى منه بالجائزة. وفي ألمانيا قالوا إن «جتر جراس» أحق من الجميع. وعندما فاز بها «كلود سيمون» اعترض بعض النقاد الفرنسيين، وقالوا إن «آلان روب جريه» هو الذي يستحقها. ومن ثم لم يصبنى الحزن والإحباط بسبب الهجوم الذي تعرضت له من بعض أدبائنا، وعلى رأسهم الدكتور يوسف إدريس، الذي ادعى في أكثر من مقابلة صحفية معه أن الصهيونية العالمية هي التي سعت لمنحى الجائزة، مكافأة لى على موقفى المؤيد لاتفاقات كامب ديفيد ومعاهدة السلام المصرية-الإسرائيلية، وهذا الادعاء، كما هو واضح، غير منطقي بالمرّة وعندى الأسباب. فالصهيونية العالمية التي تحدث عنها إدريس وغيره، أعطيناها - كمثقفين عرب - أكبر من حجمها، وجعلنا منها إلهاً قادراً على كل شيء، وذهبنا إلى أنها هي التي تصنع التاريخ والحاضر والمستقبل، وتدير عجلة الكون. في حين أنها عبارة عن جماعة من اليهود لديهم الثروة والذكاء والقدرة على الدعاية، وكان كل همهم إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، ومن أجل تحقيق هذا الهدف ركزوا على الدول ذات النفوذ في العالم لتساعدهم في تحقيق هدفهم. في البداية ذهبوا للخليفة العثماني المسلم باعتباره صاحب الشأن في أمور فلسطين، فاعترض ولم يوافقهم، فانتقلوا إلى إنجلترا وقدموا لسياسيتها وسياسيتها خدمات كبيرة حتى حصلوا على «وعد بلفور»، وحصلوا من الإنجليز على المساندة والمساهمة في إنشاء دولتهم، وخاصة في المراحل الأولى. ولما أفل نجم الإمبراطورية البريطانية وأصبحت أمريكا سيدة العالم الجديد انتقلوا إليها وعرضوا خدماتهم عليها وارتبطوا بها في علاقات متشابكة داخل نسيج السياسة الأمريكية ومراكز اتخاذ القرار، وأصبحوا أكبر المستفيدين من الولايات المتحدة الأمريكية. ويخطئ من يتصور أن الصهيونية العالمية هي التي تحرك أمريكا وتدير سياستها، لأن المواقف الأمريكية نابعة أصلاً من تحقيق المصالح الأمريكية، وهي مصالح تتفق حالياً مع مصالح إسرائيل. وعندما تتغير تلك السياسة سوف تصبح إسرائيل مثل «مدغشقر»، بلا قوة أو نفوذ. والدليل على صحة وجهة نظري ما فعلته الإدارة الأمريكية في حرب الخليج الثانية، ووقوفها إلى جانب الكويت والمملكة العربية السعودية بشكل واضح وصريح لم يحدث أن وقفته مع إسرائيل في حروبها مع العرب، بمثل تلك الصراحة وذلك الوضوح. أرسلت أمريكا جيوشها وجندت معظم القوى العسكرية العالمية الفاعلة لتحمي السعودية والكويت، رغم أن مصالح السعودية والكويت تتناقض مع مصالح إسرائيل. وهذا يوضح أن أمريكا تضع مصالحها العليا فوق كل اعتبار، ثم إذا نحن سلمنا بأن للصهيونية العالمية

نفوذًا قويًا في أمريكا ومصالح مشتركة، فلا يمكن أن يكون لها نفس النفوذ أو جزء منه في دولة مثل السويد، ليس لها أطماع عالمية، وليس لها مصالح مع الصهيونية العالمية، تعمل لها حسابًا، فتمنح أديبًا مصريًا جائزة نوبل بالضغط. وهل بلغت السذاجة بالصهيونية العالمية لأن تسعى من أجل منح أديب عربي جائزة كبرى بهذا الحجم والوزن لترفع من شأن العرب وتلفت أنظار العالم إليهم وإلى أدبهم، في حين أن العرب هم العدو الأول لإسرائيل؟! المنطق يقول إن الأولى هو ترشيح أديب إسرائيلي أو يهودي. ثم ما معنى أن الصهيونية أرادت أن تكافئ كاتبًا على موقف تشجعه هي، فقد تضع في يده أو في حسابه بالبنك مبلغًا من المال على سبيل الرشوة، لا أن تسعى إلى حصوله على جائزة أدبية هي الأولى في مجالها في العالم. ولو كانت جائزة نوبل جاءتني لموقفي من معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل، فإن بالجائزة نوعًا آخر يناسب هذا الموقف، وهو جائزة نوبل للسلام وليس الأدب، بل إن أدونيس أو توفيق الحكيم يستحقانها، فهما مؤيدان للسلام مع إسرائيل أكثر من تأييدي أنا له عشرات المرات.

الواضح أن يوسف إدريس لم يكن يبغي من اتهاماته سوى التشهير والتجريح، خاصة أنه يعرف أن هناك آذانًا تسمع أو تحب أن تسمع مثل هذا الكلام. وأتصور أن الصهيونية العالمية التي تحدث عنها إدريس ضحككت في سرها على كلامه، كما ضحككت لجنة نوبل، ولحسن الحظ أن السويد دولة ديمقراطية لا تتأثر اللجان فيها بمثل هذه الأمور.

من بين التفسيرات التي روج لها المعارضون على منحي الجائزة أن الغرب أعطاني «نوبل» لأن رواياتي تتضمن نقدًا عنيفًا للمجتمع المصري والعربي بالتالي، ومن ثم تكون الجائزة منحت إلى وثيقة إدانة ضد مجتمعتنا ممثلة في مجموعة الروايات التي كتبها وأثبت فيها مدى سقوط وتردى واضطراب هذا المجتمع. وردى أنه ليس هناك «أدب» في العالم إلا ومبعثه الغضب والنقد، والأدب الحقيقي ما هو إلا نقد دائم للحياة والمجتمع.. روايات تشارلز ديكنز تحتوى على انتقادات حادة، بل وتصل إلى درجة الإدانة للمجتمع الإنجليزي في القرن الماضي. وعندما قرأت أعمال ديستوفسكي طالعت صورة قاتمة للمجتمع الروسي، أما الأدب الأمريكي فهو في معظمه نقد صريح وحاد للمجتمع الأمريكي. منذ أيام قدماء المصريين وحتى الآن والدور الأساسي للأدب هو أن يكون عينًا ناقدة للمجتمع، وتعبيرًا غاضبًا على الأوضاع السلبية، ونظرة متطلعة لمستقبل أفضل. والأديب الحقيقي في

العادة لديه مدينة فاضلة في مخيلته، يتصورها، ويعيشها ويحاول الوصول إليها في أدبه من خلال نقد المجتمع الذي يعيش فيه. وعلى ذلك فهذا الاتهام مبنى على خطأ من الأساس، لأنه لم يستوعب الدور الحقيقي للأدب.

نأتى بعد ذلك إلى اتهامات التيار الدينى والهجمة الشرسة التى قام بها، وهل هناك شىء تركوه دون أن يهاجموه؟! ... كل اتهامات هذا التيار تركزت فى رواية «أولاد حارتنا»، وفى تصورهم أنها رواية تهاجم الإسلام بشكل خاص والأديان السماوية بشكل عام، وأن الغرب الذى يرحب بهذا الهجوم من منطلق نزعة المادية والمعادية للأديان سهل لى الحصول على جائزة نوبل!!... وهذا اتهام آخر غير موضوعى لأسباب عديدة:

أولاً: النقد الموضوعى لرواية «أولاد حارتنا» ينفى عنها الهجوم على الإسلام والديانات السماوية.

ثانياً: فى الغرب متدينون أيضاً مازالوا متمسكين بتعاليم الدين.

ثالثاً: يرتبط الغرب بمصالح سياسية مع الدول العربية والإسلامية وليس فى صالحه الإساءة إلى الإسلام بصورة فجأة.

رابعاً: وهو الأهم، أننى لم أحصل على جائزة نوبل بسبب رواية «أولاد حارتنا»، فهى واحدة ضمن قائمة طويلة من روايات ذكرتها لجنة نوبل وعلى رأسها «الثلاثية» التى لم أتعرض فيها لموضوع الدين.

لم تقتصر الاتهامات الموجهة لى وللجائزة على الأدباء المصريين فقط، بل هناك من الأدباء العرب من شارك فيها، وادعى بعضهم أنه أحق بالجائزة منى، وأنه تم منحى إياها كنوع من المجاملة لمصر...!!... وأومن تماماً بأن أى جائزة للعرب فى مجال الأدب الروائى يجب أن تكون لمصر، وهذه ليست نظرة متعصبة، ولكنها نظرة تقوم على الحقيقة التى تؤكد أن الأدباء المصريين هم الذين وضعوا أسس الرواية العربية الحديثة.

أما الاعتراض الوحيد على الجائزة، الذى وجدت فيه قدرًا من الموضوعية ويستحق الوقوف عنده، فهو أنه كان من الأولى أن يحصل على جائزة نوبل شاعر عربى، على أساس أن الشعر هو ديوان العرب وأكثر أصالة من الفنون الأدبية الأخرى بما فيها الرواية. ولكن عيون الشعر العربى لم تترجم إلى اللغات الأجنبية، كما أن هذا الزمن ليس زمن الشعر،

والظروف ليست فى صالحه، وعلى امتداد تاريخ الأدب العربى نلاحظ أنه فى مقابل الشعراء توجد قفم أدبية كتبوا النثر، ولا يقل تأثيرهم وموهبتهم عن الشعراء مثل الجاحظ وأبو حيان التوحيدي.

كثيرون سوف يصابون بالدهشة عندما يعرفون أنني كنت من عشاق السفر، وكانت أمنية حياتي وأنا طالب فى الجامعة أن أستكمل تعليمي فى أوروبا، وفى فرنسا على وجه التحديد. وبسبب ولعي بالسفر وأنا طالب، قرأت عن منحة لدراسة الرسم فى إيطاليا، فتقدمت إليها، وأنا لا أجد الرسم. أما أقرب فرصة واثني للسفر فكانت بعد تخرجي فى كلية الآداب والتحاقى بوظيفة فى إدارة جامعة القاهرة، فقد أعلنت الجامعة عن حاجتها لمجموعة من خريجي قسم الفلسفة للسفر إلى فرنسا لدراسة اللغة الفرنسية بمدرسة «الترومال» (وهي أشبه بدار العلوم بمصر) وذلك لأن الأساتذة الفرنسيين العاملين فى مصر بدأوا فى مغادرتها بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية، ولابد من إيجاد البديل. كان ترتيبى هو الرابع على كلية الآداب، وتصادف أن الأربعة الأوائل فى الكلية خرجوا من قسم الفلسفة، فاخترت الكلية الثلاثة الأوائل وهم: محمد عبدالهادى أبوريده وعلى أحمد عيسى وتوفيق الطويل، وأرسلتهم فى بعثة دراسية إلى فرنسا. وبذلك أكون أول المرشحين للسفر إلى «الترومال» بعد سفر هؤلاء، ومن فرط ثقتي فى الحصول على هذه البعثة جهزت ملابسى وذهبت إلى أستاذ فى كلية الآداب حصل على الدكتوراه من فرنسا لأسأله عن أنسب الأماكن للإقامة فى باريس، وعن كيفية التعامل مع الفرنسيين. لذلك كانت المفاجأة قاسية عندما لم أجد اسمي بين العشرة المختارين للسفر، وكدت أجن. اكتشفت أن إدارة البعثات اشتبهت فى اسمي، وظنت أنني قبطي، وبما أن هناك اثنين من الأقباط فى قائمة المختارين للسفر، فقد رفعوا اسمي منها اكتفاء بهما!! كان لى زميل فى الكلية اسمه «عبدالرحمن أبو العز»، وهو ابن أخت الكاتب المسرحي «إبراهيم رمزي» مدير إدارة البعثات، متأثراً بما جرى لى، فاصطحبني إلى منزل خاله إبراهيم رمزي لتوضح له سوء الفهم الذى حدث. سأل عبدالرحمن خاله لماذا تم رفع اسمي من قائمة المسافرين مع أن ترتيبى هو الأول؟ فرد إبراهيم رمزي بأن هناك اثنين من الأقباط فى القائمة وموصى عليهما من شخصيات مهمة، وبالتالي لا يمكن أن نضع فى القائمة ثلاثة من الأقباط. وعندما أكد عبدالرحمن لخاله أنني مسلم، علت الدهشة وجه إبراهيم رمزي، وكان رجلاً خفيف الظل وابن بلد، فنظر إلى وقال لى بالحرف الواحد: «يلعن أبو تأليف أمك.. فيه واحدة مسلمة تسمى ابنها نجيب محفوظ». سألته إن كان هناك أمل فى

تصحيح الخطأ فأجاب بالنفى، وأبدى أسفه لأن الوقت كان قد فات، ووعدنى بالسفر فى أقرب بعثة.

ضاعت فرصة السفر إلى فرنسا بسبب خطأ من موظف فى قسم السجلات بالجامعة، لأنهم لو كتبوا اسمى كاملاً وهو: نجيب محفوظ عبدالعزيز، ما حدث هذا اللبس ولتغير مسار حياتى. كنت هيات نفسى تماماً للسفر وللإقامة فى باريس لمدة ثلاث سنوات على الأقل هى مدة البعثة. وكنت فى ذلك الوقت قرأت «زهرة العمر» لتوفيق الحكيم، وأعجبتنى حياة الصعلكة الثقافية التى عاشها الحكيم فى باريس، وأقنعت نفسى بأن مثل هذه الصعلكة هى أحسن طريقة لتعلم اللغة الفرنسية وللتكوين الثقافى أيضاً، ولإطلاق هذا الاسم المركب «نجيب محفوظ» على قصة. فقد عجزت «الداية»، وهى المرأة التى كانت تقوم بتوليد معظم النساء فى مصر، عن إخراجى للحياة، وعانت أمى من صعوبات شديدة أثناء الوضع، حتى اضطروا للاستعانة بطبيب، وهو أمر لم يكن محبباً فى تلك الأثناء خاصة فى البيئات الشعبية. فجاء الدكتور نجيب محفوظ طبيب النساء والولادة الشهير، وأنقذ أمى وأخرجنى إلى الحياة، فأطلقوا اسمه على المولود الجديد، وأصبح مثل اسم الطبيب «نجيب محفوظ»، وهو اسم مركب، ولم تكن أمى تعرف أنها عندما اختارت لى هذا الاسم سوف يكون ذلك سبباً فى حرمانى من السفر إلى فرنسا.

بعد ضياع هذه الفرصة وضعت برنامجاً منظماً لحياتى، خاصة بعد ما احترفت الأدب. ومنذ ذلك الوقت اعتبرت أى شىء - حتى السفر الذى أحبه - يخرجنى من النظام الصارم الذى حددته لنفسى، بمثابة تضييع للوقت وإرباك لحياتى، وينبغى رفضه ومحاصرته. وفى المرات القليلة التى سافرت فيها خارج مصر كنت أشعر باضطراب نفسى وبالضيق الشديد. يضاف إلى ذلك الخوف من السفر بعد ما أصبت بمرض السكر سنة ١٩٦٠، وأصبح لى طقوس خاصة فى الأكل والشرب، يؤدى أى خروج عليها إلى مضاعفات غير مأمونة، وعندما سافرت إلى اليمن اختل نظامى الصارم فى القراءة والكتابة والنوم والطعام، مما أصابنى بالتعب والاعتلال الصحى، ونقص وزنى ١٤ كيلو جراماً خلال هذه الرحلة اليمنية، المرة الوحيدة التى استمتعت فيها بالسفر كانت فى رحلتى إلى يوغوسلافيا فى الخمسينيات، وكان ذلك قبل إصابتى بمرض السكر. ولولا أن الرحلتين (اليمن - يوغوسلافيا) كنت مضطراً فيهما للسفر لما سافرت أبداً.

بعد إعلان فوزى بجائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٨٨، تحدثوا إلىّ فى مسألة السفر

لتسلم الجائزة. وزارنى السفير المصرى لدى السويد، وبصحبه كل من سكرتير لجنة نوبل والكاتب الصحفى محمد سلماوى، وهو شقيق زوجة السفير المصرى، كنت أرى سلماوى لأول مرة، وإن كنت سمعت عن مسرحية معروفة له آنذاك أشاد بها النقاد وهى «سالومى»، كما كنت أعرف أنه وكيل أول وزارة الثقافة للعلاقات الخارجية فى ذلك الوقت، وجرى نقاش بينى وبين سكرتير لجنة نوبل، حيث اعتذرت عن السفر وطلبت أن يتسلم السفير المصرى لدى السويد الجائزة ويلقى كلمتى نيابة عنى. وعرفت من السكرتير أن «نوبل» باعتبارها لجنة أهلية وليست رسمية، فإنه لا يمكن أن أنيب السفير وهو فى منصب رسمى فى هذه المهمة. فاقترحت أن يلقي الأستاذ محمد سلماوى الكلمة نيابة عنى.

وبعد انصراف الزائرين تحدثت مع زوجتى فى موضوع السفر، ووجدت أنها ترفض سفرى إلى السويد رفضاً باتاً، واقترحت أن تسافر البتتان «فاطمة» و«أم كلثوم» لتسلم الجائزة. وأشفقت على ابنتى من مشقة السفر وحرص الموقف، ومن الضغط عليهما كى تسافرا دون رغبة منهما. ولكن زوجتى أبلغتنى أنها تستطيع إقناعهما، وقد كان، وذهبت زوجتى إلى مبنى السفارة السويدية فى القاهرة وقابلت السفير الذى تعرفت عليه أول مرة عندما زارنا فى المنزل، كما أنها أقامت علاقة مع زوجته، وأخبرت السفير بأن ابنتى ستسافران لتسلم الجائزة بدلاً منى.

زارنا السفير السويدى بالقاهرة وزوجته بغرض الاتفاق على تفاصيل سفر البنتين. وأدركت مدى حرص هؤلاء الناس على أن يتسلم الفائز جائزته بنفسه شخصياً أو أحد من المقربين منه على الأقل. وأرشدنا السفير والسيدة حرمه إلى محل أزياء لنشتري منه الملابس التى يمكن أن ترتديها البتان فى حفل تسليم الجوائز، وذهبت زوجتى معهما وتم اختيار الملابس التى ظهرتا بها فى الحفل، وأصر السفير وحرمه على اصطحاب البنتين معهما أثناء السفر.

كان منظر البنتين فى غاية الجمال عندما صعدتا لتسلم الجائزة من ملك السويد الذى داعبهما بظرف وسألهما: من منكما التى ستسلم الجائزة؟! وأعطى الجائزة لواحدة والنیشان للأخرى. وعندما رجعتا إلى مصر قصتا على ما لقيتا من معاملة حسنة فى السويد، وعن جولتهما فى الحديقة الملكية وأنه لفت نظرهما أنها بلا أسوار، وعن العشاء الفاخر الذى أقيم لهما وحضرته شقيقة أو عمة الملك، لا أذكر، ثم إنهما قابلتا نفس السيدة مصادفة فى اليوم التالى فى الأوتوبيس، وتجاذبتا معها الحوار بكل بساطة. وحكنا لى عن أنهم فى

السويد احتراموا رغبتهما في عدم الإدلاء بأحاديث تليفزيونية أو صحفية، وقبل عودتهما إلى القاهرة أصر الناشر الذي أصدر ترجمة «زقاق المدق» على إقامة حفل كبير لهما. كانت سعادتي لا توصف وهما يقصان على هذه الحكايات عن المعاملة الكريمة التي قوبلتا بها طوال إقامتهما في السويد.

أما عن تأثير جائزة نوبل، سواء كان التأثير الخاص بالشخص أو العام على مستوى الأدب العربي. فلا شك أن الجائزة كانت مصدر سعادة كبيرة بالنسبة لي، وساهمت في تحسين أحوالي المادية، واتساع حركة الترجمة الخاصة برواياتي، بل وبالأدب العربي كله. فهناك عدد كبير من الأدباء العرب استفاد بحركة الرواج التي سببتها الجائزة للأدب العربي، وتمت ترجمة أعمال لهم إلى لغات أوروبية، وساهمت «نوبل» كذلك في زيادة توزيع رواياتي في الداخل والخارج بشكل ملحوظ.

وفي مقابل هذه المميزات كانت للجائزة مضارها ومتاعبها، وأظن أنها متاعب خاصة بنا نحن وليس بكل الأدباء الذين حصلوا عليها. فمند إعلان فوزي بالجائزة لم يمر يوم إلا وهناك طلب لإجراء حوار صحفي أو إذاعي أو تليفزيوني من مصر أو من دول العالم. هذا الأمر مرهق لي لسببين، الأول: أنه يتعارض مع مزاجي الانطوائي الذي لا يميل إلى الظهور والأضواء، مما جعل ثروت أباطة يردد المثل الشعبي «يدي الحلق للى بلا ودان». والسبب الثاني: أن صحتي لم تعد تتحمل مثل هذا الإرهاق البدني خاصة مع تقدم العمر. وأذكر أنه في الأسبوع التالي لحصولي على الجائزة صادفني برنامج حافل باللقاءات والتسجيلات، فاضطرت في أحد أيام ذلك الأسبوع - من الإرهاق الشديد - أن أنام على مقعد في صالة الشقة، وأجلت المقابلات لليوم التالي حتى أسترد أنفاسي المقطوعة. ولما زادت الأمور على الحد اقترح فتحى العشرى حلاً نقل به من هجوم المحطات التليفزيونية، خاصة العالمية التي كانت تأتي فرق العمل بها إلى مصر لأى غرض، قد لا يكون بالضرورة له علاقة بالأدب، ثم يطلبون موعداً للتسجيل معي قبل مغادرتهم، ومن غير اتفاق حتى مع محطاتهم. اقترح العشرى أن يطلب مقابل مادياً قبل التسجيل، كأمر معروف ومعترف به في دول العالم المتقدمة. وجاء الاقتراح بنتائج إيجابية، وبدأت موجات الهجوم التليفزيوني تتراجع وتخف إلى حد معقول.

ومن المتاعب التي سببتها لي جائزة نوبل، تلك المشاعر العدائية التي ظهرت عند بعض الأدباء، واستطعت أن أعالجها وأمتصها بشكل عقلائي. وساعدني في التغلب على

هذه المشاعر العدائية فرحة البسطاء التي كنت أصادفها في كل مكان أذهب إليه، أو من خلال رسائل البريد. ففي خلال الشهور الأولى لحصولي على الجائزة تلقيت كما هائلاً من الرسائل من كل الدول العربية ومن الدول الأوروبية أيضاً، خاصة إنجلترا وفرنسا وألمانيا وفنلندا والسويد، بعضها كان مجرد تحية وإعجاب، والبعض الآخر تضمن آراء وتعليقات كنت أضطر للرد على أصحابها. وبشكل عام فإن الأثر الإيجابي للجائزة كان أكبر بكثير من متاعبها، ويكفي أنها ساهمت في تغيير نظرة الشعوب الغربية إلينا نحن العرب. تلك النظرة التي كانت سائدة في أفلامهم السينمائية وبعض صحفهم غير المحايدة، والتي تصور العرب على أنهم شعوب بدوية، مازالوا يعيشون في الخيام ويعشقون النساء ويركبون الجمال ويحاربون بالسيوف والخناجر. ومن خلال الأعمال الأدبية العربية التي تمت ترجمتها تغيرت هذه الصورة وأدرك الإنسان الأوروبي أننا مجتمعات لها جذورها الحضارية، ولها مشاكلها وهمومها المعاصرة التي تتشابه مع مشاكله وهمومه إلى حد كبير.

## الفصل الثالث عشر

### ثورة ١٩١٩

أنا من براعم ثورة ١٩١٩ ومن عشاق سعد زغلول - الفرجة على المظاهرات من شيش الشباك - أمي وضمت بصمتها على عريضة الثورة - عندما شاركت في المظاهرات ضد صدقي باشا عام ١٩٣٠ - الملك فاروق دق المسمار الأخير في نعش الملكية - الإنجليز شاركوا الإخوان والماركسيين ومصر الفتاة في حرق القاهرة - خدعني أحمد ماهر فتركت الوفد وانضمت للحزب السعدي - كل من خرج عن الوفد كان مصيره سبنا - أعترف بأنني كرهت النظام الملكي ولم أكن أطيعه - لو منحت الفرصة لسعد باشا لأعلن قيام الجمهورية - محمد فريد رشح سعد زغلول لرئاسة الحزب الوطني - النحاس باشا برىء من قضيتي استغلال النفوذ وحادث ٤ فبراير ١٩٤٢ - حكاية الحرب بين سعد زغلول واليساريين - مشروعي الذي لم يتم لكتابة تاريخ مصر - ثورة ١٩ هي العصر الذهبي للأقباط - سعد زغلول زعيم خطير والنحاس شيخ طريقة - الوفد انتهى عام ١٩٣٦ - حريق القاهرة بدأ من «كازينو بدبعة» - الذين جنوا ثمار ثورة ١٩١٩ هم أعداؤها - مفاجأة في جنازة النحاس - الأحزاب السياسية الحالية فشلت في تكوين قاعدة شعبية والمتطرفون نجحوا - لويس عوض ظلمني في «أوراق العمر» ولن أسامحه.



■ في هذا الفصل يتحدث نجيب محفوظ عن ذكرياته وآرائه في ثورة ١٩١٩ وزعمائها خاصة سعد زغلول ومصطفى النحاس. حيث نتعرف على رؤيته الخاصة لمبادئ الوفد ودوره الوطني، وأسرار الانشقاقات التي حدثت فيه. ويشرح نجيب محفوظ كيف ترك حزب الوفد وانتمى إلى الحزب السعدى لفترة قصيرة، كما يعلق على بعض الأحداث والقضايا التاريخية الهامة مثل أزمة ٤ فبراير ١٩٤٢ وإلغاء معاهدة ١٩٣٦ وحريق القاهرة سنة ١٩٥٢ ودور الإخوان المسلمين ومصر الفتاة والشيوعيين في تلك الفترة، وفي النهاية يرد على الدكتور لويس عوض والانتقادات التي وجهها إلى ثلاثية نجيب محفوظ الشهيرة: «بين القصرين» و«السكرية» و«قصر الشوق».. ■

نجيب محفوظ: أعتبر نفسي من براعم ثورة سنة ١٩١٩. فإذا كان للثورة رجالها الذين قادوها، وشبابها الذين اشتركوا فيها، فأنا من البراعم التي تفتحت وسط لهيب الثورة وفي سنوات اشتعالها، ولم يكن عمري حين قامت ثورة ١٩ يزيد على سبع سنوات. وسن السابعة في ذلك الوقت أصغر من مثيلتها الآن، حيث كان المجتمع مغلقاً ومحروماً من وسائل الاتصال الحديثة مثل الإذاعة والتلفزيون، وكان جهاز الإعلام الحقيقي ينحصر في الأسرة والحيران، وكنت أسمع عن أحداث الثورة وكأنها فيلم سينمائي.

كان حي الجمالية الذي نعيش فيه مركزاً للثورة والمظاهرات، وعندما رأيت المظاهرات لأول مرة في ميدان «بيت القاضي» حسبته «زفة فتوات». ومن خلال أحاديث والدي والدي عرفت أن هناك صداماً بين المصريين والإنجليز. حتى ذلك الوقت لم أكن رأيت الإنجليز رأى العين، بل لم أكن أعرف أن مصر محتلة. وبعد اندلاع المظاهرات رأيت عساكر الإنجليز لأول مرة في ميدان «بيت القاضي» وهم يطلقون الرصاص على المتظاهرين، ورأيت الجثث على أرض الميدان، وكنت أشاهد هذه المعارك مع والدي من خلال «شيش» الشباك. ومنذ ذلك الوقت اندمجت عاطفياً مع الثورة والثوار، ساعد على ذلك الأجواء السائدة في بيتنا. فقد كان الجميع متحمسين للثورة إلى الدرجة التي جعلت والدي يحضر للمنزل ذات يوم وفي يده عريضة الثورة، وهي عريضة التوكيل الشعبي لسعد زغلول حتى يكون نائباً للأمة في طلب الاستقلال، وقد وقع والدي على العريضة وطلب

من أمى أن تضع بصمتها عليها فلم تكن تعرف الكتابة، ونص هذه العريضة استعنت به فى رواية «بين القصرين» بعد ذلك.

منذ اندلاع شرارة الثورة ظللت أتابع أخبارها وتفاصيلها، خاصة أخبار قائدها سعد باشا زغلول، الذى عشقته. وعندما وصلت فى التعليم إلى الصف الأول الثانوى بدأت أشتري الصحف لأعرف أخبار سعد، وأقرأ تصريحاته وخطبه، وكنت أفرؤها بشغف وكأنى أقرأ عملاً فنياً. وعندما مات سعد باشا زغلول يوم الثلاثاء ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ كان ذلك أسوأ يوم فى حياتى، فقد كان وجدانى مشتتاً إلى آخره بحب هذا الزعيم.

تشبعت بأفكار سعد زغلول التى أوضحت أن الثورة قامت من أجل استقلال مصر، وأن «الوفد» قام من أجل تحقيق هذا الهدف، وأنه لن يهدأ لنا بال حتى يخرج الإنجليز من مصر، وأن «الوفد» هو أمل مصر لتحقيق هذا الهدف. وأصبحت هذه الأفكار فى وجدانى وكأنها تعاليم دينية، ولم أعد أتصور - وقتذاك - الدنيا من غير «الوفد»، واستمر ولائى للوفد حتى بعد رحيل سعد زغلول وتولى مصطفى النحاس لزعامة الوفد.

ورغم أننى لم أنضم إلى لجنة الطلبة أو أى من لجان الوفد إلا أننى اشتركت فى المظاهرات، وكنت كلما شاهدت مظاهرة أنضم إليها، وإذا ما انفضت المظاهرة أعود إلى حياتى الطبيعية. وقد اشتركت بعد ذلك فى المظاهرات ضد حكومة إسماعيل صدقى باشا عام ١٩٣٠ رغم أن الرصاص كان يحصد المتظاهرين من كل صوب. وقد كان هذه المرة رصاص قوات الأمن المصرية.

فرحت عندما أعلن الإنجليز إلغاء الحماية واعترفوا بمصر ملكية وراثية دستورية فى ١٥ مارس ١٩٢٢، واعتبرت أن الحكم الدستورى أصبح لا ينفصل عن قضية الاستقلال. فالدستور سيدفع حكومة الوفد إلى السلطة، وحكومة الوفد هى الأمل فى حصولنا على الاستقلال، وقلت إنها خطوة للأمام. وعندما وقع النحاس باشا معاهدة ١٩٣٦ قلت إننا نتقدم، وكنت جالساً فى مقهى «الفيشاوى» عندما اعترف ملك إنجلترا - بعد معاهدة ١٩٣٦ - بمصر دولة مستقلة، ولا تتخيل مدى سعادتنا فى ذلك اليوم، رغم وجود تحفظات تعطى لانجلترا الحق فى بقاء قواتها فى منطقة القناة، وتلزم مصر بإقامة طرق وثكنات، حتى ينتقل الإنجليز من قصر النيل والعباسية إلى الاسماعيلية والسويس. كان الرأى العام الشعبى مؤيداً للمعاهدة باستثناء حزب مصر الفتاة، والحزب الوطنى، والكاتب الكبير عباس محمود

العقاد. واكتشفت للأسف في النهاية أن المستفيد الأول من معاهدة ١٩٣٦ هو الملك، لأن سلطاته زادت، كما أنه تمكن من إبعاد حزب الوفد - صاحب الأغلبية الشعبية - عن السلطة، وجاء بأحزاب الأقلية، ومع ذلك كان تدخل الملك في الحكم سبباً قوياً في نهاية الملكية وزوالها بعد ذلك، وبالتحديد بعد ثورة يوليو ١٩٥٢.

عندما تم وضع دستور ١٩٢٣ أيام الملك فؤاد كان سعد زغلول في المنفى، ووضعته أحزاب الأقلية وليس جمعية وطنية، فاستطاع الملك أن يدس بنوداً في الدستور تمكنه من توسيع سلطاته. ولما جاء الملك فاروق استغل تلك البنود في إجهاض التجربة الديمقراطية وتزييف الحياة البرلمانية والحريات السياسية. ولو اقتنع الملك فؤاد بالنظام الموجود في إنجلترا الذي يجعل الملك يملك ولا يحكم، لكانت الملكية موجودة في مصر حتى اليوم.

والحقيقة أن «الوفد» كان سبباً في زوال الملكية من مصر بطريق غير مباشر، فقد كان من بين بنود معاهدة ١٩٣٦ التي وقعتها حكومة الوفد برئاسة النحاس باشا، زيادة حجم الجيش، فدخل الكلية الحربية عناصر جديدة من أبناء الطبقة المتوسطة، وكان ضمن أول دفعة التحقت بالكلية بعد المعاهدة عدد كبير من الضباط الأحرار الذين خططوا للثورة ونفذوها<sup>(١)</sup>. أي أن حزب الوفد جاء بمن أنهى عهد الملكية وقضى على الحياة الحزبية التي كان «الوفد» فارسها الأول.

\* \* \*

وعندما أسترجم تاريخ حزب الوفد القديم تستوقفني نقطة هامة، وهي الانقسامات أو الانشقاقات التي حدثت فيه وأسبابها. فالوفد تشكل من الطبقة المصرية المستنيرة التي كان أساسها حزب الأمة، حزب الباشوات والأعيان. ولذلك كان أعضاء الوفد في بداية تكوينه من غير الثوريين، باستثناء سعد باشا زغلول. كان الأعضاء من الحكماء والمثقفين الذين يمثلون عقل مصر، ولذلك كانت الثورة في رأي بعضهم<sup>(٢)</sup> بمثابة فوضى، ولا بد أن تخمد

(١) من هؤلاء الضباط جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر وزكريا محيى الدين والسادات وغيرهم. وكان عبدالناصر قد التحق بكلية الحقوق، وبعد معاهدة ١٩٣٦، وزيادة حجم الجيش، ترك «الحقوق» والتحق بالكلية الحربية.

(٢) منهم عدلى يكن باشا، ولطفى السيد باشا، وعبدالخالق ثروت باشا، وغيرهم من «باشوات» ذلك العصر.

هذه الفوضى حتى يمكن التفاهم مع الإنجليز. ومن هنا ظهر أول انشقاق في الوفد بين فريق سعد زغلول وفريق عدلى يكن. الأول يرى أن الطريق الوحيد للخلاص هو الثورة، والثاني يرى أن الثورة والمظاهرات كلام فارغ، ومن الممكن أن نأخذ حقوقنا من خلال المفاوضات مع الإنجليز وليس هناك طريق آخر، وخرج هؤلاء عن الوفد وكونوا حزب الأحرار الدستوريين. وأذكر عندما كنت أعمل في وزارة الأوقاف أن حضر ضيف مهم لمقابلة وزير الأوقاف. ولما عرف الضيف اسمى اعتقد أنني من عائلة محفوظ المعروفة في صعيد مصر بولائها لحزب الأحرار الدستوريين، وكان الضيف المهم من مؤيدى الحزب. وقد تركته على «عماء» لأننى لم أكن أحب أن أناقش السياسة فى الوظيفة. كانت حركة ١٩٤٦ على أشدها فى ذلك الوقت، فقال وكأنه يعلن أمامى عن ولائه لأفكار الدستوريين مجاملة لى: إنهم يريدون إخراج الإنجليز من مصر، فإذا تم ذلك فسنخرج من الوزارة بعدهم فى اليوم التالى مباشرة! والمنصف لا يستطيع أن ينفى عن «الأحرار الدستوريين» صفة الوطنية، فقد كانوا يريدون مصلحة مصر ولا شك، ولكن من وجهة نظرهم القائمة على أساس أن العنف لا يفيد، بدليل ثورة أحمد عرابى، وهى وجهة نظر فيها شىء من الصواب.

أما الانشقاق الثانى الذى حدث للوفد سنة ١٩٣٢ وأطلقوا عليه حركة «السبعة ونص»<sup>(١)</sup>، فقد قاده سلامة ميخائيل ونجيب الغرابلى، وأظن أن أسبابه مماثلة لانفصال عدلى يكن، لأن عقلية هؤلاء كانت أقرب للأحرار الدستوريين وأفكارهم، لأنهم رفضوا خط التهيج والاندفاع والخطب الحماسية والتطرف الذى قاده النحاس، خاصة أن النحاس جاء لرعاية الوفد بتأييد ثلاثة متطرفين معروفين هم: مكرم عبيد والنقراشى وأحمد ماهر.

ولكن الانشقاق الوحيد المؤسف فى تاريخ الوفد هو خروج أحمد ماهر والنقراشى

---

(١) كان السبعة الذين خرجوا من الوفد سنة ١٩٣٢ هم: حمد الباسل ومراد الشريعى وعلوى الجزار وفخرى عبدالنور وعطا عفيفى وراغب اسكندر وسلامة ميخائيل. يضاف إلى هؤلاء السبعة نجيب الغرابلى، وكان قصيرا، فاعتبره الوفديون من باب السخرية مجرد «نص»، واشتهرت هذه المجموعة لذلك باسم حزب «السبعة ونص»، أما أسباب الخلاف فيمكن التعرف عليها بالتفصيل فى الجزء الثانى من كتاب الرافعى «فى أعقاب الثورة المصرية»، الطبعة الثالثة صفحة ١٨٥ وما بعدها. وخلاصة هذا الخلاف أن النحاس كان يرفض اشتراك الوفد فى وزارة ائتلافية يشترك فيها مع غيره من الأحزاب، لأنه جرب الائتلاف قبل ذلك سنة ١٩٢٨ ولم ينجح، أما المنشقون على الوفد فكانوا يطالبون بالائتلاف ويؤيدونه.

وتكوين حزب السعديين. وذلك لأن الاثنين، بالإضافة إلى إبراهيم عبدالهادي الذي كان زعيمًا للطلبة في ثورة ١٩١٩، كانوا رموزًا للنقاء السياسي. ومن فرط حبي لماهر والنقراشي انضمت للسعديين وتركت الوفد، واعتبرت أن الحزب الجديد هو الممثل الحقيقي للوفد وأنه يسير على مبادئ سعد زغلول.

تعددت التفسيرات والاجتهادات في أسباب هذا الانقسام، ف قيل إنه بسبب المنافسة بين ماهر والنقراشي من جانب وبين مكرم عبيد من جانب آخر، وقيل إنه بسبب «عدم نزاهة» الحكم و«الفساد» اللذين طرأ على الوفد، فقد صمت النحاس باشا عما فعله بعض أعضاء الوفد البارزين مثل عثمان محرم وغيره من الذين قبلوا هدايا ورشاوى، كما قيل إن هذا الانشقاق كان تعبيرًا عن صراع اجتماعي بين طبقات ومصالح مختلفة داخل الوفد، وحتى الآن لم أستوعب الأسباب الحقيقية لهذا الانقسام الخطير في صفوف الوفد.

\* \* \*

تحمست في البداية للسعديين، ولكن الحماس بدأ يضعف ويفتر عندما اكتشفت خضوعهم التام للملك، وأنهم لم يحافظوا على مبادئ الوفد القديمة. وعندما أعود الآن لهذه الأحداث أرى أن ماهر والنقراشي قد أخطأ، وكان من الواجب أن يبقى خلافهما مع النحاس محصورًا داخل الحزب، وكان ينبغي لهما أن يدركا ببعده بصيرتهما أن المستفيد الأول من انشقاق الوفد هو الملك والإنجليز، وكان يجب ألا تأخذهما العزة بالإثم ويشقا صفوف الحزب في تلك الظروف. ومن عجائب التاريخ أن أحمد ماهر مات قتيلاً وكذلك النقراشي<sup>(١)</sup>، ثم حكم بالإعدام سنة ١٩٥٣ على إبراهيم عبدالهادي بعد قيام الثورة، وتم تخفيف الحكم إلى المؤبد، ثم أفرج عنه صحيانًا بعد سنة. وهكذا كان مصير كل من خرج على الوفد سيئًا.

والأمر الذي لا شك فيه أن الملك ورجاله تدخلوا في الخلافات التي حدثت داخل حزب الوفد وعمقوها، وظهر ذلك بشكل واضح في خروج مكرم عبيد سنة ١٩٤٢ وتكوين حزب «الكتلة الوفدية» بزعامته. وربما كان من أسباب انفصال ماهر والنقراشي أن رجال

---

(١) كان مقتل أحمد ماهر في ٢٤ فبراير سنة ١٩٤٥ وكان رئيسًا للوزراء، أما القاتل فهو محام شاب اسمه محمود العيسوي. وكان مقتل النقراشي في ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨، وكان النقراشي رئيسًا للوزراء أيضًا، أما القاتل فهو طالب بكلية الطب البيطري اسمه عبدالمجيد أحمد حسن. «ر. ن»

الملك وعدوهما برئاسة الحكومة، وهو ما حدث بالفعل، ولم يكن ذلك حباً من الملك فيهما، بقدر ما هو كراهية في النحاس. فكما هو ثابت كان النحاس يتمتع بجرأة وشجاعة، كان الملك يعتبرها «قلة أدب». ولذلك كان يكره النحاس الذي كان يضايقه إذا حدث خلاف بينهما فيقول للملك: «أنت زى ابني»!.. أى أنك مازلت صغيراً ولا تعرف شيئاً، وبحاجة لمن هو فى عمر والدك لكى يشرح لك الأمور. كان النحاس يهدد الملك ويحذره من أى خرق للدستور، ويؤكد له دائماً أن بقاء عرشه مرتبط بالحفاظ على الدستور. لكل ذلك كان الملك يكره النحاس ولا يطيعه، ولكنه اضطر للتعامل معه عندما ظهرت القوى الجديدة مثل الماركسيين ومصر الفتاة والإخوان المسلمين، الذين هددوا نظام الحكم القائم. وكان الحل الوحيد أمام الملك هو اللجوء للوفد صاحب الشعبية الكبيرة ليسيطر على الأمور ويخلصه من تهديد هذه القوى الجديدة. وهذا هو السبب الحقيقي لعودة الوفد إلى الحكم للمرة الأخيرة فى سنة ١٩٥٠.

ولو استمرت حكومة الوفد فى السلطة خمس سنوات - كما كان مقرراً - لتغير تاريخ مصر، لأن القضية الوطنية كانت على وشك الانتهاء بالحصول على الاستقلال، وبدأت حركة الإصلاح الاجتماعى تؤتى ثمارها، وبدأ الناس فى التجاوب معها، وكانت التجربة الديمقراطية تسير فى طريقها، وكان من المحتمل - فى الانتخابات التالية - أن تدخل قوى جديدة إلى الساحة، وتسحب الأغلبية من الوفد، ولكن تدخل الملك وتزييف الحياة الديمقراطية عجل بنهاية الملكية.



لا بد أن أعترف أننى لم أكن مخلصاً للنظام الملكى ولم أكن أطيعه، حتى أننى عندما كتبت رواياتى الأولى، خاصة «عبث الأقدار» و«رادوييس»، تطورت الأحداث فى الروايتين للتعبير عن هذا رأى وتأكيده. كان ضمن أحداث الروايتين ملكان يخونان شعبيهما، فيكون مصيرهما العزل، ونحن كأبناء لثورة ١٩١٩ وحزب الوفد، تربينا على كراهية النظام الملكى. ورغم أن الوفد لم يناد بالنظام الجمهورى، لأن الظروف لم تكن تسمح بذلك، فإنه لو كانت الظروف مواتية وأتيحت الفرصة لسعد زغلول، لأعلن إلغاء النظام الملكى. وأظن أن النحاس تكلم مع اللورد كيلرن بصراحة عام ١٩٤٢ فى خلع الملك، وقد كان الإنجليز أنفسهم لديهم نوايا لعزله.

هناك عدة نقاط أحب أن أقف عندها فى تلك الأحداث:

الأولى تتعلق بما رددته البعض عن مهادنة النحاس للملك عام ١٩٥٠ التي بلغت حد الإذلال بتقبل النحاس يد الملك. والحقيقة أن النحاس عندما تولى رئاسة الحكومة في ذلك العام بعد ست سنوات طويلة بعيداً عن الحكم، نصحه بعض أصدقائه بأن يفرق بين التفریط في حقوق الشعب، وإعطاء الملك حقه من الاحترام. وأشار عليه هؤلاء أن يقيم علاقة طيبة مع الملك لأن ذلك في مصلحة الشعب، واعتبر البعض تلك العلاقة الطيبة مهادنة ومذلة. وأظن أن الذي روج لهذا الرأي هو حسين سرى، وذلك بهدف التشهير بالنحاس. والدليل على أن النحاس لم يهادن الملك لدرجة الإذلال لنفسه - كما قالوا - أنه اصطدم بالملك عندما اعترض على تعيين الدكتور طه حسين وزيراً للمعارف، وتمسك النحاس بطه حسين وهدد بعدم تشكيل الحكومة إذا استمر الملك في رفضه، وبالفعل نزل الملك على رغبة النحاس ورضخ لتصميمه وتولى الدكتور طه حسين وزارة المعارف.

النقطة الثانية هي أن أفكار مصطفى كامل ومحمد فريد التي قام على أساسها الحزب الوطنى القديم، هي التي مهدت لثورة ١٩١٩، فخطب مصطفى كامل ومسرحياته وشعاراته مثل «لا مفاوضة إلا بعد الجلاء» ومبادئه التي سار عليها محمد فريد كانت هي وقود الثورة. استطاع مصطفى كامل تربية جيل من الشباب، هذه التربية استفاد منها حزب الوفد واستثمرها في الوقت المناسب، وذلك رغم العداء الذي كان قائماً بين مصطفى كامل ومحمد فريد من ناحية، وسعد زغلول من ناحية أخرى، ولكن المصلحة الوطنية كانت ترتفع بهم فوق هذه النزاعات الشخصية، وهكذا تكون أخلاق الزعماء. فعندما ذهب مصطفى كامل إلى إنجلترا سألهم: لماذا تتعاملون مع الأتراك بشأن المسألة المصرية؟ أليست مصر دولة؟ فكان ردهم أن مصر ليس فيها من هو أهل للحكم! فرد مصطفى كامل وذكر لهم اثنين من الزعماء الوطنيين هما محمد فريد وسعد زغلول، وذلك رغم الخلاف الشديد الذي كان قائماً بين مصطفى كامل وسعد زغلول في ذلك الوقت. كما أن محمد فريد رشح سعد زغلول لتولى رئاسة الحزب الوطنى قبل الثورة، فعندما هرب محمد فريد إلى أوروبا أرسل له أنصاره يشكون من تفتت الحزب وتراجعه ومطاردات البوليس لأعضائه. فكان من بين اقتراحاته لحل مشاكل الحزب - التي بعث بها إلى أنصاره في مصر - أن يفاوضوا سعد زغلول لتولى رئاسة الحزب، علماً بأن محمد فريد في قرارة نفسه كان يكره سعد زغلول، ويعارض الكثير من أفكاره وآرائه، وقد أشار فريد إلى ذلك صراحة في مذكراته. وربما لو أن محمد فريد كان موجوداً في مصر لا في المنفى وقت اندلاع ثورة ١٩١٩، لكان هناك احتمال كبير أن يكون من قادتها أو أن يكون هو الزعيم الذى يذهب نيابة عن الشعب إلى دار المندوب السامى البريطانى، حيث كان مؤهلاً لذلك ولا تنقصه الوطنية أو الشجاعة.

والنقطة الثالثة تتعلق بما قيل عن موقف سعد زغلول من اليساريين وعدائه للنقابات العمالية، ومحاربته للحزب الاشتراكي الذي أسسه سلامة موسى ومحمد عبدالله عنان. والذي أعرفه أن سعد زغلول لم يحارب نقابات العمال، ولا يمكن أن يقوم بحلها لأنه اعتمد عليها في تدعيم موقفه. ولكن الثابت هو محاربته لليساريين خوفاً من استغلال أى تأييد منه لهم في تشويه الثورة، لأن الشيوعية في تلك الأيام كانت سيئة السمعة حتى في إنجلترا نفسها، وكان أنصار الاشتراكية الغابية الإنجليز يعانون من الاضطهاد. لقد كان سعد زغلول محققاً في موقفه من اليساريين لأنه خشى أن توصم الثورة بالشيوعية، خاصة بعد نجاح الثورة الشيوعية في روسيا سنة ١٩١٧، فيجد عقبات كثيرة أمامه يمكن أن تعوق الهدف الأسمى الذي يسعى إليه وهو الاستقلال.

كما أن عدم وقوف سعد زغلول ضد الشيوعية كان يمكن أن يتسبب في انهيار الوفد، لأن الوفد قائم على التجمع الوطني، وعدد كبير من قياداته كانوا من الإقطاعيين الذين تعتبرهم الشيوعية عدوها الأول. فإذا شعر هؤلاء بأن سعد زغلول يميل إلى الشيوعية التي تقوم على مبادئ المصادرة والتأميم، كان لابد أن تختلف مواقفهم من الوفد، بل إنهم ما كانوا ليتورعوا عن الاتصال بالإنجليز ليطلبوا منهم الحماية. ومن الأسباب الأخرى لوقوف سعد زغلول ضد اليساريين والشيوعيين أن مؤسسى الحزب الشيوعى كان معظمهم من اليهود من أمثال «هنرى كوريل» الذى اتضح فيما بعد أنه كان جاسوساً للإنجليز، وليس من المستبعد أن يكون تأسيسه للحزب قد تم بالاتفاق مع الإنجليز. كانت مبادئ هذا الحزب تتعارض مع أفكار ومبادئ الشعب المصرى فى ذلك الوقت، وكانت دعوتهم للأممية مثلاً ولإلغاء الملكية الفردية، غريبة على فكر المجتمع المصرى ومن الصعب أن يقبلها.

نقطة رابعة أحب أن أقف عندها، وهى الرد على الانتقادات التى وجهها لى النقاد اليساريون حول «الثلاثية»، فقد ذهبوا إلى أننى أبرزت دور الموظفين والطلبة والتجار وأهل المدن فى أحداث ثورة ١٩١٩، فى حين أغفلت دور العمال والفلاحين. هؤلاء النقاد نسوا شيئاً مهماً وهو أننى لست مؤرخاً، و«الثلاثية» ليست كتاب تاريخ عن أحداث ثورة ١٩١٩. وكان من واجبه أن ينظروا إليها على أنها عمل فنى روائى، بطلها تاجر صغير وأحداثها تدور فى المدينة، ولو أننى نقلت الأحداث إلى الريف كى أبرز دور الفلاحين، لكان قد حدث خطأ فنى فى تسلسل الأحداث، ولخرجت الرواية عن الهدف الذى قصدته من كتابتها. لقد فكرت فى بداية حياتى أن أكتب تاريخ مصر، ووضعت فكرة مشروع يتكون من ثلاثين إلى أربعين عملاً تتناول كل فترات التاريخ المصرى، ولكننى انصرفت عن هذا المشروع بعد أن

كتبت رواية «كفاح طيبة». ومن أسباب انصرافي عنه عدم معرفتي بحياة الريف والعمال، فقد وجدت أن الموضوع يحتاج إلى بحث طويل ودراسة متعمقة لبيئات لم أختلط بها، فانصرفت عنه. وكان من ضمن أجزاء المشروع جزء عن ثورة ١٩١٩ باعتبارها الثورة الشعبية الثانية في تاريخ مصر بعد ثورة «أبنوم» زمن الحكم الفرعوني. صحيح أنه حدثت انتفاضات وثورات أيام حكم الرومان والعرب، ولكنها كانت مجرد مظاهرات تقوم وتخمد، أشبه بما جرى عامي ١٩٣٥ و ١٩٤٦، حتى الثورة العراقية لم تكن شعبية في أساسها لأن الجيش هو الذي قام بها، لقد أيدها الشعب ووقف بجانبها لأنها عبرت عن أمانيه، ولكنها في النهاية ثورة عسكرية. أما ثورة ١٩١٩ فكانت ثورة شعبية امتدت للريف والأقاليم. وكانت هذه الثورة مفاجئة حتى لسعد زغلول نفسه، لأنه عندما نفى من مصر كان يظن أن مصيره سيكون مثل مصير محمد فريد، وأنه لن يرى مصر مرة أخرى. لقد اندهش محمد فريد نفسه عندما علم بخبر ثورة الشعب، كما لم يتوقع الإنجليز ثورة شعبية بهذه الحدة، وظن المندوب السامي البريطاني أنها مجرد حالة من الغضب المؤقت يستطيع «إذا ما بصق عليها إخمادها فوراً» - على حد تعبيره - ولكنه ذهل من اشتعال الثورة في كل مكان على أرض مصر.

النقطة الخامسة تتصل بشخصية سعد زغلول والانتهاكات التي وجهت إليه، ومنها اتهامه بالاستبداد كزعيم، وأنه لا يطبق النقد أو المعارضة ممن هم حوله. هذه الانتقادات روج لها الكثيرون ومنهم المؤرخ عبدالرحمن الرافعي، أحد أقطاب الحزب الوطني المعروف بعدائه للوفد، ومنهم أيضًا الدكتور محمد حسين هيكل آخر رئيس لحزب الأحرار الدستوريين، وذلك في كتابه «مذكرات في السياسة المصرية».

وفي رأيي أن استبداد سعد زغلول كان مبررًا في الفترة الأولى من الثورة، لأن الظروف كانت تحتمه. ففي ظل ثورة شعبية جارفة حمل فيها كل مصري روحه على كفه، لم يكن هناك مجال لكثرة الجدل والاختلاف في الرأي، ولكن هذا لا يمنع أنه في فترة لاحقة كان سعد زغلول أكثر ديمقراطية وقبولاً للحوار والرأي الآخر، وخاصة عندما أصبح رئيسًا لمجلس النواب، فذات مرة عارضه أحمد ماهر عضو المجلس، وماهر من تلاميذ سعد وما إن انتهت الجلسة حتى ذهب سعد إلى مكتبه واستدعى أحمد ماهر الذي دخل المكتب وهو يرتجف، ولكنه فوجئ بأن سعد ينهض ويحتضنه ويقول له: «هكذا تكون المعارضة!».!

في تلك المرحلة من حياته أصبح سعد زغلول واسع الصدر، حتى أن البعض اقترح فصل عباس محمود العقاد من حزب الوفد بسبب نقده لبعض مواقف سعد زغلول، فقال لهم

سعد بالحرف الواحد: «سيوه يقول اللى هو عايزه»، وكان يسميه «الكاتب الجبار». ومن دلائل ديمقراطية سعد أنه أغلق مسألة التعصب الدينى بين المسلمين والأقباط، لدرجة أن الناحيين قد يصوتون لصالح مرشح قبطى فى دائرة كلها من المسلمين، كما كانت اللجنة العليا للوفد تضم عددًا كبيرًا من الأقباط بعد خروج عدلى وصدقى ومحمد محمود، وأظن أن اللجنة أصبحت تضم ثلاثة أقباط من مجموع خمسة هم كل أعضائها. وبذلك استطاع سعد زغلول أن يقضى على مسألة التعصب الدينى من جذورها، وسار النحاس على هذا المبدأ، حيث كانت الكفاءة والوطنية هما الفيصل عنده فى الحكم على الناس وليس الدين. لذلك يشعر الأقباط المصريون بالحنين إلى هذا العصر، إذ يعتبرونه العصر الذهبى لهم.



بعد أن هدأت الثورة واستقرت الأمور أكاد أقول إن ديمقراطية سعد زغلول وصلت إلى درجة الليونة. لأنه أراد أن يجمع الناس حوله ويشكل نوعًا من الائتلاف الوطنى، حتى إن أم المصريين السيدة صفية زغلول تركت بيت الأمة وذهبت للإقامة فى بيت حمد الباسل كنوع من الاحتجاج على سعد زغلول عندما وجدته يجتمع مع المنشقين عليه مثل عدلى وثروت فى بيتها. وكان سعد زغلول يرى أن ثروت أكثر قدرة على التفاهم مع الإنجليز، ولو عاش سعد شهورًا أخرى فأعتقد أنه كان سترك موضوع المفاوضات لثروت الذى كان يتمتع بالذكاء. فعندما يتفاوض مع الإنجليز يلعب معهم لعبة صغيرة، فيخبرهم باستعداده لقبول شىء ولكن سعد زغلول - كما يقول لهم - لن يقبل، فيحصل منهم على مكاسب تفاوضية، إذ يخففون من شروطهم وطلباتهم.

الحقيقة التى لا تقبل الجدل هى أن سعد زغلول كان زعيمًا بمعنى الكلمة، وكان يمتلك شخصية متعددة الجوانب. فهو مثقف وأديب ومحام كبير وقانونى وسياسى وخبير وصاحب عقلية جبارة. وإذا قارناه بالنحاس، نجد أن النحاس كان أقل فى مجموع مواهبه من سعد زغلول، ولكنه كان فى غاية النقاء والصفاء والوطنية والطيبة ونظافة اليد، وهو شديد الإخلاص لسعد زغلول، وهو مؤمن بمبادئه مثل إيمان السالكين فى الطرق الصوفية بشيوخهم. ورغم ولاء النحاس الشديد لسعد زغلول، فإنه كان أصلب منه وأشجع وأكثر جرأة عندما يتعلق الأمر بالوطنية.

الكلام عن نظافة يد النحاس ووطنيته يجرننا للحديث عن موضوع هام أثر فى عهده،

وهو نزاهة الحكم، وقضية «الكتاب الأسود» التي أثارها مكرم عبيد في كتابه الذي يحمل هذا العنوان. كان النحاس في تلك الظروف أشبه بزهرة في مستنقع، حيث دخل الوفد أناس انتفعوا به واستغلوا طيبة النحاس، فاستغل أعداء الوفد من جانبهم أخبار الفساد أو ما اعتبروه فساداً. وإذا ما قرأت الآن عن «هذا الفساد» فإنك سوف تضحك. فمن بين صور الفساد التي أخذوها على النحاس والوفد أن موظفاً تم نقله من محافظة قنا في غير الوقت المحدد لنقله، وأن موظفاً آخر زاد راتبه بمقدار جنيهين ونصف الجنيه بدون وجه حق. كانت دوافع هذه المعركة حزبية أكثر منها شخصية، وتم فيها التحامل على النحاس. كان النحاس في غاية الطيبة ولا يجيد التصرف في المسائل المالية، بدليل أن عائلة النحاس نفسها كانت تلجأ إلى مكرم عبيد لقضاء مصالحها، لأنهم كانوا يعرفون مدى رفض النحاس لهذه الأشياء. وكما ظلموا النحاس في قضية نزاهة الحكم، فإنهم عادوا وظلموه في قضية حادث ٤ فبراير ١٩٤٢. كنت عضواً في الحزب السعدي في تلك الفترة، كما كنت قد اكتشفت الخدعة التي وقعت فيها، وأصبح عندي استعداد للعودة مرة أخرى إلى حزب الوفد. عندما نتبع القضية الآن من خلال مذكرات اللورد كيلرن في الوثائق البريطانية التي أفرج عنها بعد ثلاثين سنة، يتضح أن النحاس يرى تماماً، وأنه لم يأت إلى الحكم على أسنة الرماح كما اتهمه أيامها أحمد ماهر وأنصاره.

الذي حدث بالضبط أنه وسط معارك الحرب العالمية الثانية ذهب اللورد كيلرن لمقابلة الملك فاروق وأخبره بأن مصر ستكون ميداناً للحرب، وأن الإيطاليين بعد أن انضموا إلى هتلر سوف يزحفون على مصر، وطلب كيلرن من الملك ضرورة أن يكون هناك استقرار سياسي في مصر، وأن تتولى أمور البلاد حكومة وطنية يؤيدها الشعب. وكان رد الملك فاروق هو أننا «بيننا وبينكم معاهدة، ونحن مخلصون لها إخلاص النحاس والوفد، وليس عندكم ما تشكون منه». كرر الإنجليز طلبهم، وزاد قلقهم رغم تولى حسن صبري باشا<sup>(١)</sup>، أحد أصدقائهم المعروفين في مصر، رئاسة الوزارة. وعندما حققت جيوش المحور

(١) تولى حسن صبري باشا رئاسة الوزارة في ٢٧ يونيو سنة ١٩٤٠ وتوفي بعد أربعة شهور ونصف الشهر، وكان ذلك في ١٤ نوفمبر سنة ١٩٤٠، فقد فاجأته أزمة قلبية وهو يلقي خطاب العرش في ذلك اليوم، فمات أثناء إلقاء الخطاب في البرلمان المصري. وكان حسن صبري أحد ثلاثة سياسيين معروفين بصداقتهم القوية مع الإنجليز في ذلك الوقت، وهم بالإضافة إليه: حسين سرى وحافظ عفيفي.

انتصاراتها الكبيرة فى شمال إفريقيا، واقتربت من مصر، أصيب الإنجليز بحالة هستيرية. وجاء الأمر من لندن إلى «اللورد كيلرن» بأن له مطلق التصرف فى مصر لحماية ظهر الجيوش البريطانية، ولو اقتضى الأمر خلع الملك وتغيير النظام وتعيين حاكم إنجليزى إذا لم يجد من يتعاون معه من الزعماء المصريين. ووجه «اللورد كيلرن» إنذار ٤ فبراير ١٩٤٢ إلى الملك بضرورة تولى النحاس رئاسة الحكومة، ولم يكن النحاس على علم بهذه الترتيبات. والذى حدث أن أمين عثمان أقنع «اللورد كيلرن» بأن النحاس لا يمكن أن يتولى الوزارة بأوامر من الإنجليز، ولا بد من وضعه أمام الأمر الواقع. ويبدو أن «اللورد كيلرن» تلقى هذه النصيحة عندما طلب من أمين عثمان جس نبض النحاس، فنبه أمين عثمان إلى أنه إذا شم النحاس رائحة مؤامرة فإن المسألة كلها ستعرض للفشل، وأن من الأفضل أن يشعر النحاس بأنه ينقذ مصر بقبوله تولى الوزارة. ولما وجه الإنجليز إنذارهم، جمع الملك النحاس وصدقى وزبور وعدداً آخر من كبار السياسيين، منهم على ماهر ومحمد حسين هيكل وحسين سري وغيرهم، وأكد الجميع أن الإنذار جدى، وليس اختباراً للنوايا أو القوى، أما النحاس فقد سأل الملك: هل أنت مستعد لرفض هذا الإنذار؟. فأجاب الملك بأنه مستعد ولو كلفه الأمر العرش. وأجمع الزعماء على رأى واحد هو رفض الإنذار البريطانى، ووقعوا على ذلك واعتبروه موقفاً وطنياً عظيماً من الملك فاروق.

بعد أن انصرف النحاس من الاجتماع وهو مستعد لأى مصير حتى لو كان النفى أو الإعدام، فوجئ بالملك فاروق يستدعيه ويتراجع عن موقفه ويكلفه بتشكيل الوزارة، إذ بعد انتهاء الاجتماع نصحه رئيس الديوان أحمد حسنين بقبول الإنذار. كان أحمد حسنين يعرف أن الإنجليز جادون فى تهديدهم، ودليل ذلك أنهم حاصروا القصر الملكى، واعتدوا على الباور الخاص للملك - وكان رجلاً سودانياً - عندما حاول منعهم من دخول القصر، أصيب الباور برصاصة فى يده. ولما شاهد الملك فاروق الدبابات الإنجليزية تقف فى الخارج، وقائد الجيش البريطانى يقف أمامه فى داخل القصر قبل الأمر الواقع، وكلف النحاس بتشكيل الوزارة.

فى البداية رفض النحاس الأمر وطالب بإجراء انتخابات، ولكن بعض المقربين منه نصحوه بأن يصدر بياناً إلى الأمة يعلن فيه أنه قبل الوزارة إنقاذاً للوطن، ذلك أن البيان سيبرئ ساحته، ولكن النحاس رفض إصدار البيان، وقبل تشكيل الوزارة، فما كان إلا أن اتهمه معارضوه بالخيانة، وبأنه جاء إلى الحكم على حراب الإنجليز. والمسألة ليست

كذلك، لأن النحاس ضحى بنفسه وكاد يتعرض للاغتيال بسبب موقفه، إذ جرت محاولة لاغتياله من تدبير الملك وعن طريق الحرس الحديدي الخاضع له. لقد قرأت مقالاً بعد ذلك بسنوات طويلة لأحمد حمروش يتضمن اعترافاً من ضابط زميل له بأنه فكر في اغتيال النحاس بعد ٤ فبراير ١٩٤٢.

\* \* \*

في اعتقادي أن حزب الوفد انتهى عام ١٩٣٦. لماذا؟! لأن الوفد قام من أجل تحقيق هدف واحد هو الاستقلال، فأصبح مثل المحامي تنتهي مهمته بانتهاء القضية الموكلة إليه، سواء كسبها أو خسرها أو توصل فيها إلى حل وسط بين الخصوم، والوفد انتهت مهمته عام ١٩٣٦ بتوقيع المعاهدة. وقبل هذا التاريخ كان اسم الوفد مقدساً، وفي اجتماعات الأحزاب المعارضة كان يمنع الهتاف ضد الوفد والنحاس، وكانت الجماهير مع الوفد باليد واللسان والقلب. أما بعد المعاهدة فقد اختلف الأمر وتغير الوضع وأصبحت الجماهير مع الوفد بالقلب فقط. صحيح أن المهمة الرئيسية للوفد انتهت، ولكن بسبب تدخل الملك في الحياة السياسية وتزويره للديمقراطية، ظهرت له مهمة أخرى، وهي الدفاع عن الدستور. وعندما وصل الوفد إلى عام ١٩٥٢ أصبح شبيهاً بسيدنا سليمان الذي مات وهو متكئ على عصاه، والشياطين من حوله يحسبون أنه في حالة نوم، فظلت الشياطين مستمرة في عملها لأنها تخشى سليمان وتخاف سطوته وبأسه - حتى في أثناء نومه - فجاءت «حشرة» وأكلت عصاه فسقط على الأرض، عندها اتضح لها أنه مات منذ زمن.

رغم ارتفاع شعبية الوفد سنة ١٩٥١ بعدما ألغى النحاس معاهدة ١٩٣٦، فإن الحزب نفسه كان قد وصل إلى مرحلة الشيخوخة. وكان السبب الرئيسي - في رأيي - الذي جعل النحاس يلغى المعاهدة هو أنه أراد أن يختم حياته السياسية بعمل وطني كبير، خاصة أن الشعب كله كان قد ضاق بالاحتلال، وخرجت مظاهرات حاشدة في القاهرة والإسكندرية تطالب بالجلء التام نظير الخدمات الكبيرة التي قدمتها مصر إلى إنجلترا أثناء الحرب العالمية الثانية، فقد كان من الواجب بعد هذه الخدمات أن تكون مكافأة مصر الاستقلال الفوري.

جرت مفاوضات كثيرة بين الطرفين، ولكنها انتهت جميعاً بالفشل، حتى أعلن النحاس إلغاء المعاهدة من طرف واحد. وأصبح الوضع حرجاً للغاية، خاصة بعد خروج المظاهرات

المؤيدة لإلغاء المعاهدة، وكان النحاس على رأس هذه المظاهرات. وكنت من بين الذين شاهدوا المظاهرات وساروا فيها، وانتهز الشعب الفرصة وبدأ يهاجم القوات الإنجليزية فى القتال، فتحول الأمر إلى حرب رسمية بين دولة قوية وأخرى ضعيفة. وأنا أسمىها حرباً لأن المقاومة الشعبية التى نشطت بقوة، كانت تجد التأييد والدعم من الحكومة. وقيل أيامها كلام لا أعرف مدى صحته، وهو أن الولايات المتحدة الأمريكية نصحت تشرشل بالانسحاب من مصر.

إن موقف النحاس من إلغاء المعاهدة ثم تشجيعه للفدائيين يعتبر جهاداً وطنياً بلا شك، وفى محكمة الثورة التى أنشئت فى سبتمبر ١٩٥٣، والتى كان يرأسها عبداللطيف البغدادى، أدين النحاس لأنه «قاوم الإنجليز وشجع على حرب القتال دون استعداد كاف». ما هذا الاستعداد الذى كان يريده البغدادى أمام ٩٠ ألف جندي إنجليزى بدباباتهم وقت أن كانت إنجلترا هى أكبر وأقوى دولة فى العالم؟!.



كان النحاس فى جانب الصواب عندما طالب الإنجليز بالجلء عن مصر بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية لأنه قدم خدمات جليلة لهم، والتزم بنصوص المعاهدة طوال سنوات الحرب، وكان صادقاً فى تأييده للحلفاء، لأنه يعرف أن انتصار دول المحور يعنى نهاية حزب الوفد والحكم الدستورى والنظام الديمقراطى فى مصر. فالحاكم الجديد - لو قدر لألمانيا وإيطاليا احتلال مصر - كان سيتعاون مع الملك فى إقامة نظام فاشستى. وهذا يثبت أصالة الفكرة الدستورية والإيمان بالديمقراطية عند الوفديين، ولكن الإنجليز لم يقدروا للنحاس فضله عليهم وأداروا له ظهرهم عندما شعروا أن الحرب على وشك الانتهاء لصالحهم. لقد أدلى النحاس بحديث لمجلة «المصور» عام ١٩٤٤ قال فيه: «جاء الوقت لمحاسبة الأصدقاء»، وكان يقصد أن ترد إنجلترا الجميل وتعطى مصر حريتها. والحقيقة أن الروح الانتهازية التى قامت عليها السياسة الإنجليزية الاستعمارية أضرت بريطانيا، وكانت سبباً فى خروجها من المنطقة وفقدانها لمستعمراتها الشاسعة. وأعتقد أن الإنجليز شاركوا فى تدبير حريق القاهرة فى يناير سنة ١٩٥٢ للتخلص من النحاس. فى ذلك الوقت كنت موظفاً فى وزارة الأوقاف وأسكن فى العباسية، ولم أكن قد تزوجت بعد، وعندما ذهب فى صباح ذلك اليوم إلى مقر عملى شاهدت المظاهرات، وعند خروجى من العمل فى طريقى للمنزى رأيت الحرائق تعم القاهرة. اندلعت الحرائق بشكل بدائى، أما

أول حريق فقد وقع في كازينو بديعة. حيث كان أحد الضباط يجلس مع راقصة، يتناولان الشراب، وجرت مشاجرة انتهت بحرق الكازينو. واستغل الإنجليز حالة الفوضى وساعدوا جمعية «إخوان الحرية»<sup>(١)</sup> على نشر المزيد من الفوضى والحرائق، وأمدوهم بمواد أحرقوا بها محلات شيكوريل. واشترك في الحرائق أعداء الوفد خاصة الإخوان والماركسيين وحزب مصر الفتاة. فأثر الإخوان المسلمين ظاهر في حرائق ملاهى شارع الهرم، وأثر مصر الفتاة ظاهر في حرائق المحلات الأجنبية، لأن أحمد حسين كان ينادى بمقاطعتها. وأستبعد أن يكون للملك فاروق يد في حريق القاهرة لأنه هو نفسه كان معرضاً للحرق، وأظنه هرب في ذلك النهار الملتهب.

لا شك أن ثورة ١٩١٩ كان لها تأثير هائل في تاريخ مصر المعاصر، ولها إنجازات ونتائج ضخمة على كل المستويات: ألغت الامتيازات الأجنبية، أقامت حكماً ديمقراطياً ودافعت عنه بقدر ما تستطيع، أوجدت رأسمالية وطنية، وموسيقى مصرية، وفناً مصرياً، ونهضة نسائية، ووحدة وطنية، وحرية لم نر مثلاً. قبل ثورة ١٩١٩ كان الإنجليز هم كل شيء وأهم شيء في مصر، وبعدها أصبح للشعب دور مهم. أما آخر خدماتها فهي أنها بذرت بذور ثورة يوليو ١٩٥٢، وساهمت في قيامها بشكل غير مباشر.

\* \* \*

رغم إيماني الشديد بثورة ١٩١٩ وإنجازاتها، فإن رواياتي ابتداء من «القاهرة الجديدة» كانت تحتوي على انتقادات حادة للمجتمع المصري في الفترة من ١٩١٩ إلى ١٩٥٢. ففي «القاهرة الجديدة» انتقدت فساد الطبقة السياسية الحاكمة، وأنا لم أكن أنقد ثورة ١٩١٩، بل أنقد أوضاعاً فاسدة، مثل إهمال الجانب الاجتماعي والتركيز على القضية الوطنية فقط، ونقدت الثورة المضادة التي أرادت أن توجه ثورة ١٩١٩ لتحقيق مصالحها وأغراضها الخاصة. وللأسف فإن الذين استفادوا من ثورة ١٩١٩ هم أعداؤها، وعندما تحسب المدة التي أمضاها الوفد في الحكم تجدها قليلة جداً، في حين أن القوى الأخرى هي التي

---

(١) جماعة «إخوان الحرية» هي جماعة أنشئت في مصر في الأربعينيات من بعض المثقفين المصريين المتعاونين مع الإنجليز، وكان هدف هذه الجماعة هو محاربة الشيوعية ونشر الدعاية للإنجليز في صفوف الرأي العام. وتستحق هذه الجماعة دراسة علمية دقيقة تقوم على الوثائق الثابتة وتكشف عن أسماء المشتركين فيها وبعضهم من الأسماء المعروفة في الساحة الثقافية في ذلك الوقت. «ر. ن»

تمكنت طوال الوقت من البقاء فى الحكم لفترات طويلة. وفى ذروة الصراع نسوا الجانب الاجتماعى، وكان شغلهم الأول هو الاستقلال والدستور والديمقراطية. كانت الأوضاع الاجتماعية سيئة، والبعض يموت من الجوع، فأردت أن ألفت الانتباه إلى هذا الجانب خاصة أننى كنت أبنى أفكار الجناح اليسارى فى الوفد.

إن تأثير ثورة ١٩١٩ لم يقتصر على مصر فقط بل تجاوزها وانتشرت عدواها فى الإمبراطورية البريطانية. خاصة أنها كانت ثورة شعبية وطنية، قامت بدوافع الأفكار والمبادئ التى أرساها جيل الاستنارة من تلاميذ الإمام الشيخ محمد عبده. وتأثير ثورة ١٩١٩ فى تاريخ الشعب المصرى أضخم منه فى تاريخ مصر نفسها، لأن شعب مصر لم يثبت ذاته بالكامل مثلما أثبتتها فى ثورة ١٩١٩. فالحركات الثورية فى تاريخنا دائماً ما يقوم بها الصفوة، ولكن هنا - فى ثورة ١٩١٩ - تحمل الشعب كل شئ وارتفع فوق الخلافات القبلية والدينية والحزبية. وهذا هو الفرق الذى لا بد أن نتبه إليه. أكاد أقول إنها كانت ثورة حرية شاملة سياسية واجتماعية وإنسانية. ولذلك عندما تقرأ رواية «الثلاثية» تجد مفهوم التحرر الشامل بعد الثورة، والكل يحاول أن يتحرر حتى من مفهوم الجنس، وهذه النظرة - فى الرواية - لم تكن مفتعلة، بل جاءت بدون تخطيط، لأنها كانت نابعة من إحساسى الطبيعى فى ذلك الوقت بمفهوم الحرية الشاملة، وهو المفهوم الذى خلقتة الثورة فى نفوس الجيل الذى شارك فيها والجيل الذى يليه.

قلت إن حزب الوفد انتهى دوره الرسمى ورسالته الأولى عام ١٩٣٦ بتوقيع المعاهدة، ومن غباء الملك أنه أوجد للوفد وظيفة جديدة ورسالة إضافية، هى حماية الديمقراطية، فتحول الوفد إلى حامى حمى الديمقراطية. بعض الوفديين المتعصبين قالوا «إن الشعب مات بموت الوفد»، وقد عبرت عن هذا رأى على لسان «رأفت أمين» أحد شخصيات رواية «ميرامار». ولو سألتنى عن رأى الشخصى كوفدى فى هذه العبارة أقول إنها ليست صحيحة تماماً، لأن هناك فئات من الشعب نمت وازدهرت لأول مرة بعد موت الوفد، مثل العمال والفلاحين. والشعب الذى يقصده «رأفت أمين» هو القوى التى كانت تدافع عن الديمقراطية والحرية، وترفع شعار سعد زغلول الذى يقول: «الأمة فوق الحكومة». وهى بالنسبة له كل الشعب، وهذا غير صحيح. لقد استمر حب الوفد، كحزب وطنى قديم، حياً فى قلوب الكثيرين بعد ثورة يوليو ١٩٥٢. وتجلى ذلك فى جنازة مصطفى النحاس عام ١٩٦٥، وكانت تلك الجنازة مفاجأة للجميع. لقد ظننت أن جنازة النحاس سوف تقتصر على الأصدقاء القدامى، ثم هالنى ما رأيت، لقد انضم إلى الجنازة آلاف الناس، منهم من

كان في قلبه الحب والتعاطف القديم مع الوفد، ومنهم من أضير في العهد الناصري فشارك في الجنازة كنوع من الاحتجاج على الثورة.

بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ انقسم الوفديون، قسم عاش يتغنى بالحلم القديم مثل كل العجائز الذين يعيشون على الذكريات، وقسم أكثر واقعية استطاع أن يفهم الموقف السياسي الجديد واستوعبه ورأى أن الديمقراطية التي ينادى بها الوفد لا تتعارض مع مبادئ ثورة يوليو، وأعتقد أن القسم الثاني محق في رأيه. فمن الممكن أن يستمر القطاع العام في ظل الاقتصاد الحر على أن يكون هذا القطاع مختصاً بالصناعات الاستراتيجية. أي أنه من الممكن إحياء مبادئ الوفد الديمقراطية من جديد في ظل الثورة، بل إن التحول العالمي الجديد وانتشار المبادئ الديمقراطية في العالم يمثل قوة دفع للوفد الجديد، وفي إمكانه أن يصبح حزب المستقبل بعد أن كان مجرد ذكريات من الماضي. ورغم ميلاد حزب الوفد الجديد. وهو أقرب لليمين بعكس «الوفد القديم» الذي كان منقسماً إلى يمين ويسار، فإنه لم يستطع حتى الآن تكوين قاعدة شعبية عريضة، لتأثر الناس بالنظام الشمولي وسلوكياته. وللأسف الشديد ليس هناك اتجاه سياسي استطاع أن يكون قاعدة شعبية سوى المتطرفين الدينيين. هؤلاء فقط هم الذين استطاعوا إنشاء قاعدة شعبية تنطبق عليها تعريفات القاعدة الشعبية المتحمسة للفدائية، أما بالنسبة للقوى الأخرى فإننا نجد أن كل اتجاه أو حزب منغلِق على ذاته وغارق في مشاكله الخاصة.

\* \* \*

إن التطورات التي حدثت في العالم مؤخراً ألغت الفروق الواضحة بين الشرق والغرب، واليمين واليسار، وجرى تداخل على نطاق واسع بين المبادئ، لدرجة أصبحت معها الفروق الفاصلة شكلية. فمن الممكن أن تتجمع أحزاب مثل التجمع، والوطني، والوفد، والعمل (بدون الإخوان المسلمين المتحالفين معه) والناصرى، في حزب واحد، لأن تصورهم جميعاً للحكومة أو نظام الحكم واحد وهو الحكم المدني. أما حكاية القطاعين العام والخاص فقد أصبحت شكلية بدورها، والصراع الأساسى اليوم على كرسى الحكم نفسه. وأرى ضرورة أن تسمح الحكومة بقيام حزب ديني يكون مقابلاً للحزب المدني، لأن الحكومة إذا لم تعطيهم هذا الحق، فسيحاولون هم استخلاصه بالقوة، وسيزيد ذلك من قوة التطرف، خاصة أن الجماعات الدينية لديها أساليب لاختراق المؤسسات العامة، ومن الممكن أن يخترقوا الشرطة والجيش مثلما اخترقوا الجامعة، بل أعتقد أنهم وصلوا إلى الشرطة والجيش، بدليل أن قتلة السادات كانوا ضباطاً في الجيش متمين لجماعة «الجهاد»

والجماعة الإسلامية. والأحزاب التى لها صلة بالدين ليست جديدة على العالم، ففى الدول الأوروبية أحزاب تحرص على الوصف الدينى حتى فى اسمها، مثل الحزب الديمقراطى المسيحى فى ألمانيا، وأرى أنه لو سمح بقيام حزب على أساس دينى فى مصر فإن ذلك سيحد من تطرف الجماعات الإسلامية. وألاحظ أن هذه الجماعات عندما وصلت إلى السلطة فى إيران شكلوا برلماناً، وبدأت تظهر لديهم عناصر ديمقراطية تؤمن بالحوار، وأصبح الوضع اليوم مختلفاً عما كان عليه حين وصل الخومينى إلى السلطة وأطاح بالشاه.

\* \* \*

لقد تعرض الدكتور لويس عوض فى كتابه «أوراق العمر» لروايتى «الثلاثية»، وانتقدنى بشدة لأننى - حسب زعمه - أسقطت كثيراً من أحداث ثورة ١٩١٩ ولم أعطها حقها. وأنا مندهش أن يخرج هذا رأى من ناقد كبير مثل الدكتور لويس عوض لسبب بسيط، وهو أن «الثلاثية» ليست رواية تاريخية عن ثورة ١٩١٩، وإنما هى مجرد عمل فنى روائى تدور أحداثه فى تلك الفترة التى جرت فيها وقائع الثورة. ولذلك لم أتناول أحداثها بالتفصيل، لأن هذه مهمة المؤرخ وليس الروائى. لقد أسقطت أجزاء هامة من أحداث الثورة وتخطيطها، لأن اهتمامى الأول كان بالخيط الروائى وليس التاريخى. ولكن هذا لا يمنع أن الثورة كانت من العوامل الرئيسية المؤثرة فى الأحداث، ولا يمنع كذلك من أننى تعرضت لها من وجهة نظر شخصيات الرواية. وبغض النظر عن انتمائى لثورة ١٩١٩ وإيمانى بها، فإننى كنت أضع نصب عيني طوال الوقت أننى أديب وروائى أكتب فناً لا تاريخاً.

\* \* \*

فى فترة من الفترات خطرت لى فكرة أن أكتب رواية عن ثورة ١٩١٩ تكون الثورة هى البطل فيها. بل خطر لى - كما قلت لك - أن أكتب تاريخ مصر كله من خلال سلسلة أعمال روائية تاريخية أشبه بما فعله جورجى زيدان. وبدأت هذه السلسلة برواية «كفاح طيبة» لكننى توقفت بعدها، لأننى وجدت أنها ستعطلنى عن عملى الأسمى، وهو الرواية الفنية، ذلك أن الرواية التاريخية تحتاج إلى جهد كبير من البحث والدراسة وتجميع المعلومات. وربما عاودنى الحنين إلى الرواية التاريخية - بعد الأعمال الفرعونية الثلاثة الأولى - لمرة واحدة فى رواية «العائش فى الحقيقة» التى تناولت فيها شخصية أختاتون.

\* \* \*

ويبدو أن الدكتور لويس عوض افترض في «الثلاثية» أنها رواية عن ثورة ١٩١٩، وهو افتراض لا أسامحه عليه، لأنه ناقد كبير، والمفترض أن يفهم مغزى الرواية ودوافعها ولا يهاجمها على أساس افتراض - من عنده - ليس له أساس من الصحة، ومحاسبتى تاريخياً على رواية غير تاريخية فيه جور وظلم، لأنه هنا لم يفرق بين المؤرخ والفنان. فالمؤرخ عندما يتناول حدثاً تاريخياً مثل ثورة ١٩١٩، فإنه مطالب بأن يهتم بكل أحداثها ويظهر كل تفاصيلها وجوانبها وذلك من خلال الوثائق والكتب والدوريات والأحاديث والشهادات. وبعد جمع المعلومات يبدأ فى تحليلها وتفسيرها بشكل موضوعى، هذا هو عمل المؤرخ. أما الفنان أو الروائى فمهمته تختلف عندما يتناول حدثاً تاريخياً، وهناك عدة أنواع من الرواية التاريخية. نوع يغوص فى أعماق التاريخ، وهو أقرب ما يكون إلى الوقائع ولا يأخذ من الأدب إلا أسلوب العرض، ويمثل التاريخ فيه نسبة ٨٠٪، وأقرب الأمثلة إلى هذا النوع روايات جورجى زيدان. ونوع آخر يجعل من التاريخ مجرد إطار وينشئ أحداثاً وعلاقات وشخصيات، ليس لها علاقة بالتاريخ، هذا ما فعلته فى «الثلاثية». حيث كانت ثورة ١٩١٩، وظروف المجتمع المصرى وقتذاك، مجرد إطار وخلفية للأحداث المتصلة بأسرة السيد أحمد عبدالجواد. حتى الروايات التاريخية الفرعونية التى كتبها، كان عندي فيها مساحة من الخيال، وامتلكت حريتي فى المساحة الغامضة من الأحداث، التى ليس لها أصل ثابت فى التاريخ، وحاولت استكمالها بخيالى. الرواية الوحيدة التى التزمت فيها بالأحداث التاريخية التزاماً أميناً هى «كفاح طيبة». نوع ثالث من الرواية التاريخية لا يأخذ من التاريخ سوى اسمه، وتأخذ هذه الرواية قالب القصة أو المسرحية الفلسفية، وأقرب مثل إليها مسرحية «كاليجولا» لألبير كامى.

الدكتور لويس عوض هو الناقد الوحيد الذى أثار هذا الموضوع عن التفاصيل التاريخية لثورة ١٩١٩ فى «الثلاثية»، بينما كان ما قصده من كتابتها قد وصل إلى عقول الناس وقلوبهم بشكل واضح وجميل، وهذا هو الأهم والأبقى عندي.



## الفصل الرابع عشر

### ثورة يوليو ١٩٥٢

اجتماعات الضباط الأحرار في قهوة عرابي - ثورة يوليو لم تخطر على ذهني ولم أتوقع قيامها - صباح يوم الثورة تعطلت خطوط الترام فظننت أن أنصار اللواء محمد نجيب مزيون احتجاجاً على انتخابات نادي الضباط - توقعت تدخل الإنجليز لقمع الثورة كما فعلوا مع أحمد عرابي - انتقدت الثورة لأنها تنكرت للديمقراطية وحزب الوفد - لو انضم عبد الناصر للوفد لتغير تاريخ مصر إلى الأفضل - في أزمة مارس كنت متعاطفاً مع محمد نجيب - إعدام العاملين خميس والبكري لم يكن قراراً عادلاً - في عام ١٩٥٦ اكتشفت أننا تعرضنا لهزيمة عسكرية وأن أوهم النصر صنعها الإعلام وحده - خسائر مصر بسبب تأميم القناة كانت فادحة - عبد الناصر أخطأ عندما اتجه للكتلة الشرقية واصطدم بالولايات المتحدة، من أكبر أخطاء الثورة اعتمادها على الأسلوب الحماسي وابتعادها عن التخطيط العلمي، أيدت الوحدة مع سوريا وسمعت خبر الانفصال في صالون حلاقة، فرحتي بثورة اليمن ورحلتي إلى صنعاء، في اجتماع مع بعض قيادات المخابرات قلت لهم: لا بد أن ننسحب من اليمن فوراً.



■ في هذا الفصل يتحدث الكاتب الكبير نجيب محفوظ عن ثورة ١٩٥٢ التي لم يكن يتوقع قيامها، ويقول رأيه بصراحة في عبد الناصر وأسباب اختلافه معه في أزمة مارس، وفي معارضته لبعض أساليب العنف التي استخدمتها الثورة، وفي إعدام العاملين: خميس والبكري، وفي حرب ١٩٥٦، وفي تأميم القناة، وفي اتجاه عبد الناصر للمكتلة الشرقية، وفي الوحدة مع سوريا ثم الانفصال عنها، وفي ثورة اليمن. كما يتحدث نجيب محفوظ عن بعض أخطاء ثورة يوليو، ويتوقف أمام ذكريات خاصة جداً مع الثورة.. ■

نجيب محفوظ: لم يخطر على ذهني مطلقاً أن يقوم الجيش المصري بانقلاب عسكري يطيح فيه بالحكم الملكي عام ١٩٥٢، وذلك على الرغم من أن سهرات مقهى «عرايى» بالعباسية قبيل الثورة كانت تضم عددًا من الضباط الأحرار، منهم عبد اللطيف البغدادي وجمال سالم. وهذان الضابطان لم ألتق بهما لأنهما كانا يفضلان الذهاب إلى المقهى طوال أيام الأسبوع باستثناء يوم الخميس موعد سهرتنا الأسبوعية، حيث الازدحام والصخب، حتى أننا كنا نسميه «يوم الزبطة». كان البغدادي وجمال سالم يجلسان طويلاً مع شلتنا، ومع ذلك لم يشعر أحد بالتحركات التي تتم داخل الجيش، أو بأن هناك تخطيطاً للثورة، وكان عبد الحكيم عامر يرتاد المقهى أحياناً.. وأذكر شخصية من شخصيات «شلتنا»، هي شخصية كنا نسميها باسم المعلم «كرشو»، وهو أحد أصدقاء شلة العباسية، ومن رواد سهرة «عرايى» وقد تخرج في مدرسة الزراعة العليا، وكان من بين الذين أعطتهم الحكومة عشرين فداناً لزراعتها في الثلاثينيات، وكان يتمتع بالثراء خاصة أنه ورث عن والده عمارتين، وقد أخبرني «المعلم كرشو» ذات يوم أنه دخل المقهى فوجد «عبد الحكيم عامر» يجلس بها. وكانت تربطهما - عامر وكرشو - صداقة قوية، وكان «عامر» يومئذ يجلس في المقهى في انتظار صديقه الضابط جمال عبد الناصر، وعن طريق «عامر» تعرف المعلم «كرشو» على عبد الناصر وجلس معه عدة مرات، وكان من بين الضباط الأحرار أيضاً «سعد حمزة» الذي اعتاد - بخلاف البغدادي وسالم - على حضور سهرة الخميس، وظل في صفوف الجيش حتى بلوغه سن التقاعد، فعينه رئيساً لإحدى المدن، وكانت والدته وفدية

متطرفة، وشغلت منصب وكيله هيئة السيدات الوفديات وأسمت ابنها «سعدًا» على اسم سعد زغلول، أما والده فكان من رجال الداخلية الكبار، وكان يضطر أحيانًا للقبض على زوجته عندما تخرج فى المظاهرات المؤيدة للوفد. وورث «سعد حمزة» عن والدته حب الوفد، ويوم محاولة اغتيال مصطفى النحاس وجدته فى قمة الحزن والألم، كان هؤلاء الضباط يتحدثون معنا فى كل شئون الحياة، ونعرف أسرار حياتهم الشخصية، ولكننا لم نعرف أبدًا السر الخطير الذى يدبرونه فى الخفاء.

بعد حريق القاهرة والفوضى الشاملة التى سيطرت على البلد، توقعت حدوث حركة اغتيالات واسعة لكبار السياسيين، أو أن تقوم - على أكثر تقدير - ثورة يشترك فيها أحمد حسين والشيوخ والجنح اليسارى للوفد، ذلك أن الحالة التى وصلت إليها مصر فى تلك الفترة كانت تنذر بعواقب وخيمة، وكل الدلائل كانت تؤكد أننا مقبلون على تغيير كبير، ولم أتوقع أبدًا أن يأتى هذا التغيير من جانب الجيش.

وصباح يوم الثورة خرجت من بيتى متوجهًا إلى عملى فى وزارة الأوقاف، ولفت نظرى أن خطوط الترام متوقفة عن العمل على غير العادة، فسألت بائع الصحف عن ذلك، فأخبرنى بأن الجيش قام بعمل «إضراب» فى العباسية، وتوقعت وجود حركة «تمرد» فى صفوف الجيش احتجاجًا على تدخل الملك فاروق فى انتخابات نادى الضباط، وأن أنصار اللواء محمد نجيب الذى نجح فى الانتخابات ضد مرشح الملك، اللواء حسين سرى عامر، قاموا بهذا الإضراب للتعبير عن احتجاجهم لا أكثر. وأثناء مرورى فى شارع الشرفيين - حيث مبنى الإذاعة القديم - لفت نظرى كذلك وجود دبابه تقف فى مواجهته، ولما وصلت إلى مبنى وزارة الأوقاف، توجهت إلى مكتب سكرتارية الوزير، وفور دخولى بادرنى عبد السلام فهمى بسؤالى عما إذا كنت سمعت الإذاعة اليوم. ولما أجبت بالنفى، أخبرنى بأن الجيش قام بعمل انقلاب، وأنه أذاع بيانًا، وحكى لى عن التفاصيل، فلم أزد على أن قلت له «يا خبر أسود»!! فقد تداعى إلى ذهنى فى تلك اللحظة أحداث الثورة العربية، وكان لدى ظن أكيد بأننى فى أثناء عودتى إلى البيت بعد انتهاء موعد العمل، سأجد الجيش البريطانى فى شوارع القاهرة، بعد أن يكون قد قضى على الانقلاب العسكرى وقادته، وانتابتنى حالة من القلق الشديد على مصير البلد.

وعدت إلى البيت، ولم يحدث شىء مما توقعته، ومرت عدة أيام، ولم يتدخل الإنجليز، وكانت كل الدلائل تشير إلى نجاح حركة الجيش، خاصة بعد ما تأكد لنا أن الولايات المتحدة

الأمريكية لا تعارضها، ففي تلك الأثناء انتشرت شائعات بين الناس تقول إن الأمريكان يقفون وراء الثورة، وذهب البعض إلى القول إن حركة الجيش ما هي إلا مؤامرة من تدبير المخابرات الأمريكية، وأن قادتها ما هم إلا عملاء لها. لم أصدق هذه الشائعات، وإن كنت أميل إلى وجود تنسيق ما بين حركة الجيش والأمريكان، ذلك أن مصالحهما اتفقت في تلك الظروف التاريخية على التخلص من الاستعمار الإنجليزي وإحداث تغيير في المنطقة.. وكان هذا التنسيق من أسباب نجاح الثورة، وكان هو نفسه السبب الرئيسي في إخفاق ثورة عرابي، ذلك أن أحمد عرابي اعتمد على تأييد الشعب، واصطدم بالقوى الاستعمارية دون أن يكون له سند قوى يحمي ظهره حتى لو كان تركيا المريضة.

كانت هناك أسباب عديدة جعلتني أستبعد قيام الجيش بتلك الحركة التي قام بها، أهمها أن الجيش المصري كان على ولاء كامل للملك فاروق، أو هكذا كنت أظن، وأنه بعيد عن السياسة، ولم يحاول التدخل فيها منذ فشل ثورة «عرابي». ثم إن ثورة «عرابي» نفسها كانت ماثلة في الأذهان أمام الجيش وأمامنا كشعب، وأي تفكير في حركة مماثلة يمكن مواجهتها بنفس القوة الغاشمة، ومن الممكن أن يكون مصير قادتها هو نفس مصير عرابي وزملائه، خاصة مع وجود حوالي ٩٠ ألف جندي بريطاني مزودين بأحدث الأسلحة في منطقة القتال، وكنت على يقين في الوقت نفسه من وجود عناصر وطنية في صفوف الجيش، ومنها من تعرض للأذى بسبب تأييده لحزب الوفد، ولكني لم أتوقع أن تقوم تلك العناصر بثورة.

في الفترة الأولى من عمر الثورة كانت مشاعري تنقسم بين الخوف على استقلال مصر، وبين الارتباب في الذين قاموا بها. ومع مرور الأيام بدأت مشاعري تتغير بعد ما وجدت أنها تسعى لتحقيق عديد من الآمال التي طالما حلمنا بها وتمنينا تحقيقها، مثل الإصلاح الزراعي، والاستقلال التام، وإلغاء الألقاب. وكان كل قرار من قرارات الثورة الإصلاحية يقربني لها ويملؤني حباً فيها يوماً بعد يوم، وقد لعب محمد نجيب دوراً كبيراً في تقريب الناس من الثورة والتفافهم حولها، بما كان يملكه من شخصية بسيطة ساحرة، تحمل في طياتها نفس الطابع الشعبي الذي ميز شخصية مصطفى النحاس، فمن اللحظة الأولى التي تراه فيها تشعر فيه بالزعامة، وذلك عكس جمال عبد الناصر الذي كان وجهه المتجه لا يوحى لك بزعامته. ولكنك لا بد أن تتغاضى عن هذا التجه عندما ترى أعماله وقراراته وتصرفاته العظيمة.

كان المآخذ الأول لى على الثورة هو تنكرها للديمقراطية ولحزب الوفد الذى ظل يجاهد فى سبيل مصر واستقلالها من عام ١٩١٩ حتى ١٩٥٢، وكنت أتعجب من استعانة رجال الثورة بأعداء الوفد والحاquدين عليه من أمثال على ماهر ورجال الحزب الوطنى. هؤلاء الذين جعلهم الوفد من الناحية الشعبية بلا قيمة أو وزن، وما كان فى استطاعتهم أن يصلوا إلى السلطة إلا بالانقلاب. كانت الثورة تحتاج فى بدايتها إلى أساس شعبى، وكان الأساس الشعبى الوحيد هو الوفد. وقد يقال إن الوفد فى ذلك الوقت ضم بين جنباته كثيرًا من الفاسدين والإقطاعيين والمتنفعين، ولكنه فى الوقت نفسه كان يضم شبابًا وطنيًا متحمسًا، ينادى بالاشتراكية والعدالة، وهى نفس المبادئ التى جاءت الثورة لتحقيقها. كان هؤلاء يصرخون بأعلى صوتهم من خلال جريدة «صوت الأمة» الوفدية، والتى كان الدكتور محمد مندور والدكتور عزيز فهمى من أبرز محرريها، فكيف تستبعد الثورة حزب الوفد بكل تاريخه ورموزه وشبابه الوطنى، وتلقى بهذا الحزب الوطنى بعيدًا كأنه شىء نكرة أو زائد على الحاجة؟! لقد أآمتنى كثيرًا المعاملة التى لقيها الوفد وزعيمه مصطفى النحاس على يد قادة الثورة، ولم أجد لها ما يبررها غير الصراع على السلطة، هذا الصراع الذى ظهر بعد ذلك جليا فى أحداث مارس ١٩٥٤، وفى الصدام مع الإخوان المسلمين.

كنت أتصور أن تنفيذ الثورة من القاعدة الشعبية العريضة للوفد من خلال الهيئات التى كونتها مثل هيئة التحرير والاتحاد القومى، وتنفيذ كذلك ممن يقع عليهم الاختيار من الوطنيين المستقلين، فأى حزب كان سينضم له محمد نجيب أو جمال عبد الناصر لا شك أنه كان سيحقق له الأغلبية الساحقة، فما بالك لو كان هذا الحزب هو الوفد؟!

وفى تقديرى لو أن الثورة اتجهت إلى هذا المنحى لتغير تاريخ مصر إلى الأفضل. ذلك أن الثورة ما كان يمكن فى وجود هؤلاء - من زعماء الوفد والمستقلين الوطنيين - أن تتجه إلى الأسلوب الفردى العنيف الذى مالت إليه، وتتجاهل الديمقراطية، وأغلب أخطاء الثورة كان سببها غياب الديمقراطية والمشورة، وأحيانًا كانت الثورة تلقى بالوطنيين المخلصين فى المعتقلات لمجرد إبدائهم رأيًا أو نصيحة، مثلما حدث للدرداش أحمد، وكان وكيلًا لوزارة الصحة وعضوًا بالاتحاد الاشتراكى، وكل ما فعله أنه نبه إلى خطر بحيرة السد، وكيف أنها من الممكن أن تسبب فى انتشار البلهارسيا فى صعيد مصر، ومن ثم يكون واجبنا أن نلتنف إلى هذا الخطر، ونعمل على مقاومته، والوقاية منه قبل ظهوره واستفحال أمره. وكان مصير الرجل أن ألقى فى غياهب المعتقل لمدة عامين، تعرض

خلالهما للذل والهوان، وخرج بعدهما كارهاً للدنيا، وقد عرفته بعد خروجه من السجن، عندما أصبح من رواد جلسة توفيق الحكيم في مقهى بترو، وتألمت كثيراً لما جرى له.

كانت علاقتي الوجدانية بالثورة تنقسم ما بين التأيد والحب من جهة، والنقد الشديد بسبب تجاهلها للديمقراطية وللوفد، وميلها إلى الفردية والصراع على السلطة من جهة أخرى، ولم أتغاض عن هذه الانتقادات من جانبي للثورة، إلا في فترة محددة، وهي فترة العدوان الثلاثي على مصر. فقد أيدت الثورة تأييداً مطلقاً، ونسيت وفديتي، وتجاهلت نقدي لأساليبها الفردية، وأغمضت عيني عن صراعات الحكم.. نسيت كل شيء وذهبت إلى أحد المعسكرات الشعبية التي أقامتها الثورة في مناطق القاهرة لتدريب المتطوعين على حمل السلاح لمقاومة العدوان، تدربت بجدية حتى أتقنت استعمال البندقية «البلجيكي» وإلقاء القنابل اليدوية.

وكانت أول مشكلة حقيقية تواجه الثورة هي ما سمي «بأزمة مارس عام ١٩٥٤»، عندما حدث صراع على السلطة بين فريق عبد الناصر وأنصار محمد نجيب، ولقد انحزت إلى جانب محمد نجيب لسبب أساسي، وهو أنه كان مع حزب الوفد والديمقراطية، وبسببهما فقد السلطة، وفقدت أنا الأمل الذي راودني بأن الثورة سوف تتجه نحو الديمقراطية والاستعانة بالوفد، وحزنت لنجاح فريق عبد الناصر في الإطاحة بمحمد نجيب، ولذلك اتسمت مشاعري في ذلك الوقت بنوع من السلبية تجاه عبد الناصر بعد هذا الحادث، ولم أتعاطف كثيراً مع عبد الناصر عندما جرت محاولة اغتياله في ميدان المنشية بالإسكندرية سنة ١٩٥٤، ولكنني في الوقت نفسه لم أتعاطف مع الإخوان المسلمين، إنني أعترض عليهم ولا أستبعد أبداً أن يكونوا هم بالفعل وراء محاولة اغتيال عبد الناصر، فتاريخهم في العنف راسخ ومعروف، كذلك لم أكن مرتاحاً للإجراء الذي اتخذه عبد الناصر بتصفية كل الأحزاب السياسية بعد نجاح الثورة واستثنائه للإخوان المسلمين من هذه التصفية، ولكنه عندما قام بتصفيتهم عقب حادث المنشية شعرت بالارتياح.

وكان من إجراءات الثورة التي لم أشعر نحوها بالارتياح، بل تألمت لوقوعها، حادثة إعدام العاملين خميس والبقري، فلم يتم إعدامهما بسبب ذنب اقترفاه ويستحقان عليه الإعدام، بل كان إعدامهما لمجرد تخويف الآخرين، وإرهاب كل من تسول له نفسه أن يقوم بمظاهرات احتجاج من أي نوع، فكانا هما كبش الفداء، وأرى أن إعدام خميس والبقري جريمة قتل ارتكبتها الثورة في حق اثنين من الأبرياء.

ومع ذلك عندما نقارن هذه الإجراءات والحوادث بما وقع من عنف وصدامات دموية في الثورات الكبرى مثل الثورتين الفرنسية والروسية، نكاد نسلم بأن ثورة يوليو كانت أقل الثورات عنفاً ودموية ، وهذه الروح السلمية للثورة عموماً تتفق مع طبيعة المصريين أنفسهم.

لا يوجد أحد من جيلى إلا وشعر بصدمة شديدة بسبب انفصال السودان، ذلك أننا عشنا - كما عاشت أجيال سبقتنا - ولدينا إيمان راسخ بأن السودان جزء من مصر، وأنهما لا يتجزآن، وطالما هتفنا لوحدة «وادي النيل». وضاعف من الصدمة معرفتنا برغبة الشعب السوداني في الوحدة إذا استمر محمد نجيب في الحكم، ولكن عندما تمت إزاحة نجيب طلبوا الحصول على الاستقلال عن مصر. ولو كان السودان مصرًا على الاستقلال من البداية، لخفف ذلك عنا وقع الصدمة، فنحن لا يمكننا حرمان شعب من هدف طالما سعيًا إليه - كمصريين - وقدمنا في سبيله الكثير من التضحيات، وهو الاستقلال.

كان تأميم قناة السويس من الأحداث التي هزت وجداني وانفعلت بها انفعالاً شديداً. لقد أشعل التأميم في نفسى مشاعر وطنية متدفقة، خاصة بعدما أعقبه من عدوان ثلاثى على مصر، مما جعلنا - كشعب مع الثورة - كلا لا يتجزأ، وهو الأمر الذى جعل عبد الناصر يتحول فى نظرنا - نحن المصريين - إلى زعيم، أما مشاعرى تجاهه فقد تحولت إلى الإيجابية والحماس وزاد تقديرى وحبى له إلى أقصى درجة. ولما هدأت الضجة وسكنت أعدت التفكير فيما حدث، وكان ذلك بعد عدة سنوات من العدوان. واكتشفت أننا أعطينا الموضوع أكثر مما يستحق، وأن ما قيل عن الانتصار العظيم للثورة، ما هو إلا انتصار ناقص صنعه الإعلام ووسائل الدعاية الجبارة، فمن الناحية العسكرية تعرضنا لهزيمة فعلية، وبعد نزول القوات المعتدية للأراضى المصرية فكر البعض من قادة الثورة فى اللجوء إلى السفارات الأجنبية بالقاهرة، وهناك من فكر فى الانتحار، ولولا تدخل الولايات المتحدة الأمريكية لتعرضت الثورة للتصفية. كانت أمريكا وقتذاك تسعى للسيطرة على المنطقة، واعتبرت تدخل إنجلترا وفرنسا بمثابة صدام مباشر مع مصالحها، فجاء تدخلها لصالح مصر، ولم يكن ذلك وقوفاً إلى جانب الحق، بقدر ما هو تأديب للإنجليز والفرنسيين أصحاب الإمبراطوريتين العظيمتين (سابقاً)، اللتين أصبحتا تعتمدان على أمريكا اقتصادياً، بعد أن انتهى عصرهما عقب الحرب العالمية الثانية. وعندما اصطدمت المصالح الأمريكية بعد ذلك بنفوذ عبد الناصر عملت على محاربته بعنف وكانت نكسة ١٩٦٧.

عاشت الثورة في أوام الانتصار الناقص بعد العدوان الثلاثي، ولم يدرك قادتها خطورة الموقف العسكري، وأهمية تقوية الجيش المصري حتى يصل إلى مستوى مطمئن من القوة والعتاد، ثم استيقظوا على الحقيقة المرة في عام ١٩٦٧.

\* على المستوى السياسي كان تأميم القناة خسارة فادحة لمصر، لأنه أدخلها في صدام مباشر مع القوى الكبرى. وكان الأفضل ألا نحاول استفزازها خاصة أن عظام الثورة كانت لا تزال لينة ولا تتحمل مثل هذا النوع من الصدام العنيف.

\* وعلى المستوى الاقتصادي خسرت مصر، ذلك أن موعد عودة القناة لمصر كان يحل في عام ١٩٦٨. ولو انتظرنا إلى هذا التاريخ ما اضطررنا إلى دفع تعويضات مالية، ولحصلنا على حقوقنا بدون الدخول في صدام عنيف مع الدول الاستعمارية، خسروا من ورائه الكثير.

ومن الأحداث الكبرى التي وقعت في المرحلة الأولى من عمر الثورة (١٩٥٢-١٩٥٦) صفقة الأسلحة التشيكية التي جعلت مصر تحول اتجاهاتها إلى الكتلة الشرقية. وفي اعتقادي أن هذه الخطوة - رغم أننا أيدناها عن جهل - أضرت بمصر، ذلك أن عبد الناصر كان يسير قبل هذه الصفقة في اتجاه نوع من التفاهم حول القضية الفلسطينية وإسرائيل، وحدث سوء تفاهم بينه وبين السفير الأمريكي بالقاهرة اعتبره عبد الناصر تجريحا له، فعدل عن اتجاهه واصطدم بالولايات المتحدة، فضنوا عليه بالمساعدات، ورفضوا تزويده بالسلاح، مما جعله يتجه إلى الكتلة الشرقية نكاية فيهم، وهو الموقف الذي زاد من تعقيد القضية العربية الإسرائيلية، خاصة أن عبد الناصر اتجه إلى القوة الأضعف. ولو كان عبد الناصر استمر في اتجاه التفاهم والمصالحة لو فر مليارات الدولارات التي ضاعت هباء، وآلاف الأرواح من خيرة شبابنا التي أزهرت على مدى ثلاثين عامًا، ولحصل العرب على حقوق ومكاسب لا يستطيعون الحصول عليها الآن، خاصة أن الإسرائيليين وقتذاك كانوا على أتم الاستعداد للتنازل عنها عن طيب خاطر.

من بين أخطاء الثورة أنها كثيرًا ما أهملت جانب التخطيط العلمي والدراسة، واعتمدت فقط على الأسلوب الحماسي في تنفيذ قراراتها، ولذلك فإن الثورة لم يكن لها - كما هو شائع - إيجابيات وسلبيات، بل الصواب - من وجهة نظري - أن لثورة يوليو سلبيات وإيجابيات سلبية، ذلك أنها حتى في أهدافها الوطنية النبيلة لتنمية مصر، انقلبت هذه

الأهداف إلى سلبيات، نتيجة سوء التنفيذ. فعلى سبيل المثال هناك القرار الخاص بمجانبة التعليم، والذي كان الهدف الأساسى من ورائه هو القضاء على الأمية والجهل، وهو هدف وطنى طالما حلمنا بتحقيقه. ولكن الأسلوب الذى تم به تنفيذ هذا القرار لم يكن دقيقاً، حيث فُتحت أبواب المدارس على مصراعيها بلا ضابط ولا رابط أو تخطيط محسوب لمستقبل التعليم فى مصر، من خلال خطة خمسية مدروسة، وكل ذلك أدى إلى زيادة نسبة الأمية. بل وتحول التعليم الآن إلى «تجهيل» بمصروفات باهظة، حتى أن الطالب ينفق حالياً عدة آلاف من الجنيهات سنوياً، وفى النهاية يتخرج بدرجة «جاهل»! لقد كان من الواجب على حكومة الثورة أن تضع خطة خمسية أولية تحدد فيها أعداد المدارس المطلوب إنشاءها، وأعداد الطلاب المطلوب تعليمهم، وكذلك نوعية التخصصات المطلوبة.. حتى يدخل الطالب المدرسة، ولديه ضمان بأن يجد مقعداً مريحاً، وأساتذة على درجة عالية من الكفاءة، ثم وظيفة مناسبة عندما يتخرج. أما حالة الفوضى والتكدس الشديد التى نعانى منها حتى اليوم فى مدارسنا فلا شك أنها نتيجة للأسلوب الخاطى الذى اتبعته الثورة منذ البداية فى إدارة العملية التعليمية.

مثال آخر، مشروع السد العالى، وهو من أعظم المشروعات الهندسية فى العالم، فإننا لم نفذ منه سوى مرحلة واحدة. وكان من المفترض أن تتبعها مراحل أخرى لنقل الطمي، وإنشاء «أهوسة» لمنع النحر وحفظ الشواطىء. وصحيح أن المشروع قدم نفعاً عظيماً للبلاد، ونالنا منه أكبر فائدة، ولكن كان من الممكن أن يتضاعف النفع وتكبر الفائدة، لو نفذنا المشروع طبقاً للدراسات العلمية الموضوعية، بدلاً من الاعتماد على الأغاني الوطنية والشعارات الحماسية. وللأسف امتد هذا الأسلوب الحماسى غير العلمى إلى الجيش. فلم تستفد الثورة من درس العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦. لأن من يقرأ شهادات كبار الضباط بعد هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ لابد أن يصاب بحالة من الدهشة أمام الفوضى التى لم يسبق لها مثيل فى صفوف الجيش. عندما قامت الثورة عام ١٩٥٢ أطلق قادتها تصريحات عن الجندى المصرى المهان - بمن فيهم الضباط - إبان العهد الملكى، وأن الثورة قامت لتتنصف هذا الجندى وترفع من شأنه حتى يكون بحق درعاً للوطن. ولكنهم بدلاً من أن يرفعوا من شأنه عن طريق التدريب وتوفير الرعاية والأسلحة المتقدمة، زادوا من المرتبات والحوافز والمعاشات، ولم يكن فى هذا إعلاء لقدر الجندى، ولم تكن هذه هى الطريقة السليمة للنهوض بالعسكرية المصرية.

وكان الأسلوب الحماسي أيضًا هو أساس سياسة عبد الناصر الخارجية. فقد تحول إلى محرر عالمي وفارس مغوار يقف إلى جوار الدول التي تجاهد في سبيل الحرية والاستقلال. وقد اكتسب عبد الناصر شعبية هائلة في دول العالم الثالث، ومازالوا حتى اليوم يتذكرونه ويتغنون باسمه، وحقق مجدًا شخصيًا لم يسبقه إليه زعيم آخر، ولكن مصر خسرت الكثير من جراء هذه السياسة. وأنا لست ضد مساعدة الدول الصغيرة في سبيل الحرية والاستقلال، ولكنني ضد أن نتحدى الدول الكبرى ونستفزها ونرسل شحنات أسلحة لمن سوف يستخدمها في مقاومة قوات هذه الدول الكبرى. أنا مع مساعدة دولة مثل تنزانيا، ولكن في حدود إمكانياتي وبما لا يتعارض مع مصالح الحيوة. وتوجد طرق عديدة للمساعدة، منها الوقوف مع هذه الدولة أو تلك عند عرض قضيتها في هيئة الأمم، ومنها إجراء مساع مع الدول الكبرى من خلال علاقاتي الطيبة معها في سبيل إقناعها بحق تنزانيا في الاستقلال.

لم أكن لألوم عبد الناصر على سياسته لو كانت لديه القوة العسكرية والاقتصادية التي تمكنه من مجابهة القوى الاستعمارية الكبرى وتحديها، أما وأنه لا يملك هذه القوة، فكان ينبغي له السير على المثل الشعبي المصري «على قد لحافك مد رجلك»! وأحب أن أسجل أنني لا ألوم عبد الناصر في وقوفه بجوار الدول العربية، خاصة موقفه المساند للشعب الجزائري الذي كان يسعى لنيل الاستقلال، لأنه لا ينبغي بأي حال لوم زعيم عربي في مساعدته لأشقائه، حتى فرنسا، وهي في قمة حقها على عبد الناصر وغيظها منه، كانت تجد له عذرًا في إمداد ثوار الجزائر بالعتاد والسلاح. ولكن أن يتبنى عبد الناصر كل مشاكل العالم الثالث ويحرص على مساعدة أي دولة من دوله، فهذا ما لم يكن في استطاعته، وما لم يكن ينبغي أن يفعله، وكانت نتيجة هذه التصرفات عقابًا قاسيًا لئلا هو ما جرى لنا في ٥ يونيو ١٩٦٧، وقد كان ما وقع لنا في ١٩٦٧ سببًا في هدم ما بناه عبد الناصر في سنوات طويلة، وما زالت مصر تعاني من آثاره حتى اليوم.

كان السبب الرئيسي الذي جاء بعبد الناصر إلى السلطة، هو سوء أوضاع الشعب المصري قبل ثورة يوليو عام ١٩٥٢، وكانت مهمته الأساسية أن يحسن من حال هذا الشعب الجائع الحافي الممزق، وأن يدخل به إلى طور الحضارة والتقدم من جديد. ولتحقيق هذه المهمة كان عليه أن يصلح علاقاته بالعالم الخارجي، حتى يتركوه ليعمل في هدوء بدون إزعاج أو مشاكسة، حتى وإن اقتضى الأمر التفاهم مع إسرائيل،

والارتباط بعلاقات حسنة مع الولايات المتحدة الأمريكية. وهذه العلاقات لم تكن تمنعه أبداً من مساعدة الدول التي كانت بحاجة إلى مساعدته والوقوف بجوارها، ولكن في نطاق هيئة الأمم وبأساليب دبلوماسية. أما سياسة المغامرة والاستفزاز فكانت نهايتها ما نعرفه جميعاً الآن. ومن يقرأ تاريخ مصر المعاصر يجد تشابهاً غريباً بين تجربة عبد الناصر وتجربة محمد علي. فكلاهما كان لديه فرصة نادرة للنهوض بمصر إلى مستوى حضارى هائل، وكلاهما حقق لمصر إنجازات عظيمة، وكلاهما لم يكتف بحدود مصر، بل امتدت أنظاره إلى المنطقة المجاورة، وكانت النتيجة اصطدامهما بالقوى الاستعمارية، ونهاية الحلم الكبير. كان محمد علي لديه فرصة لأن يجعل من مصر «يابان عصرها»، ولكن سياسته الخارجية كانت السبب في ضياع تلك الفرصة، وكذلك - فيما أتصور - كان عبد الناصر.

ويمكننا أن نستخلص نتيجة هامة من خلال هذه المقارنة، وهى أن الوطنية وحدها لا تكفى، ولا بد أن يصاحبها نوع من الخبرة فى إدارة الأمور واتخاذ القرارات. ولذلك كان لينين على حق عندما قال كلمته المشهورة بعد نجاح الثورة البلشفية: «الآن مهندس واحد خير من عشرين شيوعياً!». والمعنى أن الثورة بعد نجاحها لم تعد فى حاجة إلى ثوار ومقاتلين، فقد انتهى دورهم وانتهت مرحلتهم، بل تحتاج إلى مهندسين وفنيين وعمال، لأنهم أقدر على إفاة الثورة فى مرحلة البناء..

وكان ستالين أذكى من عبد الناصر فى إدارة الثورة الشيوعية، حينما رفض تصدير الثورة للخارج كما طلب تروتسكى، لأن الغرب لو شعر بخطورتها كان سيقف فى طريق انطلاقها. وبفضل فكرة الستار الحديدي نجح ستالين فى تكوين دولة عظمى، وتحويل روسيا من بلد فقير ضمن دول العالم الثالث الضعيف، إلى أحد القطبين الكبيرين اللذين سادا العالم سنوات طويلة. وليت عبد الناصر استفاد من تلك التجربة، وأقصد بها تجربة الستار الحديدي والتزام نوع من العزلة المقبولة لبناء الوطن من الداخل، وعدم التفكير فى تصدير الثورة إلى كل بلاد العالم الثالث.

ولا أبالغ عندما أقول إن مصر لا تحتاج الآن إلى زعيم من أمثال عبد الناصر أو سعد زغلول، لأن وجود مثل هذا الزعيم فى الظروف الراهنة يربك الأمور ويعطل الديمقراطية. ذلك أن حب الناس له سوف يجعلهم يتغاضون عن أخطائه حتى ولو كان من هذه الأخطاء فرض أسلوب الرأى الواحد، ووضع المعارضين فى السجون. إن مصر بحاجة الآن إلى

حاكم وطني مستنير لديه إجابة علمية واضحة عن هذا السؤال: ما هو دور مصر في هذا النظام العالمي الجديد؟!

كانت فرحتي لا توصف عندما عرفت بنبا قيام الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨. لقد تحمست لهذه الوحدة واستبشرت بها واعتبرتها الخطوة الأولى في سبيل تحقيق الوحدة العربية الكبرى، خاصة أنني في تلك الفترة كنت من أشد المؤمنين بفكرة القومية العربية، وضرورة الوحدة الاقتصادية والسياسية الشاملة بين البلاد العربية، باعتبارها الوسيلة الوحيدة للوقوف في وجه إسرائيل، والتصدي للهيمنة الغربية. وازددت استبشاراً وحماساً عندما قامت ثورة في العراق في نفس العام (١٩٥٨)، ولم يخامرني شك في أن الوحدة المصرية السورية إنما هي مجرد النواة الأولى لوحدة عربية شاملة.

وأذكر أنني غضبت مراراً من صديقي المرحوم عبد الحميد جودة السحار عندما كان يشكك في مصير الوحدة المصرية السورية، ويتحدثنا بقوله: إنها لن تفلح، وأن نهايتها قريبة. وكانت وجهة نظر السحار أن القوانين الاشتراكية التي أصدرها عبد الناصر وطبقها مباشرة على السوريين سوف تكون السبب الرئيسي لفشل الوحدة. ذلك أن السوريين وأهل الشام بصفة عامة يعيشون بشكل أساسي على التجارة، والقوانين الاشتراكية ستؤدي إلى كساد تجارتهم ووقف حالهم، وكان يؤكد لي أنه لمس ذلك بنفسه في زيارته لسوريا، حيث شعر بحالة واضحة من التذمر بين عدد كبير من السوريين. لم أصدق السحار ولم أقتنع بوجهة نظره، واستقر لدي يقين بنجاح الوحدة، ومصدر يقيني هو أن السوريين هم الذين عرضوا فكرة الوحدة وتحمسوا لها، ثم إن الفكرة نفسها ضاربة بجذورها في الفكر السوري وليست وليدة اللحظة، كما أن الظروف المحيطة بسوريا آنذاك كانت تدفعها إلى الوحدة وإلى التمسك بها. وبقدر ما كانت فرحتي بالوحدة شديدة، كان ألمي وحزني أشد عندما وقع الانفصال.

قليل في أسباب الانفصال ما قيل، ولكن الحقيقة المؤكدة أن المسئولية الكبرى في فشل الوحدة تقع على عاتقنا، ذلك أننا صددنا إلى سوريا أخطاءنا في تلك التجربة، ودخلنا فيها بدون تخطيط أو إعداد. وقد قال لي بعض الأدباء الذين كانوا موجودين في سوريا وقت الانفصال بمناسبة حضورهم لمهرجان أدبي، إن السوريين كانوا حانقين علينا بسبب تطبيق القرارات الاشتراكية عليهم، وكان لديهم شعور واضح بأن المصريين يعاملونهم كأنهم دولة خاضعة للاستعمار، وهو ما ألمهم وأصابهم بالإحباط. وانهارت الوحدة، وانهار

الحلم الكبير الذى عشت فيه وظننت فى لحظة ما أنه قابل لأن يصبح حقيقة واقعة ملموسة. ولحظة إعلان نبأ الانفصال كنت موجودًا فى صالون حلاقة بالإسكندرية، وسمعت من الراديو، فشعرت بهزة فى أعماقى وتشاؤم عارم، وكأن صعيد مصر هو الذى انفصل عنا وليست سوريا.

وإذا كانت القرارات الاشتراكية هى أحد أسباب الانفصال، فإن الأسلوب الخاطئ الذى طبقت به فى مصر كان أحد أسباب الأزمة الاقتصادية التى تعانى منها مصر الآن. والحق أنه عندما صدرت تلك القرارات كنت من أشد المتحمسين لها، ولقد اعتقدت أنها نقطة الانطلاق نحو تحقيق الاشتراكية. وبما أننى من أنصار هذا المبدأ أعلنت تأييدى وموافقتى على تلك القرارات، وفهمت من خلال البيانات والتصريحات المصاحبة لها، أنها قائمة على أساس تجميع كل قوى الإنتاج فى يد الدولة. وأن الهدف من ذلك هو زيادة الإنتاج والعدالة فى التوزيع، فملأتنى تلك القرارات حماسًا وتفانًا بالمستقبل، وكانت من الأحداث الكبرى فى حياتى. ولقت نظرى فى تلك الفترة أن الشيوعيين موجودون فى السجون، وتوقعت أن تقوم السلطة بالإفراج عنهم وتضعهم على رأس المؤسسات الاقتصادية فى الدولة لتنفيذ تلك القرارات، خاصة أنهم من أنصارها وأقدر الناس على المحافظة عليها. وهذا ما حدث بالفعل وأفرجت السلطة عن الشيوعيين، ولم تمر سوى فترة وجيزة حتى تولى بعضهم عددًا من المناصب القيادية فى المؤسسات الكبرى. ولكن بدأ اليأس يتسرب إلى نفسى بعد ما اكتشفت أن الموجودين فى المناصب القيادية والموكل إليهم إدارة القطاع العام يديرونه بعقلية الموظفين، وما أدراك ما عقلية الموظفين؟! لقد عملت فترة طويلة من حياتى كموظف فى مؤسسات حكومية وأعرف أسلوب الموظفين فى العمل، وكيف يكون الروتين والوساطة وشعار «يا بخت من نفع واستنفع» هى المبادئ الأساسية فى العمل الوظيفى فى الحكومة. لذلك لم أدهش للحال الذى وصل إليه القطاع العام فى مصر، والغريب أن عددًا لا يستهان به من الأشخاص الذين وضعتهم السلطة لإدارة القطاع العام وتطبيق الاشتراكية كانوا أبعد الناس عن الإيمان بها، ومنهم أصدقاء لى كانوا يجلسون معنا على المقهى، ويلعنون اليوم الذى دخلت فيه الاشتراكية إلى مصر.

وإذا كنت تحمست للتأميم وللقرارات الاشتراكية وللقطاع العام، فإننى فى الوقت نفسه استأت من مدى التأميم للصحافة وقطاع الثقافة بوجه عام، وكرهت سيطرة الدولة على المؤسسات الصحفية لما فيها من تقييد للحرية وقتل للديمقراطية. وأكاد أقول إن

نقطة الخلاف المزمنة بينى وبين ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ هى ما يتعلق بموضوع الديمقراطية والحريات، فكل الموضوعات بخلاف ذلك قابلة للنقاش.

لقد خرجت من تجربة فشل الوحدة مع سوريا وأنا أحمل فى نفسى قدرًا كبيرًا من الإحباط والتشاؤم، وبعد عام من الانفصال عاد إلى الأمل نفسه من جديد عندما قامت ثورة اليمن وقدمت مصر لها المساندة السياسية والعسكرية. تحمست لثورة اليمن كما تحمست للقرارات الاشتراكية فى بدايتها، وأيدتها كما أيدت عبد الناصر أمام العدوان الثلاثى على مصر. كان لحماسى لثورة اليمن أسباب:

أولها: أننى اعتبرت ثورة اليمن تعويضًا عما خسرناه فى سوريا بسبب الانفصال.

وثانيها: أن ثورة اليمن كانت بمثابة التأييد للثورة المصرية.

وثالثها: أننا نساعد فى إنشاء دولة عربية قوية وإخراجها من حالة التخلف والجهل التى عاشت فيها سنوات طويلة.

وفى أحد أيام عام ١٩٦٣ أبلغنى يوسف السباعى أن اسمى ضمن الوفد المصرى الذى سيسافر إلى اليمن، وكانت الحرب هناك وقتذاك قائمة. ولما حاولت الاعتذار لظروف صحية، حيث كان مرض السكر قد داهمنى عام ١٩٦٠، رفض السباعى قبول عذرى، وألمح فى حديثه معى، إلى أن اشتراكى فى هذه الرحلة قد تقرر برغبة من المشير عبد الحكيم عامر، فاستسلمت، وتحملت عذابًا لا يطاق طوال الرحلة.

وقد شعر السباعى بإحراج شديد لأنه ضغط على لىكى أسافر، وقال لبعض مرافقيه إنه فى شدة الخجل «فماذا سيقولون عني؟ هل جئت به لأقتله؟!».

استغرقت رحلة اليمن سبعة عشر يومًا، وبدأت من ميناء الأدبية على ساحل البحر الأحمر، حيث حملتنا سفينة إلى ميناء الحديد باليمن، وأمضينا فى رحلة الذهاب هذه أسبوعًا كاملاً، ومثله فى رحلة العودة، بالإضافة إلى ثلاثة أيام أمضيناها فى اليمن، والرحلة فى مجملها كانت مرهقة لى ولا تطاق. وفى رحلة الذهاب كان ظنى أن حرب اليمن انتهت والأمن هناك مستقر، وإلا فكيف يجرؤون على إرسال وفد مدنى إلى جبهة قتال؟. وفى صنعاء ذهبت لزيارة بعثة الموظفين المصريين التى أرسلتها مصر لتساهم فى إنشاء إدارة حكومية منظمة فى بلد لم يكن يعرف نظام الإدارة حتى ذلك الوقت. وسهرت فى ليلة قمرية

مع أفراد البعثة، ودار بينى وبين المشرف على البعثة «على الجمال» حوار طويل بدأت به أنا بإبداء ملاحظاتي على استتباب الأمن في العاصمة اليمنية، مما يدل على انتهاء المعارك العسكرية. ففوجئت بـ «على الجمال» يحكى لى عن الرعب الذى يعيشون فيه، وكيف أن سكان الجبال هجموا على مقر البعثة منذ يومين وكادوا يقتلونهم جميعاً، لولا تدخل القوات المصرية التى استخدمت أحدث أنواع المدافع فى رد الهجوم. عرفت الحقيقة المرة، وهى أن الحرب الدائرة قد تطول لسنوات، لأن القوات المصرية هناك لا تحارب جيشاً نظامياً، بل قبائل متناثرة فى الجبال تعتمد على أسلوب حرب العصابات، من كر وفر، وكماثن متحركة، وغير ذلك.

لقد سقط كثيرون من جنودنا فى كماثن غادرة نتيجة عدم درايتهم بطبيعة اليمن الجبلية وطرقها الوعرة، وأحياناً كانوا يضطرون لاتخاذ قرار بإبادة قرى بأكملها، بسبب اشتراك رجال من هذه القرى فى نصب هذه الكماثن. فكان الجنود يشعرون بصراخ ضمائرهم عندما يدخلون تلك القرى ويجدونها مشابهة تماماً لقراهم فى مصر، من نساء عجائز وأطفال أبرياء ومساجد وحيوانات، فكانوا يجمعون أهل القرية بشرواتهم الصغيرة ويخرجونهم منها، ثم ينسفونها بالديناميت. أغلب جنودنا الذين حاربوا فى اليمن شعروا بوخز الضمير، وظلوا على هذه الحالة إلى أن دخلوا فى حرب ١٩٦٧ بعد عودتهم من اليمن. لم تكن ضمائرهم وحدها هى التى أصابها الشرح، بل زاد الأمر على ذلك، فقد تحول البعض إلى ممارسة التجارة، فمن كان منهم يحصل على إجازة، يقوم فوراً بشراء بضائع من أسواق اليمن، وبيعها فى مصر.

وأثناء زيارتنا لمدينة «تعز» أخبرنى أنيس منصور - وكان من بين أعضاء الوفد - بأن مجموعة من ضباط المخابرات تريد أن ترتب معنا لقاء لاستشارتنا فى بعض القضايا. وتم اللقاء الذى بدأ بحديث طويل أدلى به ضابط كبير عن الحرب فى اليمن، وتضمن حديثه حقيقة مريرة وهى أن هذه الحرب لن تنتهى، لأن مجموعة القبائل المعادية لنا تجد تمويلاً خارجياً قوياً بالمال والسلاح، وأن هذه القبائل تحتمى بالجبال والأماكن الوعرة، ومن الصعوبة بمكان القضاء عليها وكسر شوكتها، فما العمل؟! ... طرح الضابط سؤاله علينا طالباً إبداء الرأى والمشورة بصفتنا من كبار الكتاب والمفكرين فى مصر.

وتحدث يومئذ عدد كبير من المشاركين فى هذا اللقاء، أذكر منهم صالح جودت والدكتور مهدى علام، وغلب التحفظ على آراء من تحدثوا، فطلبت الكلمة لأقول رأى،

وقلت بصراحة إن الحل الوحيد هو أن نفكر في طريقة مشرفة للانسحاب من هذه الحرب، بعد أن نوفق بين القبائل المتناحرة ونخلق سلطة شرعية يمنية تحكم اليمنيين باختيارهم الحر. فطلب منى الضابط أن أكتب هذا الرأي بخط يدي، حتى يضمه إلى التقرير الذي سيرفعه يوسف السباعي إلى القيادة العليا في مصر. ولمحت إشفافاً في عيون بعض المشاركين في اللقاء، خوفاً علىّ من هذا الرأي الصريح الذي قد يسبب لي متاعب كبيرة في مصر. وأشهد أنه لم يحدث لي شيء مما توقعوه، وكانت معاملة المخابرات لي عند عودتي إلى مصر في غاية الذوق والاحترام. ورغم الحقائق المريرة التي عرفتها خلال تلك الرحلة إلى اليمن لم يخامرني الشك في قوة الجيش المصري، وكنت أحياناً أسمع بعض الهمس عن كيف يرسل عبد الناصر بالجيش إلى اليمن ويترك عدونا الرئيسي وهو إسرائيل؟. وكنت أرد على هؤلاء المتهمسين في حدة، وأوضح لهم أن خوفهم ليس له ما يبرره، وأن لدينا جيشاً قوياً قادراً على سحق إسرائيل، فالذي يرسل كل هذه القوات إلى اليمن، في حين أن عدوه الرئيسي على الحدود، ويعرف أن الحرب بينهما يمكن أن تشتعل بين عشية وضحاها، لابد أن يكون لديه من القوة والعتاد عشرة أمثال ما أرسله إلى اليمن.

كان عندي ثقة غريبة في قواتنا وإمكاناتنا العسكرية، وأذكر أنه في ليلة الخامس من يونيو ١٩٦٧ كنت أجلس في نادي القصة مع عدد من الأدباء والأصدقاء، ودار حديث طويل حول الحرب وتوقعاتهم لها.. قلت إنه إذا اشتعلت الحرب فإن قواتنا قادرة على الوصول إلى تل أبيب، وأن ما يشغلني في هذه الحرب ليس إسرائيل، وإنما موقف الأسطول السادس الأمريكي الموجود في البحر المتوسط، وقلت إن قلقي كله مركز في احتمال تدخله في الحرب لإنقاذ إسرائيل.

كنت أعرف أن هناك فساداً في بعض مؤسسات الدولة، وأعرف شيئاً عن الممارسات الخاطئة لجهاز المخابرات، وأعرف أيضاً أن هناك بعض من يسرقون أموال الشعب، ولكن المؤسسة الوحيدة التي كان لديّ اعتقاد أكيد بأن الفساد لا يمكن أن يصل إليها هي الجيش. وعلى قدر هذه الثقة، وعلى حجم هذا اليقين، كان ألم الصدمة، صدمة الهزيمة سنة ١٩٦٧.

\* \* \*



## الفصل الخامس عشر

### زعماء مصر

#### سعد زغلول - جمال عبد الناصر - أنور السادات - حسنى مبارك

وجدانى كله مع الوفد وزعيمه سعد زغلول - فى صباى لم أكن أتخيل الحياة فى مصر بدون الوفد - لم أر سعد زغلول بمعنى ولكننى مشيت فى جنازته - الفرق بين جنازة سعد زغلول وجنازة عبد الناصر - أطل السادات على شاشة التلفزيون فقلت لزوجتى: جمال عبد الناصر مات - لم أتصور أن يأتى يوم يموت فيه عبد الناصر كما يموت البشر - فى رثائى لعبد الناصر انتقدت عصره - أنا من أوائل المتبرعين فى مشروع توفيق الحكيم لإقامة تمثال عبد الناصر - قلت لزوجتى فى أول عهد السادات: هل يتولى هذا «الأضحوكة» رئاسة مصر؟! ثم اكتشفت مدى دهاء السادات وقدرته فى أحداث ١٥ مايو ١٩٧١ - نقطة ضعف عبد الناصر هى عدم إيمانه بالديمقراطية والحوار - ثوار يوليو ليسوا على مستوى الثورة ومبادئها - أصبحت مصر فى عهد مبارك تحظى باحترام واسع فى المجتمع الدولى - مبارك نجح فى ما لم ينجح فيه الزعماء الأفاضل الذين سبقوه - لماذا أخفى عبد الناصر حقيقة مرضه عن الشعب وعرفها الروس والأمريكان؟ - تولى عبد الحكيم عامر لمسئولية الجيش مهزلة بكل المقاييس - حضرت الاجتماع الأول للتنظيم الطلابى - قلت للمقدانى: بما أننا لا نستطيع الحرب فلا بد أن نسلك طريق التفاوض مع إسرائيل - أنا لم أؤيد السادات فى «كامب ديفيد».. هو الذى أبدى!! - حرب الاستنزاف كلام فارغ - السادات شخصية غريبة الأطوار تدعو للحيرة والاستغراب - السادات بغضب من بيان الكتاب ويصفنى فى أحد الاجتماعات بـ «الحشاش»!! - السادات أيد أسلوب الاغتيالات فى النشاط السياسى قبل الثورة وكانت نهايته الدرامية بنفس الأسلوب - معركة أكتوبر هى الحرب التى أنقذت الروح العربية من الهزيمة - سياسة الانفتاح فى عهد السادات كان لها آثار

سلبية خطيرة على الثقافة والفن - ما فعله السادات في أواخر حكمه لا يمكن تبريره  
لأنه اعتقل مصر كلها !! - مميزات شخصية حسنى مبارك واتفاقي معه في سياسته  
الخارجية وموقفه المشرف من حرب الخليج - لا مانع من انتخاب مبارك مدى الحياة  
ما دام الشعب في حاجة إليه.

■ في هذا الفصل يتحدث الأستاذ نجيب محفوظ عن انتماءاته السياسية بشكل واضح وصريح ومثير، ويربط ما بين هذه الانتماءات، والمهود والزعامات التي مرت بمصر، ويعتمد محفوظ في تقييمه الصارم لزعماء مصر الذين عاش في عهودهم المختلفة على مدى ما حقق هؤلاء الزعماء لمصر وللمصريين، ولعل هذا الفصل من فصول الكتاب سوف يكون أكثر فصوله إثارة للجدل والاتفاق والاختلاف مع نجيب محفوظ، ذلك لأنه لم يتردد في التعبير عن آرائه بشجاعة ووضوح وشفافية ولم يتراجع عن النقد عندما كان يرى ذلك ضروريًا. ويتحدث نجيب محفوظ في هذا الفصل بطريقة «التداعي الحر» أو الذكريات التي تجر بعضها بعضًا وتميل أحيانًا إلى الاستطراد، وهو الأمر الذي رأيت أن أتركه لما له من متعة ووضوح وفائدة.. ■

## سعد زغلول

نجيب محفوظ: على الرغم من أنني لم ألتق بسعد زغلول، ولم أره رأى العين، فإنه أكثر زعماء مصر المعاصرين قربًا من نفسي. عندما اندلعت أحداث ثورة ١٩١٩، كان عمري لا يتجاوز سبع سنوات، ومع ذلك كان وجداني كله مع الوفد وزعيمه. وحكيت في فصل سابق عن المرة الوحيدة التي كنت على وشك أن أرى فيها سعد زغلول في ميدان عابدين، وكانت كل الظروف مهيأة لذلك، ولكنني رجعت يومها بخفي حنين. وفي اعتقادي أن الشعبية الكبيرة، والحب الجارف الذي ناله سعد زغلول يرجع إلى إحساس الناس آنذاك بأن هذا الشيخ العجوز ضحى بنفسه من أجلهم، ومن أجل حقوقهم ومصالحهم. فعندما نفاه الإنجليز في المرة الأولى لم يكن أحد في مصر يتوقع عودته مرة أخرى، وسعد نفسه توقع أن يلقي نفس مصير أحمد عرابي ومحمد فريد، كان المنفى وقتذاك يعني الذهاب بلا عودة، وإذا حدثت العودة - مثلما الحال مع عرابي - يعود كسيرًا ذليلاً لا حول له ولا قوة بعد سنوات طويلة من النفي والانكسار والغربة. هذا التعاطف الشديد مع سعد زغلول خلق في نفوس الناس حبًا جارفًا له امتد بالتبعية إلى حزب الوفد.

عندما خرج سعد زغلول من مصر لم يخطر بباله أن الشعب سوف يشور تلك الثورة الشاملة، كما أن الإنجليز أنفسهم لم يتوقعوا سوى حركة احتجاج محدودة،

سرعان ما تنتهى خلال أيام معدودة. ولكن ما حدث أذهل الجميع، حتى أن محمد فريد عندما بلغته أنباء الثورة وهو فى المنفى أبدى دهشة شديدة وقال: «أخيراً ثاروا»!! لقد كان لدى محمد فريد اقتناع بأن الشعب المصرى عبارة عن «قربة» مقطوعة، لا أمل فى رتقها فى تلك الظروف على الأقل. وجاء سعد زغلول ليصلح «القربة المقطوعة» ويحولها إلى أضخم ثورة شعبية فى تاريخنا الحديث.



سعد زغلول (١٨٦٠ - ١٩٢٧) رآه الطالب نجيب محفوظ (١٣ سنة) وذلك عام ١٩٢٤ فى ميدان عابدين وهو ذاهب للقاء الملك فؤاد، وكان نجيب محفوظ يهتف مع الجماهير: «سعد أو الثورة»

بدأت الثورة بمظاهرات واحتجاجات فى صفوف الطلبة ما لبثت أن امتدت إلى كل فئات الشعب المصرى، وتحولت إلى مواجهات دموية مع قوات الاحتلال الإنجليزى، ثم تدخلت قيادة الوفد لتضفى شيئاً من التنظيم لتوجيه الناس وتحريكهم بشكل فعال. ومن بين عناصر التنظيم خرجت فكرة «التوكيل الشعبى»<sup>(١)</sup> التى لا نظير لها فى التاريخ، فقد حصل

(١) كان نص التوكيل الشعبى هو:

«نحن، الموقعين على هذا، قد أنبنا عنا حضرات سعد زغلول باشا وعلى شعراوى باشا وعبد العزيز فهمى بك ومحمد على بك وعبد اللطيف المكباتى بك ومحمد محمود باشا د. ولهم أن يضمنوا إليهم من يختارون فى أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا للسعى سبيلاً فى استقلال مصر استقلالاً تاماً» - وقد قام بالتوقيع على هذا التوكيل ملايين المصريين - رجالاً ونساء - ومن لم يكن منهم يعرف القراءة والكتابة وضع بصمته على هذا التوقيع. إن إعلان هذا التوكيل وجمع التوقيعات عليه يتمان ابتداء من شهر نوفمبر سنة ١٩١٨.

الوفد على توقيع أو «بصمة» ملايين المصريين بأنهم وكلوا الوفد عنهم في المطالبة بحق مصر في الاستقلال. وعندما عاد سعد زغلول من منفاه استقبلته الجماهير استقبالاً أسطورياً لم يتكرر مع زعيم آخر، وتحول سعد زغلول إلى بطل قومي وأب روى للمصريين.

أما يوم جنازة سعد زغلول فهو من الأيام التي لا أنساها أبداً. خرجت مع شلة العباسية وانتظرنا موكب الجنازة في ميدان الأوبرا. كان المنظر مهيباً، وسرنا على الأقدام مع الجماهير الحاشدة التي رفعت نعش الزعيم على أكتافها حتى مدافن الإمام.

أنا أختلف مع القائلين بأن جنازة عبد الناصر أضخم جنازة في تاريخ مصر كله. ففى رأى أن جنازة سعد زغلول لا تقل عنها، بل ربما تزيد إذا وضعنا الملاحظات التالية فى الاعتبار:

أولاً: سكان القاهرة عند وفاة عبد الناصر كانوا يزيدون عدة أضعاف عنهم يوم وفاة سعد زغلول.

ثانياً: سعد زغلول مات حوالى العاشرة مساء وخرجت جنازته فى اليوم التالى مباشرة. أما عبد الناصر فظل عدة أيام بدون دفن حتى يحضر سكان الأقاليم إلى القاهرة، وكذلك زعماء العالم للمشاركة فى الجنازة.

ثالثاً: وسائل الإعلام الحديثة لعبت دوراً كبيراً فى حشد الجماهير لجنازة عبد الناصر، فى حين لم تكن تلك الوسائل متوافرة يوم جنازة سعد زغلول.

أضف إلى ذلك أن الحزن كان شاملاً فى جنازة سعد زغلول من كل الفئات والطبقات والأحزاب، وكان الحزن صادقاً وعميقاً، فقد مات سعد وهو زعيم الأمة كلها والأب الروحى لها. لا أبالغ إذا قلت إنه لا يوجد زعيم فى تاريخ مصر أحبه الناس حباً صادقاً خالصاً مثل سعد زغلول. لقد كان الناس يحبونه إلى درجة العبادة، وينزلونه منزلة التقديس والإجلال. ولا أنسى أبداً منظر الناس فى جنازته وهى تبكى بطريقة هستيرية غريبة، ولا منظر السيدات وهن يصرخن بأصوات مرتفعة من شرفات المنازل. وفى جنازة عبد الناصر لا أنكر مدى حزن فئات عريضة من الشعب عليه حزناً لا يقل عن حزن الناس على سعد زغلول. ولكن فى المقابل كانت هناك فئات أخرى ترقص قلوبها فرحاً لموت عبد الناصر، خاصة هؤلاء الذين صادر أموالهم ووضعهم تحت الحراسة، وأذكر أنه بعد انتهاء مراسم تشييع جنازة عبد الناصر ذهبت إلى مقهى «ريش» مع مجموعة من الأصدقاء، وفى مقعد

قريب منا سمعت أحد الجالسين يلقي نكتة جديدة عن الجنازة، مما يعطى فكرة على أن هناك فئات من المصريين فرحت في موت عبد الناصر !

## جمال عبد الناصر

مازالت وقائع يوم وفاة عبد الناصر ماثلة في ذهني وكأنها جرت بالأمس القريب. في ذلك اليوم كنت عائداً من مدينة الإسكندرية مع أسرتي، وفور انتهائنا من تناول طعام العشاء جلست لمشاهدة التلفزيون، وقبل أن أدخل الفراش لاحظت أن القناة الأولى في التلفزيون تبث تلاوة قرآنية في غير موعدها، فأدرت المؤشر إلى القناة الثانية، فوجدت أيضاً تلاوة قرآنية، وبدأ الشك يتسلل إلى نفسي، ووردت إلى ذهني خواطر كثيرة. قلت لزوجتي إنني أشعر بأن تلاوة القرآن المتكررة في التلفزيون وفي هذا الوقت من اليوم وراءها شيء ما. ولما استوضححتي زوجتي، قلت لها إنني أظن أن الفلسطينيين قتلوا الملك حسين. كان ظني مبنياً على أساس الموقف المتفجر بين الملك حسين والفلسطينيين بعد مذابح سبتمبر أو ما سمي «أيلول الأسود». ولما طالبت التلاوة القرآنية اتصلت هاتفياً بجريدة «الأهرام» عسى أن أجد من يزودني بمعلومات عما يجري، ولكن باءت محاولتي بالفشل، ويبدو أن من سألتهم تهربوا مني، فلم أجد بداً من الجلوس من جديد أمام شاشة التلفزيون، لعلهم يفسرون للناس سبب انقطاع البرامج وبث القرآن فقط.

في تلك الأيام كان يعمل لدينا خادم في البيت كنا أرسلناه في شراء بعض الحاجيات، فما إن عاد حتى قال لي «إن الرئيس مات»، وأنه سمعهم في الخارج يقولون ذلك. أصابني الذهول والاستنكار وأسكت الخادم وطلبت منه عدم تكرار مثل هذا الكلام أمام أي شخص.

وفي الحقيقة لقد هزنتي كلمة الخادم، وشعرت بالخوف من أن يكون صادقاً فيما قاله، كما شعرت بالخوف على أسرتي خشية من أن يكون كاذباً فيسبب لنا متاعب نحن في غنى عنها. وظللت على هذه الحال من الحيرة والقلق أمام جهاز التلفزيون حتى انتهت تلاوة القرآن، وتم الإعلان عن أن نائب الرئيس أنور السادات سوف يلقي بياناً إلى الأمة. ولما أطل السادات بوجهه على شاشة التلفزيون قلت لزوجتي: جمال عبد الناصر مات!

كان وجه السادات عندما ألقى البيان مرهقاً ومكتئباً، وكانت عيناه شاردتين. وفي تلك

اللحظة بالذات خطر لى شعور غريب جداً ليس له علاقة بما نحن فيه. فقد أفقت على حقيقة ربما غابت عن ذهني، وهى أن الناس جميعاً ستموت. كان عبد الناصر يعطينى شعوراً خرافياً بالخلود، فلم أتصور أن يأتى يوم يموت فيه كما يموت البشر.

أما وقد رحل وفارق الدنيا فمن المؤكد أننا جميعاً راحلون. وأفقت على صوت زوجتي وهى تقول: يللا خيلينا تنفس!! وأحزننى قولها - مع خلوها من السمات - فرغم أخطاء عبد الناصر الكبيرة، ورغم أن هناك قدرًا من السخط الذى كان يعتمل داخلنا ضده، إلا أن رحيله كان مؤثرًا للغاية، لأن الرجل أعطانا من الآمال والأحلام ما لم نشعر به من قبل، وسيطر على تفكيرى نفس السؤال الذى راودنى يوم تنحى عبد الناصر، وهو: من فى مصر يمكن أن يخلف عبد الناصر؟!

وفى صباح اليوم التالى اتصل بى الأستاذ محمد حسنين هيكل بنفسه وطلب منى أن أكتب كلمة رثاء فى عبد الناصر. وفى تلك الفترة كانت كتاباتى فى جريدة «الأهرام» لا تزيد على كتاباتى الأدبية. ولكننى كتبت ما طلبه هيكل، وذهبت إلى «الأهرام» وسلمت الكلمة التى لم تكن رثاء خالصاً<sup>(١)</sup>، بقدر ما كانت تتضمن بعض تلميحات فى نقد عبد

---

(١) نشر الأهرام كلمة نجيب محفوظ فى رثاء عبد الناصر يوم ٢ أكتوبر ١٩٧٠ أى بعد وفاة عبد الناصر بأربعة أيام، وكان عنوان هذا الرثاء «كلمات من السماء»، وجاءت كلمة نجيب محفوظ على شكل حوار بين الكاتب وبين جمال عبد الناصر، وهذا هو نص الكلمة:

- \* حياك الله يا أكرم زاهد.
- \* حياكم الله وهذاكم.
- \* إني أحنى رأسى حبا وإجلالا.
- \* تحية متقبلة ولكن لا تنس ما سبق من قولى «ارفع رأسك يا أخى».
- \* نحن من الحزن فى ذهول شامل.
- \* لا يحق الدهول لمن تحدى به الأخطار وتنتظره عظام الأمور.
- \* يعزينا بعض الشيء أنك إلى جنة الخلد تمضى.
- \* وسيسعدنى أكثر أن تجعلوا من دنياكم جنة.
- \* إن عشرات التماثيل لن تجعلك فى خلود الذكرى، وهذه العبارة معناها أن عشرات التماثيل لن تفى بحقك فى خلود ذكراك».
- \* لا تنسوا تماثيلن أقمتهما يدي وهما «الميثاق» و«بيان ٣٠ مارس».
- \* وراءك فراغ لن يملأه فرد.
- \* ولكن يملؤه الشعب الذى حررته.
- \* سيبقى ذؤوك فى صميم الأفئدة.

=

الناصر. كانت حالة التأثر عامة، وكان الحزن عظيمًا على الرجل بدليل الإقبال الكبير على التبرع للمشروع الذي اقترحه توفيق الحكيم بإقامة تمثال لعبد الناصر، وكنت أنا من أوائل المتبرعين.

\* \* \*

لقد كنت في بيتي عندما أعلن عن تولى أنور السادات مسئولية الحكم بعد عبد الناصر، وضربت كفًا بكف وأنا غير مصدق، وقلت لزوجتي: هذا «الأضحوكة» هل سيصبح رئيسًا لمصر؟!

ورغم أن السادات كان هو الوحيد من بين أعضاء مجلس قيادة الثورة الذي كنا نعرفه نتيجة اشتراكه في النشاط السياسي قبل الثورة، ولدوره في قضية مقتل أمين عثمان<sup>(١)</sup>، إلا أن منزلته في نفوسنا متدهورة. وكنا نعتبر السادات في آخر صف من قيادات ثورة يوليو، خاصة أن دوره ظل لسنوات طويلة شرفيًا، مقارنة بعبد الناصر وعبد الحكيم عامر وزكريا محيى الدين والبغدادي وكمال الدين حسين، وبمعنى أوضح كان السادات العضو «المركون» أو «الاحتياطي»، كما لم يتول منصبًا مؤثرًا طيلة عصر عبد الناصر. ولذلك لم أتصور أبدًا أن

---

\* = أبنائي هم الفلاحون والعمال والفقراء.

\* وجدت قرة عيني في توديع الكرة الأرضية لك.

\* أما قرة عيني ففي استقلال الوطن العربي والحل العادل لأرضه الشهيدة.

\* سيكون أحب الطرق إلى نفسي الطريق إلى مسجدك.

\* طريقى الحق، هو الطريق إلى العلم والاشتراكية.

\* نستودعك الله يا أكرم من ذهب.

\* كلنا ماضون ومصر هي الباقية.

(١) تم اغتيال أمين عثمان باشا في ٥ يناير ١٩٤٦، بعد أن أطلق عليه حسين توفيق ثلاث رصاصات، وقد قبض على حسين توفيق الذى اعترف بأن أنور السادات كان من شركائه في ارتكاب الجريمة، وقبض على السادات، وحوكم فيما سمي باسم قضية «الاغتيالات السياسية»، ولكن المحكمة برأت السادات لعدم العثور على دليل ضده. رغم أنه من الثابت تاريخيا أن السادات كان مشاركاً في عملية الاغتيال. وكان أمين عثمان متهما بأنه صديق للإنجليز، وأنه كان من الذين اشتركوا في تدبير حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ الذى دخلت فيه دبابات الإنجليز قصر عابدين وهددت بعزل الملك فاروق إذا لم يكلف النحاس باشا بتأليف الوزارة. ولذلك تردد كثيرا أن الملك فاروق هو الذى دبر اغتيال أمين عثمان عقاباً له وانتقاماً منه.

يكون هو خليفة عبد الناصر، ولما حدث ذلك بالفعل اعتبرت المسألة غاية في السخرية والسخف.

لم يكن هناك وجه للمقارنة بين عبد الناصر والسادات، لأن الفروق هائلة، وذلك على عكس الوضع بالنسبة لسعد زغلول وخليفته مصطفى النحاس. فعندما تولى النحاس رئاسة الوفد بعد سعد زغلول، كان الناس يعرفون قدر النحاس ودوره البارز في تاريخ حزب الوفد. صحيح أنهم يعشقون سعد زغلول ويرفعونه فوق الجميع، إلا أنهم في الوقت نفسه يدركون أن النحاس هو الرجل الثاني المؤهل للقيادة. ولذلك فمنذ اليوم الأول لخلافة النحاس قوبل الرجل باحترام شديد، ورفعته الجماهير على الأعناق. أما بالنسبة للسادات فقد اختلف الوضع، فقد كان هناك طابور طويل يسبق السادات في الأحقية والجدارة بخلافة عبد الناصر. ومن حسن حظ السادات أن أفراد هذا الطابور يشعرون في أنفسهم بقوة الزعامة، فكان في ذهن البغدادي أو كمال الدين حسين أو زكريا محيي الدين أو جمال سالم، أنهم لا يقلون عن عبد الناصر في شيء، وأنه لا يتميز عنهم بشيء، أما السادات فقد كان من قوة الدهاء بما جعله ينطوى تحت جناح عبد الناصر، ولذلك كان عبد الناصر يشعر بالارتياح تجاه السادات، وكثيرًا ما كان يذهب لزيارته في منزله. وعندما حل العام ١٩٧٠ كان عبد الناصر تخلص نهائيًا من غالبية أعضاء مجلس قيادة الثورة الأقوياء، وكان آخرهم زكريا محيي الدين، فأصبح الطريق مفتوحًا أمام السادات للقفز على السلطة.



مصطفى النحاس (١٨٧٦ - ١٩٦٥)

خليفة سعد زغلول والذي تمسك بكل المبادئ الرئيسية التي نادى بها سعد. ومن غرائب المصادفات أن النحاس توفي يوم ٢٣ أغسطس ١٩٦٥ وهو نفس اليوم الذي توفي فيه سعد في ٢٣ أغسطس ١٩٢٧.

ظلت فكرتى عن السادات سيئة، واقتناعى بأنه غير كفء لتولى المسئولية بعد عبد الناصر ثابتاً، حتى اكتشفت مدى دهائه وحنكته فى أحداث ١٥ مايو ١٩٧١. حيث استطاع أن يتخلص من «عمالقة» أشداء كان يراهم حجر عثرة فى طريقه، ولأول مرة أشعر فى حديثه وبيانه - الذى ألقاه آنذاك - بأنه أثر فى نفسى، بعد ما كان يثير فينا من قبل السخرية والاستهانة به.

لقد كانت أخطاء عبدالناصر كثيرة، ولكن خطؤه الأكبر الذى أثار غضبى عليه هو أنه أضاع فرصة تاريخية نادرة لينقل مصر نقلة حضارية هائلة، أشبه بما حدث فى اليابان بعد الحرب العالمية الثانية. كانت كل الظروف مهيأة له، وكنا نأمل منه الكثير الذى نتمنى تحقيقه على يديه، ولكنه أضاع الفرصة، بمعاركه الكثيرة التى خاضها. وفى التاريخ الإنسانى تجد أن لكل بطل تراجعى «مأساوى» نقطة ضعف تكون سبباً فى القضاء عليه، وكانت نقطة ضعف عبد الناصر هى فى عدم إيمانه بالديمقراطية والحوار واستثارته بالسلطة وضيق صدره بالرأى الآخر. ولو أقام عبد الناصر أى نظام ديمقراطى، حتى ولو كان مجلس شورى مقنناً، بمعنى أن يؤخذ فيه برأى أغلبية الأعضاء، ولا يكون مجرد مجلس استشارى يستطيع حله عندما يريد. لو أقام عبد الناصر هذا النظام «شبه الديمقراطى» لتغير تاريخ مصر إلى الأفضل. ولتجنبنا الدخول فى ذلك الصدام مع قوى الاستعمار، ولصفينا ما بيننا وبين إسرائيل، ولما دخلنا حربى ١٩٥٦ و١٩٦٧، ولا كانت هناك حاجة لحرب أكتوبر ٧٣، وكنا سرنا فى مشروع «القومية العربية» بخطوات عاقلة وحكيمة، كان من المؤكد أنها ستأتى بنتائج أفضل.

كانت مصر فى تلك الأيام التى سبقت ثورة يوليو ١٩٥٢ أشبه بالسفينة التى تحيط بها العواصف من كل جانب، وتحتاج إلى ربان حكيم ماهر يستطيع أن يتفادى تلك العواصف، ويصل بها إلى الشاطئ. وللأسف لم تتوافر فى الربان الحكمة التى تساعده على مواجهة العواصف، أضف إلى ذلك حالة السلبية التى كان عليها الشعب المصرى فى تلك الفترة، خاصة أنه كان خارجاً من تجربة ديمقراطية غير مكتملة انتهت بالتمزق والمشاحنات والفوضى بين الأحزاب، وهى ديمقراطية وقف ضدها الإنجليز والملك، وبمرور الزمن أصبح حزب الوفد أضعف من أن يفرض رأيه فى مواجهة الاثنين: الإنجليز والملك معاً، وتكونت بمساعدة الملك والإنجليز أحزاب انضمت إلى أعداء الشعب، وكان الملك والإنجليز وأحزاب الأقلية جميعاً يعتقدون أن الشعب المصرى لا يصلح معه الأسلوب

الديمقراطي، ونتيجة لهذا الانقسام دخلت الأحزاب والقوى السياسية فى صراعات عنيفة أدت إلى قيام الثورة.

والحقيقة أن مبادئ ثورة يوليو وأهدافها إنسانية وعظيمة، وطالما حلم بها وتمناها كل المصريين، ولكن ما حدث هو أن الثوار لم يكونوا على مستوى الثورة ومبادئها. وكانت المسألة أشبه بطبيب امتياز (حديث التخرج) أسندت إليه عملية جراحية خطيرة لمريض أشرف على الموت، فكان من الطبيعى أن يؤدي جهل الطبيب إلى وفاة المريض. وقد يقال إن موقع مصر الجغرافى يجعلها مطمعا للقوى العالمية، ولكن هذه ليست مشكلة عسيرة تستعصى على الحل، لأن انتهاج سياسة متوازنة، سيحقق مصالحنا وقيم نوعاً من التوازن بين هذه المصالح ومصالح الآخرين، وهى السياسة التى اتبعها الرئيس حسنى مبارك. فمن الواضح للجميع أن الرئيس مبارك أعاد علاقات مصر بالعرب، وأقام علاقات متوازنة مع الدول الكبرى، فأصبحت مصر تحظى باحترام واسع فى المجتمع الدولى، وأصبحت صديقة للعالم كله، ولم يعد لها خصومات معقدة أو مشاكل مع تلك الدول التى طالما اصطدمنّا بها وعاديناها.

\* \* \*

كنا فى جلساتنا بكازينو قصر النيل ندير حوارات طويلة حول مسألة علاقات مصر بالعالم من حولها، وأذكر تشبيهاً قلته فى هذه الجلسات، وهو أن علاقتنا بالعالم الخارجى أشبه بعلاقة أحد الكواكب بالمجموعة الشمسية، فعلى الكوكب أن يسير فى فلك خاص به، دون أن يصطدم بالكواكب الأخرى التى تدور من حوله. كما أن على هذا الكوكب أن يدور حول الشمس بحساب، فلا يقترب أكثر من اللازم حتى لا يحترق، أو يبتعد فيموت سكانه من البرد. أعود فأقول إن الرئيس حسنى مبارك نجح فيما لم ينجح فيه الزعماء الأفاذا الذين سبقوه، حيث سار بالكوكب فى الفلك المناسب، وحافظ على المسافة بينه وبين الشمس، وربما يكون ذلك راجعاً إلى بساطته وقربه من المواطن المصرى، وإحساسه بمشاكله ومطالبه، كما أن الرئيس مبارك قد نجا تماماً من مرض جنون العظمة.

\* \* \*

من أخطاء عبد الناصر - التى لا تغتفر - إخفاؤه المعلومات عن الشعب، لدرجة أننا لم نعرف شيئاً عن مرضه إلا بعد وفاته، وفوجئنا بأنه كان مصاباً بمرض خطير فى قلبه،

وأنة كان ممنوعاً من العمل لفترة غير قصيرة، ومصر تحكمها «لجنة»، وأن الروس يعلمون بحقيقة مرضه حيث كانوا يعالجونه، أما الشعب المصرى فلا يعرف شيئاً عن ذلك. وأعتقد أن الأمريكان كانوا يعرفون بمرض عبد الناصر، ويعدون العدة لخلافته، مثلما كان الإنجليز لديهم تقرير شامل عن مرض سعد زغلول، واستعدوا لما بعد وفاته. وقيل إن الغرب كان يعد «السادات» منذ أوائل الستينيات ليحكم مصر، وقيل إنه كان يتقاضى أموالاً من الولايات المتحدة الأمريكية عن طريق رجل المخابرات كمال أدهم، كما قيل إن تقارير السادات المبالغ فيها هى التى جعلت عبد الناصر يندفع إلى حرب اليمن، وذكر محمد حسين هيكل هذا الأمر فى أحد كتبه، وعنوانه فيما أذكر «المصر لا لعبد الناصر». والحقيقة أن هذا الكلام لم تثبت صحته، ولا يمكن أخذه على عواهنه، خاصة أن هيكل كان بينه وبين السادات ما صنع الحداد.



لم أقبل من عبد الناصر أيضاً إسناد مهمة قيادة الجيش إلى عبد الحكيم عامر. وانطباعاتى عن عامر على المستوى الشخصى تختلف عن انطباعاتى عنه كشخصية عامة. فهو فى الحالة الأولى إنسان يتمتع بالطيبة والبساطة والقيم الصعيدية النبيلة، أما كشخصية عامة فكنت أستضعفه، وأرى أن توليه مسئولية الجيش بمثابة مهزلة. كنت أفهم أن يسند إليه عبد الناصر وظيفة إشرافية، ويعطى مهمة قيادة الجيش الفعلية لرجل يتمتع بالكفاءة العسكرية. أما أن يعطيها لعامر دون أن تكون لديه الإمكانيات التى تؤهله لها، فهو أمر لم أستسغه أو أقبله، بل إننى اعتبره السبب الرئيسى فيما حدث للجيش المصرى فى الخامس من يونيو ١٩٦٧، ومن الملاحظات التى لفتت نظرى أن عامر هو الوحيد من بين أعضاء مجلس قيادة الثورة الذى ظل إلى جوار عبد الناصر فى مسئولية الحكم الفعلية، بخلاف الأعضاء الآخرين الذين أقصاهم عبد الناصر من مسرح الأحداث، حتى أصبحنا نذكرهم كأشباح. وكنا نعتقد لفترة طويلة أن عامر ظل طوال هذه الفترة منطوياً تحت جناح عبد الناصر، حتى تكشف مفاجآت ما بعد النكسة، فعرفنا أن المشير عبد الحكيم عامر هو الذى كان يتحكم فى الرئيس جمال عبد الناصر. ولذلك أستبعد ما قيل عن انتحار المشير، وأظن أنهم تخلصوا منه، وظنى هذا تؤيده عدة دلائل:

أولها: ما ذكر لى حسن حسين، وهو صديق تعرفت عليه عندما كنت أسكن فى العباسية وكان يقيم بجوارنا. والأهم من ذلك أن حسن حسين هو زوج شقيقة عبد الحكيم عامر،

وهو في الوقت نفسه ابن خالة تحية هانم زوجة عبد الناصر، أى أنه حاز المجد من أطرافه! قابلت حسن حسين في الإسكندرية بعد الإعلان عن انتحار المشير عبد الحكيم عامر وكانت معه السيدة حرمة شقيقة المشير، ورأيت حسن حسين في حالة حزن شديدة، ووجدت لديه اعتقاداً راسخاً بأن المشير لم ينتحر، بل مات مقتولاً.

ثانياً: أن الفريق محمد فوزى، الذى تولى الجيش وقام بتنفيذ أوامر عبد الناصر، لم يكن على علاقة طيبة بالمشير عامر، بل كانت بينهما كراهية متبادلة، وهذه الملابسات كلها ترجح أنهم تخلصوا من عامر بقتله.

\* \* \*

من خلال قراءتى فى التاريخ، خاصة تاريخ الثورات الكبرى، وجدت أن هناك قاعدة مشتركة تنطبق عليها جميعاً، وقد أشرت إلى ذلك فى رواية «ثروة فوق النيل». وهى أن الثورة يدبرها الدهاء ويتفادها الشجعان ويفوز بها الجبناء. فقد وجدت أن الثورة يقوم بها مجموعة من الأفراد، وعندما يصلون إلى الحكم يبدأ الصراع فيما بينهم، وينتهى بانفراد أحدهم بالسلطة بعد أن يصفى الآخرين. حدث ذلك فى الثورة الفرنسية بين مارا ودانتون وروبسبير، وفى الثورة الروسية بين ستالين وتروتسكى وزينوفيف، وفى الثورة المصرية بين أعضاء مجلس قيادتها. والغريب أن ذلك الذى يتمكن من الانفراد بالسلطة غالباً ما ينتهى مصيره بكارثة. فروبسبير مات ذبيحاً، وستالين ذبحوه بعد وفاته، وما حدث لعبد الناصر بعد وفاته لم يكن بأقل بشاعة.

\* \* \*

تمر الثورات بمراحل، مرحلة ما قبل الشرعية، حيث يكون الهدف الرئيسى لمدبريها هو الوصول إلى السلطة، ثم مرحلة الديكتاتورية وانفراد الزعيم بالحكم، وقد تمر سنوات طويلة حتى تستقر الأمور وتصل إلى مرحلة الشرعية والديمقراطية. وفى تلك السنوات التى قد تطول حتى الوصول إلى الشرعية يستفيد من الثورة الانتهازيون أو الأذكياء الجبناء الذين لم يكن لهم دور فعال فى مراحلها الأولى من أمثال «فوشيه» و«تاليران» فى الثورة الفرنسية.

ومن ملاحظاتى الأخرى على الثورات أن الأوضاع فى المجتمع القديم تساعد على نجاحها، وتصرفات الحكم السابق على الثورة تعجل بنهايته. فقبل الثورة الفرنسية حاول

وزير المالية «نيكر» أن يملأ خزانة الدولة الخاوية بفرض ضرائب على النبلاء ورجال الدين في محاولة لإنقاذ الأوضاع المتردية وتوفير رغيف الخبز للجوع، فوقف النبلاء ورجال الدين في طريق محاولاته الإصلاحية، وحرصوا الملك عليه حتى عزله، وكانت النتيجة استمرار الأوضاع السيئة التي ساهمت في قيام الثورة وإزالة المجتمع القديم. وفي روسيا بعد الحرب العظمى جاءت حكومة إصلاحية برئاسة «كرنيسكى»، حاولت أن تعالج الأخطاء الموجودة في عهد القيصر الروسي الأخير «نيقولا الثاني»، وخاف الشيوعيون من نجاح الحكومة فعملوا بالثورة. وفي مصر كانت أخطاء الملك فاروق ومحاولاته المستمرة لتزوير الانتخابات وإبعاد الوفد عن الحكم عاملاً رئيسياً في قيام الثورة، ولو تدارك الملك هذه الأخطاء لكانت الملكية مستمرة حتى يومنا هذا في مصر.



وفي محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وكنوع من التفكير العملى في مستقبل مصر بعد النكسة تكون التنظيم الطليعى، ودعيت لحضور الاجتماع الأول الذى رأسه يوسف السباعى. فى الحقيقة شعرت فى البداية بالخوف والتوجس من ذلك التنظيم، وخيل إلى أنه تنظيم سرى يعمل ضد الحكومة، وقلت لنفسى إنه ربما يكون «تنظيم ضباط أحرار جديدا» برئاسة السباعى، ويهدف إلى قلب نظام الحكم، وسيقودنا - نحن أعضاءه - للهلاك. فترددت فى الانضمام إليه، إلى أن اتصل بى السباعى ليدعونى لحضور الاجتماع الأول للتنظيم، فطلبت منه أن يوضح لى حقيقة هذا التنظيم وأهدافه، وحمدت الله أن التنظيم اجتمع مرة واحدة ولم يكررها. بعدها دعانا الدكتور ثروت عكاشة لحضور مؤتمر عام يضم قيادات وزارة الثقافة، وحضرته بصفى مديراً المؤسسة السينما. وفى ذلك المؤتمر دار حوار مفتوح حول النكسة، وما ينبغى عمله لنخرج منها، والحلول المقترحة لذلك. أذكر أننى قلت فى المؤتمر إن الطريق الوحيد للخروج من هذه الأزمة هو العودة للديمقراطية والحوار وإطلاق حرية تعدد الأحزاب والآراء، وأن نرضى بالحزب الذى يصل إلى السلطة عن طريق انتخابات حرة نزيهة حتى ولو تفاوض مع إسرائيل. وقلت إن ما حدث فى ٥ يونيو لم يكن حرباً بين مصر وإسرائيل، بل كان مسرحية دولية كبرى لا قبل لنا بها، وإذا لم تنتبه لها فسوف تستنزف أموالنا وطاقتنا، ونتيجتها الوحيدة هى تخلفنا عن ركب الحضارة والتقدم.

قلت هذا رأى فى عهد عبد الناصر حوالى نهاية سنة ١٩٦٧ أو أوائل سنة ١٩٦٨، وكررت فى عهد السادات أمام العقيد القذافى عندما حضر إلى مبنى «الأهرام» والتقى

بالأدباء والمفكرين والكتاب. فقد زارنا القذافي في «الأهرام» وصافحنا وتناول طعام الغداء معنا، ثم عقد معنا حوارًا مفتوحًا، طرح علينا فيه هذا السؤال: ما رأيكم في الموقف الذي تعيشه الآن الأمة العربية بعد أن احتلت إسرائيل الضفة الغربية والقدس والجولان وسيناء؟ وما هو تصوركم لحل هذه الأزمة؟ فرفعت يدي وطلبت الكلام من الأستاذ محمد حسنين هيكل الذي كان يدير الحوار، وعندما تكلمت طرحت على الحاضرين - بدوري - سؤالاً: هل في إمكاننا الآن أن نحارب إسرائيل؟. وأجاب أحد الحاضرين - وأظن أنه الأستاذ أحمد عباس صالح الذي أكد أنه ليس بوسعنا الحرب في تلك الظروف، وأن أي حركة سنقوم بها يمكن أن تستغلها إسرائيل في ضرب منشآتنا الحيوية. وعقبت على إجابته بالقول:

- بما أننا لا نستطيع الحرب فلا بد أن نسلك الطريق الآخر، طريق التفاوض، أما الحالة التي نعيشها والمعروفة باللاسلم واللاحرب فإن التاريخ لم يعرف مثلها من قبل، كما أن نتائجها ضارة جداً لنا.

علق العقيد القذافي على رأيي قائلاً:

- أنت معذور في أن تقول مثل هذا الكلام لأن تكاسل الرؤساء العرب يدعو إلى خلق هذه الأفكار الانهزامية.

وتدخل الأستاذ هيكل في الحديث محاولاً تغيير مجراه، لأنه لاحظ أن الدكتور حسين فوزي الذي تحدث قبلي يؤيد التفاوض، كما كان توفيق الحكيم يتوَّجَّه لإعلان رأيه هو الآخر، فأعطى هيكل الكلمة لأشرف مروان زوج ابنة عبد الناصر. وأكد مروان أن الحرب مستمرة. وأعلن رفضه للرأي القائل بوجوب التفاوض، وذكر لنا أن مصر في طريقها للحصول على صفقات أسلحة ستمكنها من دخول المعركة.

لم تنشر الصحف في اليوم التالي ما دار في ذلك الحوار. ولكنني ظلت أردد رأيي في جلساتنا بمقهى «ريش»، ولكن هذا الرأي لم يعرفه الناس على نطاق جماهيري إلا من خلال الحوار الذي أجراه معي الأستاذ سيد الشوربجي ونشره في جريدة «القبس» الكويتية بالقاهرة. ثم الحوار على مقهى «ريش» ودار حول الأدب وقضاياها، وعندما وصلنا إلى القضايا السياسية قال لي إن لي الحق في أن أمتنع عن الإجابة عن الأسئلة المحرجة، لأن أي رأي مخالف يمكن أن يثير ضدى عاصفة. فقلت له إنني سأقول رأيي بصراحة، وهو ما كان.

ظهر الحديث كاملاً في «القبس» متضمناً رأياً لأول مرة منشوراً على الناس في مسألة التفاوض مع إسرائيل، وأثار الحديث ردود فعل هائلة. وفتحت «القبس» صفحاتها لمن يريد الرد، وعلى مدى ستة شهور كاملة تعرضت لسيل من الشتائم كان بعضها يحتوى على ألفاظ جارحة واتهامات حادة، حتى أن بعضهم قال عنى بالحرف الواحد: «أحسن لك تروح تبيع ترمس!». لم يقتصر الأمر على ما ينشر فى «القبس»، بل كتب كثيرون فى صحف مصرية يسفهن آرائى وينتقدونى بقسوة، ومع ذلك ظلت متمسكا برأى لم أحد عنه. لقد دخلت فى مناقشات لا حصر لها، منها مناقشة طويلة دارت بينى وبين فتحى عرفات - شقيق ياسر عرفات - فى بيت الصديق بهجت عثمان. وقال لى: إن الفلسطينيين غاضبون منى، وإن بعض المتطرفين منهم هددوا بقتلى. ولكنى فوجئت بقوله إنه - بينى وبينك - مقتنع بكلامى، ويعرف أن رأى عقلاى وصحيح، ولكن المشكلة كما لمسها هى: أن اليهود بعد ٥ يونيو رحبوا بالحوار وأبدوا استعدادا لتقديم تنازلات إذا اعترفتا بإسرائيل، ولكنهم مع مضى الوقت واستيطانهم فى الأراضى التى احتلوها واستقراهم بها، بدأوا يتغيرون ويرفضون التفاوض على أساس تقديم تنازلات.

فيما بعد تفهم كثير من الفلسطينيين وجهة نظرى، وكانت أكثر الوفود العربية التى زارتنى بعد حصولى على جائزة نوبل عام ١٩٨٨ من الفلسطينيين، وأذكر أننى جلست مع رئيس الدائرة السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية فاروق قدومى، ودار بيننا حوار طويل، ووجدته متفهماً للآراء التى قلتها بشأن المفاوضات مع إسرائيل، وكان ذلك قبل الإعلان عن مفاوضات أوسلو بين الفلسطينيين والإسرائيليين بسنوات.

وكان أكثر ما يضايقنى ويثير أعصابى عندما نشر حديثى فى «القبس» هو اعتقاد بعض الناس بأننى أطالب بالسلام من أجل إسرائيل، ولو كان لدى هؤلاء ذرة من التفكير المنطقى الموضوعى لفهموا أننى أنشد السلام من أجل هؤلاء البسطاء الذين طحتهم الحروب. لو كنا أنفقنا نصف الأموال التى اشترينا بها السلاح على التنمية لكانت تكفى، إن لم يكن لإزالة إسرائيل، فعلى الأقل لتحجيمها. فليس شرطاً أن تستعيد حقوقك بالحرب، فقد يكون من الأفضل والأجدى أحيانا استعادتها بالتنمية كما فعلت ألمانيا واليابان. الدولتان هزمتا هزيمة منكرة فى الحرب العالمية الثانية واستطاعتا أن تردا على الهزيمة بغير سلاح وبغير دمار، وحصلتا على حقوق ما كانتا لتحصلا عليها بالحرب.

هذه دروس يجب أن نستوعبها، نحن الآن في عصر أساسه الحضارة، وإذا لم تكن على مستوى الحضارة الحديثة، فسوف نصبح مجرد ذكرى مثل الديناصورات. وعندما كنت أنادى بالتفاوض مع إسرائيل، كان ماثلاً أمام عيني الفرق الهائل في المستوى الحضاري والتقدم التكنولوجي بيننا وبينهم، والصراع لا تحسمه فقط القوة العسكرية والحشود الضخمة، بدليل أن صدام حسين كان لديه مليون جندي وأسلحة مرعبة تكفي لتدمير عدة دول لا دولة واحدة، ومع ذلك كان مصيره كما نعرف. وبعد النكسة كان من المفروض أن ننتهى إلى هذه النقطة: أن ضعف التنمية يؤثر على الجانب العسكري والحضاري. ولذلك لم أندش عندما عرفت أن عبد الناصر نفسه كان لديه الاستعداد للتفاوض مع إسرائيل. وجاء وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية إلى المنطقة حاملاً في حقيقته مشروعاً للتفاوض رفضته إسرائيل فاستقال احتجاجاً. وعندما وقع السادات اتفاقية كامب ديفيد كتب بعضهم يقول إنني سرت في ركاب السادات، وأيدت المعاهدة من منطلق عاداتي في نفاق الحكم. مع أن الرأي المنصف يقول إن السادات هو الذي أبدى، لأن موقفى من التفاوض معلن قبل أن يتولى السادات حكم مصر، وقبل أن يفكر في قبول مبدأ التفاوض. بل من المعروف أن السادات هاجم توفيق الحكيم بشدة في اجتماع عام بسبب بيانه الشهير الذي وقع عليه مع مجموعة من المثقفين وكنت من بينهم وأرسله إليه، ويرفض فيه حالة اللاسلم واللاحرب قبل معركة أكتوبر ١٩٧٣، وأبدى السادات في هذا الاجتماع دهشته لأن يدعو الحكيم للصالح مع اليهود وقبول التفاوض والحل السلمي. وكانت جولدا مائير تعتبر السادات أعدى أعداء إسرائيل، وقالت ذات مرة «إنه أكبر ممثل شاهده في حياتي ويستحق جائزة الأوسكار». عندما أعلنت رأيي الداعي إلى التفاوض كنت أعرف أنني سأعرض إلى هجوم حاد، ومع ذلك تحملت، لأنني كنت أضع نصب عيني مصلحة مصر والعرب في الأساس، وأعرف أن مصلحتنا تقتضى السلام، وأدرك أن حرب الاستنزاف مهما بذلنا فيها من جهد وتضحيات لا يمكنها أن تنتهى إلى نتائج إيجابية مؤثرة، لأن المواجهة العسكرية الطويلة لن تجدى، ويمكن أن تستمر لأجيال عديدة.

## أنور السادات

كانت انطباعاتي عن السادات سيئة منذ توليه السلطة بعد عبد الناصر، وظلت تلك الانطباعات كما هي لم تتغير حتى كانت أحداث ١٥ مايو ١٩٧١، حيث اكتشفت خلالها أن هذا الرجل داهية، وليس سطحياً كما تصورت، وأنه أشبه بالشخص المستضعف في أفلامنا السينمائية القديمة، والذي يفاجئ الناس بأفعال لم يتوقعوها منه. والحقيقة

أننى أيدت السادات فيما أقدم عليه من أفعال وقتذاك، مثل: هدم السجن الحربى وحرق الملفات الأمنية وتصفية مراكز القوى التى كنت أرتبط مع بعض أفرادها بصداقة.

واقنعت بكل ما قاله السادات عنهم من أنهم السبب المباشر فى الأزمة التى مرت بها مصر، وأنهم أساس الخوف والرعب الذى عاش فيه الناس لسنوات طويلة. ورغم أننى لم أتعرض لأذى من مراكز القوى هذه بصورة مباشرة، إلا أننى كنت مع أى خطوة فى سبيل الحرية والديمقراطية. لقد اعترضت على ما قيل من أن «١٥ مايو» هى ثورة مضادة للناصرية، وأنها ردة على مبادئ ثورة يوليو، بل اعتبرتها تصحيحاً لسليبيات ثورة يوليو، خاصة أن السادات لم يحاول المساس بالإنجازات التى قامت بها. فلم يلبغ مجانية التعليم أو القطاع العام أو الإصلاح الزراعى، بل كان انقلابه منصباً على الأسلوب الديكتاتورى فى الحكم. ولذلك غفرت له الطريقة التأمرية التى أدار بها الأحداث، لأن الطرفين كانا فى حالة تربص، ونجح السادات فى أن «يتغدى» بخصومه قبل أن «يتعشوا» هم به. وقدمهم لمحاكمة صورية أشبه بتلك التى أقامتها الثورة للسياسيين السابقين فى عهد الملكية، أو بتلك التى زجت بفؤاد سراج الدين وإبراهيم فرج بتهمة التآمر مع الإنجليز، ثم أفرجت عنهما بعد ثلاث سنوات. والدليل على أن محكمة السادات كانت صورية ولمجرد التخلص من خصومه أنه أفرج عن كثير من المتهمين بعد فترات بسيطة.

ومن تحليلى لسلوكيات وأفعال السادات، توصلت إلى أنه شخصية غريبة الأطوار تدعو إلى الحيرة والدهشة. فأحياناً يغضب من تصرف أو رأى ويعاقب صاحبه، ثم لا يلبث أن يقوم هو بنفس التصرف، وحدث ذلك فى أكثر من موقف. فعندما تولى الحكم حاول تطوير الاتحاد الاشتراكى وإعادة الروح والفعالية إليه. ودعيت أنا وثروت أباطة إلى مؤتمر يناقش هذا التطوير المزمع إجراؤه برئاسة المهندس سيد مرعى.

وطلحت القضية للنقاش وطلب منى الحديث والإدلاء بوجهة نظرى، فقلت إن الحل الوحيد هو أن تسمح الدولة لكل مجموعة متوافقة فى الفكر والرأى بأن يكون لها منبر مستقل داخل الاتحاد الاشتراكى. وفى الجلسة التالية للمؤتمر حضر الرئيس السادات ليشارك ويستمع إلى المناقشات، ولكننى فوجئت به يقول علناً إن البعض أُلحِق فى الجلسة السابقة إلى ضرورة إنشاء أحزاب وتجمعات سياسية، صحيح أنا أحب الحرية وتعدد الآراء، لكن هذا لا يمنع من أنه بإمكانى أن «أفرم»!!.

انزعجت من حديث السادات، وقلت لنفسي: لماذا أعطونا حرية إبداء الرأي ووجهات النظر والرئيس يهدد «بفرم» المعارضين، فقررت ألا أحضر أى جلسة بعد ذلك.. أما السادات الذى رفض علانية فكرة المنابر والتجمعات والأحزاب السياسية، فإنه عاد وطبقها وأصبح من المتحمسين لها. والموقف الثانى الذى يدل على غرابة أطوار السادات يتمثل فى ثورته العارمة على توفيق الحكيم وعلى الذين وقعوا على البيان الشهير الخاص برفض حالة اللاسلم واللاحرب. أما قصة هذا البيان فقد كانت كالتالى: ذات يوم ذهبت إلى جريدة الأهرام، ودخلت إلى مكتب توفيق الحكيم لأصافحه كعادتى وأجلس معه بعض الوقت، إلا أنه بمجرد أن جلست قدم لى بيانًا لكى أقرأه، وكان البيان مكتوبًا بخط الحكيم. وعندما انتهيت من قراءته سألتنى: هل توافق على توقيعه؟.

رددت على الفور: نعم.. أوافق..

ثم دخل علينا ثروت أباطة ووقع أيضًا على البيان، وتوالت التوقيعات، حتى أن البعض وقع بمجرد أن رأى أسماء توفيق الحكيم وثروت أباطة وأنا. لقد شعروا بالاطمئنان لوجود هذه الأسماء، حتى أن بعضهم مثل الدكتور على الراعى وقع بالتليفون. فقد اتصل به الحكيم وأبلغه بالأمر، فطلب الراعى إضافة اسمه، وهناك بعض المفكرين ممن أصابهم شيء من التردد والقلق مثل الدكتور لويس عوض، وهناك من تورط، والبعض تهرب خشية الأذى. عندما كتب الحكيم البيان وجمع توقيعات الكتاب عليه، لم يكن ينوى نشره على الملأ، وكان يرغب بالاكتماء بإرساله إلى السادات لتسجيل موقف. وحدث أن قامت مجلة لبنانية بنشر البيان، فهاج السادات بشكل لم نتصوره واتهمنا بالشيوعية، واستدعانا الدكتور محمد عبد القادر حاتم - الحكيم وأباطة وأنا - ووجه لنا لومًا عنيفًا لأننا وقعنا على البيان. ومما قاله حاتم إننا وقعنا على البيان مع عملاء يتقاضون رواتب من السفارات الأجنبية بمصر، وكشوف المرتبات بحوزة الدولة، وأنهم معروفون لدى الأجهزة، ولم يكن - حاتم - يحب أن توضع أسماءنا نحن الثلاثة فى بيان واحد مع هؤلاء. حاولنا أن نوضح له وجهة نظرنا، وكيف أننا لم نكن ننوى نشر البيان وإحراج السلطة، وأن النشر تم مصادفة ولا ذنب لنا فيه. وحاول حاتم أن يؤكد لنا أن الاستعداد للمعركة قائم، وأن حالة اللاسلم واللاحرب التى نعترض عليها لن تطول. وشعرت فى نهاية اللقاء أن الأزمة على وشك الانتهاء، وأن سحابة الصيف فى طريقها للزوال. ولكننى فوجئت بالعقوبات الفورية التى فرضها السادات ضدنا، وقراره بحرماننا من الكتابة، ورغم سريان القرار كنت أذهب كعادتى إلى جريدة الأهرام، وكذلك الحكيم الذى كان حريصًا على الذهاب هو الآخر إلى مكتبه بالأهرام.

أصبح بيان الكتاب الشهير وأصحابه فقرة دائمة فى خطابات السادات وفى اجتماعاته، بحيث لا يمر خطاب دون أن يهاجم الموقعين على البيان ويخص بالذكر توفيق الحكيم. وفى هذه الاجتماعات ذكر السادات اسمى وقال لهم: «حتى الحشاش اللى اسمه نجيب محفوظ وقع معاهم»!! ولما علمت بذلك قلت فى نفسى: فليتكلم أى أحد آخر غير الرئيس السادات عن مسألة الحشيش هذه!

عندما وقفنا على البيان كنا على يقين أن السادات لن يقدم على خوض الحرب، وأن المشكلة ستظل قائمة بدون حل لسنوات طويلة. وأذكر أن توفيق الحكيم قدم لى ذات مرة نسخة من مجلة أجنبية، وفتح المجلة على إحدى صفحاتها، وأطلعنى على صورة للسادات فى حديقة بيته وأمامه تورته ضخمة، وبجواره السيدة جيهان السادات تعد له الشاى. وأثناء تدقيقى فى الصورة علق الحكيم: هل هذا المنظر لقائد سوف يحارب؟ إلى متى يظل أولادنا فى الصحراء، لا هم يحاربون، ولا هم عادوا إلى عائلاتهم؟.. وقال الحكيم إن هناك شباباً فى الجيش منذ سبع سنوات ولم يتم تسريحهم وهم من غير القوات العاملة، أى أنهم فى فترة تجنيد!

كان الحكيم فى ذلك الوقت يفتح مكتبه لطلبة الجامعات الراضين لحالة اللا سلم واللا حرب ومن هؤلاء زعماء الناصريين الآن، وكان يجلس معهم بالساعات. وقام الطلبة بمظاهرات عنيفة أعتقد أننى كتبت عنها فى رواية «الباقى من الزمن ساعة»، والتى تحولت إلى مسلسل تليفزيونى حذفوا منه ٧٠ مشهداً قبل أن يعرضوه. لم يكن أحد يدرى أن السادات الذى ثار على بيان يطالبه بالحرب أو التفاوض، والذى حرماً من الكتابة فى «الأهرام» عقاباً على توقيعنا عليه، هو نفسه يخطط للمعركة ويفاجئنا بها، وهذا ما جعلنى أقول إن السادات شخصية محيرة وعجيبة. ومما لفت نظرى أن السادات كان من مؤيدى أسلوب الاغتيالات فى نشاطه السياسى قبل الثورة، وكل من سار على هذا الأسلوب كان مصيره الاغتيال. حدث هذا مع أحمد ماهر والنقراشى، حيث كانا من الأعضاء البارزين فى جمعية «اليد السوداء» خلال ثورة ١٩١٩ وما بعدها، وكانت نهايتهما الموت بطلقات الرصاص، وهى نفس النهاية الدرامية التى انتهت بها حياة السادات.

فى ظهيرة يوم السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣ كنت أجلس فى بيتى أقرأ الصفحات الأولى من أحد الكتب، ورن التليفون، وكان المتحدث هو ثروت أباطة، وبدون سلامات أو مقدمات صرخ فى قائلًا: «عبرنا»، ولما استوضحته، قال لى: إن الجيش المصرى عبر

القتال. قابلت كلامه بسخرية، ولكنه أقسم أن الحرب قامت وأن الجيش المصرى هو الذى هاجم وعبر القنال، و «إذا لم تصدقنى افتح الراديو على أى إذاعة أجنبية لتتأكد بنفسك».. ولأول مرة فى حياتى أسمع الأخبار من المحطات الأجنبية وكانت كلها تؤكد ما ذكره ثروت أباطة، ووجدت نفسى فى حالة ذهول غريبة. لم تكن تهمنى نتيجة الحرب العسكرية بقدر ما تهمنى نتائجها النفسية، وكيف أنها يمكن أن تقللنا من حالة كنا نشعر فيها بمتهى اليأس والانكسار، إلى حالة مضادة نشعر فيها بالثقة والعزة والكرامة. ولذلك فإننى اعتبر معركة أكتوبر هى الحرب التى أنقذت الروح العربية من الهزيمة. وطوال أيام المعركة كان لدى إحساس غريب بأن أى تلاحم بين الجيشين المصرى والإسرائيلى ستكون فيه المتصرين والمكتسحين. انقلب الحال من النقيض إلى النقيض، لقد كنا فى الحروب السابقة وفى جولات الصراع مع إسرائيل أشبه بملاككم ضعيف دخل مباراة مع «محمد على كلاى»، وفى كل جولة كان «كلاى» يضربه ضربة فيسقط على الأرض، والجمهور حول الحلبة لا يتوقع أى مقاومة من الملاك المنافس، وفجأة يتحول الملاك الضعيف إلى بطل عنيف يضرب «كلاى» ويسقطه على الأرض وسط ذهول الجماهير.

\* \* \*

لقد تعجبت كثيرًا من أصحاب الفكر التأمري الذين أشاعوا أن حرب ١٩٧٣ كانت مجرد تمثيلية متفق على أحداثها من قبل. الذى أعرفه أن الحرب هى الحرب، ولا يمكن أن يقول قائد لجيشه إننا سنمثل الحرب ويقول لجنوده: قوموا بتمثيل الموت...! عندما دخل السادات المعركة كان يعرف إمكانياته بالتحديد، ويعرف أنه لو تجاوز خطأ معينًا، فستضربه الولايات المتحدة الأمريكية، وستضطر إسرائيل لاستخدام الرؤوس النووية. ومن ثم دخل المعركة وفى ذهنه المفاوضات، وكان يريد أن يجلس على طاولة التفاوض ويطالب بحقوق العرب من منطلق قوة. ولهذا السبب حدث الخلاف بينه وبين الفريق الشاذلى رئيس الأركان، فالأخير ينظر للأمور نظرة عسكرية مجردة، وهى نظرة ترى أنه مادام الطريق مفتوحًا أمامنا إلى حدود إسرائيل ولا شئ يعترض تقدم قواتنا فلماذا نتوقف؟. ولكن السادات كان ينظر للأمور نظرة سياسية مستقبلية، واستطاع بالفعل أن يحرر الأرض بمفهومه هو للأمور. وما قيل عن اتفاق «مسبق» بين السادات والولايات المتحدة الأمريكية لا أعتقد فى صحته، وأصحاب هذا رأى يعتمدون على تصريح لوزير الخارجية الأمريكى آنذاك هنرى كيسنجر كان يرد من خلاله على سؤال تم توجيهه إليه قبل حرب ١٩٧٣ وهو: هل

ستترك واشنطن الأوضاع متردية في الشرق الأوسط وتترك أراضى العرب المحتلة في أيدي إسرائيل؟ وأجاب كيسنجر: إن الأمور تحتاج إلى زلزال لتحريكها، أما نحن فلا نستطيع أن نفعل شيئاً!

وتصریح كيسنجر لا يدل على معنى محدد، ويمكن تأويله تأويلات مختلفة، وهو يذكرني بما قيل من أن الولايات المتحدة الأمريكية هي التي أوعزت إلى صدام حسين وأعطته الضوء الأخضر لغزو الكويت. إن كل ما قالته السفارة الأمريكية في بغداد للرئيس العراقي صدام حسين هو أن حكومتها لا تهمها مسألة الحدود بين العراق والكويت، فهي شأن خاص بينكما، ولكن يبدو أن صدام حسين فهم الكلام على أنه تصريح له بضم الكويت، وهو فهم سقيم وخاطي، والمسئول عنه هو صاحبه وليس أمريكا.

\* \* \*

يحسب للسادات أنه لم ينس القضية الفلسطينية في ذروة انشغاله بإعادة الحقوق المصرية، ومنذ عام ١٩٤٨ وحتى الآن لم تر القضية الفلسطينية من الدول العربية غير كلام ومزايدات وهزائم، أما مصر فلم تتخل عن دورها تجاه الفلسطينيين. وقبل حرب الخليج بذل الرئيس مبارك جهوداً ضخمة حتى أقنع أمريكا وإسرائيل بالجلوس مع قادة منظمة التحرير الفلسطينية، وبعد أن تم الاتفاق فوجئنا بعملية انتحارية نفذتها إحدى الفصائل الفلسطينية ضد أهداف مدنية في إسرائيل.. فرفضت أمريكا -بناء عليها- أن تتعامل مع المنظمة. الفلسطينيون أنفسهم مختلفون ولا يستطيعون الاتفاق على رأي، وقد قلنا لهم أيام السادات تعالوا نضع علمكم إلى جانب علمنا وعلم إسرائيل ونتفاوض على إعادة الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني فرفضوا. وقلنا للسوريين نفس الكلام ولم نسمع منهم غير الرفض، ثم بعد ذلك بسنوات بدأوا يسرون في نفس الطريق الذي سار فيه السادات من قبل، بعد أن أدركوا أنه الطريق الوحيد الذي سيوصلهم إلى حقوقهم.

\* \* \*

يعود للسادات الفضل في الاتجاه نحو الديمقراطية وطمأنة الناس وتأمينهم من الخوف، ويعود إليه تحقيق النصر التاريخي المذهل على إسرائيل، ثم السلام الذي حقق لمصر استقلالها كاملاً لأول مرة منذ أيام قمبيز. ولكن ما حدث منه بعد ذلك أضاع كل هذه الإنجازات العظيمة، فسياسة الانفتاح التي اتبعها كانت لها آثار سلبية خطيرة انعكست

على الثقافة بشكل قاس جدًا. وأقصد بالثقافة هنا الثقافة الحرة التي يطلبها الإنسان للاستئثار وإمتاع النفس، سواء كانت بالقراءة أو السماع أو المشاهدة. وهذا النوع من الثقافة بدأ تدهوره في العهد الناصري بسبب التوجه الاشتراكي الشمولي وفرض سياسة الرأي الواحد، وهو نفس ما حدث في كل النظم الشمولية ذات العقائد «الأيديولوجيات» الجامدة المحددة.

ولأن الفن ليس رأيًا صريحًا مكشوفًا مثل الأعمال الفكرية، فقد استطاع أن ينجو بمسارته للأمور، فأصبحت الحياة الثقافية تحلق بجناح واحد. أما الفكر فلم يكن أمامه إلا أن يسير في الاتجاه الذي تحدده السلطة، وأي انحراف عنه كان جزاؤه المعتقل، مثلما حدث مع الدكتور لويس عوض. واشتدت الأزمة بعد الانفتاح، وكان من الممكن أن يساهم الانفتاح في تجديد وسائل الإنتاج والثقافة، ولكن ما حدث كان شيئًا آخر.

تحول الانفتاح في مصر إلى أسلوب خاطئ للحياة، وأصبح شاغل الناس هو جمع المال بأي طريقة وفي أسرع وقت ودون النظر إلى أي قيمة أو مبدأ أخلاقي. فظهرت طبقة جديدة من أصحاب الملايين تنظر للثقافة الحرة نظرة عدائية، لدرجة أن أكبر مكتبتين في مصر تحولتا إلى محلين لبيع الأحذية. وساهم في تدهور الثقافة الحرة أيضًا الإحباط الذي تولد في نفوس الشباب، والأزمة الاقتصادية، والبطالة، والهجرة إلى الخارج، ثم ظهور التلفزيون الذي سحب جزءًا غير قليل من جمهور الثقافة الحرة. ورغم الحرية التي تمتعنا بها منذ عهد الرئيس مبارك إلا أن أزمة الثقافة الحرة لا تزال موجودة، والسبب هو تناقص أعداد المستهلكين لها. ولدينا ٢٥ مليون نسمة في استطاعتهم القراءة من سكان مصر الذين يزيدون الآن على ستين مليونًا، ولو اعتبرنا أن خمسة ملايين فقط لديهم الاستعداد للثقافة الحرة، لكان كل مفكر أو أديب لديه فرصة تحقيق أرباح طائلة من بيع إنتاجه. ولكن نتيجة للعوامل التي ذكرتها، انفض الناس عن تلك الثقافة، ووصلنا إلى حالة يمكن أن أسميها «موت الثقافة الرفيعة».

وفي عصر الانفتاح امتد التردى أيضًا إلى الفن، لأن المستهلك الجديد للفن وهو من الطبقة الجديدة المتضخمة ماليًا والفارغة ثقافيًا، تحول الفن عنده إلى ما يناسب مزاجه الخاص، وهو مزاج ليس له صبر على الفن الجاد المحترم في الأدب والمسرح أو السينما أو الغناء.

ففى المسرح، وجدنا أغلب الأعمال قريبة الشبه بما تقدمه الكباريات والنوادى الليلية، وهى الأعمال التى أطلقوا عليها اسم «المسرح التجارى»، وفى السينما ظهرت أفلام تافهة لمجرد التسلية، وفى الغناء انتشرت موجة الأغانى الخفيفة الراقصة التى تناسب الأعصاب المرهقة، وهى أغان ليس لها مضمون، ولا تستطيع أن تميز فيها بين أصوات المطربين، وكلها أغان قصيرة، سريعة الإيقاع، وكأنها سندوتشات «تيك آواي».

أنا لا أعتبر أغانى أحمد عدوية التى شاعت فى تلك الفترة تندرج تحت هذا النوع من الغناء، فعدوية فى رأى يملك صوتاً جميلاً وقوياً، وصحيح أن أغنياته لا تحتوى على معنى جاد، ولكنها تتناسب مع المناخ العام. عندما سمعت عدوية لأول مرة أعجبنى صوته وطريقته، ولم أعتبره من رواد الموجة الهابطة أبداً. والحقيقة أن الأغانى الخفيفة لم تظهر بعد الانفتاح، فقد كانت موجودة فى مصر منذ زمن طويل، حتى فى ذروة سطوة الأغانى الكلاسيكية. ففى الوقت الذى كانت فيه قائمة نجوم الطرب تضم أسماء من نوعية عبده الحامولى وصالح عبد الحى ومحمد عبد الوهاب وأم كلثوم، كان يوجد إلى جانب هؤلاء نجوم للغناء الخفيف والمونولوجات الفكاهية. وأذكر فى طفولتى أن هذين اللونين من الغناء كانا موجودين فى بيتنا، فقد كان والدى -رحمه الله- من هواة أغانى المنيلاوى، وكان يستضيفه أحياناً فى سهرات يقيمها فى منزلنا، وفى نفس الليلة كان جناح الحريم يستمع إلى أغانى العوالم من نوعية أغنية «الطرح يا بنات»، وغيرها من الأغانى الخفيفة.

فى عصر الانفتاح اختلف الحال وأصبحت الأغانى الكلاسيكية مجرد ذكريات، وأصبح الغناء الخفيف هو الأساس. هذا أشبه بشخص كان يأكل طعاماً معيناً ويحب أن يقدم له بجانبه بعض «اللب»، وفى فترة لاحقة أصبحت «قزقة اللب» هى الغذاء الرئيس له. هذا الاختلال مرجعه الأساس تأكل الطبقة الوسطى، وهى الطبقة التى كانت معدة للتذوق ولمساندة الفن والفكر. وفى عصر الانفتاح أضررت هذه الطبقة وأصبحت بضربة قاضية، وأخذت فى التلاشى والدوبان، وحلت محلها طبقة جديدة. فالموظف القديم الذى كان يعود إلى بيته بعد انتهاء عمله ليقرأ كتاباً أو يسمع أغنية أو يذهب لمشاهدة فيلم فى دور السينما، أصبح الآن لا يجد قوت يومه، مما اضطره للبحث عن عمل إضافى آخر بعد الظهر، ليستطيع الإنفاق على أسرته. ومن ثم لم يعد لديه الوقت لسمع أو يقرأ أو يشاهد.

وفى اعتقادى أن المشروعات التى تقوم بها وزارة الثقافة لإصلاح أحوال الفن والثقافة لن تجدى، لأن الأسباب أعمق بكثير، ولا تستطيع تلك المشروعات مهما أنفقوا عليها أن تؤثر

تأثيراً جدياً. إن إصلاح أحوال الفن والثقافة يحتاج إلى تحسين الحالة الاقتصادية، ويحتاج إلى إصلاح التعليم، ويحتاج إلى إعادة التوازن إلى دخول الأفراد، ويحتاج إلى انحسار التيار الديني المتطرف، ويحتاج إلى الإصلاح الاجتماعي. فآزمة الفن والثقافة ليست في الإنتاج، وإنما في الاستهلاك، بدليل أن هناك أدباء شاباً مازالوا يكتبون ويؤلفون رغم كل الظروف، وهؤلاء اعتبرهم «رهباناً» لأنهم يبدعون في ظل هذه الظروف العسيرة. أعرف شعراء على مستوى جيد كانوا يجلسون معنا في كازينو «قصر النيل»، يؤلف الواحد منهم ديواناً ويطبعه على نفقته الخاصة ويوزعه بنفسه على أصدقائه فقط. فالآزمة إذن أعمق بكثير مما تتصور وزارة الثقافة، وأسبابها متشعبة ومتشابكة، وهي تحتاج إلى حلول جذرية.

\* \* \*

من مآخذى على حكم السادات الأسلوب الذى اتبعه فى مواجهة التيارات الدينية، وكذلك النظام الديكتاتورى الذى فرضه فى مصر خاصة فى سنوات حكمه الأخيرة، والقرارات الغريبة التى كان يتخذها، وكنت أسمع عن السادات أشياء أحسبها دعابة أو نكتة ثم يتضح أنها حقيقة. أخبرنى بعض أصدقائى ذات مرة أن صحفياً أمريكياً سألته فى مؤتمر صحفى بعد موجة الاعتقالات التى أمر بها، عما إذا كان استأذن الولايات المتحدة قبل إقدامه على هذه الاعتقالات؟، فغضب السادات ورد بانفعال: «لو كان فى جيبى مسدس كنت ضربتك بالرصاص حالاً!!».. أو شيئاً من هذا القبيل.

ما فعله أنور السادات فى أواخر حكمه لا يمكن تبريره، فالرجل اعتقل مصر كلها، مسلمين ومسيحيين، رجالاً ونساءً، شباباً وشيوخاً، عناصر ورموزاً من كل الأحزاب والتجمعات السياسية. كانت الأيام الأخيرة من حكم السادات أشبه بالأيام التى سبقت قيام ثورة يوليو عام ١٩٥٢، عندما كانت الحياة السياسية مضطربة. والحكومات تتشكل ثم تقال بعد أيام معدودة. ولكن رغم كل ما حدث فى أيام السادات الأخيرة لم أتوقع له هذه النهاية الدرامية المأساوية، خاصة أنها تزامنت مع ذكرى يوم انتصاره التاريخى على إسرائيل.

\* \* \*

فى تصورى أن الحالة التى وصل إليها أنور السادات تعود إلى شعوره المتزايد بالعظمة بعد الإنجازات الكبيرة التى حققها، وهذا الشعور يسبب لصاحبه «روشة» فى المنح، وقليل جداً من الزعماء وأصحاب الإنجازات الكبرى هم الذين نجحوا فى الإفلات

من هذا الشعور القاتل. أما موقفى من معاهدة كامب ديفيد التى وقعها السادات فكان واضحاً وصريحاً لا لبس فيه. فمن خلال هذه المعاهدة استطاع السادات أن يحقق لمصر الاستقلال الكامل لأول مرة منذ أيام قمبيز كما سبق أن قلت. أما ما قيل من اعتراضات على المعاهدة وينودها السرية ومحاذيرها التى تحد من سيطرة مصر على سيناء، فأرى أنها لا تقلل أبداً من هذا الإنجاز. فبعد الهزيمة المباشرة التى لحقت بإسرائيل فى أكتوبر ١٩٧٣، كان لابد أن يشعر الإسرائيليون بالخوف والرعب والتوجس من مصر، فيصروا على تأمين حدودهم بأى شكل. ثم إنه ليس من مصلحة مصر أن يكون لها جيش وأسلحة ثقيلة فى أرض مكشوفة مثل سيناء، فلماذا نلقى بأبنائنا فى تلك البقعة الخطيرة عسكرياً؟ ولكن هل إذا ذهبنا الآن لزراعة سيناء ستمنعنا إسرائيل؟.. إطلاقاً، فالتحفظات فى الاتفاقية لا تمس استقلال سيناء. وإسرائيل احترمت الاتفاق بيننا، ومنذ أن وقعت عليه لم تحاول خرقه، ولم تحدث أى تجاوزات من جانبها، بل سلمت إلينا «طابا» نزولاً على قرار التحكيم الدولى. والخلاف القائم الآن بيننا وبين إسرائيل ليس بسبب كامب ديفيد، وإنما يعود إلى مداخلتها فى إعادة الحقوق العربية الأخرى، وممارستها سياسات لا تتفق مع أجواء السلام، مثل الاعتداءات المتكررة على لبنان، ومن قبل تدميرها للمفاعل النووى العراقى، ثم عدم التزامها بتنفيذ الاتفاقيات الموقعة مع الفلسطينيين، واستمرارها فى سياستها الاستيطانية فى الأراضى العربية المحتلة، وتدفع المهاجرين اليهود إلى الأراضى العربية. وأعتقد أنه من خلال الضغوط العربية والدولية على إسرائيل يمكن أن تحل الأزمة ويحل السلام فى المنطقة بأسرها.



فى عصر الانفتاح ثار جدل طويل حول إنجازات العهد الناصرى، مثل مجانية التعليم والقطاع العام، وأكثر ما أزعجنى فى هذا الجدل ما قرأته من هجوم على مشروع السد العالى. وعندما قرأت هذه المقالات كتبت مقالاً لأرد فيه على هذا الهجوم، وفى أثره اتصل بى الدكتور محمد عبد القادر حاتم، وأبلغنى أنه سيرسل لى ملفاً خاصاً عن السد العالى. وعندما قرأت الملف تبين لى أن السد العالى مشروع كبير متعدد المراحل لم تنفذ منه سوى المرحلة الأولى، وهو كما تصوره الخبراء تبقى له مراحل متعلقة بتحويل مجرى النهر، وتشيد أهوسة وراء الخزانات، وقنوات لامتناهات الفيضانات الشديدة. وقامت مصر بتنفيذ المرحلة الأولى فقط، ثم جاءت حرب اليمن والظروف الصعبة التى مرت بمصر،

فتوقف المشروع، ومن ثم بدأت تظهر سلبياته. وهى ليست سلبيات خاصة بالسد العالى، بقدر ما هى ناجمة عن عدم استكماله. المسؤولية هنا لا تقع على عبد الناصر لأنه مات دون أن يتمه، وإنما تقع على الذين جاءوا من بعده، ويعلمون جيداً ضرورة استكمال بقية مراحل المشروع وبسرعة، خاصة أنه كلما تقدم الزمن زادت التكاليف. وأياً كانت سلبيات السد العالى التى أفاض البعض فى شرحها مثل تناقص خصوبة التربة وتآكل الشواطئ، فإن فوائده أكثر بكثير من أضراره، ويكفى أنه حمى مصر من الجفاف وأنقذها من الفيضان.

\* \* \*

وبالنسبة لمسألة مجانية التعليم ومطالبة البعض بإلغائها، فأنا أقول بصراحة إننى ضد إلغاء مجانية التعليم وأؤيد الإبقاء عليها، وهذا التأييد ليس وليد اللحظة الراهنة، بل يرجع إلى ما قبل ثورة يوليو. فقد اعتبرت أن أعظم إنجاز للوزارة الوفدية التى تولت الحكم عام ١٩٥٠ هو تطبيقها لمبدأ مجانية التعليم فى المدارس الثانوية، وبعد ثورة يوليو عام ١٩٥٢ طبقت المجانية بصورة أشمل. فكان الطالب الفقير الذى يحصل على ٦٠٪ من مجموع الدرجات يتعلم مجاناً على نفقة الدولة. وفى فترة لاحقة ونتيجة لسوء حالة التعليم، حمل أعداء مجانية التعليم عليها حملة عنيفة وطالبوا بإلغائها. وظهرت أصوات تقول إن التعليم له مطالب والحكومة لا تستطيع الوفاء بها لكل الناس وجميع الفئات، وطالبوا بأن يكون التعليم العالى على الأقل مقصوراً على من يستطيع أن يتحمل تكاليفه ونفقاته. هذا فى رأى لا معنى له سوى أن يعود الفقراء إلى الطين، وبالفعل أصبحت المجانية فى ظل الانفتاح مجرد شعارات زائفة. فالتعليم حالياً بمصروفات باهظة، ولذلك فإن أغلب الطلبة من أبناء الطبقات الفقيرة لا يستكملون تعليمهم ويتوقفون عند المرحلة الابتدائية أو الإعدادية، ثم يرتدون إلى الأمية بعد سنوات من تركهم للدراسة. والحل فى رأى ليس فى إلغاء مجانية التعليم وإنما فى إصلاح أحوال التعليم، والقيام بثورة تعليمية لا تقتصر على المناهج فقط، وإنما تمتد إلى إعداد المعلمين، وإعداد الخريجين، فلا يصعد إلى المرحلة الإعدادية إلا الطلبة الذين لديهم الاستعداد العلمى لاستكمال الدراسة، وتم توجيه الآخرين إلى تعلم الحرف البسيطة، ولا يصعد إلى المرحلة الثانوية إلا الأعداد المطلوبة فى التخصصات الجامعية المختلفة، وهى الأعداد التى يمكن أن نجد لها مكاناً فى سوق العمل بعد ذلك. أما أن تخضع الحكومة لضغوط الأهالى وتسمح بإدخال أولادهم جميعاً إلى الجامعة فهو أمر لا مبرر له ولا بد من إلغائه إذا أردنا إصلاح أحوال التعليم.

وبالنسبة للقطاع العام فأننا لا أرفض وجوده من ناحية المبدأ؛ لأن مصر لم تخل أبداً من مؤسسات القطاع العام، حتى في أيام الاحتلال الإنجليزي، كانت هناك مؤسسات تابعة للدولة مثل السكك الحديدية والبريد والتلغراف، وكان العمل بها يسير في دقة بالغة نفتقدها هذه الأيام. وفي روسيا عندما أنشأ الشيوعيون القطاع العام حقق نجاحاً مذهلاً، حيث أداره ثوار مثاليون مؤمنون بمبادئ الشيوعية. أما في مصر فقد أعطت الثورة مؤسسات القطاع العام لموظفين سرقوها من اليوم الأول، فأصبح اقتصادنا كله في أيدي مخربة. وأنا لست منحازاً للقطاع العام أو الخاص، وإنما أنحاز للأسلوب الناجح الذي يحقق مصلحة البلد، وإن كنت أظن أن هناك قطاعات استراتيجية لا يمكن تركها في يد القطاع الخاص. كما أن هناك قطاعات يفر منها القطاع الخاص لأسباب عديدة، مثل ضخامة التكاليف وعدم تحقيق ربح سريع، ولذلك لا مفر من أن تدخل الدولة فيها. إذا أردنا الإبقاء على القطاع العام لابد من إصلاح أحواله وعلاج الفساد الذي استشرى فيه.

### حسنى مبارك

شهادة لله والتاريخ أن حسنى مبارك شخصية ممتازة جداً، ورجل نظيف، ومخلص، ومهتم بمشاكل البلد، إلى جانب أنه مستوعب تماماً للتجربتين اللتين سبقتا حكمه. ومن هنا ركز الرئيس مبارك جهوده على الإنتاج والتطوير في الداخل، وعلى السلام والعلاقات الحسنة مع الجميع في الخارج. وهى السياسة التى كنا نأمل فى تحقيقها منذ اليوم الأول لثورة يوليو عام ١٩٥٢، ولكن من سوء حظ حسنى مبارك أنه بدأ حكمه فوق بركة من الفساد والديون. فالظروف السيئة التى تولى فيها الحكم كانت أصعب من أى ظروف واجهها حاكم مصرى قبله. ورغم الإنجازات الضخمة التى حققها فإن نتائجها لم تظهر حتى الآن بشكل واضح، لأن مصر كانت أشبه بغريق سقط تحت الماء لمسافة ٥٠ متراً على الأقل، وجاء مبارك لإنقاذه، وفى كل عام يصعد به فى اتجاه السطح مترين أو ثلاثة أمتار. ولن يشعر الناس بالنتيجة إلا عندما يخرج الغريق إلى السطح ويبدأ فى التنفس من جديد.

من أبرز ما يميز حسنى مبارك أنه رجل عاقل لا يحاول إثارة المشاكل وافتعال الأزمات، خاصة فى سياسته الخارجية. فهو يحكم العقل قبل العاطفة، ويدرك أن سياسة رد الفعل والعصبية لها تأثير سئ دفعنا ثمناً غالياً بسببها من قبل. ويميز مبارك أيضاً أنه يعمل فى

حدود إمكانياته المتاحة، ويعرف أنه لا يملك عصا سحرية، يضرب بها الأرض فتتحول إلى حدائق أو آبار بتروول. وهذا لا يعنى أن حكم مبارك خال تمامًا من الأخطاء، ففي مقابل الصورة الطيبة التي رسمتها، هناك سلبيات ورثها أساسًا من عهود سابقة مثل الفساد والإهمال والتسيب.

قد يرى البعض أن الرئيس مبارك متمهل أكثر من اللازم، وأنا أثق في أنه رجل ديمقراطي وحريص على تطبيق الديمقراطية، وهو يعرف أن كثيرًا من مواد الدستور بحاجة إلى إعادة نظر وإلى تعديلات جذرية. ولمعرفتنا بمعدن الرئيس مبارك نثق أنه سيلغى جميع القوانين الاستثنائية التي تقيد الحريات، وليس فقط قانون الطوارئ، فهناك ما هو أسوأ منه، مثل قانون الصحافة ككل، والقانون الذي يمنع حرية تكوين الأحزاب، وهناك مادة يتضمنها الدستور تحتم أن يكون نصف أعضاء مجلس الشعب على الأقل من العمال والفلاحين. وهذه المادة الأخيرة من الدستور ليس لها مبرر على الإطلاق، بل إنها تضر بالديمقراطية، فلماذا نخذع أنفسنا ونساعد في إيصال عدد من الجهلة إلى البرلمان؟.. والدليل على خطأ هذه المادة وضررها البالغ أن نوابًا من العمال والفلاحين داخل مجلس الشعب أيدوا قوانين في غير مصلحة العمال والفلاحين لمجرد إرضاء الحكومة!.. لا بد أن يكون نائب البرلمان أهلاً لهذه المسؤولية، وليس مفروضًا بالقانون، فتشكيلة مجلس الشعب بالوضع الحالي لا تجعل لمصر برلمانًا حقيقيًا، أما حقوق العمال والفلاحين فيمكن ضمانها من خلال البرلمان نفسه وال نقابات المهنية القوية، وهذه النقابات في ظل إطلاق الحريات يمكن أن يكون لها دور مؤثر لا يقل عن مجلس الشعب.

والمطلوب تعديل نظام الانتخابات بحيث نشهد وجود أكثر من مرشح في انتخابات الرئاسة، مع ثقتنا بأن الشعب سيختار مبارك أيضًا، والمطلوب إدخال تعديلات يصبح من خلالها لمجلس الشعب الحق فعليًا لا صوريًا في مراجعة ميزانية الدولة وتعديلها، وحجب الثقة أو منحها للحكومة. والمطلوب كذلك دعم نصوص صريحة قاطعة تضمن نزاهة الانتخابات البرلمانية. فهناك ملايين تمتنع عن الإدلاء بأصواتها وتفضل البقاء في منازلها، لأنهم يعلمون أن أصواتهم لن تذهب حيث يشاءون، بل إلى ما تشاء الحكومة. والمطلوب أن تصبح وسائل الإعلام القومية مفتوحة للجميع، وأن تنطبق عليها صفة «القومية» بمعنى الكلمة، فيكون لزعماء المعارضة الحق في الظهور على شاشة التليفزيون لعرض أفكارهم وآرائهم. فزعماء المعارضة عندنا للأسف لا يدرى أحد بهم، في حين نجد أن أية مذبذبة تليفزيونية معروفة أكثر من خالد محيي الدين.

فلماذا لا يظهر إبراهيم شكرى رئيس حزب العمل فى التليفزيون؟ لقد عرف الناس عادل إمام عن طريق التليفزيون. بسبب التعتيم لا يوجد فى مصر رجال سياسة، فى حين أن مجتمعنا فى فترة من الفترات كان زاخرًا برجال السياسة. لابد من منح رجال المعارضة والمفكرين السياسيين فرصة للظهور، واتركوا للناس حرية الاختيار وحق المشاركة، وفكوا قيودهم، ولا تعاملوهم مثل الشباب القاصر. كيف تشكون من سلبية الناس ومن حالة اللا مبالة التى يعيشونها وأنتم تفرضون عليهم ما تريدون؟!

ولإيمانى بأن مبارك رئيس كل المصريين بكل اتجاهاتهم وأحزابهم، أدعوه للتخلي عن رئاسة الحزب الوطنى الديمقراطى الحاكم، لأنى أثق أنه الحكم العادل بين كل أبناء وأحزاب الوطن. وأنا أعتقد أن الحزب الوطنى لا يستمد قوته من ذاته أو قواعده الشعبية، وإنما من الرئيس مبارك، حتى أن كثيرًا من الناصبيين يعطون أصواتهم للحزب الوطنى من أجل الرئيس مبارك.

وبالنسبة لسياسة مبارك العربية والدولية فأنا أؤيده فيها، وكان موقفه فى حرب الخليج مشرفًا، لأنه كان منسجمًا تمامًا مع قرارات مجلس الأمن والجامعة العربية والمؤتمر الإسلامى والشرعية الدولية، وهو موقف فى صالح مصر. ومع ذلك أحزننى جدًا أن يقف جندى عربى لقتال جندى عربى آخر، وهو شئ مؤسف وثقيل على النفس، ولكن موقف القيادة العراقية هو الذى اضطرنا لذلك.

وفيما يتعلق بظاهرة التطرف والإرهاب، أرى أن الحل الوحيد للقضاء على هذه الظاهرة هو الديمقراطية الحقيقية التى تقتضى مزيدًا من الجرأة فى تغيير الدستور والقضاء على القوانين المعطلة للحريات.

\* \* \*

## الفصل السادس عشر

### ذكريات مع المظاهرات

قصة صديقي حسن عاكف الطيار الخاص للملك الذي اعتقله الضباط الأحرار - هربت من مطاردة البوليس ودخلت بيت الأمة بفردة حذاء واحدة - صفية زغلول تقوم بتحريرنا من عساكر الإنجليز - السيدة المصرية التي أنقذتني من الموت - دخلت الخمارة فنجوت من الاعتقال - في أول مظاهرة أشارك فيها لم أكن أعرف ما هو الدستور - في ميدان عابدين هجمت على سيارة سعد زغلول لأرى وجهه ولكني فشلت.



■ في هذا الفصل يروى نجيب محفوظ ذكرياته مع المظاهرات التي شارك فيها، وكلها في فترة ما قبل ثورة يوليو ١٩٥٢. وهي ذكريات تجمع بين الإثارة والطرافة والمرارة في آن واحد معاً.. وهو هنا يتوقف عند صديق له شاركه في أكثر هذه المظاهرات إثارة.. إنه حسن عاكف، الطيار الخاص للملك فاروق، وكيف تسبب في أن يدخل الكاتب الكبير بيت الأمة بفردة حذاء واحدة، ويعود إلى بيته وهو يرتدى الجوارب فقط.. ■

نجيب محفوظ: مع المظاهرات لى ذكريات تجمع بين الإثارة والمرارة والطرافة:

● أولى هذه الذكريات حدثت في أواخر عهد وزارة محمد محمود سنة ١٩٢٩. كان الرجل يدرك أن أيامه في الحكم معدودة، ولذلك سمح بالاستقبال الشعبي لمكرم عبيد عند عودته من لندن على الرغم من أن مكرم عبيد كان في العاصمة البريطانية يحمل على النظام وعلى الإنجليز الذين يؤيدونه، وفي هذا اليوم خرجت مع صديقي حسن عاكف للاشتراك في المظاهرات المؤيدة لمكرم عبيد، وأتوقف هنا للحديث عن بطل هذه الحادثة، حسن عاكف.

تعرفت بحسن عاكف عقب انتقالنا إلى العباسية، إذ سرعان ما أصبح من أقرب أصدقائي. كان والده موظفاً وله شقيقان: ولد وبنت، أما الولد فهو الدكتور أحمد زكي<sup>(١)</sup> العالم المشهور الذي تولى بعد ذلك رئاسة تحرير مجلة «العربي» الكويتية، وأما البنت فكانت متفوقة علمياً، وحصلت على بعثة لنيل درجة الدكتوراه من إنجلترا، وماتت وهي عائدة من البعثة على ظهر السفينة التي كانت تقلها. أما «حسن» فكان على عكس شقيقه دائم الخلاف مع والده بسبب زهده في التعليم، وبعد حصوله على التوجيهية قرر الالتحاق

(١) كان الدكتور أحمد زكي من كبار الأدباء والعلماء في جيله، وقد تولى رئاسة تحرير مجلة «الهلال» الثقافية في الأربعينيات، وأصبح وزيراً للشئون الاجتماعية في وزارة حسين سري التي استمرت عشرين يوماً قبل الثورة، من ٢ إلى ٢٢ يوليو سنة ١٩٥٢، ثم أصبح بعد الثورة مديراً لجامعة القاهرة.

بالكلية الحربية. ورفض والده التحاقه بها، حيث كان يعتبر ذلك هو الفشل بعينه، إلى هذا الحد كانت الناس تنظر إلى الكلية الحربية هذه النظرة السلبية في ذلك الوقت. وقد تصاعد الخلاف بين «حسن عاكف» ووالده لدرجة أن حسن حاول الانتحار وتم إنقاذه في اللحظات الأخيرة، ونقل إلى مستشفى قصر العيني لإسعافه، وذهبت لزيارته، كما زاره جميع أفراد أسرته، باستثناء والده، وكان له ما أراد والتحق بالكلية الحربية. وفي تلك الأثناء تم إنشاء الكلية الجوية، فتقدم حسن للاختبارات ونجح في الالتحاق بها، وقام بنقل أوراقه إليها، ونجح في سنوات الدراسة حتى تخرج فيها. ذاعت شهرة حسن عاكف بعد أن تمكن من قيادة الطائرة من أوروبا إلى مصر بدون توقف، وكان ذلك حدثاً فريداً، كما كان حديث المجتمع والصحافة في مصر لأسابيع طويلة، ونظراً لبراعته في قيادة الطائرات اختاره الملك فاروق ليقود طائرته الخاصة، وأصبح حسن عاكف هو الطيار الخاص للملك، ومن الشخصيات المهمة في مصر التي يعمل لها الكل ألف حساب. ومع ذلك لم يتخل حسن عن شعبيته وروحه المرححة، فكان يستغل أى وقت فراغ ويتسلل إلى العباسية ويسهر معنا على قهوة «عرايى». ولأننا ندرك خطورة موقعه وموقفه، كنا نجلس داخل المقهى عندما يكون معنا، وليس خارجه كما اعتدنا.

عندما قامت الثورة حاول حسن عاكف أن يقوم بتهريب الملك للخارج، وتم إلقاء القبض عليه قبل أن ينفذ محاولته، وتم تقديمه للمحاكمة التي دافع فيها عن موقفه برجولة. قال حسن في المحكمة إنه يعتبر الملك فاروق مولاه، وإنه لا يعرف شيئاً عن أهداف ونوايا القائمين بالثورة، ورأى أن من واجبه أن يحافظ على الرجل الذي عينه لخدمته ويعتبره حاكماً لمصر. وكان حسن عاكف من رجال الملك القلائل الذين أفرج عنهم بعد أن اعتقلتهم الثورة. ومات حسن عاكف في أواخر الثمانينيات، ولتأثرى البالغ بشخصيته قدمته في رواية «صباح الورد».

نعود إلى المظاهرة، فقد كانت كل الأمور في ذلك اليوم تسير على ما يرام، فلا عنف أو تدخل من البوليس، ومر موكب مكرم عبيد في سلام. وأخذنا - أنا وحسن عاكف - نجرى وراء الموكب حتى نلحق به في بيت الأمة «بيت سعد زغلول»، لنستمع إلى خطبتي النحاس ومكرم. وفجأة توقف حسن عاكف عن الجرى، واتجه ناحية ضابط بوليس برتبة كبيرة من الذين يراقبون سير المظاهرة، ويدون تردد ضربه حسن عاكف بقبضة يده في بطنه بكل ما أوتى من قوة، فسقط الرجل مغشياً عليه. ولمحه عسكري من عساكر الخيالة، فجرى وراءنا بحصانه، ونحن نركض أمامه كالريح حتى وصلنا إلى السور الخلفى لبيت الأمة.. فقفز

حسن عاكف برشاقة إلى الجانب الآخر، وطلب منى أن أعطيه ذراعى ليساعدنى على القفز. وفي تلك اللحظة وصل عسكري الخيالة وأمسك بساقي قبل أن أفقر السور، وجذبني حسن عاكف بقوة فوجدت نفسى فى الداخل، ولكن بدون فردة الحذاء، ودخلت بيت الأمة بقدم فيها جورب وقدم فيها فردة حذاء. كان الموجودون قد بدأوا فى الانصراف، ولم يبق إلا عدد قليل من الناس، واستقبلتنا السيدة صفية زغلول، وشرحنا لها الموقف كله، وأعربنا لها عن مخاوفنا من انتظار العساكر لنا فى خارج البيت للقبض علينا. طمأنتنا السيدة صفية وكنا نسميها «أم المصريين»، وقدمت لنا عصير الليمون، وبعثت الخادم ليستطلع لنا الشوارع المحيطة ببيت الأمة. عاد الخادم بعد قليل وأخبرنا أن الشوارع خالية من أى أثر لعساكر البوليس، فانصرفنا، وسرت فى الشارع بفردة حذاء واحدة وجورب حتى وصلت إلى البيت، وأنا لا أكاد أصدق أننى نجوت من هذا المأزق.

• الحادثة الثانية وقعت فى عهد وزارة صدقي باشا الأولى سنة ١٩٣٠، حيث خرجت مع صديقى المعلم «كرشو» لنشارك فى المظاهرات ضد حكومة صدقي باشا بسبب إلغائه لدستور ١٩٢٣. وقبل سرد ما حدث أتوقف - أيضًا - عند رفيقى فى هذه الذكرى «المعلم كرشو». فاسمه الحقيقى هو «سامى صادق»، وتعرفت عليه فى العباسية، وأصبح من رواد شلتنا. وكان قد حصل على أرض من الحكومة واستصلحها وزرعها وأنشأ فيها منحلا للغسل، وكنا نناديه «بالمعلم كرشو» على سبيل الدعاية حتى أصبح اللقب علما عليه.

فى ذلك اليوم كانت المظاهرات عبارة عن كر وفر بين المتظاهرين والبوليس، وبعد أن أوشك اليوم على الانتهاء، قررنا العودة إلى البيت قبل حلول الظلام. فدخلنا فى شارع حسن الأكبر لتصل منه إلى ميدان الأوبرا، ومن هناك نستقل الترام إلى العباسية، وفى شارع حسن الأكبر حدثت الواقعة. كان «كونستابل إنجليزى» يمر بموتوسيكل من نفس الشارع، وعندما اقترب منا، شق حجر ضخيم الهواء وأصاب رأس الكونستابل الإنجليزى الذى سقط مضرجًا فى دمايه وفوقه الموتوسيكل. والذى ألقى بهذا الحجر، وهو من أبناء البلد، اختفى، وقريبًا من المكان توجد فرقة من الجيش المصرى شاهد أحد أفرادها الحادث، فاتجهت الفرقة إلى المكان. وبدون تفكير انطلقنا أنا و«المعلم كرشو» نعدو بأقصى سرعة، وخلفنا العساكر وكان منهم بعض عساكر الخيالة، يحاولون اللحاق بنا. دخلنا فى عطفة ضيقة حتى نتمكن من الاختفاء عن أنظارهم، فما كان إلا أن فوجئنا بأن العطفة ما هى إلا

حارة سد، فأدركت في تلك اللحظة أننا هالكان لا محالة. وانفتح باب الأمل أمامنا عندما سمعنا صوت سيدة مصرية تنادى علينا وتدعونا إلى أن ندخل من باب بيتها، وبسرعة البرق دخلنا، وأغلقت السيدة الباب فوراً. أخبرتنا السيدة أن سطح البيت ملاصق لسطح عمارة تؤدي إلى شارع إبراهيم باشا، فانتقلنا إلى السطح مباشرة إلى طريق النجاة. ولم ننس لهذه السيدة صنيعها، وعدنا إليها بعد بضعة أيام لنقدم لها الشكر وعلمة من الشيكولاتة، لأنها كانت السبب في نجاتنا.

• أما الحادثة الثالثة فقد وقعت كذلك في عهد حكومة صدقي باشا وكان رفيقى فيها في تلك المرة «فؤاد نورية»، وهو من أصدقاء شلة العباسية. فقد وقفنا مع الجماهير المصطفة لاستقبال النحاس باشا القادم من الإسكندرية، وحدثت مشاغبات بين الجماهير والبوليس، فركضت مع نورية، ودخلنا في عطفة «الكونتنتال»، وفوجئنا بمجموعة من العساكر يجرون في أثرنا للقبض علينا. وجدنا أمامنا سلمًا، وبدون تفكير صعدنا فوقه ودخلنا إلى باب في نهاية السلم، واكتشفنا أننا داخل خمارة للإنجليز، لا يوجد فيها مصرى واحد. نظر لنا رواد الخمارة الإنجليز شزراً، ولكننا لم نهتم وقصدنا منضدة في ركن بعيد، جلسنا عليها، وعيوننا باتجاه الباب. اقترب منا الجرسون اليونانى، ويبدو أنه فهم سبب حضورنا إلى الخمارة، فقال مباشرة: إن ثمن كأس الكونياك أربعة صاغ، فهل معكما ثمن كأسين؟! أجبتا في نفس واحد: «هات لنا اثنين!». شربنا الكونياك بأيدي مرتجفة، ولم تمض سوى دقائق حتى جاءنا الجرسون وهو يقول بلهجة لا تخلو من الخبث والدهاء: «خلاص الدنيا انفضت بره»، وكان معنى كلامه مفهوماً لنا، وهو أن تترك المكان ونمضى لحال سبيلنا، وهو ما فعلناه.

وكانت أول مظاهرة أشارك فيها فى حياتى أثناء احتدام الخلاف بين سعد زغلول والملك فؤاد سنة ١٩٢٤. كنا وقتذاك مجرد تلامذة لانفهم شيئاً من أمور السياسة، وكل ما نعرفه هو أن سعد زغلول دخل فى صدام مع الملك، وبما أننا مؤيدون لسعد زغلول فلا بد أن نخرج فى المظاهرات، ونهتف ضد الملك. أشار علينا رئيس الطلبة بالمدرسة زميلنا عبد المنعم - لا أتذكر اسمه كاملاً الآن - بأن نخرج مع المتظاهرين إلى ميدان عابدين لنشارك فى المظاهرات، ونؤيد سعد زغلول فى خلافه الدستورى مع الملك. فخرجنا ونحن لا نفهم معنى الخلاف الدستورى، أو ما هو الدستور أصلاً. وكل ما فعلناه فى ذلك اليوم أننا كنا نردد هتاف «سعد أو الثورة»، واشتعلت الهتافات بمجرد أن حضر سعد زغلول

بسيارته إلى ميدان عابدين ودخل القصر. وظللنا في انتظاره حتى اجتمع بالملك  
وخرج دون أن تهدأ الهتافات. كانت أمنيته في ذلك اليوم أن أرى سعد زغلول رأى العين،  
وتحفظت لأن أهجم على سيارته بمجرد خروجه ليكون لي شرف رؤيته. ولكن هيهات،  
فقد سدت الجموع البشرية الطريق أمامي، ورجعت إلى البيت خائبًا، لأنني لم أحقق هذه  
الأمنية التي لم تتحقق بعد ذلك أبدًا، وهي رؤية سعد زغلول رأى العين.

\* \* \*



## الفصل السابع عشر

### روايات أثارت أزمات

أزمة «أولاد حارتنا» سببها حسن النية - كنت أحلم بالعدالة فاتهموني بالسخرية من الأنبياء والأديان - قصة «الخوف» التي انتقدت فيها عبد الناصر - فكرة «الكرنك» جاءتنى بعد لقاء مع حمزة البسيوني - صلاح نصر يرفع قضية ضد «الكرنك» - هيكل يفضب منى ويشكونى إلى توفيق الحكيم - اليسار ينقلب ضدى وينتهمنى بالهجوم على عبد الناصر - «الكرنك» هى الرواية الوحيدة التى خرجت فيها عن منهجى فى الكتابة - «عودة الوعى» والمادة الغريبة التى اكتشفتها فى توفيق الحكيم - الكارثة القومية التى نهت إليها فى «ثرثرة فوق النيل» - «ميرامار» تنتقد الديكتاتورية والاتحاد الاشتراكى - ردى على الذين اتهموني بنفاق الحكام.



■ يعترف نجيب محفوظ بأنه تعتمد أن تكون شخصيات روايته «أولاد حارتنا» موازية لشخصيات الأنبياء دون أن يقصد الأنبياء أنفسهم، ويعترف كذلك بأنه كتبها بحسن نية شديد، ولم يتوقع كل هذه الضجة التي أثارها.

وفي هذا الفصل يتناول أشهر رواياته التي أثارت أزمات، فإلى جانب «أولاد حارتنا» يذكر «الكرنك» ويعترف بأنه كتبها بوحى من شخصية «حمزة البسيوني» مدير السجن الحربي فى عهد عبد الناصر، وقصة «الخوف»، ورواية «ثرثرة فوق النيل»، وغيرها من الأعمال التى انتقد فيها نظام الحكم. وهو هنا يرد على الذين اتهموه فى فترة من الفترات بنفاق السلطة. ■

نجيب محفوظ: ربما تكون «أولاد حارتنا» أكثر رواياتى إثارة للآزمات والجدل، وهذا الأمر لا يتفق مع حسن النية الذى كان وراء كتابتى لهذه الرواية. وأعترف بداية أننى اخترت أسماء الشخصيات موازية لأسماء الأنبياء، وجعلت من المجتمع انعكاساً للكون، وكنت أريد بذلك أن تكون القصة الكونية غطاء للمحلية. وبلغ من حسن نيتى أننى فكرت فى كتابة مقدمة للرواية أشرح فيها وجهة نظري، لأننى كنت أحسب أن من يقرأها سوف يقرأها قراءة صحيحة. ولم أقدر أن حسن النية عندى سوف ينتهى بوجود مفاتيح سهلة فى أيدي الجماعات المتطرفة للطعن فى الرواية وصاحبها. كنت أظن أن الناس ستقرأ الرواية من منطلق هذه الرؤية الشاملة، وهل هذه الشخصيات التى تقدمها الرواية هى شخصيات خيرة أم شريرة؟ وهل تقوم بأدوار البطولة أم بأدوار ثانوية؟. فإذا كانت تلك الشخصيات خيرة، وتقوم بأدوار البطولة، فإن التفسير الموضوعى يؤكد أن مؤلفها ليس ضد الأنبياء، وليس لديه النية للإساءة إليهم. وللأسف فوجئت بتفسيرات غريبة للرواية، فقد طابقوا بين الأنبياء وأبطال الرواية، لدرجة أن أحدهم قال لى إننى جعلت أحد الأنبياء «بيحشش وماشى حافى»!، ودخلنا فى جدل عقيم وصل إلى حد الإسفاف، ولم أحسب مطلقاً أننى سوف أتعرض لشيء من ذلك عندما كتبت الرواية.

المغزى الأساسى لرواية «أولاد حارتنا» هو أنها حلم كبير بالعدالة وبحث دائم عنها،

ومحاولة للإجابة عن سؤال جوهري: هل القوة هي السلاح لتحقيق العدالة أم الحب أم العلم؟ والذي دفعني لكتابة هذه الرواية، وهي أول رواية أكتبها بعد قيام ثورة يوليو، هو تلك الأخبار المتناثرة والتي ظهرت في تلك الفترة - حوالى العام ١٩٥٨ - عن الطبقة الجديدة التي حصلت على امتيازات كبيرة بعد الثورة، وتضخمت قوتها.. حتى بدأ المجتمع الإقطاعي الذي كان سائدا في فترة الملكية يعود مرة أخرى، مما ولد في نفسى خيبة أمل قوية، وجعل فكرة العدالة تلح على ذهنى بشكل مكثف، وكانت هذه هي «الخميرة» الأولى للرواية.

بعد «أولاد حارتنا» وجدت نفسى مدفوعا إلى كتابة القصة القصيرة. وفي هذه المرة لأسباب مختلفة عن تلك التى واجهتنى فى مقببل حياتى ودفعتنى لكتابة القصة القصيرة. ففي المرة الأولى كتبت القصة القصيرة بسبب يأسى من نشر رواياتى. ووجدت أن أسهل طريقة للنشر هى كتابة القصة القصيرة وإرسالها إلى الصحف والمجلات المهمة بنشرها، ولم تكن كتابتها عندي نتيجة ميل أصلى إليها. أما فى هذه المرة فقد شعرت بدافع فنى وفكرى وروحى نحو القصة القصيرة. ولو سألتنى عن أسباب هذا الدافع لقلت إنها أسباب غير محددة بالضبط، وهى فى العموم نفس الدوافع عند أى أديب لكتابة القصة القصيرة.

ومن القصص التى كتبتها فى تلك الفترة، قصة بعنوان «الخوف» وتدور أحداثها حول مجتمع يحكمه الفتوات، فيصل إليهم «ضابط» يهزمهم ويتغلب عليهم، ويغير ملابسهم الرسمية بأخرى مدنية، ويجلس مع الفتوات على المقهى، ويعيش معهم نفس حياتهم، ويخطف منهم فى النهاية الفتاة التى يتنازعون عليها. لم يجد القراء صعوبة حينما قرأوا القصة فى فهم ما كانت تهدف إليه من اعتراض واضح على أساليب الثورة الديكتاتورية، وأن الفتوات هم رمز للقوى السياسية والأحزاب التى كانت تتصارع على السلطة قبل الثورة، وأن هذا الضابط الذى جاء وهزمهم وخطف الفتاة منهم هو جمال عبد الناصر<sup>(١)</sup> نفسه. وكانت القصة فى مجملها نقدا صريحا للأسلوب غير الديمقراطى الذى اتبعه فى الحكم. ومن خلال الهمس الذى سمعته بعد نشر القصة على صفحات «الأهرام» شعرت أنها سببت

(١) مما ساعد على تصور جمهور القراء على أن بطل القصة يرمز إلى الرئيس عبد الناصر أن بطل القصة اسمه «عثمان جلالى»، ففى هذا الاسم الحرفان الأول والثانى من اسم جمال عبد الناصر، وهما «ج، ع».

رعباً للمسئولين في الصحيفة، وسببت لي أنا الآخر رعباً على المستوى الشخصي. فعندما كنت أسير في الشارع كان يعترض طريقى بعض الضباط ويسألوننى عن مغزى القصة، ومن هـى الشخصية الحقيقية التى أرمز إليها بشخصية الضابط؟! .. استطعت الهروب من هذا المأزق بحيلة طريفة، ففى تلك الفترة كانت قصة الضابط أبو زيد أشهر من نار على علم، حيث استعانت به الدولة - قبل الثورة - لتأديب المجرمين فى الصعيد وأثبت كفاءة عظيمة، وعندما وقعت خناقة الفتوات فى الحسينية ودخول الفتوة «كامل عرابى» السجن بعد الثورة تم نقل «أبو زيد» إلى «الحسينية» لتأديب الفتوات، وأصبح أشهر ضابط بوليس فى منطقة «الحسينية». لقد شاهدت «أبو زيد» مرة واحدة وهو يجلس على قهوة «عرابى»، وكان الرجل ضخماً الجثة، وأصبح شكله العام مثل الفتوات تماماً.

وعندما كان يعترض طريقى أحد الضباط ليناقشنى فى قصة «الخوف» ويسألنى عن الشخصية الحقيقية وعما إذا كنت أقصد بها جمال عبد الناصر، كنت أبادره بالسؤال: هل أنت من الحسينية؟! .. وأشرح له أنه إذا كان ممن يعيشون فى الحسينية أو قريباً منها، فإنه حتماً سوف يعرف الشخص الذى أقصده، وهو الضابط «أبو زيد» الذى كان مشهوراً هناك. وفى كل مرة أتعرض فيها لهذا الموقف كان يدور نفس هذا الحوار، وفى كل المرات كان صاحب السؤال يقتنع بوجهة نظرى وتفسيرى للقصة، أو يتظاهر بالافتناع.

أما فكرة رواية «الكرنك» فقد وردت إلى ذهنى وأنا أستمع إلى أصدقاء مقهى «ريش» وهم يقصون على ما لاقوه من صنوف التعذيب أثناء فترة اعتقالهم. قلت لنفسى: لماذا لا أسجل هذه الأحداث فى عمل روائى لألفت الأنظار لهذه القضية؟ واختمرت فكرة الرواية فى رأسى بعد أن قابلت اللواء حمزة البسيونى الذى كان مديراً للسجن الحربى. فذات يوم ذهبت إلى مقهى عرابى بصحبة جمال الغيطانى، وأثناء دخولنا صافح الغيطانى بحماسة شخصاً كان يلعب الطاولة مع صديق له على منضدة مجاورة لنا. وأخبرنى الغيطانى أن هذا الرجل هو حمزة البسيونى الذى كان مديراً للسجن الحربى. جلست أتأمل فى ملامحه التى لا تظهر عليها علامات الخشونة والجفاء بما يتفق مع ما كان مشهوراً عنه من غلظة فى التعامل.. كان وقتذاك قد خرج من الخدمة ويحاول الرجوع إليها مرة أخرى.

رأيت حمزة البسيونى مرة ثانية فى مقهى عرابى، حيث كنت جالساً، وإذا به يدخل المقهى ويقترب منى ويقول فى لهجة محايدة «سعيدة يا أستاذ»، ثم جلس على منضدة مجاورة. وبعد أيام لقى مصرعه فى حادث تصادم مروع وهو فى طريقه إلى الإسكندرية.

من خلال ما سمعته عن حمزة البسيوني وأفعاله مع المعتقلين في السجن الحربي، وما حكاه لى أصدقاء مقهى «ريش»، بدأت فى التخطيط للرواية. وعندما انتهت من كتابتها ذهبت إلى الأستاذ هيكل وسلمت له أصول الرواية لينشرها مسلسل فى «الأهرام». كان ذلك على ما أذكر سنة ١٩٧٢ وقبل خروج هيكل من «الأهرام». قرأ هيكل الرواية فثار واعترض عليها ورفض نشرها واستدعى توفيق الحكيم ليشكونى إليه، وقال له: «شوف نجيب جايب لى إيه؟!».

تعرضت الرواية لحذف كثير من أجزائها، وشطب مقص الرقيب كثيرا من أجزائها قبل أن تخرج للنور، ومع ذلك كانت الرواية سببا مباشرا لانقلاب كل اليساريين ضدى لأنهم اعتبروها هجوما على عبد الناصر. خاصة أنهم فى تلك الفترة كانوا مشتبكين فى معركة حامية مع أنور السادات وأنصاره، واعتبروا الرواية مؤيدة للصف المقابل، صف السادات وأعداء عبد الناصر، رغم أننى لم أقصد الهجوم على عبد الناصر فى «الكرنك» ولم أتعرض له فى الرواية، وكان هدفى الوحيد منها إثارة قضية التعذيب فى المعتقلات.

وأغرب أزمة أثارها الرواية ولم أكن أحسب حسابها، هى غضب صلاح نصر منها على أساس أننى أقصده بشخصية الضابط الكبير الذى أشرف على تعذيب أبطال الرواية. وعندما تحولت «الكرنك» إلى فيلم سينمائى كتب له السيناريو ممدوح الليثى، ولعب دور الضابط فيه الفنان كمال الشناوى، فوجئت بصلاح نصر يرفع دعوى قضائية ضدنا بتهمة التشهير به، وأذكر أننى ذهبت مع ممدوح الليثى إلى المحكمة لحضور إحدى جلسات هذه القضية التى لا أذكر تفاصيلها الآن.

لم أتوقع أن يثير صلاح نصر هذه الأزمة لأنه لم يخطر ببالى وأنا أكتب الرواية، ولم أقصده بتلك الشخصية، خاصة أننى لم ألتق به إلا مرة واحدة وعلى سبيل المصادفة عندما ذهبت إلى مبنى المخابرات للاتفاق على تفاصيل فيلم خاص بالفنان فريد شوقي يدور حول عمل المخابرات. ويومها جرى بيننا حوار حول رواية «أولاد حارتنا». حاول بعض الأصدقاء أثناء نظر قضية التشهير عقد لقاء بينى وبين صلاح نصر لتصفية الخلاف والتنازل عن القضية، ولكن لأسباب لا أتذكرها لم يتم اللقاء، ولو حدث لقلت له صراحة إننى لم أقصده بل كنت أقصد حمزة البسيوني.

وحاولت المخابرات بعد «الكرنك» أن تمحو الصورة السيئة التى انطبعت فى أذهان

المثقفين عن حقيقة نشاطها، تلك الصورة التي كانت تقربها من صورة «المافيا». ودعت المفكرين والمثقفين وعددا كبيرا من الكتاب لزيارة مبنى المخبرات ليتأكدوا بأنفسهم أنه ليس جهازا للتعذيب، وساعدت في إنتاج عدد من الأفلام السينمائية التي تتناول بطولات قامت بها لخدمة الوطن مثل «الصعود إلى الهاوية».

في تلك الفترة كان هناك مخطط للهجوم على عبد الناصر، وبعد خروج «الكرنك» للنور، توالى ظهور الأعمال والكتب التي تهاجم عبد الناصر وعهده. ولذلك ظن كثيرون أن «الكرنك» كانت بداية لحملة، في حين أن ظهورها جاء مصادفة ولا دخل لها إطلاقا بتلك الحملة، وإلا ما كانت تعرضت لمقص الرقيب الذي حذف الكثير منها، ثم إن «الكرنك» لا تقارن بتلك الأعمال التي ظهرت في إطار تلك الحملة مثل كتابات توفيق الحكيم وفتحى عبد الفتاح والمستشار على أبو جريشة.

وقد قرأت أغلب هذه الأعمال وانتابني شعور بالضيق ولم أستطع تكملتها، كذلك انتابني شعور آخر بأننى تسرعت فى إصدار «الكرنك»، وأحسست أنه لم يكن هناك داع لكتابتها أصلا. خاصة أنها لم تكن فى خطتى الأدبية، والذي دفعنى لكتابتها هم هؤلاء الشبان الذى قصوا على ما تعرضوا له من تعذيب أثناء اعتقالهم، فكتبته لمجرد التعاطف معهم، ولتسجيل موقف ضد مبدأ التعذيب داخل المعتقلات. وأعتبر «الكرنك» هى الرواية الوحيدة التى خرجت فيها عن منهجى فى الكتابة، ذلك المنهج الذى يعتمد على دراسة كل الحقائق المرتبطة بموضوع الرواية. فالكتابة عن الحارة المصرية مثلا تقتضى معرفة كل دقائقها وخباياها، حتى لا يقع الكاتب فى أخطاء. أما فى «الكرنك» فكانت الرواية معتمدة على مجرد السمع وليس المعاشة، ولذلك عندما تقرأ ما كتبه د. فتحى عبد الفتاح فى كتابه «شيوعيون وناصريون»، تجد أنه أكثر واقعية وتعبيرا عن قضية التعذيب لأنه عاش التجربة بنفسه. وعندما ظهر فيلم «الكرنك» لاحظت أن السيناريو قد بالغ إلى حد كبير فى مسألة التعذيب، وشعرت وكأنه مستمد من رواية أخرى، وأنه يتقرب إلى السلطة التى شجعت فى ذلك الوقت كل ما هو هجوم على الناصرية. عدد كبير من النقاد الذين شاهدوا الفيلم قالوا إنه يراد به أن يكون «الدكتور زيفاجو» ضد عبد الناصر، مثلما كان هذا الفيلم ضد النظام اليسارى، بدليل أن الحكومة سمحت بعرض الفيلم فى السينما، ثم عرضته على شاشات التلفزيون المملوك لها.

ونتيجة للهجوم الذى شنته على فضائل اليسار والناصرين، والاتهامات التى حاولوا

إلصاقها بى، وأنا منها برىء، أصبت بمتاعب صحية فى القلب، وآلام فظيعة صاحبتنى فترة طويلة.

أما الكتاب الذى يعد نقدا عنيفا ومباشرا لعصر عبد الناصر فهو كتاب «عودة الوعى» لتوفيق الحكيم. وهو أول كتاب حمل نقدا جارحا لعبد الناصر وعهده فى الأدب المصرى المعاصر، خاصة أنه صدر بعد وفاة عبد الناصر مباشرة. وأذكر أن توفيق الحكيم قرأ لنا هذا الكتاب، أنا وإبراهيم باشا فرج، قبل نشره، قلت فى نفسى إن هذا الكتاب لا يمكن أن يخرج إلى النور، ولا بد أن الحكيم سيحفظ به لئىشر بعد وفاته. والحكيم نفسه أكد لى هذا المعنى عندما قال لنا إن هذا الكتاب سرى وأنه يعرضه علينا بشكل خاص.

واكتشفت بعد ذلك أن من عادة توفيق الحكيم فى كل أعماله بداية من «أهل الكهف» أن يوحى لمن يعرضها عليهم قبل النشر بمدى خطورتها وسريتها، حتى يلفت إليها الانتباه، لأنه بعد أن قرأ لنا «عودة الروح» بأيام قليلة فوجئت بالكتاب منشورا فى لبنان، وعرفت بعد ذلك أنه أحضر ناشرا لبنانيا وقدم له الكتاب ليقرأه موحيا له بمدى خطورته وسريته كما هى عادته، وهو مدرك أن الناشر اللبنانى سيصدر الكتاب، ربما قبل أن يتم قراءته.

وأحدث كتاب «عودة الوعى» صدمة شديدة فى صفوف المثقفين لأنه كان يتضمن وجهة نظر مختلفة تماما عن آراء الحكيم التى طالما أعلنها فى عهد عبد الناصر، وهى وجهة نظر مناقضة لما عرف عن علاقة الحب التى ربطت بينهما منذ قيام الثورة. كان الزعيم الذى حلم به الحكيم فى «عودة الوعى» هو عبد الناصر، وكان لدى عبد الناصر نفسه هذا الإحساس، لذلك أكرم الحكيم دائما وأحبه، ومن هنا كانت صدمة «عودة الوعى».

والحقيقة أن فقدان الوعى الذى أصاب الحكيم، تعرضت له أنا الآخر ولكن بشكل تدريجى. فعندما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ علقت عليها آمالا كبيرة، وريدا ريذا بدأت هذه الآمال فى التضائل، خاصة بعد الصدمات التى تعرضنا لها، بداية من فشل الوحدة مع سوريا، وورطة حرب اليمن، ونكسة ١٩٦٧، وانتهاء بفرض النظام الديكتاتورى كأسلوب للحكم. وكان السبب الرئيسى الذى جعل كثيرين يغضبون من توفيق الحكيم، هو أن هجموه انصب بشكل مباشر على شخص عبد الناصر، وأنه حملة مسئولية كل الأخطاء.

فى رواياتى انتقدت نظام الحكم وحاولت توضيح الأخطاء، ولكنها كانت انتقادات موضوعية لم تتعرض لأشخاص. وفى رواية «ثرثرة فوق النيل» التى ظهرت فى عز

مجدد عبد الناصر، وفي وقت كان فيه الإعلام الرسمي يحاول ليل نهار أن يؤكد للناس انتصار الثورة والنظام، نهبت إلى كارثة قومية، كانت قد بدأت تطل برأسها على السطح، وكان لابد أن تكون لها نتائجها الخطيرة. وكنت أعنى محنة الضياع وعدم الإحساس بالانتماء التي يعاني منها الناس، خاصة في أوساط المثقفين، الذين انعزلوا عن المجتمع، وأصبحوا في شبه غيبوبة، فلا أحد يعطيهم الفرصة ولا هم قادرون على رؤية الطريق الصحيح. وفي المحاولة التي قاموا بها لإيجاد هذا الطريق ارتكبوا حادثة رهيبة في شارع الهرم ولاذوا بالفرار، وهي الحادثة التي تدل على أن عزلتهم وأنانيتهم دفعتهم للإقدام على هذا التصرف الخاطئ. بعض النقاد ربطوا بين حالة الغيبوبة التي يعيشها أبطال الرواية وتلك الحالة التي كانت تعيشها طائفة «الحشاشين»، إحدى الفرق المتطرفة التي ظهرت في تاريخ الدولة الإسلامية، وكان زعيمهم حسن الصباح يوهمهم تحت تأثير تناولهم للحشيش أنهم في الجنة، ويحرضهم على قتل الزعماء، وفي إحدى المرات كادوا يقتلون صلاح الدين الأيوبي. والفارق بينهما أن الغيبوبة التي يعيشها أبطال رواية «ثرثرة فوق النيل» تمثل نوعاً من الانتحار الذاتي وطريقاً للخلاص من المشكلات التي يواجهونها، أما زعيم الحشاشين، فكان يستغل هذه الحالة ليوجه أتباعه إلى عمل عنيف وهو القتل.

وفي رواية «الرص والكلاب» كان هناك نقد واضح لثلاث قضايا، الأولى: هي خيانة المبدأ، والثانية: مبدأ الاغتيال نفسه، والثالثة: الحلول الغيبية. وكنت أعنى أن أمور التصوف والدروشة لا تقدم للسالكين فيها سوى تسكين مؤقت، ولكنها لا تعالج المشكلة من أساسها. وكنت أنبه إلى خطورة تغلغل وانتشار الطرق الصوفية في مصر بعد الثورة، حيث وجد فيها الناس بعض العزاء عن إلغاء الأحزاب والقوى السياسية التي تعبر عنهم، حتى أنني شعرت في لحظة من اللحظات أن الشعب كله أصبح عبارة عن تجمعات من الدراويش. ومن الفرق الصوفية بدأت تظهر في فترة لاحقة جماعات لا تؤمن بالحلول الغيبية والمسكنات، ولا تجد نفعاً في التصوف المسالم، واقتنعت بضرورة اللجوء إلى استخدام العنف والقوة.

وكانت رواية «الشحاذ» تعبيراً عن حالة الضياع والإحباط التي يعيشها المثقفون، وحاولت فيها أن أقول إننا عدنا، كما كنا في أواخر الخمسينيات، نبحت عن طريق للخلاص، نبحت عما نسميه اليوم بالانتماء.. فرواية «الشحاذ» عبارة عن أغنية رثاء ذاتية لمثقف يساري ضائع فعل كل شيء ولكنه لم يحصل على نتيجة، فيدخل في صراع نفسي رهيب. ويسأل نفسه: أنا ابن من؟ وما هو الهدف من حياتي؟ ولماذا جئت إلى هذه الدنيا؟.. وهذه الأسئلة

لا ترد على ذهن الإنسان إلا في حالات الإحباط واليأس. وفي تلك الأعمال ظهر بوضوح الانتقال من المستوى الاجتماعي إلى المستوى الفلسفي.

وفي رواية «ميرامار» تعرضت بصراحة لمشكلة الاتحاد الاشتراكي وصراع الطبقات في المجتمع، وتعرضت كذلك للديكتاتورية، وانتقدتها بشدة. ومع كل ذلك ظهرت كتابات نقدية تهاجمني وتتهمني بنفاق السلطة في تلك الأيام، وهؤلاء لا يعرفون أنني كنت أكتب الرواية، ثم أضع يدي على قلبي خشية الاعتقال. ثم ماذا يريدون مني بعد كل تلك الانتقادات الصريحة التي وجهتها إلى السلطة وكشفت فيها عن أخطاء خطيرة؟ وهي أمور ما كنت لالتفت إليها لو كان في نيتي نفاق الحكام.

\* \* \*

## الفصل الثامن عشر

### المذاهب السياسية

تعاطفت مع الشيوعية ورفضت الفاشية والنازية - معسكر الفاشست في الإسكندرية - الشيوعيون الذين عرفتهم في مصر - «هنري كورييل» كان عميلاً للإنجليز - لماذا لم تنتشر الشيوعية في مصر؟! - الأسباب الحقيقية لانحياز الاتحاد السوفيتي - جورباتشوف من أعظم الرجال الذين عرفهم التاريخ - لا أستبعد عودة صراع القوى العظمى وجَرّ البشرية للدائرة الجهنمية من جديد - الشيوعيون العرب ما زالوا يعيشون في أحلام - مذابح هتلر ضد اليهود صحيحة وأختلف مع رأي العقاد - في الحرب العالمية الثانية أبدت الحلفاء رغم كراهيتي للإنجليز.



■ في هذا الفصل يتحدث نجيب محفوظ عن المذاهب السياسية الكبرى التي ظهرت في هذا القرن، ويتوقف عند ثلاثة منها، وهي: الفاشية والنازية والشيوعية. ويحدد موقفه منها ويبين أسباب رفضه للفاشية والنازية وتعاطفه مع الشيوعية. ثم يتوقف طويلاً عند انهيار الاتحاد السوفيتي، ويتنبأ بالمصير الذي تنتهي إليه الشيوعية.

تشابك الأسئلة في هذا الفصل وتنوع، ولكنها تنطلق من محاور أساسية أهمها: تأثير انهيار الكتلة الشرقية على العالم العربي، وموقف الماركسيين العرب من الأحداث، وهل يتوقع نجيب محفوظ عودة العالم من جديد إلى الصراع بين القوى الكبرى أو الأقطاب؟ ولماذا اختلف مع العقاد حول قضية مذابح اليهود على يد هتلر؟ ثم لماذا لم تنتشر الشيوعية في مصر؟... ■

نجيب محفوظ: لا أستطيع أن أحدد بالضبط بداية اهتماماتي بالمذاهب السياسية ومتابعاتي للعقائد أو الأيديولوجيات الكبرى التي ظهرت في هذا القرن. وما أذكره هو أنني كتبت مقالاً عن الاشتراكية في مجلة «المجلة الجديدة» عام ١٩٣٠، كما تابعت ظهور الفاشية في إيطاليا، وخاصة بعد أن امتد تأثيرها إلى مصر بقيام حزب «مصر الفتاة».

ومن الأمور التي ساعدت على معرفتي بالمذهب الفاشي في ذلك الوقت غزو إيطاليا للحبشة، ووجود عدد كبير من الإيطاليين في مصر، وكان لهم تنظيمات فاشستية ومعسكر في كليوباترا بالإسكندرية، وكان أفراد ذلك المعسكر يقفون أمام بابه بدون سلاح ويحملون عصياً خشبية لمنع الناس من السير أمام المعسكر، وكان لهم نفوذ كبير خاصة «قبل إلغاء الامتيازات الأجنبية». وقد ساعد على تقوية النفوذ الإيطالي في مصر، تلك العلاقة الاستثنائية بين القصر الملكي وإيطاليا. وهي العلاقة التي بدأت تاريخياً منذ نفى الخديو إسماعيل إلى إيطاليا، ثم تربية الملك فؤاد - صغيراً - هناك. وكان من عادة الأسرة المالكة المصرية إرسال أمرائها إلى إيطاليا لتلقى التربية والتعليم. وكان الملك فؤاد نفسه ياوراً لملك إيطاليا، حيث كان الاثنان زميلين في إحدى المدارس الإيطالية التي ألحق بها الملك فؤاد ليتعلم أساليب الحكم. وتوثقت العلاقة إلى حد بعيد بين القصر الملكي وإيطاليا بمرور الوقت، وربما كان فاروق هو أول أمير من أسرة إسماعيل لا يتعلم في إيطاليا. حيث فرض الإنجليز على والده

أثناء مرضه تعليمه فى إنجلترا، وكان فاروق ما زال طفلاً، مما أثار عطفًا شعبيًا جارفاً نحو فاروق الطفل الذى انتزعه الإنجليز من حضن أمه!

وفى اعتقادى أن العقائد الثلاث الكبرى التى ظهرت فى تلك الأيام وهى: الفاشية والنازية والشيوعية، كانت ردود أفعال لسوء الأحوال القائمة. فالشيوعية ظهرت نتيجة لتردى أحوال العمال، والفاشية والنازية كانتا من النتائج المترتبة على شعور الشعبين الإيطالى والألمانى بالهوان والذل. فالألمان كان لديهم إحساس بالإذلال والمهانة بعد هزيمتهم فى الحرب العالمية الأولى وخضوعهم لأحكام معاهدة فرساي. ولم تكن إيطاليا أقل شعورًا بالمهانة، رغم أنها خرجت منتصرة من الحرب، فقد شعر الإيطاليون بأنهم خُدعوا، وأن الدول المنتصرة فازت بمعظم الغنيمة واستولت على كل المستعمرات، ولم تترك لهم إلا الفتات، فأصبحوا فى وضع مماثل لألمانيا المهزومة. ونتيجة لذلك كان من السهل أن يظهر لدى الشعبين حلم العظمة وإعادة المجد القديم. ومن ثم فإن الفاشية والنازية، قامتا على أسس العنصرية وتضخم الذات والعظمة والشعور بالنقص، ولذلك نفرت منهما ورفضتهما منذ أن أدركت هذه الحقائق.

وفى المقابل تعاطفتُ بدرجة كبيرة مع الماركسية بسبب مبادئها الإنسانية، وغاية ما فى الأمر أنى استنكرت محاولة الروس فرضها ونشرها بالقوة، وتعصبهم الشديد لها، فى حين أن التعصب يكون للدين لا للفلسفة. أخذت على الماركسيين أسلوب حكمهم الديكتاتورى، فقد أصبح المذهب حقيقة قائمة وتأسست الدولة الشيوعية، فلماذا وعلى من كانوا يمارسون الديكتاتورية؟! أما المبادئ الاقتصادية للنظام الشيوعى، فلم يكن لى أى اعتراض عليها، خاصة أن عيوبها لم تكن قد ظهرت بعد، وربما يرجع ذلك إلى أن الذين طبقوا النظام فى ذلك الوقت هم المؤمنون الأوائل به. وهؤلاء استطاعوا نقل روسيا من بلد متخلف تابع للعالم الثالث إلى إحدى القوتين العظميين فى العالم. وإذا كان الروس يسبون الشيوعية حاليًا ويقولون إنها سبب الخراب الذى أصابهم، فإن هذه الشيوعية نفسها هى التى رفعتهم إلى مصاف الدول العظمى، وهذه حقيقة لا يمكن إنكارها.

\* \* \*

كان الاتحاد السوفيتى مشروعًا مثاليًا بحاجة إلى أناس مثاليين، وتحققت هذه المثالية بالفعل على يد الشيوعيين الأوائل الذين كانوا أكثر إخلاصًا وإيمانًا بالنظرية، فصنعوا مجد

الاتحاد السوفيتي، مثلما تحقق الإسلام المثالي في عهد عمر بن الخطاب، لأنه وجد من يخلص له، ثم تحولت الأمور إلى شيء آخر بعد ذلك.. وأصبحت الشيوعية بالضعف في فترة لاحقة لأن أبناء الشيوعيين الأوائل لم يكونوا بنفس الحماس، وأصبح «الابن» موظفًا «روتينيا»، ليس لديه الحافز للعمل والإنتاج، وأصبح منهم المختلس والمرتشى والمتسبب. ولكن السبب الأهم في ضعفها هو الأسلوب الديكتاتوري للحكم، وربما كان لهذا النوع من الحكم مبرراته في السنوات الأولى للثورة، عندما كان لها أعداء يتربصون بها ويريدون القضاء عليها بالقوة. ولكن بعد أن استقرت الثورة وقامت الدولة، فقد كان أفضل طريق للدفاع عنها هو الديمقراطية والحرية. ولكن هذا لم يحدث واستمر النظام الديكتاتوري يفرز سموه حتى وصل في عهد ليونيد بريجنيف إلى حد الفساد الطاغى، فقد كان الرجل مغرمًا بالسيارات الفارهة، ووصل عدد المليونيرات في الاتحاد السوفيتي في عهده إلى عدة ملايين!

عند الحاكم الديكتاتوري حرية لا يتمتع بها الزعيم الديمقراطي، وعندما تقارن الحريات والسلطات التي منحها ستالين لنفسه تجدها أضعاف تلك الممنوحة للرئيس الأمريكي. فقد تم طرد الرئيس نيكسون من البيت الأبيض عندما إتضح أنه يتنصت على مكالمات هاتفية لخصومه، فلا أحد فوق القانون.

والشيوعية فلسفة كان فرضها بالقوة هو أكبر خطأ وقعت فيه، لأن الفلسفة لا يمكن فرضها بالقوة. وكان بإمكان الاتحاد السوفيتي أن يعيش إلى يومنا هذا، ويكون في أحسن حال لو أدخل الديمقراطية وسمح بالنقد والمناقشة وحرية الرأي، ولكنهم كمموا أفواه الناس، ومن يفتح فمه رغم كل التضييق والمحاصرة، فإنه يجد نفسه منفيًا في سيبيريا أو محكومًا عليه بالإعدام، ربما قبل أن يغلق فمه!. كان المسئولون السوفيت يعتبرون عرض أى وجهة نظر مخالفة كفرًا يستوجب إسكات صاحبه إلى الأبد، والأمر الذي لا شك فيه أن غياب الديمقراطية يحرم النظام - أى نظام - من مقومات حياته واستمراره.

وعندما كتبت عن الاشتراكية سنة ١٩٣٠ وقلت إنها نظرية المستقبل، كنت متعاطفًا مع الاشتراكية الإنجليزية (الفابية) وليس الماركسية اللينينية، وذلك لأن أخبار الثورة الشيوعية كانت ممنوعة في مصر، وكانت معلوماتنا عنها ضئيلة ولا نعرف ماذا يحدث هناك في موسكو، مثلما حدث مع ثورة الخوميني في إيران فيما بعد. فقد كان الإنجليز يحظرون الكتابة والنشر في هذا الموضوع، وربما لهذا السبب لم أعرف شيئًا عن الحزب الشيوعي

الأول الذى أسسه سلامة موسى وعبد الله عنان وحسنى العرابى. ولو عرفت لكنت وقفت ضد هذا الحزب، لأننى فى ذلك الوقت كنت أرفض قيام أى حزب آخر غير «الوفد» حتى يتم حل القضية الوطنية، وكنت أعتبر إنشاء أى حزب جديد بمثابة إضعاف لقوتنا الرئيسية، لأن الأحزاب الجديدة سوف تستقطب عددًا من الشباب، والقضية الوطنية تحتاج إلى جهود كل الشباب المصرى.

\* \* \*

والشيوعيون الذين عرفتهم كانوا من الأجيال الجديدة، وهؤلاء كانوا أنشط من القدماء، ومن هؤلاء الشيوعيين رمسيس يونان ومحمود أمين العالم وغيرهما، عرفتهم من البداية، وكان منهم أناس مخلصون ويستحقون الاحترام بكل معنى الكلمة.. ومنهم من انخرط فى الشيوعية لأسباب شخصية ثم تخلى عنها بسهولة، وبعضهم انضم للتيار الإسلامى فيما بعد، والبعض الآخر أقام مشروعات تجارية استثمارية مخالفاً لكل مبادئ الشيوعية ومتجاوزاً حتى لعنة الرجعية، وأصبحوا من الباشوات. فى حين أن بعض أبناء الباشوات اعتنقوا الشيوعية وكانوا أكثر إخلاصاً لها وإيماناً بها مثل: نبيل الهلالى ومحمد سيد أحمد وإلهام سيف النصر. وأنا أعتبر نبيل الهلالى تحديداً مثلاً للشيوعى النبيل المخلص، فقد اعتنق الشيوعية وأنفق من ماله الخاص فى سبيلها، بينما استفاد منها غيره وأقام المصانع والشركات الخاصة.

أنا لست ضد أن يعيش الشيوعى ويعمل فى مهنة محترمة مثل الطب والهندسة، ولكن بشرط أن يحترم مبادئه ولا يرتكب ما يخالفها أو يتناقض معها. لقد قيل إن مؤسسى الحركة الشيوعية فى مصر كانوا من اليهود وأنا أشك فى هذه المعلومة. فقد اتضح أن «هنرى كوريل» كان عميلاً للإنجليز، واعترف بذلك فى مذكراته، ومن ثم فإن انضمامه للحركة الشيوعية تم بتدبير الإنجليز، على أساس أن الشيوعية - وهى ضد القوميات - يمكن أن يحطموا عن طريقها فكرة القومية العربية الوليدة آنذاك.

أما فى أثناء الحرب العالمية الثانية فقد ازدهرت الشيوعية بعد تحالف الاتحاد السوفيتى مع دول الحلفاء، وعلى رأسها إنجلترا، ولذلك تساهل الإنجليز وألغوا كثيراً من القيود التى كانوا يفرضونها على الحركة الشيوعية.

ومن الظواهر اللافتة للنظر فى تاريخ الحركة الشيوعية المصرية أن عددًا ممن انضموا

إليها في البداية، كانوا من الفنانين التشكيليين أصحاب النظريات القريبة من السيربالية. خاصة أن هذه الحركات لقيت اهتمامًا من الشيوعيين على اعتبار أنها محطمة للواقع القديم. وفي فترة لاحقة تخلى الشيوعيون عن عطفهم على تلك الحركات التشكيلية وأدانوها عندما اكتشفوا ابتعادها عن الواقعية، ومع ذلك ظل عدد من الشيوعيين المصريين متمسكًا بتلك النظريات غير الواقعية، والتفسير الوحيد لذلك هو عدم إخلاصهم للشيوعية. فأننا لا أفهم أن يكون المرء شيوعيًا ويعرف أن الشيوعية تتناقض مع مذاهب فنية معينة ثم يتمسك بها رغم ذلك. فالشيوعي الحقيقي هو الذي يبحث عن الأسلوب الذي يفهمه الرجل العادي، أما أن يكون الفنان شيوعيًا ويرسم لوحات سيربالية، فهذا ما لا أفهمه.

هذا التناقض يذكرني بمخرج معروف لن أذكر اسمه، يدعى التقديمية ويستفيد من النقاد الشيوعيين في بناء شهرته الفنية، وفي نفس الوقت يستفيد من التمويل الخارجي الغربي لأفلامه، كما أن هذه الأفلام صعبة ولا يفهمها الجمهور، وهذه تصرفات أناس غير مخلصين، فليس من المنطقي أن تكون شيوعيًا وتصنع أفلامًا لا يفهم منها الجمهور شيئًا.

والحقيقة التي لا بد من الاعتراف بها هي أن الشيوعية لم تنجح في مصر حتى وهي في أحسن أحوالها. والسبب في ذلك ليس كما قيل، لأن الشيوعية نظرية غريبة على المجتمع المصري، فالديمقراطية أيضًا غريبة عليه. ولكن السبب الأهم هو قوة الدين الإسلامي في نفوس المصريين، وكانت الشيوعية في بدايتها ضد الدين بشكل عام. وأعتقد لو أن الشيوعية الروسية أطلقت حرية الدين مثلما فعلت الشيوعية الأوروبية لاعتنقها عدد كبير من الناس، خاصة أن الإسلام نفسه يتضمن الدعوة لمبادئ العدالة والتضامن والمساواة التي تنادي بها الشيوعية. وسبب آخر هام هو أن الشخصية المصرية لا تميل إلى المجتمع المغلق، فالمواطن المصري يحب أن يرتاد المقهى ويدردش بحريته ويتكلم بصوت عال، ويلقى النكات، وهو لا يحب أجواء الكآبة والتزمت، بينما النظم الشيوعية تميل إلى الجو البوليسي الخائف والحكم الديكتاتوري، وربما لهذا السبب لم يزدهر الأدب في ظل النظام الشيوعي، فمن الصعب وجود أدب عظيم في ظل النظم الشمولية، سواء كانت شيوعية أو فاشية أو نازية.

ولكن في ظل النظام الشيوعي ازدهرت الفنون المجردة مثل الباليه والرقص والموسيقى، لأنها فنون مجردة لا يمكنك أن تعرف ما يقصده بالضبط مؤلفها ومبتكرها. كما تفوق

الشيوعيون فى الألعاب الرياضية، فنظام التدريب عندهم يعتمد على التنظيم الشديد الذى يصل إلى حد القهر. أما الأدب فهو فن «مفصوح»، ويمكنك أن تفهم ما يقصده الكاتب حتى ولو من خلال الرمز، خاصة فى ظل نظام بوليسى يفسر الرمز بالشبهات. فلا يكون أمام الأديب حيثد إلا أن يلتزم بمبادئ النظام الحاكم ويضع نفسه فى خدمته إذا كان منسجماً مع نفسه، أما البعض الآخر فيتحول إلى أديب منافق أو منشق متمرد تكون نهايته سوداء. فالأديب الذى يحاول كتابة أدب إنسانى فى ظل حكم شيوعى، يتعرض فى أغلب الأحيان للمطاردة والسجن، لأن ما يكتبه غالباً ما يتناقض مع مبادئ النظرية ومع ما يريده النظام الحاكم.

\* \* \*

كان انهيار الاتحاد السوفيتى حدثاً مدوياً يستحق التأمل، لماذا؟، لأن الانهيار وقع فى ذروة قوة النظام السوفيتى وجبروته. فقد كان السوفييت يملكون مخزوناً من الأسلحة كفيلاً بتدمير الكرة الأرضية، وكانوا الأقوى عسكرياً، وكانت الولايات المتحدة تخشاهم وتنفق نصف ميزانيتها فى التسليح ونفقات حرب الكواكب. وكان تفكيك الاتحاد السوفيتى أمراً يحتاج إلى حرب عالمية ثالثة على الأقل حتى تذعن الكتلة الشرقية وتغير نظمها الحاكمة وعقائدها السياسية. ولكن ما حدث فاق كل التوقعات، فقد انهار الاتحاد السوفيتى، وقال الروس إن النظام الشيوعى أضرب بهم وكان سبباً فى تخلفهم وأنه يقودهم إلى الخراب ولا بد من تغييره. والمشكلة التى تواجه دول الاتحاد السوفيتى السابق حالياً هى كيف يتم التغيير؟، ومن هنا يأتى التخطيط والفوضى الحادثة هناك. وفى رأى أنه لا بد من فترة انتقالية تكون بمثابة المحنة، ولا أستبعد أن تكون هناك فترات فشل أو ارتداد مؤقت، ولكن الحقيقة الناصعة التى أصبحت مؤكدة أن الرجوع إلى الماضى كما كان، أصبح أمراً مستحيلًا. ليس معنى هذا أن روح الاشتراكية ماتت ومضمونها انتهى، أبداً، إنما الذى انتهى بلا عودة هو نظامها القائم على الحكم الديكتاتورى. ويمكن بطبيعة الحال أن يأتى نظام جديد يتبنى فكرة العدالة والمساواة، وهذا النظام قابل للتحقق حتى فى البلاد الرأسمالية. فالاشتراكية لا تتناقض مع فكرة الحوار الديمقراطى وحرية الأديان، ويمكن تحقيق مبدأ العدالة والمساواة فى ظل النظم الديمقراطية الرأسمالية. ودليل هذا أن السيدة «مارجريت تاتشر» حصلت على الأغلبية فى الانتخابات البريطانية لمدة عشر سنوات رغم أنها من حزب «المحافظين»، وأغلبية الشعب البريطانى من «العمال»، وكان الأحق

بأصواتهم حزب «العمال» ولكنهم أعطوها لتاتشر، لأنها وفرت نوعاً من الرخاء للمجتمع مما انعكس على الطبقات الشعبية، ومن هنا نالت الأغلبية في الانتخابات لفترة طويلة، فأى نظام سياسى إنما يرتكب خطأ لا يغتفر عندما يلغى الحرية أو يمنعها تمامًا.

عندما جاء جورباتشوف إلى الحكم فى الاتحاد السوفيتى وجد خللاً ظاهراً، وهو أن بلاده متطورة جداً من الناحية العسكرية ولكن ينقصها الديمقراطية والحرية وتطوير النظام الاقتصادى، ولو استمر الحال على هذا المنوال فستعود مرة أخرى إلى دائرة العالم الثالث. ولذلك قاد ثورة الإصلاح التى عرفت باسم «البيروسترويكا»، وللأسف لم يتسن لى قراءة «البيروسترويكا»، ولكنى تابعت نتائجها.

واجه جورباتشوف انتكاسات وصلت إلى حد محاولة الانقلاب عليه ومحاولة اغتياله، ولكن العجلة لم تعد إلى الوراء، وإذا كان الرجل قد توارى عن الحياة السياسية فى بلاده، فإن إصلاحاته ماضية فى طريقها. أما رؤيتى لجورباتشوف كإنسان وقائد، رغم غيابه عن الساحة، فلا أستبعد أن يكون من أعظم الرجال الذين عرفهم التاريخ، لأن الحركة التى قام بها غير مسبوقه بأى مثال، ونظريته لإعادة البناء والإصلاح كان لها تأثير هائل على مجرى التاريخ. والحقيقة أننى أحب جورباتشوف وأحترمه عقلياً ووجدانياً، وطوال زعامته للاتحاد السوفيتى حاز عواطف لم ينلها زعيم آخر فى العالم.

وأعتبر الشعب السوفيتى من أنبل شعوب الأرض الآن لسبب قد تستغربه، وهو أن هذا «الشعب السوفيتى» قام بتجربة جديدة لم يعرفها العالم من قبل وهى «الشيوعية»، فإذا نجح فيها كان هذا النجاح بمثابة فتح للبشرية كلها، وإذا سقط يكون قد حذر العالم منها، وفى الحالتين هو الذى يدفع الثمن.

بعد سقوط الاتحاد السوفيتى ثارت عدة تساؤلات:

أولها: سؤال هام عن مستقبل الشيوعية فى العالم؟، وأرى أن الشيوعية، كفلسفة تحمل مبادئ المساواة والعدالة بين البشر، لا يمكن أن تختفى، إنما الشيوعية كنظام حكم ودولة عظمى قائمة على الديكتاتورية كما كان الحال فى الاتحاد السوفيتى، فهو الأمر الذى أستبعد عودته إلى الحياة، ولكنى لا أستبعد وصول الأحزاب الشيوعية إلى الحكم فى أكثر من بلد، وفى ظل نظام ديمقراطى قائم على التعددية، مثلما هو حادث فى أوروبا، بشرط أن تغير الشيوعية من نفسها، وتأخذ بالمنهج الديمقراطى. وفى أغلب الأحوال ستظل الأحزاب الشيوعية فى أوروبا - فى تصورى - مجرد أحزاب معارضة.

السؤال الثاني: هل من الممكن أن يعود الصراع التقليدي بين القوى العظمى وتتجدد الظروف التي قادت إلى الحرب العالمية الثانية، خاصة بعد ظهور عمالقة جدد على الساحة العالمية مثل ألمانيا واليابان؟ أنا شخصياً لا أستبعد أن يعود الصراع وتعود البشرية إلى الدائرة الجهنمية من جديد. ولكن هناك عدة أمور تدعوني للتفاؤل، أولها: أن دولة مثل اليابان استطاعت أن تنتزع لنفسها مكانة دولية اقتصادية هائلة رغم أنها بلا جيش أو قوة عسكرية. وثانيها: أن الحرب بمعناها التقليدي القديم انتهت في ظل وجود الأسلحة الفتاكة التي يمكن أن تبيد الجنس البشرى بأكمله، وفيها لا يكون هناك متصّر ومهزوم، وهو أمر يجعل الدول العظمى تتجنب الحروب. وثالثها: أن الدول العظمى تعرف أكثر من غيرها أن الأرض مهددة، ولديها إحصاءات ومعلومات رهيبية عن المخاطر التي تهدد الكرة الأرضية، ولذلك فهي تعرف أكثر من غيرها أن هذه المخاطر تقتضي التضامن والتعاون وليس الحرب.

والسؤال الثالث: هو عن أسباب استمرار الشيوعية في بعض دول آسيا مثل الصين وكوريا الشمالية وفيتنام، ولماذا لم تسقط الشيوعية فيها مثلما سقطت في الدولة الأم؟ وتفسيري لذلك هو أن الشيوعية ما زالت تؤتي ثمارها في هذه الدول مثلما كانت في بداية التطبيق في الاتحاد السوفيتي السابق. ثم إن هذه الدول تفرض الشيوعية على شعوبها بالقوة، بدليل أنه عندما حدثت المظاهرات الضخمة في الصين، وهي مظاهرات «الميدان السماوي»، قمعتها الحكومة بالقوة، ومع ذلك أعتقد أن المصير واحد، وأن ما حدث للاتحاد السوفيتي سوف يحدث في هذه البلاد.

سؤال رابع: عن مصير دول الاتحاد السوفيتي السابق بعد أن انهارت الرابطة المركزية التي تجمعها. وأعتقد أن هذه الدول سوف تمر - كما هو الأمر حالياً - بأزمات متنوعة في بداية الفترة الانتقالية، لأن الانتقال من نظام إلى آخر من أصعب ما يكون. ففي فترة بداية الثورة الصناعية في أوروبا، وما شهدته من هجرات متتابعة للناس من الريف إلى المدن، حدثت متاعب كثيرة. وفي مدينة مثل لندن تكدس العمال في الحواري والطرق، وأصبحت العاصمة البريطانية مثلاً للفساد والأمراض والزحام والفسق. وفي مجتمع عاش كل هذه السنوات تحت الحكم الشيوعي، فلا بد من فترة طويلة حتى يعود الناس على نظام جديد قائم على الفكر الحر والاقتصاد الحر والاعتماد على الذات. فالعامل الذي كان يضمن مرتبه ومعاشه وعلاجه وتعليمه من الدولة، بات عليه أن يعتمد على نفسه وأن يقاتل من أجل لقمة العيش. وفي مصر ذقنا بعض هذه المصاعب في فترة الانفتاح الاقتصادي التي

لقى فيها البعض ممن استفادوا من الانفتاح رواجًا، وتضاعفت دخولهم وانتقلوا إلى حياة مرفهة، وامتلات الأسواق ببضائع مستوردة تباع بأسعار خيالية ويشتريها هؤلاء.. فى حين أن العمال والموظفين فى الحكومة والقطاع العام بقيت مرتباتهم كما هى تقريبًا منذ أيام «الانغلاق»، رغم أن السوق واحدة والأسعار تسرى على الجميع.

لا شك أن تلك الأزمة ستمر بها شعوب الاتحاد السوفيتى السابق، ولكن الأزمة الأكبر تكمن فى انفجار القوميات، لأن الرابطة التى كانت تجمع تلك الشعوب المختلفة انتهت. فما الذى يجبر شعوبًا مختلفة فى اللغة والقومية والدين والحضارة على العيش معًا فى ظل اتحاد سابق؟! من هنا ثارت نزاعات بسبب هذه القوميات وصلت إلى حد القتال، ومن الاحتمالات الواردة أن تكتشف هذه الشعوب بعد فترة أن التضامن أفيد لها من الانفصال، فتجمعها رابطة أشبه بتلك التى تربط بريطانيا بمستعمراتها السابقة والتى يطلقون عليها مجموعة دول «الكومنولث». وقد اتفقت عدة دول بالفعل مع روسيا على نوع من هذه الروابط قد تزداد فعاليته بمرور الأيام. وأيا كانت النتائج، فإن الرجوع للماضى أصبح أمرًا مستحيلًا، بعد أن اتضح خط السير وهو: الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان. وعندما يتضح خط السير فلا يمكن أن تجبر الشعب على أن يسلك طريقًا آخر. فنحن فى مصر تحمسنا لنظام عبد الناصر على أساس أنه النظام الاشتراكى الذى سيحقق لنا العدالة التى نحلم بها، ثم اتضح أن التركيبة لم تنجح وأن العدل يمكن تحقيقه فى ظل نظام ديمقراطى.

نأتى إلى نقطة هامة أخرى وهى موقف الماركسيين العرب من انهيار الاتحاد السوفيتى، ثم تأثير هذا الانهيار على العالم العربى. والحقيقة أن الشيوعيين العرب مازالوا يعيشون فى الحلم القديم ولم يستوعبوا الأحداث، وهذا جزء من عيبهم القديم. ففى فترة سابقة كانت الخلافات بينهم لا تنتهى بسبب قضايا لا تمسهم مباشرة، مثل الخلاف بين أنصار تروتسكى وأنصار ستالين، وهذا يدل على عدم وجود تفكير أصيل لديهم. وأعتقد أن العالم العربى يمكنه الاستفادة من تلك التطورات العالمية ويسير فى اتجاه الريح السائدة فى العالم نحو الديمقراطية واقتصاد السوق والأخذ بالتكنولوجيا الحديثة والأساليب العلمية، إذ يجب أن نأخذ فى الاعتبار أن أى تأخير فى الأخذ بهذه الأساليب هو تخلف عن العصر. ومن الدروس المستفادة أننا يمكننا حل المشاكل بالحوار وليس بالحرب، ولقد رأينا بأعيننا المتاعب التى تعرض لها الرئيس الأمريكى جورج بوش حتى يتمكن من استصدار قرار

الحرب ضد العراق، وكيف كان الاعتراض على الحرب في الولايات المتحدة وفي جميع دول العالم، لأن الحرب لم تعد مقبولة.

لقد أشار البعض إلى أن العرب هم الخاسرون الأوائل من تفكك الاتحاد السوفيتي السابق، على أساس أنه كان يساندنا في قضايانا. وأنا أقول ليست هناك خسارة، لأن العالم تحكمه الآن لغة المصالح، ويجب أن نحدد مصالحنا وأهدافنا ونحاول تحقيقها، دون أن نصطدم مع الكبار، بل نستفيد منهم. فلم تعد هناك سياسة «اللعب على الحبلين» أو الاعتماد على دولة عظمى في كل شيء، وعلينا أن نسير في مدار فلكى يقودنا إلى الأمام، دون أن نرتطم بكوكب يعطل توجهاتنا ومصالحنا. ولا أتفق مع القائلين بأن القضية الفلسطينية خسرت كثيرًا بسقوط الكتلة الشرقية التي كانت تدعمها، بل أرى أنها كسبت ولم تخسر، لأن قادتها الآن أصبحوا أكثر واقعية، وحصلوا على دعم من العالم كله وليس من الكتلة الشرقية وحدها.



أما عن الفاشية، فقد كانت سمعة إيطاليا قبل موسوليني من أسوأ ما يكون، وكنا نسمع أنها بلد من قطاع الطرق، وأنتك إذا ركبت القطار من نابولي إلى روما، فلا بد أن تتعرض لحادث سطو مسلح. فلما جاء موسوليني وحد إيطاليا وأعطاهها سمعة عالمية جديدة، وعمل على عودة مجد الإمبراطورية الرومانية. ولا شك أننا في مصر شعرنا بأن إيطاليا أصبح لها وزن، وأن الدول الكبرى في ذلك الحين مثل إنجلترا وفرنسا بدأت تعمل لها ألف حساب. وظهر تأثير الفاشية في مصر من خلال حزب «مصر الفتاة» الذي أسسه أحمد حسين، وكان أنصاره يرتدون قمصانًا زرقاء، ولكن عددهم كان قليلًا على الرغم من أن مبادئ «مصر الفتاة» كان من الممكن أن تغرى شبابًا مثلنا وتسحروهم. والواقع أن استقطاب «الوفد» لنا واقتناعنا بمبادئه وشعاراته جعلنا نقف ضد الفاشية، ولم يقتصر تأثير الفاشية على مصر وحدها، بل امتد إلى دول عربية أخرى، وقامت أحزاب متأثرة بها، مثل حزب «القوميون السوريون» الذي أسسه أنطوان سعادة في لبنان، ومثل «القوميون» في العراق بقيادة رشيد عالي الكيلاني الذي وصل إلى الحكم عن طريق الانقلاب العسكري. ولم يكن لدى الفاشيين المصريين نفس الفرصة في الانتشار والوصول إلى الحكم بسبب وجود الديمقراطية. ولا أبالغ إذا قلت إن ثورة ١٩١٩ هي التي زرعت الديمقراطية في مصر ورعتها فصارت جزءًا من تراثنا. وصحيح أن الشعب المصري تغافل عن جزء من هذا التراث الديمقراطي بعد ثورة يوليو ١٩٥٢، ربما بسبب نجاحها، ولكنه عاد يفكر في هذا التراث بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧. فالأمر

الذى لا شك فيه أن الديمقراطية ثمرة من ثمار ثورة ١٩١٩، وهذه الديمقراطية منعت انتشار الفاشية في مصر، على الرغم من أن الملك كان فاشستيا، وكانت السراى مليئة بالإيطاليين مثل «فيروتسى» و «بوللى». ويعود التعاطف - كما سبق أن ذكرت - بين الملكية في مصر وإيطاليا إلى أيام الخديو إسماعيل الذى تم نفيه إلى إيطاليا، ثم تربية الملك فؤاد هناك، الذى كاد يرسل ابنه فاروق إلى إيطاليا، لولا تدخل الإنجليز الذين أجبروه على إرساله إلى إنجلترا، وهو الأمر الذى أحدث أزمة كبرى فى حينه.

من الآراء التى قيلت بعد وفاة موسولنى أنه كان سياسيًا جيدًا فى الداخل ولكن مأساته تكمن فى أنه لم يكن يفهم فى السياسة الخارجية، وكان الكاتب «ألبرتو مورافيا» يردد هذا القول. وهو رأى اختلف معه إلى حد ما لأن موسولنى شعر بقوة إيطاليا وأراد أن يقتسم الكعكة مع إنجلترا وفرنسا، ورفض أن تستأثر الدولتان بكل المستعمرات، ولذلك قام بغزو الحبشة.. ولكن ما لا شك فيه هو أن موسولنى أحدث نهضة هائلة فى إيطاليا، وإذا كان قد وصل إلى السلطة بالقوة وزحف بالفاشية إلى روما، فإن هتلر على العكس، وصل إلى الحكم فى ألمانيا عن طريق الانتخابات. انتزع هتلر بذلك السلطة من «هندنبرج» ودبر حريق «الرايشتاغ» متهمًا الشيوعيين بتدبيره، وأعلن النازية وطبق النظام الديكتاتورى الفظيع الذى سار عليه.

فى وقت مبكر من حياتى قرأت كتاب هتلر «كفاحى»، وأدركت أنه لو قدر للألمان احتلال مصر فسيكون استعمارهم أسوأ من الاستعمار الإنجليزى، وسيطبقون علينا استعمارًا عنصريًا لا يعتبرنا أمة مستعمرة، وإنما حيوانات. ولذلك شعرت بنفور تام تجاه النازية، حتى عندما قامت الحرب العالمية الثانية أيدت الحلفاء على طول الخط، رغم عدائنا للإنجليز وخلافنا معهم، ورغم ميل الملك للألمان، وميل بعض كبار السياسيين التابعين له من أمثال على ماهر وغيره من طبقة «المستوزرين» الذين كانوا يرون أنفسهم أكفأ من «الوفد»، ولكن شعبية «الوفد» قد تمنعهم من الوصول إلى السلطة عن طريق انتخابات حرة، فلم يجدوا غير الاعتماد على الإنجليز قبل معاهدة ١٩٣٦ وعلى الملك بعدها.

أما تعاطف الملك مع الألمان فيرجع إلى ميله للحكم الفاشستى الديكتاتورى، بينما كان الإنجليز يفرضون على الملك النظام الديمقراطى، ليس حبًا فى الديمقراطية، ولكن لأنهم يعرفون أن «الوفد» هو الممثل الحقيقى للشعب، ولن يستطيعوا التفاوض مع «الوفد» إلا بوصوله إلى الحكم عن طريق الانتخابات فى جو ديمقراطى. ولذلك عندما كانت تفشل

المفاوضات ويصطدم «الوفد» مع الإنجليز كانوا يعطون الضوء الأخضر للملك بتشديد قبضة الحكم الديكتاتورية بهدف تأديب «الوفد» وإذلاله.

ولما جاءت ظروف الحرب العالمية الثانية اضطرت الطرفان لتقديم تنازلات، فكانت معاهدة ١٩٣٦، حيث كان هتلر فى ذلك الوقت يثير الرعب فى أوروبا، وحولت دعايته الرهيبة ألمانيا إلى اللون هائل ملئء بالهواء أكثر مما هو فى الحقيقة.

\* \* \*

هناك عدة نقاط أحب أن أقف عندها:

أولاًها : لماذا لم أهتم فى رواياتى بتأثير الفاشية والنازية على المجتمع المصرى فى تلك الفترة، رغم اهتمامى بالقوى الأخرى، مثل الشيوعيين والإخوان المسلمين إلى جانب الوفدين بالطبع؟! والإجابة هى أن القوى الأخيرة كانت هى المسيطرة بالفعل على حركة المجتمع فى مصر، وكان جيلنا يتكون من الوفدى، الشيوعى، الإخوانى، والانتهازى. أما الباقون فكنت أراهم على الهامش أو فى الظل، وليس لهم جذور أو مستقبل، ولذلك لا يستحقون الاهتمام، خاصة أننى كنت رافضاً للنظام النازى العنصرى منذ البداية. فهو نظام قام على القهر والديكتاتورية، وجعل هتلر أشبه بالإمام الملهم، لا تجوز معارضته، حتى أنه اختلف ذات مرة مع أحد معاونيه وهو «روهم» قائد قوات العاصفة، فذهب إلى منزله، وقدم إليه المسدس وأمره بالانتحار ففعل. إلى هذا الحد كانت قسوته وديكتاتوريته.

\* \* \*

أما النقطة الثانية: فتتعلق بالجرائم التى ارتكبتها هتلر ضد اليهود، وأحب هنا أن أقف عند رأى للعقاد يقول فيه إن تلك الجرائم كانت بالاتفاق بين هتلر واليهود، أنا لا أتفق مع هذا الرأى بدليل أن اليهود ظلوا يطاردون القائد النازى «أدولف إيكمان» بعد انتهاء الحرب بسنوات وحاكموه وأعدموه. وهذا يدل على أن تلك الجرائم النازية ضد اليهود كانت حقيقة واقعة، خاصة أن هتلر اعترف فى كتابه «كفاحى» بكرهيته لليهود، وأنه يعتبرهم سبب الكوارث التى لحقت بألمانيا، وتسببت فى هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى. ولذلك فاضطهادهم لم يقتصر على اليهود الألمان، بل امتد إلى اليهود فى بولندا وفى كافة البلاد التى قام بغزوها.

\* \* \*

النقطة الثالثة: تتعلق بالإجابة عن هذا السؤال: كيف تفسر النهضة التي حدثت في ظل هذه الأنظمة - الفاشية والنازية والشيوعية - رغم اعتمادها على أسلوب القهر والديكتاتورية؟. وعندما نعود إلى بدايات تاريخ الإنسان، نجد أن أنظمة الحكم بدأت بالاستبداد، بل إن الحكام في تلك العصور اعتبروا أنفسهم بمثابة آلهة، ومن ثم فمخالفتهم تعتبر جريمة نكراء. هذا لم يمنع من أن تقوم في ظل هذه النظم حضارات مزدهرة، مثل الحضارة الفرعونية والآشورية، لأن الحكام الإله - إلى جانب استبداده وظلمه - له رغبات إصلاحية تتبع من أطماعه. وفي تاريخنا الحديث نموذج محمد علي الذي أحدث نهضة كبيرة في مصر، وأقام العديد من المشروعات الهامة مثل القناطر الخيرية وترعة المحمودية وبعض الصناعات المهمة الأخرى، وقام بتطوير الجيش. في المقابل لم يكن محمد علي يطبق المعارضة، حتى أنه غدر بالماليك وذبهم لكي لا ينازعه في الحكم. وعلى ذلك فالنهضة لا تتحقق بالديمقراطية فقط، كما أن الاستبداد لا يمنعها. كل ما في الأمر أنه عندما يشترك الشعب في تحقيق النهضة تكون أفضل وأبقى وتخدم أكبر عدد من الناس، وتميل مبادئها إلى الناحية الإنسانية وتتضاءل أخطاؤها. بينما إذا قامت النهضة على الاستبداد، فإنها تسقط أو تأفل نتيجة قرار خاطئ من الحاكم الديكتاتور. وفي ألمانيا النازية كان هتلر محبا لبلده إلى أقصى حد، ويريد أن يجعل منها أقوى دولة في العالم، وكان صاحب خيال وآراء جريئة، ولكنه كان «سيد قراره»، ومن هنا فإن قرارا خاطئا اتخذته مثل «غزو روسيا» دون تدبير وتشاور، هدم كل ما بناه. بينما واجه الرئيس جورج بوش - كما سبق أن أشرت - صعوبات كثيرة حتى يحصل على موافقة الكونجرس والشعب الأمريكي بضرب العراق، لأنهم يعرفون في البلاد الديمقراطية أن قرارا خاطئا ستكون له عواقب وخيمة، فيتحررون الدقة ويتشاورون ثم ينفذون رأي الأغلبية.

\* \* \*

مع إيماني بأن كبرى النهضات في تاريخ البشرية صنعها حكام مستبدون بداية من الفرعونية والآشورية والبابلية، ووصولاً إلى النهضة التي أحدثتها النظم الفاشية الحديثة، فإن أغلب النظم التي قامت على القهر والقوة انتهت نهاية سيئة. وربما كان الاستبداد في العصور القديمة له ما يبرره، فلم تكن قوة الشعب قد ظهرت بعد، وكان المجتمع منقسماً إلى طبقتين: طبقة الملوك والأمراء وطبقة العبيد. وكان الملوك يمنحون لأنفسهم سلطة مطلقة وتفويضا كاملاً في كل الأمور دون الرجوع إلى أحد، واتخاذ كافة القرارات طبقاً لما يرونه مهما

كانت عواقبها. ومع التطور وظهور الأديان والديمقراطية، بدأت قوى الشعب فى الظهور، وحتى فى بدايات النظام الرأسمالى الديمقراطى، كانت الطبقات الدنيا من الشعب مطحونة. وعندما تقرأ روايات «تشارلز ديكنز» تكتشف أن هذا النظام فى بدايته لم يكن يعرف الرحمة، وأصدق تعبير عنه هو ما قاله داروين: «البقاء للأصلح». وكان للثورة الفرنسية دور كبير فى إرساء مبادئ الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان فى العالم كله، وإيقاظ الشعوب من غفوتها، وهذه المبادئ اعتبرها ثمرة لأفكار الفيلسوف العظيم «جان جاك روسو»، لأن بقية المستنيرين الذين قامت الثورة على أفكارهم من أمثال فولتير، كانوا من أنصار نظرية «المستبد العادل»، وليس لديهم إيمان بالشعب وحقوقه.

إن النظام الديمقراطى هو أفضل نظام لحياة الإنسان، حتى لو شابته بعض الأخطاء، ذلك أنه النظام الوحيد القادر على تصحيح نفسه بنفسه، والنظام الوحيد الذى يعطى الشعب حق محاسبة حكامه ومراجعتهم، بل وعزلهم إذا اقتضى الأمر كما حدث مع الرئيس الأمريكى نيكسون.

\* \* \*

نقطة رابعة، وهى رد على رأى قال به الفيلسوف الألمانى الشهير شوبنهاور. فهذا الفيلسوف له رأى معناه أن الشعب الألمانى هو من أغبى شعوب العالم، ولكنه استطاع أن يكون أكثر الشعوب تقدما وقوة لأنه استغنى عن الدين. هذا رأى غير صحيح، لأن المذهب البروتستانتى أسسه الألمان، وحتى عندما قامت الثورة على الكنيسة فى أوروبا وتحقق التحرر الدينى، ظلت هناك بؤر دينية فى ألمانيا. والحقيقة أن سلطة الكنيسة كانت عائقا كبيرا أمام النهضة، لأن الكنيسة كانت لها سلطات واسعة، ومن يحاول الخروج عليها يكون مصيره الحرق والتنكيل. كان هناك تعصب دينى شديد، وهو الأمر الذى حاربته فولتير، وهو لم يحارب الدين كعقيدة كما هو شائع، بل حارب التعصب. بدليل أنه عندما هرب بعد قيام الثورة الفرنسية إلى بلدة «فرنبة» أقام مزرعة خاصة، ورغم قلة عدد سكانها، فإنه لاحظ انتشار السرقة، فقام ببناء كنيسة، للحد من هذه الظاهرة. ورغم أنه طوال عمره كان يحارب الكنيسة، فقد أصبح هو الواعظ فى الكنيسة التى أنشأها، ومن كل آيات الكتاب المقدس، كان يركز على عبارة: «لا تسرق». وعندما كتب فولتير مسرحية «محمد» شكره البابا، وأمر الملك بتمثيلها فى قصره، وذات يوم شاهدها الكاردينال فاعترض عليها، وكان اعتراضه منصبا على أن فولتير يسخر فى مسرحيته من معجزات الإسلام، والإسلام

فى رأى الكاردينال ليس فيه معجزات، فهى تقتصر على المسيحية فقط. وذهب إلى الملك وأيقظه من نومه ليعاقب فولتير، فلما علمت مدام بومبادور أرسلت إلى فولتير، وطلبت منه الهروب خارج فرنسا.

\* \* \*

بعد انهيار الاتحاد السوفيتى، انهار الصراع التقليدى الذى كان سائدا بين الشرق والغرب، وحل محله نظام أطلقوا عليه «النظام العالمى الجديد». أى تحول العالم من عالم تهيمن عليه القوة والمنافسة إلى عالم يتطلع للتعاون ويؤمن بسياسة المصالح. فهل هذا يعنى انتهاء الحروب الكبرى إلى غير رجعة؟. بعض المفكرين قالوا إن الحروب لا يمكن أن تختفى من العالم، وإن الشر صفة متأصلة فى الإنسان، وسوف تستمر الحروب والصراعات فى ظل النظام العالمى الجديد، كما كانت فى فترة احتدام الصراعات بين المذاهب السياسية الكبرى، بل هناك من قال إن التقدم البشرى أساسه الحروب!. وأنا أختلف مع هؤلاء لأن الإنسان لم يخلق مقاتلا، بل يولد وهو صفحة بيضاء والظروف المحيطة هى التى تدفعه للشر والقتال. فالإنسان الأول اضطر للقتال مع الطبيعة والحيوانات المفترسة حتى يحافظ على جنسه من الانقراض. إذن الظروف هى التى غيرت طباعه وجعلت قانون حياته هو «يا قاتل.. يا مقتول» بينما هو عندما ولد لم يكن قاتلا أو مقتولا!. ولو كانت الظروف سمحت له أن يعيش فى هدوء وسلام لعاش، فما الذى يدفعه للقتال والحرب ويضطره إليهما؟!

بعد ظهور المجتمعات، وهى مرحلة لاحقة فى تاريخ البشرية، اضطر الإنسان للصراعات والحروب. ففى مجتمع مثل المجتمع العربى الجاهلى كان منطق القوة هو السائد فى ظل ندرة المياه والمرعى والبحث عن الغذاء والحياة الآمنة. فالنفس البشرية ليست خيرة أو شريرة، بل هى تكون حسبما توجهها الظروف المحيطة. بدليل أنه بعد ظهور الإسلام تغير كثير من سلوكيات العرب. ومن هنا أقول إنه فى ظل النظام العالمى الجديد لن تنتهى محاولات الإنسان لتطوير أسلحة الدمار الشامل أو الأسلحة التقليدية، ولكن هناك فرقاً كبيراً بين أن تصنع السلاح لتدافع به عن نفسك وتستخدمه فى حالة الطوارئ، وبين أن تصنعه للفتك بالآخرين، وأيا كان الأمر، فإن التنافس الرهيب فى صناعة الأسلحة سوف يتراجع، وتوجه أغلب الجهود إلى البناء والتعمير. على سبيل المثال فإن الدول التى حرمت من تكوين الجيوش ومن صناعة السلاح مثل اليابان وألمانيا وجهت كل جهودها لتطوير نفسها،

فأصبحت أكثر تقدما من الدول التي انتصرت عليها في الحرب. وأستطيع أن أقول كذلك إن القوة في النظام العالمى الجديد ستكون للعلم والتكنولوجيا وليس للنبوت!

\* \* \*

هناك رأى يقول إن السعادة البشرية لم تتحقق من خلال التقدم، وإن الإنسان في هذا العصر ما زال يشعر بالتعاسة رغم التطور الهائل الذى وصل إليه والرفاهية الرهيبة التى يعيش فيها. وفى رأى أن الإنسان لا يرضى أبدا عن واقعه ولا يقنع بما حققه مهما كان، وسيظل يحلم بواقع أفضل، فهذه هى طبيعته، وفى الفجوة بين الحلم والواقع، سيظل يتألم ويشكو. ففى أزهى عصور البشرية كان الإنسان يشكو ويئن، وفى أتعس العصور يمكنك أن تسجل نفس الشكوى والأئن. وأعتقد أن عدم القناعة هذا هو أساس التقدم والحافز للتطور. وعندما تقارن بين حال الإنسان قديما وحاله الآن تجد فارقا شاسعا فى صالح عصرنا الحاضر. فقد كانت الأمراض التافهة الآن من الممكن أن تفتك بالإنسان فيما مضى، فقد ماتت «أكتاتون» ابنة «أخناتون» بسبب الأنفلونزا، وكان وباء مثل «الطاعون» يحصد ربع سكان الأرض، الآن ظهرت وسائل تستطيع مقاومته والقضاء عليه. وفى ذروة مجد الإمبراطورية البريطانية كان الأمراء يقضون حاجتهم فى أوان يضعونها فى أركان غرف نومهم، ويأتى الخدم ليرفعوها فى الصباح ويلقوا ما بها. ورغم التطور الكبير الذى حدث فإن الإنسان يحن للماضى، ويتصور أن السعادة التى كان يعيش فيها أجداده تزيد عما هو موجود حاليا أضعافا مضاعفة، وهذه هى طبيعة الإنسان كما قلت، لا يقنع أبدا بما حققه.

\* \* \*

## الفصل التاسع عشر

### النكسة والحلم الذي هوى

قبل النكسة كان لدى إيمان بأننا الأقوى وأن انتصارنا أمر محتوم - كان يشغلني سؤال واحد: هل تدخل أمريكا الحرب لإنقاذ إسرائيل؟! - صباح المعركة طرت من الفرع عندما استمعت إلى بيانات أحمد سميد - يوم الجمعة الحزين والخير الصاعقة - تأثير الهزيمة على نفسى - إعادة التفكير فى أحلامنا الكبرى وفى إنجازات الثورة - «ثروة فوق النيل» هل تنبأت بالنكسة؟ يوم التنحى قال لى محمد عفيفى: «إن المظاهرات مدبرة!!» - عبد الناصر هو المسؤول الأول عن النكسة - إسناد مسئولية الجيش لعامر خطأ لا يغتفر - كتبت مقالا أرئى فيه عبد الناصر من منطلق «اذكروا محاسن موتاكم» - مصر تعرضت لإهانة فى ١٩٦٧ لم تتعرض لها طوال تاريخها - السلبية التى يعيشها المصريون اليوم من نتائج النكسة.



■ تعددت الآراء والاجتهادات واختلفت الروايات في تفسير ما حدث صباح الخامس من يونيو ١٩٦٧. ولكن الأمر الذي لا شك فيه أن ما جرى في ذلك اليوم تسبب في سقوط كثير من الأحلام التي عاش جيل بأكملها يؤمن بها ويدافع عنها. وفي هذا الفصل يتحدث نجيب محفوظ عن نكسة ١٩٦٧ ويحجب عن أسئلة كثيرة من بينها: من المسئول عن النكسة؟ وهل كانت مظاهرات التاسع والعاشر من يونيو التي خرجت لتأييد عبد الناصر عقب خطاب التنحي الشهير مذبذبة؟ ولماذا كتب مقالته الشهيرة في «الأهرام» يرثي عبد الناصر رثاء حاراً بعد وفاته رغم أنه يعتبره مسئولاً عن أخطاء جسيمة؟ لنستمع إلى نجيب محفوظ وهو يقدم لنا الحقيقة كما يراها ويؤمن بها.. ■

نجيب محفوظ: عندما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ تحمست لها إلى حد كبير، ومع مرور السنوات بدأت الأخطاء في الظهور، مثل الفساد في القطاع العام وانفصال سوريا، والتدخل في اليمن، والاعتقالات العشوائية، والأسلوب الديكتاتوري في الحكم. وكان الشيء الوحيد الباقي هو قوة الجيش وشخصية عبد الناصر. وقبل نكسة يونيو ١٩٦٧ بقليل شعرت من متابعتي للإذاعات والصحف أننا على وشك صدام عسكري مع إسرائيل. والحقيقة أنني كنت أعتقد حتى تلك اللحظة أننا القوة العسكرية الضاربة في الشرق الأوسط، وأن إسرائيل بمثابة شوكة في ظهورنا، وإذا لم ننزعها فستظل المنطقة في قلق واضطراب. وقد آن الأوان أن تحقق الثورة أغلى أهدافها بالقضاء على إسرائيل، ولم أكن أشك في النتيجة، فزرع إسرائيل في قلب الأمة العربية ظلم فادح، ولا بد أن يزول. ولم تكن قدرة جيشنا على تحقيق الهدف المنشود تشغلني بقدر ما كان يشغلني التدخل الأمريكي في الصراع لترجيح كفة إسرائيل. وكان السؤال الذي يلح على ذهني هو: إذا قامت أمريكا بتوجيه إنذار لنا كما فعلت إنجلترا وفرنسا في العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦، فماذا يكون موقفنا؟!.

في صباح الاثنين، الخامس من يونيو ١٩٦٧، ذهبت إلى مكتبي في مؤسسة السينما واستقبلت مندوبين من الإذاعة المصرية وسجلت - بناء على طلبهم - نداءً لجنودنا في سيناء بصوتي ثم انهمكت في عملي حتى التاسعة صباحاً، وفجأة سمعت صفارات الإنذار، إذ أن فقد اندلعت الحرب. وبسرعة لم أفكر إلا في الحصول على جهاز راديو لأسمع الأخبار.

وجاءنا صوت أحمد سعيد، وهو الصوت الرائع الفخم يعلن في زهو أننا أسقطنا مجموعة طائرات للعدو الإسرائيلي. وفي الحقيقة أنني لم أفرح لهذه الأخبار وشعرت بانقباض في صدري، لأن إسقاط طائرات إسرائيل يعني أنهم هم الذين بادروا بالهجوم، وأنا في موقف الدفاع، فاعترتني حالة من الخوف والقلق. كانت كل الأخبار التي أعرفها عن المعركة من مصدر وحيد هو الإذاعة المصرية، ولم أفكر في الاستماع إلى إذاعات أجنبية. ولكنني قابلت في نفس اليوم ثروت أباطة وبدأ عليه أنه يعرف تفاصيل ومعلومات كثيرة استقها من محطات الإذاعة الأجنبية. ولأنه كان يعرف مدى انفعالي وتأثرى الشديد فلم يشأ أن يصدمني بما يعرف. والغريب أنه سألني أكثر من مرة عن آخر الأخبار التي أعرفها عن مصير المعارك، فأرد عليه بما سمعته من الإذاعة، وأذكر له آخر عدد طائرات أسقطناها، كما سمعتها من إذاعة «صوت العرب». فكان ينظر لى فى أسى ويقول لى: «على الله»، أى أنه ياليت ما أذكره له كان صحيحاً...!! فعشت فى حالة من القلق منذ اندلاع القتال من صباح الاثنين ٥ يونيو وحتى الجمعة ٩ يونيو. ففى صباح يوم الجمعة فتحت الراديو لأتابع أخبار المعركة فاستمعت إلى أغنية وطنية لا تدعو للتفاؤل. اصطحبت ابنتى وذهبنا إلى حديقة «خريستو» فى الهرم، وأخذت معى جهاز راديو لأتابع ما يجرى أولاً بأول. وكان الخبر الذى نزل على الصاعقة هو أن قواتنا المسلحة انسحبت إلى الضفة الغربية لقناة السويس. وأصبحت كالمجنون أتلهف على شخص يوضح لى الحقيقة، وعرفت من الإذاعة أن عبد الناصر سوف يذيع بياناً فى المساء يتحدث فيه إلى الأمة. وفى مساء الجمعة ذهبنا إلى مقهى «ريش» وجلست مع بعض الأصدقاء، وتحلقنا جميعاً حول جهاز راديو «ترانزستور» فى انتظار بيان عبد الناصر. وتحدث عبد الناصر ونحن نستمع فى صمت رهيب، وكان بياناً مهيباً، شعرت بعد انتهائه بأننى أصبت بشرخ فى داخلى، فانسحبت فى هدوء وعدت إلى بيتى.

إننى فى حياتى كلها، قبل ذلك اليوم أو بعده، لم يحدث لى ذهول وانكسار فى النفس مثلما حدث فى تلك اللحظة وما تلاها، حيث أصابتنى حالة فظيعة من الحزن والاكتئاب وعدم التصديق. كنت كمن يعيش فى حلم جميل، وفجأة سقط من فراشه على أرض صلبة خشنة، فحتى صباح الخامس من يونيو ٦٧ كان لدى اقتناع تام بأننا الأقوى والأعظم. لقد كنت واحداً من بين الآلاف الذين شاهدوا الاستعراض العسكرى فى الرابع عشر من مايو ٦٧، ورأيت الدبابات المصرية وهى تسير كالأفيال فى شوارع القاهرة. كما استمعت إلى وقائع المؤتمر الصحفى الشهير لعبد الناصر، وكان مظهره يدل على أنه يتحدث حديث

الوائق القوى، وقال جملته الشهيرة: «أنا مش خرع زى مستر إيدن!». كانت كل الأجواء تعطى إحساسًا باليقين والقوة، ومن هنا كان عمق الصدمة وهولها.

دعانا الدكتور ثروت عكاشة إلى مؤتمر تم ترتيبه على عجل، وقال لنا صراحة إن الطيران المصرى أصيب بنكسة. وأثناء المؤتمر وردت أخبار عن الفرقة الرابعة بالجيش تبعث على الأمل، وكانت تلك الأخبار بمثابة القشة التى يتعلق بها الغريق، ثم ما لبثت أن انقطعت القشة وعدنا إلى دوامة الصدمة.

أصبحت أحاديث ليالى القاهرة تدور حول موضوع واحد فقط، وهو الجيش وكيف تعرض لهذه الهزيمة الثقيلة. وكان كل متحدث يتطوع بالإفتاء حول أسباب الهزيمة، وتعددت الفتاوى، وخرج كل متحدث بأسباب يرى أنها هى التى قادتنا إلى الهزيمة، وتعددت الأسباب حتى اختلط الجذ بالهزل.

هذه الهزيمة جعلتنى أعيد التفكير فى ثورة يوليو بصورة كاملة وأحاول معرفة ما حققته لمصر. وأدركت أننى قبل هزيمة يونيو ٦٧ كنت أعيش فى وهم كبير، وأنا أشبه بمن أقام بناءً شامخًا من الورق على الرمال، ثم جاءت موجة وأغرقت كل شىء. وأنا عشنا فى ظل شبح هائل ظل يرعب الناس، ثم طار فجأة فى الهواء بفعل الرياح. وبدأت أسأل نفسى: هل نحن الذين اخترعنا هذا الوهم بإرادتنا وعشنا فيه؟ أم أننا خدعنا وتعرضنا لمن يضحك علينا، وعشنا وهما مصنوعًا بإتقان، وأن مخترعى هذا الوهم وحدهم يعرفون الحقيقة؟

أما الحقيقة الثابتة أمام عينيّ فهى أن أحلام الثورة كانت أحلامًا عشنا فيها سنوات طويلة، ثم أفقنا على الواقع المؤلم. وكان أكثر ما يؤلمنى هو أننا تحملنا الحكم العسكرى وعانينا من سيئاته، من أجل تحقيق الأهداف التى وعدونا بها، وتحملنا كل المصاعب فى سبيل تكوين جيش مصرى قوى يحفظ هيبتنا فى المنطقة. ورضينا بأن يسىء النظام الحاكم إلينا فى كل شىء إلا الجيش، ثم فوجئنا بتلك الهزيمة العسكرية الساحقة، وبذلك الخيبة القوية.

تابعت التطورات التى تلت النكسة خاصة عرض القضية فى مجلس الأمن، وتبين لى أن المسألة أكبر من إسرائيل، وأن الصراع ليس مجرد حرب بين دولتين تنتهى بانتصار أحدهما وهزيمة الأخرى، ويقوم المنتصر بفرض شروطه على المهزوم، مثلما حدث بين ألمانيا وفرنسا. اكتشفت أنها لعبة توازنات دولية، وأن الدول الكبرى التى ساهمت فى زرع

إسرائيل فى المنطقة شعرت بخطورة عبد الناصر فأرادت أن تقص ريشه. ومن خلال التأمل توصلت إلى عدة اقتناعات:

\* من يريد أن يذبح إسرائيل عليه أن يذبح أولاً أمريكا والدول الغربية التى تساندها.

\* أن تلك الدول كلما شعرت بقوة مصر تتزايد وبأن هذه القوة تشكل خطراً على أمن إسرائيل، فإنها تسارع بالتدخل، سواء بشكل مباشر أو من وراء الستار، وقد حدث ذلك فى حروب ٤٨ و ٥٦ و ١٩٦٧.

\* أن الحرب هى الحرب فى كل الدنيا، ونتيجتها إما مهزوم أو منتصر، وأن الهزيمة ليست نهاية الدنيا، وعلى المهزوم أن يعيد خلق نفسه من جديد. أما أن يدخل فى خندق اللا سلم واللا حرب فذلك وضع غير طبيعى ولم يحدث مثله فى التاريخ.

\* وأن الهزيمة لم تكن عسكرية بقدر ما كانت هزيمة من الداخل.

هذه هى الاقتناعات الأربعة التى توصلت إليها من خلال تأملى لما جرى وذلك على المستوى السياسى. أما على المستوى الأدبى، فإن عدداً كبيراً من النقاد أشار إلى أن رواياتى التى ظهرت قبل النكسة تنبأت بوقوعها ودقت أجراس الخطر، وأن ذلك ظهر بوضوح فى رواية «ثرثرة فوق النيل». كانت موضوعات رواياتى وأحداثها - فى الحقيقة - والتى كتبتها ونشرتها قبل الهزيمة، تحذر من حالة الفساد والتسيب والانحلال التى استشرت فى المجتمع، وتؤكد أن الأمور تنحدر نحو خطر كبير. وفى الواقع انتابنى منذ فترة طويلة إحساس متشائم تجاه مستقبل المجتمع المصرى، وهذا الإحساس مستمر إلى الآن. فهناك دلائل ونذر تدعو إلى التشاؤم والأمثلة عديدة: زيادة عدد البائسين فى المجتمع، والبائس كما هو معروف على استعداد لعمل أى شىء لأنه لا يملك شيئاً يخاف عليه، لقد هزتنى بعض الظواهر الإجرامية التى وقعت، مثل حادث الزوجة التى اختطفها عدد من الأشخاص من زوجها واغتصبوها بالتناوب أمام عينيه، وعصابة سرقة السيارات التى ضبطوها وتبين أن أعضاءها من طلبة الجامعات، وعصابة أخرى وجدوا أعضاءها من ضباط البوليس، وكل تلك الحوادث تعطى مؤشرات خطيرة على الحال الذى وصلنا إليه.

ورغم أننى كنت أتوقع حدوث نكسة ٦٧، فإننى فوجئت بها، تماماً مثلما توقعت وفاة والدى رحمه الله عليه فى الأيام الأخيرة من حياته، وكنت أنتظر وفاته بين لحظة وأخرى، ومع ذلك كان خبر الوفاة مفاجأة لى، وكأننى لم أتوقع هذه الوفاة من قبل. وكما قلت إننا لم ننهزم عسكرياً، لأننا لم ندخل الحرب، وسلمنا أسلحتنا منذ اللحظة الأولى. وفى مذكرات

كبار الضباط التي ظهرت فيما بعد، مثل مذكرات عصام دراز اتضح أن هناك مهازل حدثت من القيادة العسكرية، وكان هناك تخطيط في الآراء وصل إلى درجة أن الضباط المكلف بالهجوم على إيلات ظل ينتظر أمر الهجوم، وأعد قواته ومعداته، وأخيرًا وصله قرار الانسحاب، فأسقط في يده حتى أنه تلغثم وهو يقرأ القرار على جنوده، وظل في حالة ذهول من هذا القرار الغريب.

\* \* \*

كان يوم تنحي عبد الناصر عن الحكم من الأيام التي لا أنساها في حياتي. كنت أجلس في مقهى «ريش» - كما أشرت - عندما أعلن عبد الناصر في بيانه الشهير التنحي عن الحكم. لقد كنت قبل البيان بلحظات أنتظر أملاً ولو كاذباً، يتقذني من الحالة التي كنت أعيش فيها، وكان عبد الناصر هو رمز الأمل في حياة جيلنا، وهو الزعيم الذي تعودنا أن نحصل منه على الأمل. ولما أذيع البيان تأكدت أننا وصلنا إلى القاع، ومع ذلك ثرت على فكرة التنحي ورفضتها.. وكنت مثل المصريين أشبه بمن أعطى توكيلاً لمحام كي يترافع عنه في قضية مصيرية، ومع التوكيل أعطاه كل أوراق القضية، وقبل وأقر بحرية المحامي في التصرف حسبما يرى.. وفي لحظة خاطفة خسر المحامي القضية وأعلن تخليه عن الاستمرار فيها.. وهنا لا يكون أمام صاحب القضية سوى خيار واحد وهو أن يتمسك بمحاميه مهما كانت الظروف، لأنه لا يعرف شيئاً عن تفاصيلها وأوراقها وملفها كله، ويطلب من محاميه الاستئناف والاستمرار معه. ولذلك خرجت جموع الشعب تعلن رفضها لفكرة تنحي عبد الناصر عن السلطة، وتمسكت به، لأنه كان المحامي الذي يملك كل أوراق القضية.

حاول صديقي المرحوم محمد عفيفي - في أول لقاء جمعنا بعد خطاب التنحي - أن يقنعني بأن المظاهرات التي خرجت لتأييد عبد الناصر وإعلان رفض تنحيه وتخليه عن السلطة كانت مدبرة. وحكى لي أنه كان في منزله عندما سمع صوت عدد من سيارات اللورى الضخمة محملة بجمهور غفير، ووقفت هذه السيارات في مكان فضاء متسع بجوار المنزل، وكان ذلك قبل خطاب التنحي بدقائق. وفور إذاعة الخطاب نزلت هذه الجماهير إلى الشوارع وهي تردد هتافات مؤيدة لعبد الناصر ولبقائه في السلطة. وفي رأيي «أن هناك بعض المؤسسات مثل الاتحاد الاشتراكي وغيره ربت مظاهرات خشية من رد الفعل السلبي للجمهور، ولكنهم فوجئوا بطوفان من البشر يخرج في مظاهرات حاشدة رافضة تنحي عبد الناصر، ويجوز أن نوعى المظاهرات - المدبرة والتلقائية - خرجتا في نفس اللحظة دون اتفاق. لقد كانت الجماهير تدرك أنه ليس هناك بديل لعبد الناصر، بعد

أن انسحب رفاق الثورة من المسرح: محمد نجيب، صلاح سالم، كمال الدين حسين، عبد اللطيف البغدادى، حسين الشافعى، وزكريا محيى الدين، أو تقلص دورهم، ولم يبق سوى عبد الناصر، فإذا هو ذهب معناه أن المسرحية انتهت والبلد انهار.

والحقيقة التى لا يمكن إنكارها أن عبد الناصر بذل جهداً كبيراً فى السنوات الثلاث الأخيرة فى حياته، وهى السنوات التى تلت النكسة وحتى يوم وفاته، لإعادة تنظيم الجيش والدولة. واستطاع بهذا الجهد خاصة مع ما تحقّق من إنجازات فى حرب الاستنزاف، أن يسترد كثيراً من هيئته، ومن الأمل فى استعادة الكرامة المهذرة.

ساعده على ذلك الشعور الذى ترسخ لدى الناس بأن القوى الكبرى تأمرت عليه، وأنه لم يهزم من إسرائيل وحدها. ورغم الأمل الذى بدأ يتجدد فإن الناس كانت تتجرع المرارة والأسى، وظهر ذلك حتى فى النكات التى انتشرت فى تلك الفترة، ولم يسلم أى شىء من لسان الناس، بما فى ذلك الجيش وقواده. وكان أعداء عبد الناصر يروجون لهذه النكات وكنت أسمع بعضها وأضحك، ثم أشعر بالحزن عندما أحس أنها مغلفة بطابع الشماتة. كانت أغلب النكات تتميز بسخرية مريرة، ولم تكن هزلاً أو لمجرد الإضحاك والتسلية، بل كانت نابعة من قلب مذبوح يرقص من الألم.



لم أؤيد عبد الناصر عندما حاول أن ينفذ يده من المسؤولية ويلقبها على عبد الحكيم عامر وصلاح نصر، الأول كقائد للجيش المهزوم، والثانى كمدير للمخابرات الذى فاحت رائحته، وثبت أنه كان يمارس التعذيب والأساليب غير الإنسانية ضد المواطنين. حاول عبد الناصر أن يؤكد للناس أن مراكز القوى هى التى قادت مصر إلى الهزيمة، وأنه لم يقدر على منعها. وهذا فى رأى تبرير غير منطقي، ولا يعفى عبد الناصر من المسؤولية الكاملة لسبب بسيط جداً، وهو أن عبد الناصر كان الحاكم بأمره فى مصر، والديكتاتور الذى يملك كل السلطات والصلاحيات، والزعيم الذى يأمر فيطاع. ثم أليس هو الذى وضع عبد الحكيم عامر على رأس الجيش؟، فكيف يعطى هذه المسؤولية الخطيرة لشخص ليس أهلاً لها، حتى ولو كان صديقه المقرب وأحد قيادات الضباط الأحرار؟. فمهما كان حبه له، فإن هذا لا يعطيه مبرراً كى يمنحه كل هذه الصلاحيات ويسند إليه مسئولية القوات المسلحة، تلك المسئولية الخطيرة التى تحتاج إلى كفاءة عسكرية وقيادية متميزة.

وبالنسبة لأخطاء المخابرات وممارسات صلاح نصر، فأنا أعتقد أن المسؤولين عن هذا الجهاز ما كانوا ليقدموا على ما اقترفه دون علم عبد الناصر. ولو كانوا يعرفون أن هذا الزعيم الرهيب الذى يملك كل شيء، يحترم حقوق الإنسان ويرفض تلك الممارسات، ما واتتهم الجرأة على القيام بجرائمهم اللاإنسانية.. فما أتصوره هو أن هؤلاء كانوا مطمئنين لجانب عبد الناصر، وما كان بإمكانهم أن يجازفوا بأفعالهم تلك، لو كان لديهم شك فى اعتراضه عليها. ويؤكد تصورى هذا أن عبد الناصر كان لديه جهازه الخاص الذى يقدم له تقارير مفصلة عن كل ما يجرى فى البلد، بما فى ذلك النكات التى يتبادلها المواطنون على المقاهى، ولا شك أن ما كان يجرى فى المخابرات وصل إلى علمه.

لقد انتقدنى كثيرون ووجهوا إلى اللوم عندما كتبت مقالاً فى جريدة «الأهرام»<sup>(١)</sup> أرثى فيه عبد الناصر يوم وفاته مع علمى بأخطائه. وأقول لهؤلاء إنكم لو أمتعتم قليلاً فى قراءة المقال، فستجدون أن نصفه انتقادات لعصر عبد الناصر ومعارضة لحكمه. ثم إن للموت جلاله ورهبته، وعندما يذهب إنسان للجزء فى ميت لا بد أن يذكر محاسنه وينسى سيئاته، حتى يبرد الحزن على الأقل. فماذا ينتظر منى هؤلاء اللائمون؟ هل أقول للناس: «البقية فى حياتكم.. يلعن أبوه؟!». يا سادة لا تحاسبوا الكتاب والمفكرين على أى فعل أو قول صدر منهم فى تلك الساعات العصيبة، لأن الموقف لم يكن يحتمل مثل هذا الحساب العسير.

\* \* \*

كان مأخذى الأكبر على عبد الناصر فى السنوات التى تلت النكسة هو استمراره فى حكمه ذى الطابع الديكتاتورى. لقد قيل إن مصر فى حالة حرب والموقف معقد، وأنه لا بد من التضحية بأى شيء حتى نستعيد هيبتنا وكرامتنا. وأقول إن كل ذلك لم يكن يمنع أن يسارع عبد الناصر إلى تكوين أى صورة من صور الديمقراطية وتعدد الآراء، بعد أن ثبت له بالدليل القاطع أن الديكتاتورية قاده إلى الهاوية. وبسبب تلك السياسة الخاطئة تعرضت مصر لإهانة لم تتعرض لها طوال تاريخها. والأدهى أن تأتى الإهانة على يد أبنائها الذين حكموها لأول مرة بعد أن ظلت آلاف السنوات تحت الحكم الأجنبى، من إغريق ورومان

(١) نص المقال الذى كتبه نجيب محفوظ فى رثاء عبد الناصر منشور فى هامش فصل سابق، وهو الفصل المعنون «زعماء مصر».

وعرب وأتراك وفرنسيين وإنجليز. وحتى فى ظل الحكم الأجنبى لم تستسلم مصر وكانت تقاوم بكل ما تملك من قوة. كان عدد جيش أحمد عرابى لا يزيد على أحد عشر ألفاً، وهو عدد لا يكفى لتأمين المحمل، ومعدات الجنود بدائية، ومعظم أفراد الجيش يجهلون فنون القتال، ومع ذلك تصدى للجيش الإنجليزى الرهيب، وظل يقاوم حتى آخر لحظة وهزمته الخيانة. وعندما جاء الفرنسيون إلى مصر كان بحوزتهم أحدث الأسلحة المعروفة فى حينها وأشدّها فتكاً، ومع ذلك لم يشعر المصريون بالخوف وتصدوا لهم بالسيوف والنبايث، وقام أبناء الشعب البسطاء بثورتين متتاليتين ومات منهم الآلاف. وفى رأى فإن المعجزة الكبرى لثورة ١٩١٩ ليست فى إلغاء الحماية أو وصول أبناء الشعب إلى الحكم، أو تكوين رأس المال الوطنى، وبعث الثقافة والفن، ولكن فى الثورة نفسها. لأن الشعب المصرى عاش سبعة آلاف عام بعيداً عن السلطة، وكان الفلاح يقنى عمره فى الزرع والحصاد، ثم يترك الإدارة والحكم للصفوة. جاء الإغريق والرومان والعرب والأتراك والفرنسيون وهو لا يبالى، ولا تختلف عنده صورة الحاكم أو جنسيته، أو متى جاء أو متى رحل؟ فهو خاضع للاستعباد من جميع الحكام فى كل العصور. وقامت ثورة ١٩١٩ لتعيد إليه الثقة فى نفسه وتشعره بكيانه، وأذكر هنا حكاية بسيطة جرت وقائعها عام ١٩٣٠. ففى ذلك العام قاطع المصريون الانتخابات احتجاجاً على الدستور الذى فرضه إسماعيل صدقى باشا بعد إلغاء دستور ١٩٢٣. واقتحم البوليس إحدى القرى ومعه عدد من سيارات اللورى لحمل الناس بالقوة إلى مقار صناديق الاقتراع، فوجد القرية خاوية تماماً، فقد فر كل سكانها ولاذوا بالجبال، حتى لا يشاركوا فى الانتخابات، وحتى ينفذوا المقاطعة، ويعلنوا رفضهم لدستور صدقى باشا، واضطرت الحكومة لتزوير الانتخابات بشكل فاضح. وبعد نجاح ثورة ١٩٥٢ فوجئ الناس فى مصر بأن على رأس السلطة رجلاً منهم، من بين أبناء الشعب البسطاء، وكله وطنية وحماس، وليس هناك ما يدعو للثورة عليه أو معارضته. خاصة أن أعماله كلها مثيرة للإعجاب سواء فى الداخل أو الخارج، فأيدوه، وساندوه. ثم اكتشفوا بعد فترة أن أسلوب الحكم الديكتاتورى لم يتغير، فبدأوا فى العودة من جديد إلى حالة الاستسلام والسلبية، ذلك الداء الذى عاش معهم سبعة آلاف سنة، وحاولت ثورة ١٩١٩ أن تعالجهم منه وجاء العلاج بنتائج إيجابية. وعندما يأتى من يحدثهم الآن عن الانتماء بعد أن عادوا إلى حالتهم الأولى لا يستجيبون، لأنهم لم يحصلوا على حقوقهم فى المشاركة وإبداء الرأى، فكان الاستسلام التام والسلبية العامة، مما أدى إلى كارثة ١٩٦٧.

## الفصل العشرون

### التطرف الدينى

الأقباط بين ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢ - الفساد أهم أسباب العنف الدينى فى السبعينيات - دور جماعة الإخوان المسلمين - السادات أخرج الإخوان من السجون لضرب الناصريين فقتلوه - فى السبعينيات قلت إن الحل الوحيد هو السماح للمتطرفين بتكوين حزب إسلامى - الأقباط أذكاء ولن يسعوا لتكوين حزب حتى لا يحكموا على أنفسهم بالمزلة ويصبحوا أقلية - فكرة الدولة الدينية غير صالحة الآن للتطبيق وهذه هى الأسباب - ٨٠٪ من قوانيننا الحالية مستوحاة من الشريعة الإسلامية، ودولتنا الآن إسلامية مستنيرة - تجربة الثورة الإسلامية فى إيران وهل لها دور فى اشتداد موجة العنف الدينى فى مصر - اختلف مع فكرة رجل الدين الحاكم فهى ضد العقل والعصر بل ضد الدين - الأزهر لم يعد منبعاً للمتطرفين ومنيعهم الآن الكليات العملية فى الجامعات المدنية - أطالب بثورة شاملة فى التعليم، ونظام التعليم الحالى ديكتاتورى - أؤيد عبد الناصر فى تطوير الأزهر - تطبيق الشريعة بحذافيرها كما يريد المتطرفون لا يصلح فى هذا العصر - قتل الإنجليز جهاد وطنى.



■ في هذا الفصل يصرح نجيب محفوظ بأكثر آرائه إثارة للجدل، حيث يؤكد أنه يعارض تطبيق الشريعة الإسلامية بحذافيرها كما يريد المتطرفون، ولابد من إيجاد بدائل قانونية عصرية مستمدة من روح الإسلام دون الإساءة لنصوص القرآن. وفي هذا الفصل يتناول الأديب الكبير بالرأي والتحليل عددًا من القضايا الشائكة، مثل دور جماعة الإخوان المسلمين في التطرف الديني في مصر وفي قتل السادات، والثورة الإسلامية في إيران، ومسئولية نظام التعليم الحالي في تخريج المتطرفين، ودور الأزهر في تغذية حركات التطرف في السبعينيات..■

نجيب محفوظ: استطاعت ثورة ١٩١٩ أن تقضي على ظاهرة التعصب الديني والطائفية في مصر، حيث لم تفرق بين مسلم وقبطي. ووصل الأقباط في ظلها لأعلى المناصب في الدولة، فكان منهم ويصا واصف الذي شغل منصب رئيس مجلس النواب دون اعتراض من أحد ومنهم مكرم عبيد الذي لعب دورًا بارزًا في تاريخ الوفد، ولذلك لم نشعر في تلك الفترة بوجود الطائفية أو التطرف الديني. وعندما قامت ثورة ١٩٥٢ أحييت الطائفية دون قصد، فمجلس قيادة الثورة لم يكن به قبطي واحد. وربما يعود ذلك إلى أن المجلس قام على التآمر وليس الاختيار، بمعنى أن مجموعة الضباط التي قامت بالثورة كانوا أصدقاء مقربين. وربما خشوا من أن يدخل بينهم فرد من الأقلية، حيث تخاف الأقليات - كما هو معروف - من التآمر. ولذلك عندما قامت الثورة كان المنظر مربعًا بالنسبة للأقباط، لأنهم شعروا بأنهم غير ممثلين في الثورة الجديدة، وبالتالي ليس لهم مستقبل في مصر. وهاجر عدد كبير من الأقباط في عهد عبد الناصر إلى الولايات المتحدة وكندا وأستراليا، على الرغم من أن الثورة لم تعاد الأقباط، حيث فتحت المدارس والوظائف للجميع. إلا أن الأقباط شعروا بأن مشاركتهم في الحكم معدومة، والمزايا التي اكتسبوها في ظل ثورة ١٩١٩ انتهت. وهذا الشعور لم يفارقهم منذ قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ وحتى الآن، ومع ثورة يوليو برز شبح التطرف الديني، ثم الفتنة الطائفية.

إن ظاهرة التطرف الديني التي ظهرت بعد ثورة يوليو وبلغت ذروتها في فترة السبعينيات لها أسبابها. وفي رأي أن أهم الأسباب هي حالة الفساد والتضخم والغلاء التي عاشها المصريون في تلك الفترة. ومن الطبيعي أن يكون رد الفعل للتطرف في الفساد هو التطرف

السياسى والدينى، وكان الفساد هو التربة الخصبة التى أنبتت الجماعات المتطرفة. ساعد على بروز هذا التيار انضمام عدد كبير من الناس إلى تلك الجماعات المتطرفة، ليس اقتناعاً بمبادئها، ولكن نتيجة لحالة اليأس والإحباط التى يعيشونها بسبب الفساد والتضخم والغلاء. ولذلك أرى أنه عندما تتحسن الحالة الاقتصادية وتتوافر فرص العمل للشباب، مما يتيح لهؤلاء الشباب الثور على أماكن للسكن وفرص الزواج وتكوين أسرة، فإن ٦٠ إلى ٧٠٪ منهم سوف يتخلون عن تيار التطرف الذى لن يظل متمسكاً به سوى المتطرفين فعلاً وهم نسبة ضئيلة. السبب الثانى بعد أجواء الفساد هو التعذيب الذى تعرض له الإخوان المسلمون فى سجون عبد الناصر مما أدى إلى تبني الجماعة لمبدأ «العنف فى مقابل العنف». لقد قام الإخوان المسلمون قبل ثورة يوليو بعمليات عنف واغتيالات، وأحد أجهزة الإخوان هو «الجهاز السرى» الذى نفذ جرائم معروفة. إلا أن مؤسس جماعة الإخوان الشيخ حسن البنا كان حقيقة ضد العنف ولا يشجع عليه، وهذا للحق والإنصاف<sup>(١)</sup>. ولكن بعد الصدام بين عبد الناصر والإخوان المسلمين والمذبحة التى تعرضوا لها ووضعهم فى السجون، اشتد تطرف الجماعة واعتنق أعضاؤها أفكاراً دموية، كانت هى السبب الرئيسى فى نشأة الجماعات المتطرفة الأخرى التى خرجت من عباءة الإخوان المسلمين. وعندما جاء أنور السادات أخرج الإخوان المسلمين من السجون، وشجعهم على النهوض من جديد بهدف ضرب الناصريين والشيوعيين. فبدأ الإخوان يسيطرون على الجامعات والنقابات حتى اشتد نفوذهم واتسع، وفى النهاية قتلوا السادات نفسه لأنهم حكموا على تصرفاته من وجهة نظرهم وليس من وجهة نظره هو بطبيعة الحال. والسادات فى هذا الموقف أشبه بمن لعب بالنار فأحرقته، فقد كان يظن أن إحسانه إلى الإخوان سوف يقابل بالإحسان، ولكنه قوبل بالقتل.

\* \* \*

من الملاحظات اللافتة للنظر فى ظاهرة التطرف التى سادت فى المجتمع المصرى فى تلك الفترة أن القاعدة العريضة للجماعات المتطرفة كانت من بين الشباب المستنير. فأغلبهم من خريجي الجامعات وبعضهم وصل إلى أعلى درجات العلم، على عكس

---

(١) هناك رأى آخر يقول إن الشيخ حسن البنا كان على معرفة تامة بحقيقة «الجهاز السرى» فى الإخوان وأنه كان يرعاه ويشجعه، ومن أبرز أصحاب هذا الرأى الدكتور رفعت السعيد فى كتابه المعروف عن الإرهاب.

الطرق الصوفية حيث تجد مرديها من عامة الناس البسطاء، ونادرا ما تجد منهم أحداً من خريجي الجامعات، ونادراً كذلك ما تخرج هذه الطرق الصوفية على النظام أو تميل إلى التطرف.

وعندما اشتدت موجة التطرف في السبعينيات قلت إن الحل الوحيد للقضاء على هذه الظاهرة هو السماح لهؤلاء المتطرفين بتكوين حزب سياسي. فتلك الخطوة ستضعهم في حجمهم الحقيقي، وتجعلهم يخرجون من سراديب الظلام ومن التنظيمات السرية التي لن يبقى منها إلا المتطرفون الأصليون وهؤلاء أمرهم هين. وقد يقال إن المسيحيين سوف ينزعجون من هذا الإجراء، وربما يطالبون هم أيضاً بالسماح لهم بتكوين حزب مسيحي. إلا أنني أعتقد أن المسيحيين أذكى من ذلك، لأنهم إذا أسسوا حزباً دينياً لهم فسيجعلون من أنفسهم أقلية مثل اليهود قبل ثورة يوليو. والأفضل للمسيحيين أن يتشروا بين كل الأحزاب فيكون لهم ثقل أكبر وتأثير أقوى. بل ما الذي يمنع القبطى من الدخول في الحزب الدينى الإسلامى، فالإسلام عقيدة وتشريع مثل القانون الرومانى والفرنسى. فإذا كان الأقباط عاشوا تحت هذه القوانين فلماذا لا يجربون الشريعة الإسلامية، خاصة أنهم جزء أساسى من الوطنية المصرية وخطوطهم لا تنفصل عن نسيج المجتمع المصرى؟

وفى حالة السماح بتكوين حزب إسلامى يصبح من واجب الأحزاب الأخرى اللا دينية مثل الوطنى والوفد والتجمع أن تعيد تنظيم نفسها وتتحد فى حزب واحد. لأنه فى هذه الحالة لا داعى للتفرقة فيما بينها، لأن الهدف هنا واحد وهو إقامة حكومة مدنية دستورها مستمد من روح الشريعة الإسلامية. وأنا أعتقد أن هذا الحزب اللا دينى الموحد سوف يحصل على الأغلبية، خاصة أن الحزب الدينى ستحدث داخله صراعات وانشاقات، ونحن نرى أن كل جماعة من الجماعات الدينية تكفر الأخرى. ومن هنا فلا خوف من إقامة حزب دينى، بل أظن أن السماح لهم بتكوين هذا الحزب هو مآزق يتعرض له المتطرفون لم يخطر لهم على بال.

من الظواهر اللافتة للنظر أن بعض المفكرين الذين ظلوا فترة طويلة داخل صفوف اليسار، مثل عادل حسين وطارق البشرى، ينادون الآن بإقامة حكومة دينية فى مصر، وقد مال توفيق الحكيم نفسه فى أواخر حياته لهذه الفكرة، ولكنى أرى أن هذا جنوح فى الفكر.. لأن إقامة دولة دينية يقودها رجال دين تضر أكثر مما تنفع وتعد قيداً على المجتمع وانشاقاً عن جادة

الصواب، والأفضل لمصر هو إقامة حكومة مدنية يتمتع دستورها بروح دينية، ويتأسس هذا الدستور على مبادئ الاجتهاد والتوافق مع العصر. وأعتقد أن الحكومة القائمة الآن مثال لذلك، فهي حكومة إسلامية متطورة، يؤيد ذلك ما قرأته وسمعت من مفكر إسلامي بارز هو خالد محمد خالد من أن ٨٠٪ من القانون المصري مستوحى من الشريعة الإسلامية. فمسائل الزواج والطلاق والميراث والأحوال الشخصية كلها طبقاً للشريعة الإسلامية، ولا تختلف عنها في أي شيء.

ليس في الإسلام ما يدعو إلى قيام رجل الدين بشئون الحكم، بدليل أن أول حاكم بعد النبي صلى الله عليه وسلم وهو أبو بكر الصديق كان اختياره سياسياً وليس دينياً. ولذلك حدث خلاف عند اختيار كل خليفة بعد محمد عليه الصلاة والسلام، بينما لم يحدث خلاف على الصلاة. وبعد تأسيس الدولة الإسلامية وانتشارها جغرافياً، كانت تدار أمورها عن طريق حكام عسكريين وليس رجال دين. وربما كان نجاح الثورة الإسلامية في إيران واستيلاء رجال الدين على الحكم هو الذي طرح القضية بقوة على الساحة. وأنا لا أستطيع الحكم على تجربة الثورة الإسلامية في إيران لأن أغلب معلوماتي أخذتها من خصومها، وهؤلاء يصورونها على أنها دموية وديكتاتورية. وللأسف هناك تعميم شديد حتى الآن على هذه الثورة، فلا أستطيع أن أقول فيها رأياً قاطعاً، سواء بالسلب أو الإيجاب.



أختلف مع الذين يرون أن الحكومة المصرية علمانية ولا دينية. فلا توجد حكومة تقف ضد الدين باستثناء الحكومة الشيوعية الصريحة، بل هذه الأخيرة تنازلت في فترة لاحقة عن عدائها للدين. من هذا المنطلق أرى أن حكومتنا تنطبق عليها صفة «الحكومة الدينية»، لأنها تهتم بتعليم شعائر الإسلام وتقيم المساجد وتعتنى بها، وتخصص وزارة كاملة مهمتها الوعظ والإرشاد ونشر الإسلام. فكيف نقول إن هذه الحكومة ليست إسلامية؟ حكومتنا ذات نظام إسلامي متطور ومتحرر ويعي روح الدين، ومن ثم فإن اتهامات المتطرفين لها بالكفر ليس لها سند، بل إن هؤلاء المتطرفين ليس على لسانهم تهمة غير الكفر والتكفير بلا ضابط. وأختلف أيضاً مع فكرة «رجل الدين الحاكم» الذي يأمر فيطاع ولا يرد له أمر. فهي فكرة خطيرة وضد العقل والعصر، بل وضد الدين، حيث نبعت منها فكرة تكفير المجتمع والهجرة وأخذ الناس بالشبهات بل وقتلهم. وربما كان مصدر فكرة رجل الدين الحاكم هو اعتقاد الشيعة في مبدأ «الإمام المنتظر» المنزه عن كل خطأ. والبديل العملي العصري لكل

هذه الأفكار المتطرفة هو تطبيق الديمقراطية الكاملة. بحيث يكون لكل تيار حزب سياسي يعبر عنه، حتى لو ترتب على ذلك ظهور أحزاب إسلامية وأخرى قبطية. وأؤكد أن الأقباط ليسوا من الغباء لكي يقيموا حزباً مستقلاً، لأنهم بذلك يحكمون على أنفسهم بالعزلة، وبأن يتحولوا إلى أقلية عنصرية، والأقباط ليسوا أقلية عنصرية بل هم جزء لا يتجزأ من الوطنية المصرية.

\* \* \*

نقطة أخرى أود التوقف عندها، وهي أن الأزهر لم يعد هو المدرسة التي يخرج منها المتطرفون، ففي فترة من الفترات وقف الأزهر ضد تيار الاستنارة، وكفر محمد عبده وعلى عبد الرازق. كما هاجم الأزهريون سعد زغلول عندما كتب مقالاً يطالب فيه بإصلاح الأزهر، فتم فصله ولم يحصل على الشهادة الأزهرية. وترك طه حسين الأزهر ولم يكمل تعليمه فيه، فقد كانت العقلية الأزهرية تنفق، إن لم يكن مع التطرف، فعلى الأقل مع الرجعية. ولكن في الجيل الحالي انتقل مركز التطرف إلى الكليات العملية في الجامعات المدنية، أي كليات الطب والهندسة والعلوم، مقارنة بالكليات التي تهتم بالثقافات الإنسانية مثل الآداب والحقوق. والواقع أن المناهج الدراسية في الكليات العملية الآن تعاني من قصور خطير لأنها تهمل النواحي الإنسانية. فقديمًا كان خريجو المدارس العلمية ينافسون نظراءهم في المدارس الأدبية في قراءة الأدب والفكر والفن، ويدخلون في جدل وحوار حول كتابات العقاد وطه حسين. لقد كان الدكتور أنور المفتي على درجة عالية من الثقافة التي كانت تؤهله للعمل بالنقد الأدبي، وكان زميلي في مدرسة فؤاد الأول، وكنا نتسابق في الحصول على أعلى الدرجات، وكان المفتي من أحسن التلاميذ في كتابة موضوعات الإنشاء. من الضروري أن نهتم بتدريس ما أسميه «الثقافة العامة للطلاب» ابتداء من المرحلة الابتدائية، لأن نقص هذه الثقافة هو أساس فساد التعليم الآن.

\* \* \*

التعليم في مصر يحتاج إلى ثورة، وطالما ناديت وطالبت بأن نقوم بهذه الثورة لنخلق مواطنًا ديمقراطيًا صالحًا للبحث العلمي. وصفة «ديمقراطي» هنا تعني تخريج طالب متفتح لا يعتمد على الحفظ فقط، أو يفرض عليه الآراء والنظريات لكي يلتزم بها ولا يحيد عنها، وإنما يعرف كيف يبحث ويفكر ويبتكر ويتحاور. النظام التعليمي الحالي هو نوع من الديكتاتورية، ولا بد من استبداله بنظام يسمح بالمناقشة والاختيار، ويسمح بتربية الطلاب

على حرية الرأي وعلى استخدام العقل. إن الثورة التى أنادى بها لا تقتصر على التعليم فقط، بل لابد أن تمتد إلى التربية أيضًا. فتكون هناك تربية دينية سليمة، ثقافية، قومية، وأخلاقية، وكل هذه الأنواع من التربية كانت متاحة فى أيامنا بسبب نظامنا التعليمى القديم. أنا لا أدعى أن التعليم قديمًا كان مثاليًا، لقد كانت لنا شكاوى وانتقادات كما كانت هناك عيوب فى النظام التعليمى. ولكن مع كل العيوب كانت كل مدرسة تضم مكتبة، ومجلة، وفرقة تمثيل، وجماعة خطابة، وفرقة موسيقية، بالإضافة طبعًا للمنهج الدراسى. والمدرسة يجب أن تكون بهذه الصورة وإلا لن يتحقق الهدف المرجو منها، ولن نحصل على خريجين بالشكل الذى نرتضيه، وتتفى ضرورة المدرسة. فأن نترك الأطفال يرتعون فى الأمية والجهل بدون تعليم أفضل من تعليمهم بالصورة الحالية. فأقصى نتيجة يمكن أن يصلوا إليها فى ظل النظام الحالى أن يكونوا أشبه بأتباع الطرق الصوفية! إن المدرسة فى مصر بنظامها الحالى تقدم للمجتمع مادة خامًا للتطرف، ولا تقدم متعلمين مثقفين مستنيرين.

من أهم عيوب نظام التعليم الحالى هو أنه يفصل بين التعليم والتربية، وينظر للتربية على أنها من الكماليات، بينما التربية أهم من التعليم. وأؤكد أننى أفضل متعلمًا حاصلًا على مؤهل متوسط ولم يكمل دراسته الجامعية ويشغل وظيفة بسيطة، ولكنه يكون قد تلقى تربية جيدة ولديه انتماء، على متعلم آخر حاصل على أعلى الشهادات دون تربية جيدة أو انتماء. وفى الحقيقة فإننى تفاءلت واستبشرت خيرًا بالخطوات التى اتخذها وزير التعليم الأسبق الدكتور فتحى سرور على الرغم من ثورة الكثيرين على أفكاره، لأن جميع الأسر المصرية ترغب فى إلحاق أبنائها بالجامعات بأى شكل. ورغم الصعوبات الكبيرة التى اعترضته، ورغم الروتين الفظيع والإمكانيات الضعيفة، فإن الدكتور سرور كان يسير فى الاتجاه الصحيح لتطوير التعليم فى مصر، ولكنه لم يستمر وتم تكليفه برئاسة مجلس الشعب.

ونأتى إلى مشكلة أثارت جدلاً كبيرًا فى حينها، وهى القرارات التى اتخذها عبد الناصر لتطوير الأزهر، والتى اعترض عليها كثيرون، واعتبروها إضعافًا لدور الأزهر وانتقاصًا منه وتصفية له. فى رأى أن تلك القرارات كانت سليمة وإيجابية، فليس هناك ما يمنع أن يتحول الأزهر إلى جامعة، يدرس طلابها العلوم الحديثة إلى جانب العلوم الدينية. أما أن يحتاج البعض بأن خريجى الأزهر بعد تطويره ضعفاء فى المستوى العلمى، فإن هذا يرجع فى الأساس إلى ضعف مستوى التعليم فى مصر بشكل عام، وليس بسبب النظام الجديد. وقديمًا كان خريج الأزهر المميز بالعمامة متميزًا فى اللغة العربية وقواعدها ولا يخطئ فيها

أبدأ، والآن تدهور مستوى اللغة العربية، ليس بين خريجي الأزهر فقط وإنما بين خريجي التعليم المدني أيضًا.

\* \* \*

لقد ناصرت تطوير الأزهر لأننى كنت ألمس بنفسى أن أغلب الأزهرين الذين عرفتهم أيام الدراسة كانوا ساحطين على نظام التعليم الأزهرى والحياة الجافة التى يعيشها طالب العلم فى الأزهر. فقد كانت مناهج الأزهر قاسية ومجهدة، فمثلاً كان لابد للطلاب الذى يريد الالتحاق بالأزهر، وغالبًا ما تكون سنه حوالى ١٢ عامًا، أن يحفظ القرآن كاملاً عن ظهر قلب. ولذلك أعتقد أن عملية تطوير الأزهر لم تواجه باعتراضات من هؤلاء الذين عانوا من الدراسة الأزهرية على النظام القديم. وأعترف - شهادة لله - أن حركات التطرف الحديثة لم يكن منبعها الأزهر بقدر ما جاءت من الكليات العملية فى الجامعات المصرية الأخرى، رغم تعاطف الأزهر مع الإخوان المسلمين. صحيح أن الأزهر أصبح جهة رسمية حكومية ولكن قلبه كان مع الإخوان. وتحضرني هنا واقعة طريفة حدثت أثناء عملى بوزارة الأوقاف قبل الثورة، فقد حدث أن تشكلت وزارة جديدة غير وفدية، وبطبيعة الحال فإن الوزير الجديد كان غير وفدى. وفى اليوم الأول لمجيئه إلى الوزارة اصطف الموظفين أمام الباب ليكونوا فى استقباله، ووقفت مع زميلى «عبد السلام» فى ركن بعيد، فنحن الاثنان من أنصار الوفد. وعندما دخل الوزير هتف الموظفون: «يحيا وزير الأوقاف»، أما أنا وعبد السلام فكنا نهتف ولكن بصوت منخفض: «يسقط وزير الأوقاف»، والكل يظن أننا نشاركهم الهتاف !! وهكذا فعل الأزهر، رفض فى الظاهر أفكار التطرف، ولكن فى الباطن كان معها بقلبه.

\* \* \*

يرتبط بقضية تطوير الأزهر نقطة أخرى كنت أشرت إليها فى بعض مقالاتى وهى تطوير أئمة المساجد. فنحن نعرف أن قسم الوعظ والإرشاد يتخرج فيه أئمة المساجد، وبما أن المنابر فى رأى ذات تأثير أكبر من المدارس اقترحت تطوير الدراسة لهؤلاء الأئمة. وقلت إن المسألة أكبر من الاهتمام بتعليم الناس طريقة الوضوء، ولكن الأهم أن نوضح لهم رسالة الإسلام الحقيقية وتاريخ الحضارة الإسلامية وتاريخ الأديان.. ونصلهم بروح الإسلام الأصلية بوصفه ديناً يعتبر العمل عبادة، والتفكير عبادة، والمعرفة عبادة، بحيث تصل هذه

الروح إلى كل فلاح فى القرية. فعن طريق هؤلاء الأئمة يمكن إحداث ثورة فى البلد، ثورة نظيفة، وعامة الناس - خاصة فى الريف - يحترمون رجال الدين ويقدرّونهم حق التقدير، ويضعون آراءهم موضع التقديس. ومن الممكن إذا أردنا عمل ثورة حقيقية، أن ننشئ معها للوعظ، يلتحق به خريجو كليات الطب والهندسة وغيرها من كليات القمة، بحيث يكون الخريج على مستوى من الوعى والإدراك لرسالة الوعظ والإرشاد. وفى هذه الحالة أظن أن تأثير الواعظ سيكون أقوى وأشد من وسائل الإعلام المختلفة وعلى رأسها التليفزيون.

\* \* \*

عندما قامت ثورة ١٩١٩ كنت مؤيداً لاستخدام العنف ضد الإنجليز، وكنت أعتبر اغتيالهم نوعاً من الجهاد الوطنى. فهناك حالات يكون فيها العنف مشروعاً ولا يمكن إدراجه تحت بند الإرهاب، ومنها قتال الإنجليز للحصول على الاستقلال، ومنها المقاومة الفلسطينية ضد إسرائيل فى سبيل الحصول على الاستقلال، بشرط أن يكون العنف موجهاً للإسرائيليين مباشرة وداخل حدودهم. لكن أن يتسلل فلسطينى إلى محطة مترو أو مقهى فى باريس ويزرع قنبلة ليقتل يهودياً ويذهب ضحية العنف أطفال ونساء وأبرياء، فهذا يندرج تحت قائمة الإرهاب، ويخرج من نطاق المقاومة والجهاد والنضال.

وفى فترة ما بعد ثورة ١٩١٩، وبعد صدور دستور ١٩٢٣ وتحقيق جزء من مطالبنا الوطنية، عارضت الاغتيالات التى تمت، مهما كانت مبرراتها. فما دامت هناك ديمقراطية وصحافة حرة تستطيع من خلالها أن تعبر عن رأيك، فما حاجتك إلى الرصاص؟. والملاحظة اللافتة للنظر أن الاغتيالات التى حدثت قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ وقعت فى ظل حكومات غير ديمقراطية. فأحمد ماهر كان على رأس حكومة أقلية جاءت لتفرض آراءها وكان مصيره الاغتيال، والنقراشى شن حملة واسعة على الإخوان المسلمين وأدخلهم السجون فكان مصيره الاغتيال. والسادات نفسه قتل بعد أن ألغى الديمقراطية ولجأ إلى العنف بدلاً من الحوار الذى كان يدعو إليه ولكنه لم يحترمه فى النهاية. ولكن هذه الملاحظة التى أبدىها لا تمنع من القول بأن هناك اغتيالات وقعت فى ظل نظم ديمقراطية، ولكن فى الغالب يكون القاتل مجنوناً. فالذى حاول اغتيال سعد زغلول مثلاً اتضح أنه مختل عقلياً وأودع فى مستشفى «الخانكة».

الإرهاب أو العنف قد يكونان رد فعل على فعل، ويكون للأخير أسبابه المنطقية.

فالمتمطرون الآن يحتجون على أشياء يعتبرونها فسادًا من وجهة نظرهم، وربما نشاركهم بعض الرأي في حالات معينة مثل سوء استغلال السلطة للكسب المادي، فالأسباب هنا مقنعة، ولكن رد الفعل - وهو الاغتيال - أمر مفروض. ولكي نقاوم ظاهرة الإرهاب في مجتمعنا لا بد أن ندرس الأسباب التي دعت هؤلاء المتطرفين إلى العنف ونحاول إصلاحها، بشرط أن يكون العنف هو آخر طريق نلجأ فيه لمقاومتهم، فالعنف ليس علاجًا أبدًا للعنف ولن يكون.. ومن حسن الحظ أن جاء إلى كرسي وزارة الداخلية وزراء يدركون هذه النقطة، وهي أن علاج الإرهاب لا يكون بقتل المتطرفين، ولكن بإصلاحهم وإصلاح أحوال المجتمع، ولكن هؤلاء الوزراء كانوا قلة، ولم يتمكنوا من تنفيذ أفكارهم حتى النهاية.

والمشكلة الجدلية التي لا تنتهى وتعتبرها الجماعات المتطرفة شغلها الشاغل هي تطبيق الشريعة الإسلامية. وفي اعتقادي أن تطبيق الشريعة بحذافيرها طبقًا لمفهومهم أمر غير متاح في ظل الظروف الحالية. فالأمر تعيش الآن على أساس مبدأ القوميات، ومن ثم فمن الصعب أن تجعل من مصر دار الإسلام وتطبق الشريعة على وطن يساوى بين جميع أبنائه على اختلاف دياناتهم وألوانهم وأشكالهم. فدار الإسلام الآن غير موجودة، وحل محلها وطن يخطو نحو القرن الحادى والعشرين، ويحاول أن يعيش العصر بكل ما فيه من متغيرات. وإذا نظرت إلى الدستور المصرى فستجد أن نسبة عالية من مواده على الأقل مستمدة من روح الشريعة الإسلامية، أى أننا نعيش فى دولة إسلامية، ولكنها دولة مدنية عصرية. وإذا قالوا إن الدستور لا يأخذ بالحدود التى نص عليها القرآن الكريم، أقول لهم إن سيدنا عمر أوقف العمل بأحكام دينية صريحة فى ظرف محدد. وهذا يدل على أن النص أحيانًا يكون موقوفًا، أى مرتبطًا بظروف معينة، وفى العصر الحديث من الممكن أن نجد بدائل عصرية دون الإساءة للنص الأصلي. ففى أيام الرسول - مثلاً - كان يطبق حد السرقة بقطع يد السارق، وكانت هذه القاعدة مقبولة فى ظل الظروف التى كان يعيشها المجتمع الإسلامى الأول. فلا توجد سجون، كما أن لغة القوة هى السائدة، فكان قطع اليد هو الأسلوب المناسب لزرع السارق، الآن توجد بدائل لهذه العقوبة يمكن أن تحقق نفس الهدف، مثل السجن والغرامة.

وعندما تنظر أيضًا إلى حد آخر من حدود الإسلام وهو الزنى، تجد أنك إذا طبقته كما هو فى الشرع، بوجوب وجود أربعة شهود ثقات، فمن الصعب على هذا الأساس أن تجد زانيا متلبسًا بجريمته، وقد يزنى شخص فى ميدان التحرير، ولا يشهد عليه أربعة ثقات، فلا

تنطبق عليه العقوبة. والنص القرآني الذي يقول بجلد الزاني ورجم المحصن الغرض منه هو التخويف وليس العقاب. وعلى ذلك فأنا أميل إلى الرأي القائل بأن البدائل المدنية الحديثة يمكن أن تحل محل الحدود دون أن يطعن ذلك في النص أو يتقص منه.

\* \* \*

وخلاصة القول فإن الديمقراطية هي الحل للخروج من أزمة التطرف والإرهاب. أنا لست ضد حكم الإسلام، ولو وافقت أغلبية الشعب على تطبيق الشريعة كما يريد المتطرفون فسوف أقبل، لأنني إذا رفضت في هذه الحالة لا أكون ديمقراطيًا. فالديمقراطية نزول على رأى الأغلبية، والدين الإسلامي دين مرن يحتوى على كل المبادئ الحديثة، الحرية والديمقراطية والاشتراكية، ويحث على العمل والإنتاج والابتكار. الإسلام دين كامل وهو أيضًا إنساني وعالمي، فهو ليس مثل ديانة «الشتو» اليابانية التي تقول للياباني: «جزيرتك أعظم جزيرة، وملكك أعظم ملك، ولا بد أن تعمل لتضع جزيرتك فقط وملكك فقط في المكانة اللائقة». والإسلام دين إنساني مفتوح للجميع، ويتكلم بكل لغات العالم.

\* \* \*

## الفصل الحادى والعشرون

### الله والإنسان

لم أقرأ كتاباً فى حياتى مرتين، و«القرآن» أقرأ فيه كل يوم - وصوت الشيخ على محمود الساجر ملائى حباً فى القرآن - الشيخ البربرى وطريقته الفريدة فى التريل - تأثير القرآن فى أعمالى الروائية - السورة التى سحرتنى - «الكتاب المقدس» قرأته بإمعان واستفدت منه فى «أولاد حارتنا» و «أيوب» - جذبتنى الصوفية ولكنى لم أقتنع برفضها للحياة - الشيخ مصطفى عبد الرازق كان أستاذى فى النبل الإنسانى - فكرت فى إعداد رسالة ماجستير عن «فلسفة الجمال فى الإسلام» - فى المحاضرة قال الأستاذ: «سأشرح الدرس حتى يفهم أخونا نجيب محفوظ المسيحي»! - فى وزارة الأوقاف أخفيت ميولى الوفدية - الشيخ على عبد الرازق استقال من الوزارة لأن الملك لم يقدم إليه العزاء فى زوجته.



■ لم يقرأ نجيب محفوظ كتابًا واحدًا مرتين، والاستثناء الوحيد من هذه القاعدة التي سار عليها طوال حياته، هو «القرآن الكريم»، حيث يواظب على قراءة أجزاء منه يوميًا. فما هي قصة نجيب محفوظ مع القرآن وما هي أسباب تعلقه به؟ وما هي أحب السور إليه؟ وما هو تأثير القرآن على أسلوبه وأدبه؟ ولماذا فكر في إعداد رسالة ماجستير حول فلسفة الجمال في الإسلام؟ ومن هو الشيخ صاحب أجمل صوت في تلاوة القرآن في رأيه؟ ومن هو الشيخ الذي يعتبره أستاذه في النبل الإنساني؟ هذه الأسئلة وغيرها يجب عنها نجيب محفوظ في هذا الفصل... ■

نجيب محفوظ: لم أقرأ في حياتي كتابًا واحدًا أكثر من مرة باستثناء كتاب واحد هو «القرآن الكريم». قرأت القرآن منذ الصغر، وتعلقت به، ومازلت أقرأ فيه بشكل يومي ولو أجزاء قليلة، قرأت كذلك كتب التفسير، خاصة القرطبي وسيد قطب، وإن كان أكثرها راحة وسهولة بالنسبة لي هو «منتخب التفاسير» الصادر عن مجمع البحوث الإسلامية.

وترجع عادة عدم قراءتي للكتاب الواحد أكثر من مرة إلى أنني بدأت تثقيف نفسي ثقافة أدبية في وقت متأخر نسبيًا من حياتي، وبالتحديد بعد عامين من تخرجي في الجامعة. فكان الوقت أمامي ضيقًا، وعلى أن أقرأ كل ما يقع تحت يدي، وكل ما يتعلق بالأدب، وهو كثير. ومن هنا لم يكن عندي الوقت لإعادة قراءة ما سبق أن قرأته حتى ولو نال إعجابي أكثر من غيره، فقد كنت أعتبر ذلك ترفًا لا أقدر عليه، ولا يسعفني الوقت لأدائه، وهذه خطة لم أحد عنها أبدًا.

أما علاقتي بالقرآن الكريم والتي بدأت في وقت مبكر من حياتي، فإنها توطدت أكثر بعد تعلقي بأصوات كبار القارئين في ذلك العصر، خاصة «الشيخ علي محمود» الذي كان يملك صوتًا موازيًا للوطن، فإذا كان مشهد الوطن يحرك مشاعرك، فكذلك كان صوت الشيخ علي محمود في ترتيله للقرآن. واعتدت على حضور ليلة حفن الطرزي<sup>(١)</sup> التي

(١) هو حفن الطرزي باشا أحد الشخصيات البارزة في حزب الوفد القديم. ومن حديث نجيب محفوظ نفهم أنه كان معتادًا على أن يقيم سرادقًا في حي الحسين مرتين في كل عام، في ذكرى مولد الحسين، وفي ذكرى وفاة سعد زغلول.

يحييها الشيخ على محمود فى أيام مولد سيدنا الحسين، وأظل ساهراً حتى مطلع الفجر مبهوراً بصوته المعجز. وكنت أداوم على سماعه فى الوقت المخصص له بالإذاعة، وفى الذكرى السنوية لوفاة سعد زغلول كان يقام سرادق ضخّم، وفى الغالب كان يحييه الشيخ على محمود والشيخ البربرى. ورغم أن السرادق كان يضم أكثر من ثلاثين ألف شخص، إلا أن صوت القارئ سواء أكان الشيخ على محمود أو الشيخ البربرى، كان يصل إلى الناس بسهولة دون استخدام الميكروفون الذى لم يكن قد ظهر حتى ذلك الوقت.

كان الشيخ البربرى، ولا أتذكر اسمه كاملاً، له طريقة فريدة فى ترتيل القرآن، لم أسمعها من قارئ قبله أو بعده، فهى طريقة أقرب للخطابة، ولكن بشكل جميل مؤثر. وقد كان للقرآن وأسلوبه وموسيقاه العذبة أثر كبير فى أسلوبى فى الكتابة، وظهر ذلك بشكل واضح فى «أحاديث الصباح والمساء»، والى قال عنها الناقد الدكتور محمد حسن عبد الله إن تلك القصص تسير على نفس المنهج الذى سارت عليه قصص القرآن، وأنه ظهر فيها تأثيرى البالغ بأسلوب القصص القرآنى.

أما أكثر سور القرآن التى سحرتنى بموسيقاها وأسلوبها، فهى سورة «الرحمن». وأتذكر أن صحفياً أمريكياً جاء إلى القاهرة ليجرى معى حديثاً، وسألنى عن علاقتى بالقرآن وتأثيره علىّ وأسئلة أخرى، ثم سافر عائداً إلى بلاده. وبعد بضعة أيام فوجئت برسالة بريدية منه، حيث أخبرنى أنه نسى سؤالاً هاماً ويريد منى الإجابة عنه، وكان السؤال هو: ما أحب سور القرآن إلى نفسك؟ وأرسلت له الإجابة: إنها سورة الرحمن.

والحقيقة أننى عندما وضعت لنفسى برنامجاً للثقيف الذاتى فى بداية حياتى، كان جزء كبير من هذا البرنامج يتعلق بدراسة الديانات الكبرى، وتاريخ الحضارة، والفكر الإنسانى. لذلك قرأت «الكتاب المقدس» بإمعان، وكان من مصادرى التى اعتمدت عليها فى كتابة رواية «أولاد حارتنا»، كما أننى اقتبست منه قصة «أيوب» التى تحولت فيما بعد إلى فيلم سينمائى قام ببطولته عمر الشريف. وهناك اختلافات كبيرة بين قصة «أيوب» فى «الكتاب المقدس» وقصة «أيوب» التى كتبها أنا، إلا أن المصدر الرئيسى الذى أوحى إلى بكتابة القصة، هو ما جاء عنها «بالكتاب المقدس».

قرأت فى تاريخ الفكر الهندى وخاصة «البوذية»، وإن لم تستغرقنى كما استغرقتنى الكتابات الصوفية الإسلامية. ورغم أننى لا أؤمن بأفكار الصوفية ومعتقداتهم كما يؤمن

بها المتصوفون، فإننى وجدت فى قراءة كتبهم وتأملها راحة عقلية ونفسية كبيرة. جذبتنى فى الصوفية فكرة السمو الروحى، وفى المقابل لم أقتنع بفكرة رفض الدنيا، فلا أتصور مذهباً دينياً يرفض الدنيا أبداً. وظهر رأى بوضوح فى رواية «اللص والكلاب» فى شخصية الرجل الصوفى الذى يلجأ إليه «سعيد مهران» عسى أن يجد عنده حلاً لمشكلته، فلا يجد سوى لحظات من الراحة النفسية، هى أقرب إلى المسكنات، وليس فيها أى نوع من الحل الأساسى أو الدواء الشافى.

بلغ من تأثرى بالقرآن والكتابات الإسلامية أننى اخترت لرسالة الماجستير التى كنت أنوى إعدادها بعد تخرجى فى قسم الفلسفة بكلية الآداب موضوعاً عنوانه «فلسفة الجمال فى الإسلام».. وعرضت الموضوع على أستاذى الشيخ مصطفى عبد الرازق فوافق عليه وتحمس له رغم جرأة الموضوع. وكانت هذه هى المرة الأولى التى يقبل فيها أستاذ للفلسفة الإسلامية موضوعاً بهذه الخطورة، ولم يخش ما يمكن أن يجره عليه من مشاكل ومتاعب، خاصة بعد المتاعب التى تعرض لها المفكرون المستنيرون من أمثال طه حسين وزكى مبارك ومنصور فهمى. كنت أنوى تقديم صورة جديدة للإسلام، أظهر فيها اهتمامه بالجمال والتذوق والانفتاح على العالم، وأنه لم يدع أبداً إلى الزهد والانغلاق. ولكننى لم أكمل مشروع دراسة الماجستير، لأننى انصرفت إلى الأدب وركزت جهدى كله فى مجاله.

وتحتاج علاقتى الوثيقة بالشيخ مصطفى عبد الرازق إلى وقفة. فالرجل لم يكن أستاذى فى الفلسفة فقط، بل كان أستاذاً لى فى النبيل الإنسانى. كان بيته بمثابة «النادى» لتلاميذه ومريديه، أما معاملته لنا - نحن تلاميذه - فكانت معاملة الأب لأبنائه. وقد تميز بسعة الصدر، فلم أره مرة واحدة محتداً أو منفعلاً، وكل توتر الدنيا وضيقها إذا ما أتى إليه يسقط فى لحظة، وكان محباً للخير وينفق عن سعة رغم أنه لم يكن واسع الثراء. ربطتنى به علاقة مودة واحترام، وأغرب ما فى هذه العلاقة من ذكريات أنه بعد عامين كاملين من معرفتى به واعترازه بى كتلميذ متفوق فى الفلسفة الإسلامية، كان لديه اعتقاد بأننى مسيحى، وفى إحدى محاضراته عن أصول الإسلام فوجئت به يقول: «إن الطلبة المسلمين يعرفون هذا الموضوع جيداً، ولكننى سأعيد شرحه مرة أخرى علشان أخونا نجيب محفوظ»، فرد أكثر من طالب بالقول: «يا مولانا ده مسلم»!!.. وكانت هذه هى المرة الأولى التى يعرف فيها الشيخ مصطفى عبد الرازق أننى مسلم، فإلى هذه الدرجة بلغ الرجل من التسامح والرقى.

بعد تخرجى فى كلية الآداب عام ١٩٣٤ عملت موظفًا فى إدارة الجامعة وظللت بها حتى عام ١٩٣٩. كانت الأحوال وقتذاك فى منتهى الصعوبة، فقد كنا نعيش فترة ما بين الحربين العالميتين، فلا وظائف ولا ترقيات ولا علاوات بسبب ضعف الميزانية، وضاعت على عدة ترقيات لهذا السبب، وفى عام ١٩٣٩ عُيِّن الشيخ مصطفى عبد الرازق وزيراً للأوقاف، وفوجئت به يتصل بى ويخبرنى أنه اختارنى لأعمل معه فى وظيفة سكرتيره البرلمانى. وفى نفس الوقت عين زوج ابنته عباس محمود مديراً لمكتبه، وهو الذى ترجم فيما بعد كتاب «التجديد فى الفكر الإسلامى» لمحمد إقبال، وكان عباس محمود حاصلًا على درجة الماجستير فى الفلسفة. ومن خلال وظيفتى مع الشيخ مصطفى عبد الرازق تمكنت من الحصول على علاوتين وقفزت إلى الدرجة السابعة، بينما ظل زملائى فى إدارة الجامعة على نفس درجتهم السابقة.

ظللت فى وزارة الأوقاف أكثر من عشرين عاما أعمل فى نفس الوظيفة ومع وزراء مختلفين فى اتجاهاتهم وانتماءاتهم السياسية. والطريف أننى عندما دخلت وزارة الأوقاف اعتقد العاملون فيها أننى من الأحرار الدستوريين، وكان الشيخ مصطفى عبد الرازق وحده يعلم بميولى الوفدية. وحتى فى وزارات الوفد لم أخبر وزراء الأوقاف بوفديتى خشية أن يعتبروا ذلك نوعا من النفاق.

كان من وزراء الأوقاف الذين عملت معهم الشيخ على عبد الرازق، شقيق أستاذى الشيخ مصطفى عبد الرازق، والمقارنة بينهما لصالح الأخير. فقد كان الشيخ على مع ما يملكه من صفات طيبة ميالا للعنف والصدام، واصطدم بالملك فاروق نفسه عندما أراد الملك ضم بعض أراضي الأوقاف بالشرقية. فقد أرسل رئيس الديوان الملكى إليه يخبره برغبته فى ضم هذه الأراضي، فطلب الشيخ على مهلة زمنية لحين تعديل الميزانية. واعتبرها الملك إهانة له ولم يمض أكثر من أسبوعين وماتت زوجة الشيخ على، فلم يذهب الملك لعزائه، واعتبر الشيخ هذا الموقف من الملك ماسا بكرامته فقدم استقالته. وذهب إليه فى بيته رئيس الحكومة النقراشى باشا، يرجوه العدول عن الاستقالة حتى لا يزيد الموقف تأزما فى ظل الظروف التى كانت تمر بها الحكومة، ولكنه رفض، وقد كان شقيقه الشيخ مصطفى على العكس منه أكثر ليانا وتسامحا.

ومن المواقف المشرفة للشيخ مصطفى عبد الرازق موقفه مع الدكتور طه حسين عقب فصله من الجامعة. فكما سمعت ظل الشيخ مصطفى يقدم للدكتور طه ما يشبه المرتب

الثابت من جيبه الخاص، حتى عاد الدكتور طه مرة أخرى إلى عمله. وفي كتابها «معك» تحدثت سوزان طه حسين عن الشيخ مصطفى عبد الرزاق، وأشادت به، وقالت عنه إنه كان أقرب أصدقائها في مصر، خاصة أنه كان يجيد اللغة الفرنسية، ووصفته بكل ما هو جميل وما هو جدير به.

\* \* \*

وأخرج من هذه الجزئيات كلها بأن أقول لك: إن في أعماق قلبي وروحي إيمانا بالله لم تنتزعه مني دراستي للفلسفة ولا تفكيري المتصل في مشاكل الإنسان والمجتمع والكون.

\* \* \*



## الفصل الثانى والعشرون

### أزمة الخليج والمأزق العربى

نهضة العراق وخروجها من العالم الثالث - الغزو أمر مرفوض - الخوف من الاستعانة بقوات أجنبية ليس له ما يبرره - أكره الحرب ولا أقبل أن يحدث للعراق ما حدث لألمانيا فى الحرب العالمية - الأزمة لها نتائجها الإيجابية أيضا - قضية توزيع الثروات العربية وموقفى منها - التشابه بين صدام حسين وعاشور الناجى فى رواية «الحرافيش» - أزمة الخليج والمأزق الذى تعيشه الأمة العربية - الديمقراطية هى الحل الوحيد للخروج من المأزق - دور ياسر عرفات وموقف الفلسطينيين - مشاركة القوات المصرية فى حرب الخليج - وقفة مع الماركسيين العرب والجماعات الإسلامية - فرصة صدام الذهبية لأن يصبح صلاح الدين الأيوبي الجديد - لماذا فشل العراقيون فى تحويل الأزمة إلى فيتنام أخرى؟ - موقف حزب العمل المساند للعراق - معاداة أمريكا الآن أصبحت بطولة زائفة.



■ كانت حرب الخليج الثانية حدثاً زلزل أركان المنطقة العربية كلها، ومازلنا نعاني من آثار هذا الزلزال حتى الآن. فما هو رأى نجيب محفوظ فى هذه الأزمة؟ وماذا يقول عن موقف مصر خلالها؟ وموقف الذين ساندوا العراق والذين عارضوه؟.

فى هذا الفصل يجيب نجيب محفوظ عن كل الأسئلة التى طرحتها عليه خلال الأزمة، بل ويعرض توقعاته لمصير المنطقة العربية بعد انتهاء الحرب، وقد كان تسجيل هذا الحديث مع نجيب محفوظ بعد قيام القوات الدولية بضرب العراق فى فبراير ١٩٩١ بخمسة أيام.. ■

نجيب محفوظ: قبل نشوب الحرب العراقية الإيرانية بشهور قليلة زارنى صديق كان يعمل فى العراق وقتذاك وأمضى هناك سنوات طويلة. وقال لى: إن العراق على وشك أن يودع العالم الثالث إلى الأبد، ويدخل فى مصاف الدول المتقدمة، وحدثنى عن التطور المذهل الذى حققه العراق والإنجازات الهائلة فى كل المجالات، وما يعيشه المواطن العراقي من رخاء ورفاهية. وقد سعدت بما سمعت من الصديق، ولكن سعادتى لم تطل، فبعد قليل وقعت الحرب بين العراق وإيران، فحل مكان السعادة الانزعاج الشديد. لأن الحرب تعنى خسارة كبيرة للعراق، منتصراً أو مهزوماً، ففى حالة الانتصار سيعود ممزقاً ومثقلاً بأعباء الحرب وتكاليفها الباهظة، وهذا كفيل بوقف عجلة التنمية والتقدم. وقد تجددت الآمال بعض الشيء عندما انتهت الحرب، وعشت مع الآخرين فى حلم «مجلس التعاون العربى» الذى يضم مصر والعراق والأردن واليمن. لم تكن قدرات الدول الأربع الاقتصادية جيدة، ولكن التعاون فى حد ذاته أمر محمود ومطلوب، ويد على يد يمكن أن تفعل الكثير. وبدأت فى متابعة أخبار المجلس الوليد، مثل توحيد الشبكة الكهربائية والتكامل الاقتصادى والاستثمارات والمشروعات المشتركة، وهى أخبار أحيت فى نفسى الآمال القديمة.

وللأسف لم تلبث هذه الآمال أن تبددت فى صباح الثانى من أغسطس عام ١٩٩٠ عندما سمعت خبر اجتياح العراق لأراضى الكويت، وما تبع ذلك من أزمات ومشاكل سوف تعاني منها الأمة العربية لسنوات طويلة قادمة. لقد كنت أتوقع نوعاً من التصعيد والتوتر بين

العراق والكويت، لأن الأجواء بين البلدين لم تكن صافية، وقبل الغزو بيوم واحد هاجم صدام حسين حكومة الكويت هجوما عنيفا، ولكننى لم أتوقع أبدا أن يصل الخلاف إلى حد الاجتياح العسكرى، فقد كنت أحسب أنه سيقصر على التصريحات العنيفة والحرب الإعلامية، وقد يصل الأمر إلى الشكوى فى الجامعة العربية أو مجلس الأمن. ولكن الغزو وقع، وهو أمر مرفوض ويعتبر خرقا لميثاق الجامعة العربية والأمم المتحدة وكل المواثيق الدولية، وكنت بطبيعة الحال أؤيد انسحاب الجيش العراقى وعودة الحكومة الشرعية إلى الكويت.

لم يكن هناك مبرر لتخوف البعض من الاستعانة بالقوات الأجنبية وخشيتهم العودة إلى نظام الانتداب، ومن بقاء هذه القوات فى بلادنا بعد انتهاء الأزمة، وبالتالي عودة الاستعمار الذى كافحنا وناضلنا فى سبيل إخراجها من بلادنا، وأنه من الأفضل أن نحل الأزمة دون التدخل الأجنبى. إن الذين رفعوا شعار الحل العربى كانوا مثاليين أكثر مما ينبغى، لأن القوات القادمة من أركان الكرة الأرضية المختلفة، ليست قوات أجنبية بل هى قوات عالمية، احتشدت بناء على قرارات مجلس الأمن لإعادة حق مغتصب لدولة معترف بها وذات سيادة وعضو فى المجتمع الدولى. ولم يكن سبب مجيء هذه القوات إلى بلادنا الكويت أو السعودية، ولكن السبب كان غزو العراق للكويت، فمجىء هذه القوات الدولية هو أمر فرضته الظروف، واللوم إذن يوجه إلى من كان السبب فى خلق هذه الظروف.

إن فكرة تكوين جيش عربى موحد لتحرير الكويت أمر صعب المنال، إن لم يكن مستحيلا فى ظل ما تمر به الأمة العربية من ضعف وخلافات، وحتى فى حالة نجاح العرب فى تكوين هذا الجيش، والاتفاق على رأى موحد، فسوف يكون قد مضى من الوقت ما يمكن القوات العراقية من اجتياح كل الدول الخليجية. أنا لست من أنصار الحرب، بل أكرهها من ناحية المبدأ، ذلك لأن نيتها الأكيدة هى الخراب والدمار لكل الأطراف. ولذلك ما كنت أفضل أن تكون هى الحل لأزمة الخليج، فخراب العراق وتدمير مؤسساته، هو أمر ليس فى صالح العرب، خاصة أن العراق قوة نعتز بها وكنا ندخرها للشدائد. وأعتقد أن حصار العراق كان كافيا لحل الأزمة مع شئ من الصبر، لأن الحصار لا يمكن أن يأتى بنتائجه فى ساعات، ولا يمكن لدولة مهما كانت قوتها أن تتحمله مدة طويلة، بشرط استثناء المواد الغذائية والأدوية لحاجة الشيوخ والأطفال. ولا أقبل أن يحدث للعراق ما حدث لألمانيا فى الحرب العالمية الأولى من تجويع للشعب الألمانى كله. لقد نجح الحصار فى إسقاط «غليوم»، ولكن الاعتبار الإنسانية يجب أن تؤخذ فى الحسبان.

إلى جانب النتائج السلبية الكثيرة التي ترتبت على أزمة الخليج، كانت هناك نتائج إيجابية أيضًا. فلا أعتقد بعد الذي حدث للعراق أن حاكمًا عربيًا سوف يفكر في العدوان على دولة عربية مجاورة، وأعتقد كذلك أن دول الخليج الغنية سوف تعيد حساباتها في مساعدة الدول العربية الفقيرة. وأنا لا أطالبهم بالتبرع والهبات، بل باستثمار جزء من ثرواتهم في تلك الدول، ومن ثم تعود الفائدة على الطرفين وتضيق الفجوة الهائلة بينهما. وربما يقضى هذا على - أو على الأقل يخفف من - جزء كبير من الحقد والغضب اللذين يملآن صدور فقراء العرب، عندما يسمعون ويقرأون تلك الأخبار التي تستفز مشاعرهم عن تصرفات أثرياء الخليج في أوروبا.

أثارت أزمة الخليج مشكلة توزيع الثروات العربية، فالعراقيون يقولون إن توزيع الثروة البترولية غير عادل، وأن الاستعمار أقام حدودًا جغرافية مفتعلة، جعل بها الثروة في أيدي الأقلية، بينما حرم منها الأقطار ذات الكثافة البشرية والتاريخ الحضارى القديم، ولا بد من إعادة توزيع هذه الثروة توزيعًا عادلاً ولو بالقوة. وأنا لا أوافق على هذا الرأي، ذلك لأن الثروات ملك لأصحابها، ونفس الدول التي تملك الثروة حاليًا كانت في يوم ليس ببعيد فقيرة، ومنها من كان يأكل ويتعلم من هبات دول - فقيرة الآن - مثل مصر. وعندما كنت أعمل في وزارة الأوقاف كانت مصر تقيم «تكية» لفقراء السعودية في كل من مكة والمدينة. وكان السعوديون راضين بأحوالهم، ومتكفين مع أوضاعهم، وعندما جاءتهم الثروة واكتشفوا البترول في أراضيهم، فلا يحق لأحد أن يطالبهم بنصيب فيها، فبأى وجه يطالب؟ كل ما يمكن أن نطالب به هو إقناع أصحاب الثروات بالاستثمار في البلدان العربية الفقيرة، وهذا الأمر يتحقق بالحوار داخل الجامعة العربية، وعن طريق كتابات المفكرين وأصحاب الرأي، وبالمساعي السلمية، والعلاقات الودية، وبالإقناع، وليس باستخدام القوة كما يقول العراقيون. لأن استخدام القوة يعنى العودة إلى زمن الجاهلية الأولى، ويؤدي إلى تحويل المنطقة إلى ساحة حرب ونزاع لا ينتهى. ثم إن الدول الخليجية أدركت بالفعل ضرورة مساعدة الدول العربية الفقيرة، وساهم صندوق الاستثمار الكويتي مساهمات فعالة في حركة التنمية في عدد كبير من الدول العربية والنامية بشكل عام. ووقف إلى جوار العراق في حربه مع إيران، وقدم له ثمانية مليارات جنيه، ومن ثم لا نستطيع أن نقبل الصورة التي حاول العراق رسمها لأثرياء الخليج، والتي تقدمهم في شكل رجل يلهث وراء نزواته وشهواته دون أى إحساس بالمسؤولية.

ذهب بعض الكتاب إلى تشبيه صدام حسين بعاشور الناجي الحفيد فتوة «الحرافيش» الذي حمل النبوت في يده وراح يفرض الإتاوات على القادرين، معلناً أن هدفه هو توزيعها على المحتاجين. وفي رأى أن الاختلاف الجوهرى بينهما أن الناجى حاول تحقيق العدل من وجهة نظره فى الحارة التى يقوم بحمايتها ولم يفكر فى تصدير محاولته للحارات المجاورة. أما صدام حسين فلم يكف ببلده، بل امتدت أنظاره إلى الجيران وحاول فرض أفكاره بالقوة، وهذه سياسة لم تعد تصلح الآن فى ظل النظام العالمى الراهن.

كنت أتمنى لو أن صدام حسين طلب عقد اجتماع قمة عربى فى إطار الجامعة العربية، يوضح فيه للزعماء العرب رؤيته للتفاوت الكبير فى الثروات والدخول ويشرح لهم ما تعانيه بعض الدول العربية من ضيق وفقر، وي طرح ضرورة قيام البلدان العربية الغنية بواجبها القومى. لو فعل صدام حسين ذلك لأيدته الجماهير العربية وتحول إلى بطل قومى، ومن خلال الضغط الجماهيرى، كان لابد أن تسارع البلدان العربية الغنية إلى تنفيذ الكثير مما ينادى به.

منذ نهاية الحرب العالمية الثانية أصبح للعالم فتوة أكبر ممثلاً فى الولايات المتحدة الأمريكية، فتوة يمتلك قوة هائلة، ولديه مصالحه وأطماعه الخاصة. وأفضل سياسة يمكن أن تنتهجها الدول الصغيرة فى ظل هذا النظام هى أن تحاول تحقيق مصالحها دون أن تستفز الفتوة الأكبر أو تحاول إثارته. الوضع الآن أشبه بحركة الأفلاك، شمس كبيرة تدور حولها مجموعة كبيرة من الكواكب، والكوكب الذى يحاول الخروج عن مساره يكون معرضاً للانفجار والتلاشى. والأمثلة كثيرة، أشهرها ما حدث لعبد الناصر، حيث دخل فى صدام مع الفتوة الأكبر دون أن يقدر إمكانياته الحقيقية، ولم يؤمن بالمثل الشعبى القائل: «على قد لحافك مد رجليك»، ومد قدميه أبعد كثيراً من الغطاء الذى يملكه، والنتيجة يعرفها الجميع. المطلوب من الدول الصغيرة اتباع سياسة عاقلة متوازنة لتحقيق مصالحها، وكم من دول صغيرة لا تملك قوة عسكرية أجبرت العالم كله على احترامها وتقديرها، وهى لا تملك التفوق العسكرى أو أى مخزون من الأسلحة المدمرة، ولكنها تمتلك ما هو أقوى، وهو سلاح الحضارة والتفوق التكنولوجى، وعلى رأس هذه الدول: السويد والدنمارك وسويسرا. وعندما دعوت للسلام مع إسرائيل كنت أدعو لاتباع هذه السياسة العاقلة حيث كان واضحاً للجميع أننا لا نحارب إسرائيل وحدها، وأنها لا نملك من القوة ما يجعلنا نستمر فى سياسة نطح الصخر.

لقد كشفت أزمة الخليج بوضوح عن المأزق الحاد الذي تعيشه الأمة العربية، وسيكون لهذه الأزمة نتائج كثيرة، سواء انتهت بانسحاب العراق من الكويت أو بالتدخل العسكري أو بتراجع العراق عن طريق الحصار، ومن نتائج هذه الأزمة انقسام الأمة العربية إلى قسمين، وإن كانت الجامعة العربية تجمعهما معاً، قسم يضم مصر وسوريا والمغرب ودول الخليج، وقسم آخر يضم العراق والدول التي ساندته. والخروج من هذا المأزق يقتضى عدة خطوات جادة من أهمها:

أولاً: السعى نحو النظام الديمقراطي الحقيقي الذي يضمن مصالح الشعوب العربية، ذلك أن أغلب الدول العربية الآن محكومة بنظم لا تمت للديمقراطية بصلة. ففي ظل النظام الديمقراطي الحقيقي لا يمكن أن يفكر حاكم في غزو دولة مجاورة هكذا بقرار فردي لا راد له.

ثانياً: تشكيل محكمة عدل عربية يكون هدفها الأساسي حل الخلافات القائمة بين البلدان العربية.

ثالثاً: قيام الدول البترولية الغنية في العالم العربي باتخاذ خطوات جادة وفعلية لمساعدة الدول الفقيرة من خلال توجيه جزء من عائدات البترول للاستثمار فيها.

رابعاً: أن ترسم الدول العربية سياستها الخارجية بشكل واقعي دون أن تستفز القوى الكبرى أو تصطدم بها، لأنني أخشى أن ترفض هذه القوى، بعد الاضطراب العالمي الذي سببته حرب الخليج، إخراج قواتها العسكرية من هذه المنطقة غير المستقرة. بحجة أنه بعد عدة سنوات يمكن أن يظهر صدام جديد، وأنه ليس في وسعها تحمل تلك الخسائر الباهظة التي تتعرض لها بين حين وآخر، ومن الأفضل أن تبقى قواتها في المنطقة منعاً لحدوث تلك التصرفات غير العاقلة.

والحقيقة أن الديمقراطية الصحيحة وليست المزيفة هي الحل الوحيد لمنع تلك التصرفات غير العاقلة. وقد يقال إن الديمقراطية في العالم الثالث على وجه التحديد مهددة بعاملين رئيسيين هما: التدخل الأجنبي في حالة اصطدام مصالحها بمصالح القوى الكبرى، والانقلابات العسكرية. وفي رأيي أنه لا خوف على الديمقراطية الصحيحة من التدخل الأجنبي لأن الشعب كله يؤازرها ويلتف حولها ويحميها. وبالنسبة للجيش فهو جزء من الأمة ولا يمكن أن يفكر في الانقلاب على الأوضاع إذا كانت الديمقراطية تسير في الاتجاه الصحيح. فهل سمعت يوماً عن محاولة انقلاب عسكري في الولايات المتحدة أو

إنجلترا أو فرنسا؟. ولولا التصرفات الخرقاء للملك فاروق وعداؤه للديمقراطية والأحداث المضطربة والفلاقل الاجتماعية، ما فكر الجيش المصرى فى التدخل وانتزاع السلطة عام ١٩٥٢، ولبقيت مصر ملكية حتى اليوم واحتفظت بنظامها الديمقراطي.

عندما قامت القوات العراقية بغزو الكويت ساند الفلسطينيون العراق منذ اليوم الأول، وبرروا موقفهم بفشل المساعى السلمية وتغنت إسرائيل الذى يدعو إلى الإحباط، وأنهم وجدوا فى الجيش العراقى بارقة أمل فى تحقيق أحلامهم. وهذا المنطق له ما يبرره فى القراءة الدولية له. ولكن أصحاب هذا المنطق نسوا أن هذا الغزو الذى أيدوه أدى إلى انقسام الصف العربى، فى حين أن القضية الفلسطينية تحتاج إلى جمع الصفوف، وكان الأولى بياسر عرفات أن يقوم بدور الوسيط لحل الأزمة، بدلاً من موقفه المساند للغزو. هذا الموقف الذى أضر بقضيته بعد أن فقد تأييد الدول الكبرى من ناحية، وتمويل الدول العربية البترولية من ناحية أخرى.

وكما برر الفلسطينيون موقفهم من تأييد الغزو يمكننا أن نبرر موقف الفقراء العرب، فلم أستغرب تأييد الفقراء فى البلدان العربية للعراق بسبب تصريحات صدام حسين المثيرة عن توزيع ثروات البترول على المحتاجين. وماذا عن موقف مصر؟... فى اعتقادى أن الموقف المصرى كان نابعاً من إخلاص مصر الشديد لميثاق الجامعة العربية الذى يرفض عدوان بلد عربى أو أجنبى على دولة عضو بالجامعة، ومن التزام بميثاق الأمم المتحدة الذى يرفض أيضاً مبدأ العدوان. ولذلك لم تتردد مصر فى إدانة الغزو بصراحة وطالبت بانسحاب القوات العراقية وإعادة الشرعية إلى الكويت متمثلة فى أميرها وحكومتها وثرواتها وسيادتها على أراضيها.

وبالنسبة لمشاركة القوات المصرية ضمن القوات الدولية، والاعتراضات التى أبدتها البعض برفض هذه المشاركة، على اعتبار أنها ستقوم بقتال قوات عربية، فالرأى عندى أن هذه الاعتراضات لا محل لها، ذلك أن القوات العراقية هى التى بدأت بالعدوان على القوات العربية الكويتية. ثم إن الملك فهد عاهل السعودية هو الذى طلب مشاركة القوات المصرية لحماية بلد مهدد بالاكتماس، فكان لا بد أن نلبى الطلب. الموقف المصرى إذن منطقى وسليم وقائم على مبادئ وأسس. وفى أثناء احتدام الأزمة خرجت أصوات ترى أن سبب الفقر والتخلف والمشاكل التى تعانيها مصر هو انتمائها العربى، ولكى تتخلص من تلك المشاكل يجب أن تتخلص أولاً من هذا الانتماء. ورأى أن مصر لا يمكن أن تتخلص

أبدًا من هذا الانتماء العربي، فهو قدرها الذي لا بد أن تتحمله، وبالتالي عليها أن تتحمل كذلك كل تبعاته. ولا يمكن أن تحل مشاكل مصر إلا بتضامنها مع بقية البلدان العربية، هذا التضامن هو الأساس الأول للتنمية. والتضامن هنا ليس اقتصاديًا فحسب، بل يشمل كذلك الاتفاق السياسي، بحيث لا يقدم حاكم عربي على تصرف يكون من شأنه تعريض المنطقة كلها للخطر.

ومن الظواهر اللافتة للنظر أن أغلب الماركسيين المصريين وقفوا إلى جانب الكويت والسعودية ضد العراق، وقد كان من المنتظر أن يحدث العكس. بينما وقف عدد من زعماء الاتجاهات الإسلامية مع العراق ضد السعودية، بينما كان من المتوقع أن يحدث العكس كذلك. وتفسير هذا التناقض عندى أن موقف الماركسيين كان نابعًا من نظرة عقلانية للأمور، ولأنهم وجدوا أن التصرف العراقي زعزع ما يمكن تسميته بالأمن القومي العربي، ومن الممكن أن يتسبب فى حرب طاحنة نتيجتها المتوقعة هى القضاء على مصادر القوة الموجودة فى أيدي العرب. أما موقف الاتجاهات الإسلامية فلم يكن تأييدًا للعراق بقدر ما هو رفض لوجود القوات الأجنبية فى الأماكن المقدسة. وهذا الرفض مجرد حجة واهية، لأن هذه القوات ذهبت لحماية الأماكن المقدسة من الخراب والدمار. ثم إننا لا يمكن أن ننظر إليها على أنها نوع من الاستعمار الأجنبي، لأنها جاءت بدعوة من دول عربية وبقرار من مجلس الأمن. وفرق كبير بين قوات دولية جاءت لإعادة الحقوق لأصحابها، وبين تلك الحملات الاستعمارية التى غزت الشرق فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

ورغم أننا نتحدث اليوم بعد مرور خمسة أيام فقط على بدء المعارك العسكرية، فإننى أعتبرها بطولة غير عادية من العراق أن يصمد أمام هذه الغارات الجوية الكثيفة والصواريخ طوال هذه الأيام. لأن هذا الضرب المكثف لو وجه للولايات المتحدة الأمريكية لخرجت أصوات عديدة تنادى بالاستسلام. ومن الأمور التى نصيبنى بالألم الشديد والحزن العميق هذه المحنة التى يتعرض لها الشعب العراقي، ويستبدبى القلق الطاغى على مصير هذا البلد الشقيق، وكل أمنيته هى أن يظل محتفظًا بقوته التى هى جزء أساسى من القوة العربية. وفى الوقت نفسه أتمنى أن تنتصر القوات الدولية على العراق حتى تعود الحقوق لأصحابها. ومما يزيد من شعورى المتناقض هذا تلك الحسابات الدقيقة التى تنفذ بها القوات الدولية هجومها على العراق، إذ هى تتعد بقدر الإمكان عن الأهداف المدنية، وهى حسابات وأساليب لها هدف إنسانى، إلا أن لها أضرارًا، إذ تطيل أمد الحرب، وهو

ما يهدف إليه العراق. والحل الوحيد في رأى هو الحسم العسكرى السريع حتى لا يفلت زمام الأمور من يد القوات الدولية وتزداد الخسائر. هذا حل صعب على النفس، ولكنه الشر الذى لا بد منه، خاصة فى ظل امتلاك العراق لبعض أسلحة الدمار الشامل. وطبقاً لما أعلنته الولايات المتحدة فإن العراق أنفق ٥٠ مليار دولار على شراء الأسلحة و٣٠ مليار دولار أخرى على تخزينها، وأخشى ما أخشاه هو أن يستخدم العراق أسلحة الدمار الشامل التى يملكها، ففى هذه الحالة يكون قد كتب للعراق الهلاك، لأنه سيضطر القوات الدولية لاستخدام ما لديها من أسلحة مماثلة، بل أشد فتكاً، وبما أن المعركة فوق أراضى العراق فإن النتيجة المتوقعة فى هذه الحالة هى محو هذا البلد من الوجود.

ومن الأمور التى تدعو للأسف أن صدام حسين كانت لديه فرصة نادرة لأن يصبح زعيماً عربياً لم تعرفه المنطقة منذ أيام صلاح الدين الأيوبي. وذلك لو أحسن التصرف فى أموال البترول العراقى، ووجه جهده لحل مشكلات المنطقة الحقيقية، واستخدم قوته للضغط على إسرائيل، بدلاً من توجيهها لتهديد أمن جيرانه العرب، وللأسف انقلب صدام بدلاً من ذلك إلى العدوان على جيرانه وتهديدهم، والغريب أن إسرائيل كانت أكثر عقلانية وحكمة فى هذه الأزمة، فرغم أن صدام حسين قام بضرب تل أبيب لأول مرة منذ إنشائها، فإنه لم يحقق أى نتيجة إيجابية. اتخذت إسرائيل جانب الاتزان، ليس حباً فى الاتزان، ولكن بضغط من الولايات المتحدة الأمريكية، وكسبت التعاطف الدولى، وظهرت أمام العالم بمظهر الحمل الوديع. لقد اغتبط بعض البسطاء من عامة الناس فى العالم العربى لتلك الصواريخ التى سقطت على تل أبيب، واعتبروا ذلك نصراً للعرب، على أساس أنها المرة الأولى فى تاريخ دولة إسرائيل التى يضرب فيها العرب عاصمة إسرائيل، ولم يكن ذلك ضعفاً من القادة السابقين، فقد كان بإمكان عبد الناصر أن يضربها، وتوافرت للسادات فرصة تاريخية نادرة للزحف إليها وتكسير أبوابها، ولكنه رفض نصيحة رئيس أركانها الفريق الشاذلى. ذلك أن السادات كان يقدر العواقب كما قدرها عبد الناصر، لأن إحدى النتائج المحتملة أن تضطر إسرائيل لاستخدام ما لديها من أسلحة نووية، وهنا تحدث كارثة يعم تأثيرها على الجميع.

وإذا فقد حاكم العراق عقله واستخدم ما لديه من أسلحة فتاكة فقل: «على العراق السلام»!. وأتوقع ألا تدخل إسرائيل طرفاً فى المعركة لأنها من الذكاء بحيث تدرك أن هذا هو منتهى أمل صدام حسين. فالنتيجة المتوقعة هى أن تتحول المنطقة كلها إلى ساحة قتال،

بل ربما إلى حرب عالمية ثالثة. وما يردده العراقيون عن تحويل الأزمة إلى فيتنام في السابق، أمر غير وارد، بل هو احتمال مستحيل، لأسباب عديدة منها أن طبيعة الأرض بما تحويه من غابات وعرة في فيتنام كانت تساعد أهلها على قتال الأمريكيين. هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن الاتحاد السوفيتي كان يزود الفيتناميين بأحدث الأسلحة التي لم تكن تقل قوة عن السلاح الأمريكي. بل يمكن القول إن السوفييت هم الذين كانوا يحاربون القوات الأمريكية في فيتنام، أما العراق فمعزولة ولا تجد دولة قوية تساندها بهذا الشكل. وفي الحرب الحالية في الخليج ليس هناك مجال للشائعات والأخبار الكاذبة والضحك على الشعوب والرأى العام، ففي أثناء الحرب الفيتنامية كان ربع الأخبار فقط صحيحًا والباقي مجرد شائعات. أما الآن فلا مجال للشائعات أو التخمينات، فمن يشاهد شبكة الـ CNN كأنه يشاهد المعارك من ساحة القتال.

ما تفسير الموقف الذي اتخذته حزب العمل المصري بالوقوف إلى جانب العراق؟... أولاً: لست مع التفسيرات السهلة التي تدعى أنه حصل على أموال من العراق، وأن زعماءه عملاء للعراق، ذلك أن منهم من له تاريخ ومواقف مشرفة. والأمر الذي لا شك فيه أن الأزمة سببت انقسامًا عربيًا على مستوى الدول، وعلى مستوى الشعب الواحد، وذلك نتيجة اختلاف الرؤى، فهناك فريق تمسك بالمبادئ، وفريق آخر غلب المصلحة عليها. وفي اعتقادي أن الموقف الحاد الذي وقفه حزب العمل وجريدة «الشعب»، هو نوع من الديمقراطية المغالى فيها، ذلك أن وقت الحرب يحتاج إلى نوع من الانضباط، ولا يتحمل أبدًا الاختلاف الحاد. بدليل أنه في إنجلترا أم الديمقراطية في العالم دخل بعض كبار المفكرين السجن، لأنهم جاهرُوا برأى مخالف أثناء الحرب العالمية الثانية، عندما طالبوا بوقف الحرب، وعارضوا موقف حكومة إنجلترا وسخروا منها.

رغم ما سببته أزمة الخليج من خسائر فادحة للعرب على المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فإنني متفائل بالنسبة لنتائجها بعيدة المدى. ذلك أن الأزمات الطاحنة التي تمر بها الشعوب، تجعلها تعيد التفكير في أوضاعها، وتسعى إلى تجديد نفسها، فقد أدت هزيمة العرب في حرب ١٩٤٨ إلى تغيير الأوضاع الخاطئة في عديد من الدول العربية. كذلك أثبتت أزمة الخليج بما لا يدع مجالاً للشك ضرورة التعاون العربي، ليس في إطار الجامعة العربية، لأنه أصبح صعبًا بعد الانشقاق الذي أحدثته الأزمة، ولكن في إطار مجموعة الدول القادرة على حماية الأمن القومي العربي، والتي تتوافر فيها

الثروات البشرية والطبيعية. وأتوقع أن تكون مصر وسوريا ودول مجلس التعاون الخليجي هي نواة هذا التعاون، لحين انضمام دول أخرى بعد تضييد الجراح.

من نتائج الأزمة الإيجابية أيضًا أكدت لإسرائيل أن تعنتها في الحل السلمي لم يعد مستساغًا، وأن شعورها بالقوة والتفوق هو شعور زائف. كانت إسرائيل قبل الأزمة لديها اقتناع بأن العرب أمامهم مائة عام على الأقل حتى يقفوا أمامها موقف الند، ويصلوا إلى مستوى من التقدم العسكري والتكنولوجي يمكن أن يهدد أمنها، وجاءت حرب الخليج لتثبت للإسرائيليين أنهم يعيشون في وهم، فقد ظهر من يهدد أمنهم ويضرب قلب تل أبيب دون أن تمر كل هذه السنوات التي توقعوها. وأظن أن هذا الدرس سيجعل إسرائيل مضطرة للسير في طريق السلام وتصفية خلافاتها مع العرب.

وماذا عن الموقف الأمريكي؟... ما فعلته الولايات المتحدة الأمريكية لم يكن دفاعًا عن المبادئ والشرعية بقدر ما هو حماية لمصالحها في المنطقة، ولحسن حظها جاء موقفها متوافقًا مع إرادة أهل المنطقة، ورغبتهم ومصالحهم، وهذا التوافق لم يحدث في تاريخ العلاقات الأمريكية - العربية إلا نادرًا. والذين هاجموا الموقف الأمريكي من الأزمة لم يكن رأيهم موضوعيًا، بقدر ما كان هذا الرأي ناتجًا عن تأثير روايب قديمة، وبفعل الكراهية تجاه الولايات المتحدة الأمريكية، بسبب تأييدها المطلق لإسرائيل. الذين عارضوا الموقف الأمريكي من الأزمة مازالوا يعيشون في الماضي، ولا يريدون أن يتأقلموا مع المتغيرات العالمية الجديدة. فلو أحسن العرب التعامل مع الولايات المتحدة فمن الممكن أن يغيروا موقفها تجاه إسرائيل، أو يكفلوا على الأقل تعاملها على قدم المساواة معهم. فالعداوة الآن ليس لها ما يبررها، وأشعر بالدهشة من الذين يصورون الولايات المتحدة ليل نهار على أنها العدو الأول للعرب. على الرغم من أن هذا «العدو الأول» يقدم لمصر سنويًا منحة قدرها ١, ٢ مليار دولار ويزودنا بخبراء وخبرات في مجال التنمية، ويقدم لنا السلاح، ويساعدنا في التوصل إلى حل عادل للقضية الفلسطينية، فإذا كانت هذه هي العداوة فمرحبًا بها.

معاداة أمريكا الآن هي بطولة زائفة وحماقة ليس لها أي مبرر، وواجب العرب أن يستفيدوا من الوضع الحالي الذي تتوافق فيه المصالح الأمريكية مع مصالحهم. فماذا يضيرنا لو ارتبطنا بصداقة مع الولايات المتحدة الأمريكية ما دام في ذلك مصلحتنا؟ فإذا كانت مصلحة مصر أن ترتبط بعلاقات طيبة مع دول حوض النيل حتى تضمن عدم العبث بحصتها من المياه، فماذا يمنعها من الارتباط بعلاقات مماثلة مع الولايات المتحدة إذا كان فيها الخير لها؟

من الواضح أن كلمة «مصلحة» اكتسبت سمعة سيئة على مدار القرون الماضية، وباسم هذه الكلمة ارتكبت أشنع جنائيات في التاريخ: استعمار وحروب ومكائد وخديعة. واعتاد الرجل العادى على وضع كلمة «مصالح» فى مقابل كلمة «مبادئ»، بينما إذا سألت نفسك ماذا تعنى مصلحة الدولة؟، فإن الإجابة ببساطة هى: المقومات الأساسية التى تبنى عليها حضارة تلك الدولة، مثل مياه النيل بالنسبة لمصر، أو البترول بالنسبة للدول الغربية. إذن المصلحة فى حد ذاتها خير مطلق ولا توجد مصلحة شريرة وأخرى خيرة، ولكن الشر يكمن فى الطرق والوسائل السيئة التى يتم اللجوء إليها للمحافظة على المصلحة، أو المبالغة فى المحافظة عليها، على حساب مصالح الآخرين. بعض الدول تعتبر هذا الأسلوب مشروعاً فى ظل المنافسة العنيفة والصراع الشديد الذى يحكم العالم اليوم، وأعتقد أن تلك الأساليب غير الأخلاقية فى طريقها للزوال.

الذين وقفوا إلى جوار العراق فى هذه الأزمة برروا موقفهم بمبررات عديدة منها، أن الاستعمار هو الذى صنع تلك الدول الخليجية الضئيلة المساحة والسكان مثل الكويت وغيرها، ويرون أن هذه الدول لا تستحق أن تكون دولاً منفصلة، والأفضل للعرب دمجها فى دولة واحدة، وهو ما حاول العراق تنفيذه، فلماذا تقفون ضده؟ تبرير آخر، وهو أن حكام الكويت فضلوا استثمار أموالهم فى أوروبا وأمريكا وحرموا منها الدول العربية.

ويمكننى الرد على المبرر الأول بأن وجود تلك الدول سبق اكتشاف البترول بحقب طويلة. وكانت فى الأصل عبارة عن قبائل، ثم تحولت بمرور الزمن إلى إمارات، واتخذت أسماءها الحالية. وفى أوروبا نفسها حدث هذا التحول، حتى وصلت الدول إلى شكلها الحالى، ثم إن المجتمع الدولى اعترف بتلك الدول، وأصبح لها سفارات وممثلون فى كل دول العالم، ولا يمكن محوها بهذه السهولة.

أما قيام الكويت باستثمار أموالها فى أوروبا وأمريكا، فلها كل الحق فى ذلك، أولاً: لأن المناخ السياسى والاقتصادى القائم فى العالم العربى لا يصلح للاستثمار. وكيف يصلح الاستثمار فى دول تصادر أموال أبنائها وتضعها تحت الحراسة؟، وليس فيها الأمان السياسى الذى هو الشرط الأول للاستثمار! وثانياً: إن صاحب رأس المال يهيم أن يستثمر أمواله فى المكان الذى يعطيه أكبر عائد، وهكذا فعلت الكويت. وثالثاً: فإن الكويت لم تقصر فى حق جيرانها وأشقائها فى العالم الثالث وليس فى العالم العربى فقط، وكان لها صندوق للاستثمار يساهم فى تنمية الدول العربية والإفريقية أيضاً. وإذا كان هناك مجال

للموم فيجب أن نوجهه إلى أنفسنا أولاً، لأننا صنعنا بأيدينا مناخاً ساهم في هروب رؤوس الأموال الوطنية المصرية للخارج، ويقدرها الأستاذ محمد حسنين هيكل بحوالى ١٢٠ مليار جنيه. ثم بعد ذلك نحاول تبرير أخطائنا بتعليقها على شناعة القوى الأجنبية، وكيف أنها تعمل جاهدة على خلق مناخ مضطرب في المنطقة حتى تمنعها من الاستقرار ولا تعطىها الفرصة للتفكير فى التنمية والتقدم!!!... كلها مبررات واهية نحاول بها خداع النفس وإسكات الضمير.

ومن مصلحة الغرب الآن أن تتقدم ما تعرف بدول العالم الثالث، أن تنهض هذه الدول، وتقول الوداع لعصور البداوة والتخلف، فهو بذلك يجعل منها سوقاً لصناعاته ومنتجاته التكنولوجية المتقدمة، فكيف تكون سوقاً وأهلها يعيشون فى عصر الخيام والجمال والإبل؟.

المؤيدون للعراق يقولون فى سياق حججهم إن الولايات المتحدة الأمريكية تكيل فى سياستها الخارجية بمكيالين. فقد جندت كل طاقتها وعبأت حلفاءها الغربيين لنجدة الكويت وتطبيق قرارات الأمم المتحدة والشرعية الدولية. فلماذا لم تفعل نفس الشيء بالنسبة للقضية الفلسطينية وهناك قرارات صريحة من مجلس الأمن تطالب إسرائيل بالانسحاب من الأراضى العربية المحتلة؟ وبالفعل توجد قرارات دولية بشأن القضية الفلسطينية، ولكن هذه القرارات صدرت فى وقت كان العالم منقسماً فيه إلى معسكرين كبيرين متنافرين. وبعد زوال النظام القديم وميلاد نظام عالمى جديد، أصبحت فيه الولايات المتحدة سيدة العالم بلا منازع، يجب أن نحكم على مواقف أمريكا ابتداء من هذا الميلاد. وكان أول اختبار حقيقى لها هو أزمة الخليج، وعندما تنتهى هذه الأزمة نطرح القضية الفلسطينية إلى دائرة الضوء وعندما نحكم على الموقف الأمريكى.

إن شخصية الرئيس العراقى صدام حسين مثيرة للجدل والخلاف، ورغم ما قيل عنها وفيها، فإن انطباعاتى الشخصية عنه أنه زعيم وطنى شعبى، قدّم للعراق إنجازات لم يقدمها حاكم قبله. وهو فى هذا الإطار يقترب إلى حد كبير من شخصية الرئيس جمال عبد الناصر، وفى المقابل توجد اختلافات شديدة بينهما أيضاً.. فصدام حسين لا يقدر عواقب قراراته، وهو رجل يستخدم كل أساليب العنف ضد خصومه، أما عبد الناصر فكانت كل أهدافه شريفة، وعييه الأساسى أنه لم يستطع الموازنة بين تلك الأهداف وما يملك من قوة.

والخلاصة أن أزمة الخليج كشفت عن عمق المحنة التى يعيشها العالم العربى. وهى

محنة حضارية في الأساس، أكدت أننا لم نصل بعد للمستوى الذي يؤهلنا للحياة في هذا العصر. والطريق الوحيد لعبور هذه المحنة يتمثل في الديمقراطية الصحيحة، واحترام حقوق الإنسان العربي ومنحه الفرصة في الحياة الحرة الكريمة<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

---

(١) تم هذا الحديث مع الأستاذ نجيب محفوظ كما سبق أن ذكرت في مقدمته بعد خمسة أيام من بدء حرب الخليج الثانية في فبراير ١٩٩١، والآن وبعد مرور سبع سنوات على انتهاء هذه الحرب، حدث تحول في الرأي العام العربي لا بد من الإشارة إليه، فقد أصبح هناك تعاطف واسع مع العراق، ولم تتمكن أمريكا من توجيه ضربة عسكرية للعراق، بعد أن أعدت لهذه الضربة إعدادا كاملا في يناير ١٩٩٨، وذلك لظهور معارضة عربية قوية وشاملة لهذه الضربة، كما أن جزءا مهما من الرأي العام العالمي حتى في أمريكا نفسها قد عارضها أيضا، ووقفت ثلاث دول كبرى ضدها بشكل صريح وهي: روسيا والصين وفرنسا، وأصبحت ظروف العراق المأساوية في ظل حصار دام حتى الآن سبع سنوات موضعا للاستنكار والرفض في العالم العربي وفي كثير من بلاد العالم المختلفة.



## الفصل الثالث والعشرون

### متفرقات

الحشيش والنكته في مصر - المقاهي في حياتي مخزن ضخم للأفكار والشخصيات  
- الكتابة بين دخان السجائر وأنغام الموسيقى - حكايتي مع المرض طريفة ومريرة  
- رياضة المشي - حسين حجازي وفريق «قلب الأسد» - دم سلمان رشدي - ثورة  
يوليو تخلصني من الطربوش! - اللقاء الأخير مع سيد قطب - «العائش في الحقيقة»  
- الفرعونيّات - صديقي الكلب «جالك» - حكايتي مع الجنرال «بيليد» الإسرائيلي  
- العضو الوحيد - سنوات العقم - لقاء مع آرثر ميلر - عضو الكونجرس في مقهى  
على بابا - رواياتي في أيدي السياح - النكسة واللامعقول - أنا وماركيز - لم أحرض  
على قتل السادات - الإسلام والغناء - الحرافيش - حكاية عن الشرقاوي - اعتماد  
خورشيد وكتابتها - موسيقى «الثلاثية» - لغة بيرم التونسي - عشت في عوامة على  
النيل سبع سنوات - خطاب من جاكولين كنيدي.



■ كان الحوار مع نجيب محفوظ يتناول أحياناً بعض الجزئيات المتفرقة، والتي لا تدخل ضمن الموضوعات الرئيسية لفصول الكتاب المختلفة، وهذه المتفرقات لها قيمتها وطاقاتها وعذوبتها الخاصة بها، كما أن هذه المتفرقات تلتقي ببعض الأضواء الكاشفة على الجانب الإنساني في شخصية نجيب محفوظ، وتقدم لمحات من بعض تجاربه الخاصة وأفكاره ومشاعره حول الحياة والناس، وتضيف هذه المتفرقات خطوطاً مهمة إلى اللوحة الفنية المتكاملة التي رأيناها لنجيب محفوظ في الفصول السابقة، وفي هذه المتفرقات يتحدث نجيب محفوظ في إشارات خاطفة وسريعة ولكنها عميقة وممتعة، ومن هنا كان الحرص على جمع هذه المتفرقات في فصل خاص ومستقل من فصول هذا الكتاب... ■

## الحشيش والنكته

نجيب محفوظ: يقال إن الصوفيين هم أول من اكتشف «الحشيش» واستخدموه، بعد أن وجدوا أنه يعطيهم شعوراً «بالانبطاح» والتبسط، مما يساعدهم ويسعفهم في تجربة التجلي والوصول. وفي بدايات هذا القرن، كان «الحشيش» من المواد المحترقة في مصر، ولا يستخدمه سوى «أراذل» الناس، ولا تقربه الفئات المحترمة. وكانت كلمة «حشاش» تعني أن صاحبها أقرب إلى فئات الحرامية والنشالين، ثم انقلب الوضع. فعندما قامت الحرب العالمية الأولى اختفت الخمور الجيدة من السوق، ولم يكن أمام الفئات العليا من المجتمع إلا استخدام الحشيش، وأصبح في بيوت كثيرة «غرفة» صغيرة للحشيش بدلاً من البار. وساعد على انتشار الحشيش أنه لم يكن ممنوعاً بحكم القانون، بل كان الناس يدخلونه في المقاهي، وأكثر عقوبة لحشاش، هي الغرامة وكانت قروشاً معدودة.

والطريف أن أحد أنصار الحشيش وكان رئيساً لإحدى الجمعيات الخيرية بمصر وهو «الدكتور غلوش»، قام بحملة منظمة في الصحف للدفاع عن الحشيش، ولبيان عدم وجود أضرار له. وكانت وجهة نظر «الدكتور غلوش» هي: كيف تبيح الحكومة تناول الخمور وتحرم الحشيش وهو أقل ضرراً وخطورة؟. كان ذلك بعد أن شددت الحكومة عقوبة «تعاطي» الحشيش، وقيل وقتئذ إن الإنجليز هم الذين أوعزوا للحكومة بتغليظ العقوبة،

بهدف الترويج للخمور الإنجليزية. وقد التقيت مع «الدكتور غلوش» وجلست معه عدة مرات، ووجدت فيه شخصية ظريفة جدًا، كما قرأت له مقالات عديدة في الصحف دفاعًا عن الحشيش. وأوضح لى الدكتور أدهم رجب فيما بعد صحة أقوال الدكتور غلوش، فيما يتعلق بعدم وجود أضرار للحشيش. وكل ما فى الأمر أن الحشيش يؤدي إلى احتراق كمية كبيرة من السكر فى الدم، والعلاج أو الوقاية هنا من الأمور البسيطة، ويتركز ذلك فى التغذية الجيدة.

وفى رأى أن مساواة الحشيش بالمواد المخدرة الأخرى التى انتشرت مؤخرًا مثل «الهروين» ليس بمنطقي، لأن «الهروين» من المواد التى تدمر الجسم وتقضى على عقول الشباب. وربما كان سيد درويش من أوائل الذين تنبهوا إلى هذا الفارق، فعندما لحن أغنية عن «الكوكايين» هاجمه بشدة وحذر من خطورته، وأذكر أن عددًا من كبار الكتاب السياسيين مثل عباس محمود العقاد، شنوا حملة شديدة على تعاطى «الكوكايين»، عندما بدأ فى الانتشار فى فترة ما بين الحربين العالميتين. وعندما غنى سيد درويش للحشيش فى أغنيته المعروفة عن «الحشاشين» لم يهاجمه أحد، وكانت كلمات هذه الأغنية فيها نوع من البهجة والسخرية، ولا يقف سيد درويش ضد الحشيش إلا عند الشدائد والأزمات الوطنية. وأقول هنا إنه يجب إعادة النظر فى العقوبة الخاصة بالحشيش، فربما تؤدي إلى التخفيف من خطر المخدرات وصنوف الإدمان الرهيبة الأخرى.

وعن طريق صديقى «الشماع» الذى كان يعمل فى الغورية، عرفت «الحشيش»، وفى ذلك الوقت، كان تدخين الحشيش يتم بصورة علنية فى المقاهى كما أشرت. حتى أننى أذكر أن «الشماع» كان يجلس فى مقهى «على يوسف»، ويبتظر حتى يأتى «عسكري الدرك» الموجود فى الشارع حتى يشرب معه «التمعميرة»!. وفى اعتقاده الشخصى أن الأوضاع السيئة التى عاشها الشعب المصرى، وما تعرض له من ظلم وقهر، كانت سببًا أساسيًا فى إقباله على «الحشيش». لأنه وجد فيه نوعًا من المسكن لآلامه وأوجاعه، يخفف عنه ولو لساعات، ما يمر به من هموم وأزمات، حتى أصبح تدخينه بالنسبة لهم عادة شعبية مثل شرب الشاي والقهوة. وأكد أقول إنه ما من مصرى من أولاد البلد إلا ويحمل صفة «حشاش»، إلا إذا كانت هناك ظروف قهرية منعه، حتى أن غير القادر منهم تجده على استعداد لأن يخدم فى «الغُرزة» مقابل «نفسين»!!.

كان الحشيش للشعب المصرى نعم الصديق، لأنه خفف عن الناس المرارة التى

يعيشونها في نهارهم، وكان بمثابة المسكن للأوجاع في الليل. وساعد على انتشار الحشيش بين جماهير الشعب خاصة الطبقات الفقيرة، أنهم لا ينظرون إليه نظرة التحريم الديني التي يرونها في الخمر. فالإنسان المصري لديه استعداد لأن يدخن الحشيش ولكنه لا يتناول البيرة مثلاً، رغم أنها أخف أنواع الخمور، وذلك لاعتقاده أنه لا يوجد نص ديني قاطع يحرم الحشيش بالتحديد.

وترتبط بالحشيش ظاهرة ميزت الشعب المصري وجعلته يشتهر بها بين أمم الأرض وهي النكتة. فالثروة الكبيرة من «النكت» مرتبطة بالحشاشين، والنكتة هي الفن الوحيد في مصر الذي ليس له مؤلف محدد، لأن تأليفها يأتي جماعياً، وغالباً ما يأتي في «قعدة حشيش»، وحين تنتشر النكتة يهتم الناس بمضمونها، ولا يهتمون أبداً بمصدرها. وقد يقال إن فن السخرية والتنكيث يولد مع القهر، وفي رأيي أن هذه الظاهرة تكاد تقتصر على الشعب المصري وحده. فهناك شعوب كثيرة تعرضت للقهر مثل الشعب الروسي، ومع ذلك لا تجد عندهم فن السخرية والتنكيث كما هو الأمر لدينا. وربما يكون هذا راجعاً إلى طبيعة الشعب الروسي الذي يميل إلى الانكماش والعزلة، على عكس الشعب المصري الذي يميل إلى الانفتاح والمشاركة ومحبة الحياة في جماعات. والظاهرة الغريبة في الشخصية المصرية أن لديها الاستعداد للسخرية والضحك والتنكيث في عز المأسى والكروب، وطالما سخروا من حكامهم بالأغاني والنكتة، وهذا مرجعه في رأيي إلى أن الإنسان المصري لا يميل إلى العنف وتغيير الأوضاع بالقوة، ولا يثور إلا إذا فاض به الكيل، فتكون الثورة حيثذ هي الحل الأخير.

### حياتي في المقاهي

لعبت المقاهي دوراً كبيراً في حياتي، وكانت بالنسبة لي مخزناً بشرياً ضخماً للأفكار والشخصيات. ومن أوائل المقاهي التي جلست عليها فترة طويلة من حياتي قهوة «قشتمر»، وكنت وقتذاك من سكان العباسية، ولّي فيها شلة ضخمة، جمع بين أفرادها، حب كرة القدم وحياتنا في نفس الحي كجيران، ولم يكن لأعضاء هذه الشلة أي علاقة بالأدب.

كانت قهوة «قشتمر» تبعد عن قهوة «عرايى» الشهيرة بمسافة محطة ترام واحدة، ويوجد موقعها على ناصية شارع يؤدي إلى حي الظاهر، واسم هذا الشارع هو «قشتمر»، فسمي

المقهى باسمه.. وحسب معلوماتي فإن «قشمر» هذا اسم وزير مملوكى.. ولم تكن وقتئذ نجرؤ على الجلوس فى «قهوة عرابى» لأن أساتذتنا وآباءنا والعجيل الأكبر منا كانوا يجلسون عليها. ولما ذهب ذلك الجيل السابق علينا، وتقدم بنا العمر، أصبحنا - نحن شلة العباسية - من رواد قهوة «عرابى».

أما ندوة «الأوبرا» فترجع بداياتها إلى سنة ١٩٤٣، وكانت عبارة عن جلسة عادية، ثم أخذت تتسع، حتى تحولت إلى «ندوة» يؤمها الأدباء والمثقفون، وتطرح فيها الكتب والأعمال الفنية للمناقشة. استمرت الندوة منتظمة لعدة سنوات لم يعكر صفوها شىء، حتى جاء يوم تقرر فيه أن يمر موكب الرئيس عبد الناصر مصطحباً ضيفاً أجنبياً من ميدان الأوبرا، فى طريقه إلى الجامع الأزهر، واقتضت إجراءات الأمن تأمين طريق الموكب. ولاحظ المخبرون أن هناك عدداً كبيراً من «الأفندية» يقدون إلى الكازينو، وفوجئنا بضابط برتبة كبيرة، يتجه إلينا مستفسراً عن أسباب وجودنا معاً ويكمل هذا العدد. أخبرنا الضابط أنها «ندوة» أسبوعية اعتدنا على إقامتها منذ عام ١٩٤٣، ولم يسترح الضابط لهذا التبرير، وزرع مجموعة من المخبرين على منافذ الكازينو المظلة على الشارع. وأثناء مرور الموكب وقفنا جميعاً فى النوافذ لتحية الرئيس عبد الناصر ورددنا هتافات مؤيدة له. وبعد مرور الموكب بسلام جاءنا الضابط مرة أخرى ليلبغنا بأن أى تجمع يزيد على خمسة أشخاص لابد أن يحصل على تصريح من قسم البوليس التابع له مكان الاجتماع. ونبهنا إلى ضرورة الحصول على «إذن» كل أسبوع إذا أردنا أن تكون ندوتنا قانونية. وبالفعل قبل موعد الندوة كان يذهب أحد روادها إلى قسم عابدين للحصول على التصريح، وأصر مأمور القسم حتى يأذن لنا، بأن نسمح لأحد المخبرين بحضور الندوة، ليقوم بكتابة تقرير عما دار فيها من أحاديث ومناقشات. المضحك فى الأمر أن المخبر كان يجلس مثل الكرسي لا يفهم شيئاً، فكيف يصل تفكير «مخبر سرى» محدود الثقافة والإدراك إلى فهم أحاديث حول «كافكا» و «سارتر» و «كامى» وأشباههم من كبار الكتاب العالميين. وفى إحدى المرات فوجئت بالمخبر السرى فى نهاية الندوة يتعلق بشايبى ويرجوني متوسلاً، أن أساعده فى كتابة التقرير الذى سيرفعه للمأمور، لأنه لم يفهم كلمة واحدة مما قلناه، ويخشى أن يتعرض للعقاب، إن هو عاد إلى القسم خالى الوفاض، ولم ينجز ما عهد إليه. وبالفعل كنت ألخص له الندوة، وتدرجياً كدت أتحوّل إلى مخبر سرى. وذات مرة أرسلنا عبد الله الطوخى إلى قسم عابدين للحصول على التصريح المعتاد، ويبدو أن اسم الطوخى

كان مدرجاً على القائمة السوداء بوصفه شيوعياً، فلم يمنحوه التصريح المطلوب، وبدأنا نتعرض لمضايقات. وكان من رواد الندوة محام معروف وقتذاك اسمه «هارفى أسعد» نصحنى بنقل الندوة إلى مكان آخر، واقترح مكاناً يعرفه ويثق فى أنه سيعجبني، واصطحبني إلى مقهى «ريش». أعجبني المقهى ونقلنا إليه الندوة، ولكن واجهتنا بعد فترة مشكلة من نوع جديد، وهى أن المقهى يرتاده عدد كبير من الأدباء والمثقفين فى مصر، فكانوا يختلطون بأعضاء ندوتنا الأصليين، وأصبح من الصعب إقامة الندوة، وكان لابد من البحث عن مكان جديد. وبعد البحث والتقصي استقرت الندوة فى كازينو «قصر النيل»، حيث استمر عقد الندوة لفترة طويلة.

من أغرب المقاهى التى شاهدتها فى حياتى «قهوة أحمد عبد الله» فى خان الخليلي. ووجه الغرابة أنها كانت تحت الأرض، كنا نجلس فيها ونرى من نوافذها الناس وهم يمشون فوقنا. وكانت تأخذ الشكل الدائري، وفى وسطها فسقية، ومحيط الدائرة عبارة عن حجرات صغيرة، كل حجرة بها منضدة وعدد من الكراسي. وكانت «قهوة أحمد عبد الله» شهيرة بأنها تقدم أحسن شاي فى مصر، ومن إعجابى بها ذكرتُها بالاسم فى «الثلاثية». وقد حضرت تأسيس هذه القهوة وكنت وقتذاك فى مرحلة الطفولة، وذهبت لأشاهد العمال وهم يضعون الأساس لها، وأخذتني سنة من النوم وأنا أجلس فى مدخلها، واستيقظت مع دخول الليل، بعد أن نهني أحد العمال.

## الكتابة بين دخان السجائر وأنغام الموسيقى

اختلف النظام الذى أتبعه فى الكتابة باختلاف المراحل التى مرت بها فى حياتى، وهى ثلاث: مرحلة الوظيفة، ومرحلة ما بعد المعاش، ومرحلة ما بعد جائزة نوبل. فى مرحلة الوظيفة كنت أفرغ من عملى فى الثانية ظهراً وأعود إلى البيت لتناول الغداء ثم أستريح لبعض الوقت، ثم أجلس على مكتبي عندما تدق الساعة الرابعة، وأبدأ بالكتابة لمدة ثلاث ساعات، ثم تليها ثلاث ساعات أخرى للقراءات المتنوعة. وكنت أبدأ بالكتابة أولاً، لأننى إذا جعلتها بعد القراءة، فلن أنام الليل، لأن الكتابة تصيبني بصداع يتلوه الأرق، وكان على أن أستيقظ مبكراً لألحق بمواعيد العمل، وكان الموظف فى تلك الأيام ملتزماً إلى أقصى درجات الالتزام، لأنه لا يستطيع أن يكون غير ذلك.

لم يكن جلوسى اليومى للكتابة بالأمر السهل، لأنه يقتضى أولاً أن يكون موضوع الكتابة قد تخمر فى ذهنى، وكان هذا الأمر يجعلنى فى حالة تفكير مستمر، أثناء وجودى فى الوظيفة، وفى أوقات العمل، وفى أثناء المشى، وحتى فى وقت تناول الطعام، وفى كل مرة تأتىنى تفصيلة من جسم الرواية، وما الرواية إلا مجموعة تفاصيل صغيرة تتجمع وتكون العمل الروائى فى النهاية.

الجلوس للكتابة يقتضى كذلك أن يكون لديك الاستعداد النفسى لها، وفى البداية كنت أجد صعوبة فى تهيئة نفسى للكتابة، وأظل ممسكاً بالقلم لمدة ساعة كاملة بدون أن أكتب كلمة واحدة، ومن خلال التعود، وممارسة هذا النظام الصارم، أصبح الاستعداد للكتابة يأتينى بمجرد الجلوس على المكتب، خاصة عندما يكون الموضوع قد اختمر فى ذهنى واستوى ولم يبق إلا تفرغته على الورق. فى بعض الأحيان كنت أسجل بعض الملاحظات والأفكار العابرة التى تأتىنى أثناء وجودى خارج المنزل، فى ورقة صغيرة حتى لا أنساها، وكنت أهتم بتسجيل هذه الملاحظات خلال فترة اهتمامى بالكتابة الواقعية. أجلس على المقهى مثلاً، فتجذب اهتمامى ملاحظات وتفاصيل صغيرة كانت تفيدنى أثناء الكتابة. وفى مرحلة لاحقة لم يعد لتلك التفاصيل نفس الأهمية، حيث انصب اهتمامى الأكبر على الفكر والتأمل.

وفى مرحلة الوظيفة كنت أمنح نفسى إجازة من الأدب يومى الخميس والجمعة، إلى جانب الإجازة الإلزامية السنوية طوال شهور الصيف بسبب الحساسية التى تصيب عيني. وكانت تلك الإجازة تمتد من شهر مايو إلى شهر سبتمبر، أى خمسة شهور كاملة، كنت ممنوعاً فيها من الكتابة، ولولا اضطرارى للقراءة والكتابة أثناء عملى الوظيفى، لامتنتعت عنهما نهائياً خلال هذه الشهور الخمسة. وقد استأذنت طبيى المعالج الدكتور «الطاروطى» فى هذا الاستثناء، فوافق على ماض، لأنه لم يكن يجذب أى إجهاد للعين طوال هذه الشهور.

ترتبط الكتابة عندى بعادتين، الأولى: هى التدخين الذى مارسه منذ أن كنت طالباً فى المرحلة الثانوية واستمر معى حتى الآن. كنت فى البداية أمدخن الشيشة، ثم وجدت أنها غير عملية، ففى أثناء الكتابة، كنت أضطر إلى التوقف، وأضع «الروب دى شامبر» فوق البيجامة التى أرتديها، وأنزل إلى المقهى لتدخين الشيشة. فلم يكن فى إمكانى تدخينها فى البيت، حيث لا أحد يساعدنى فى تجهيزها. فاستبدلت الشيشة «بالبايب»، واكتشفت بعد

فترة أن «الباب» يحتاج إلى خدمة مثل «الشيشة» ولم يكن أمامي سوى السجائر، فلأسف لا يوجد هناك ما هو أسهل منها. أنا لست من الذين يسرفون في التدخين، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن أدخن أكثر من علبة سجائر واحدة في اليوم، كما أنني أستغل أي فرصة لأوزع من هذه العلبة على الأصدقاء، وفي المقابل لا أخذ منهم، لأنني لا أغير النوع الذي أدخنه.

وإلى جانب السجائر أحب أن تكون هناك خلفية موسيقية أثناء الكتابة، أجعلها في هامش الشعور ولا ألتفت إليها، ثم إنني لا أتناول أي مشروبات بما فيها الشاي والقهوة. ويدهشني ما أسمعه عن بعض الكتاب الذين يحرصون على تناول الخمر أو الحشيش، حتى يهيئوا أنفسهم للكتابة. فعندما أمسك بالقلم لابد أن أكون في أقصى درجات الوعي والتركيز والانتباه. ثم إنني لا أستطيع الكتابة إلا على مكتبي في البيت، أما خارجه فلا يمكنني الإمساك بالقلم، وكل أعمال الرواية كبتها في البيت، باستثناء السيناريوهات، فأغلبها قمت بكتابتها على المقهى، وذلك لأنها لا تحتاج إلى نفس درجة التركيز التي تحتاجها الروايات.

عندما أشرع في كتابة عمل روائي جديد أبدأ بكتابة المسودة بحرية وسرعة وتدق، وفي الغالب فإن كتابة الرواية تستغرق شهرًا. أما بقية شهور السنة فأمضيها في «التبييض»، والإبداع الحقيقي يكون في العملية الأخيرة، هذا النظام سرت عليه منذ الرواية الأولى وحتى الرواية الأخيرة. مع ملاحظة أنني أعطى لنفسى فرصة من الوقت لا تزيد على أيام معدودة بين مرحلتى «التسويد» و «التبييض»، بحيث أكون خرجت خلال هذه الأيام من الحالة النفسية التي كنت عليها وأنا أكتب، واستعدت لياقتى الذهنية. وفي بداية حياتى الأدبية كنت أستخدم القلم الرصاص فى «التسويد» والقلم الحبر فى «التبييض»، وعندما ظهرت الأقلام الفلوماستر الجافة أعجبتنى، واستخدمتها منذ ذلك الوقت وحتى الآن.

لم تكن الساعات الثلاث المخصصة للقراءة يوميًا ترتبط بما أكتب، حيث وضعت لنفسى نظامًا فى القراءة، بحيث لا يمر عام إلا وأكون أخذت نصيبًا من كافة المجالات: فى التراث، والسياسة، والثقافة العامة، والثقافة العلمية، والأدب العالمى، وغير ذلك. ولم ترتبط الكتابة عندى بالقراءة إلا فى الفترة التى كتبت فيها الروايات الفرعونية، حيث اقضى الأمر منى دراسة علم «المصريات»، خاصة وقد كان لدى النية لكتابة تاريخ مصر بأكمله فى سلسلة من الأعمال الروائية، كما فعل «جورجى زيدان» فى تاريخ الإسلام.

وعندما خرجت إلى المعاش لم يختلف نظام الكتابة كثيرًا، حيث خصصت فترة الصباح للكتابة، فأذهب إلى المقهى مبكرًا، ثم أعود لأبدأ الكتابة ولمدة ثلاث ساعات. أما القراءة فكانت فى فترة ما بعد الظهر حتى بدايات الليل.

قبل حصولى على جائزة نوبل أصبت بضمور فى شبكية العين، مما جعل موضوع القراءة والكتابة من الأمور العسيرة والمرهقة، وسبب لى هذا الأمر إزعاجًا شديدًا، وهدم النظام الذى سرت عليه طيلة حياتى، بل لم يعد هناك نظام أصلاً. امتنعت عن القراءة نهائيًا، وأصبحت أقصى مدة أجلس فيها إلى مكتبى لممارسة الكتابة ساعة واحدة فى اليوم.

وقد يشير هذا النظام الدقيق الذى اتبعته فى حياتى بعض الاستغراب. ذلك أن هناك من يعتقد أن النظام الصارم يتناقض مع الأدب وما يرتبط به من إلهام، فالإلهام الفنى ليس له موعد أو ترتيب ولا يعرف النظام، وفى رأى أن النظام لا يتناقض أبدًا مع الإلهام. ربما يحدث شىء من التناقض إذا كان الأمر يتعلق بالشعر، ذلك أن الشعر ليس له موعد، فقد يأتيك شيطان الشعر فى أى مكان، وفى وقت قد يكون الشاعر فيه غير مستعد للكتابة، ومن ثم لابد أن يكون على أتم الاستعداد لتسجيل ما يأتيه حتى ولو كان فى دورة المياه، أما بالنسبة لفن الرواية، فيمكن أن يحكمه النظام فى الكتابة، وهنا لا يحدث التناقض بين النظام فى العمل وحرية الإلهام. وتاريخ الأدب العالمى يقدم لنا نماذج عديدة ممن ساروا على نظام صارم فى حياتهم، مثل «جورج صاند»، التى كانت تبدأ الكتابة ليلاً ولا تنتهى إلا مع مطلع الصبح، وتنام ساعات النهار. وهناك «بلزاك» و«فلوبير» و«تولستوى»، كل منهم كان له نظام فى الكتابة، لم يتغير منذ أن أدركتهم حرفة الأدب.

## رحلتى مع المرض

حكايتى مع المرض طريفة ومريرة فى الوقت نفسه، وكان أول مرض أصبت به فى حياتى هو الحساسية، ففى السنة التى أنهيت فيها دراستى الجامعية، وبعد حصولى على الليسانس، سافرت إلى الإسكندرية لتمضية الصيف، ثم عدت إلى القاهرة استعدادًا لتسلم وظيفتى. فشعرت فى تلك الأيام بتورم فى عيني، فظننت أنه من تأثير ماء البحر ورمال الشاطئ الناعمة، وذهبت لاستشارة طبيب عيون، فأخبرنى بأننى مصاب بالرمد الربيعى. ولم

أفهم المعنى، فشرح لى أن هذا المرض هو نوع من الحساسية يصيب العين فى إحدى سنوات العمر، ويشفى منه الإنسان، ولا يعود إليه المرض ثانية، وعالجنى بالمرطبات، وطمأنتنى شقيقتى رحمها الله، وعندما أخبرتنى بأنها أصيبت بهذا المرض مرة، ولم يعاودها بعد شفائها منه، ولكن فى السنة التالية أصابنى نفس المرض واستمر معى من أول الربيع حتى أوائل الشتاء. فذهبت إلى الطبيب مرة أخرى، فقال لى إن حالتى شديدة وقد تلازمنى خمس سنوات على الأكثر. ووصف لى قطرة ومرهما وبعض الأدوية، ونصحنى بعدم القراءة والكتابة وارتداء نظارة لحجب الشمس والأتربة، طوال شهور المرض. وظلمت على هذا الحال خمس سنوات، أشعر بأن عيني أغلقتا اعتبارا من أواخر شهر أبريل من كل عام، وبأنهما مليتان بالأتربة من تحت الجفون. والتزمت بتعليمات الطبيب، وبعد مرور السنوات الخمس ذهبت إليه، فقال لى إن حالتى مزمنة، وقد تستمر حتى بلوغى سن الخامسة والثلاثين. ولم تتوقف الحساسية عند عيني فقط ولكنها امتدت إلى الجلد، وبدأت تظهر على جلدى بقع صغيرة تصاحبها نوبات من الحك المتصل. وقد أورثت بنتى الحساسية وتجدهما ممنوعتين من شرب اللبن ومشتقاته.

أما مرض السكر فقد أصبت به وأنا على مشارف الخمسين واكتشفته مصادفة، ففى أحد الأيام قرأت فى الصحف إعلانا عن شركة الشرق للتأمين، واتصلت بها هاتفيا لمزيد من التفاصيل عن بوليصة التأمين على الحياة ومزايا هذا التأمين، فجاءنى مندوب عن الشركة اسمه «فاروق المصرى» وطلب منى الذهاب إلى مقر الشركة فى اليوم التالى. وعندما ذهبت طلبوا منى الخضوع للكشف الطبى، وتم عرضى على إخصائى مرض السكر «الدكتور البدرى» الذى أحالنى إلى الدكتور «المسلمانى» إخصائى التحاليل الطبية التابع للشركة. وبعد يوم كامل من التحاليل الشاملة المعروفة باسم «كيرف» علمت أننى مصاب بمرض السكر، وأن نسبته فى دمى فوق الـ ٤٠٠، وهذه نسبة مرضية. رغم ذلك لم أكن أشعر بأى أعراض، ونصحنى الكاتب الراحل محمد عبد الحليم عبد الله بضرورة العلاج على يد الطبيب الدكتور البدرى الذى كان صديقا له، وكان معروفا بحبه للأدب والأدباء، وأخذت فى التردد على الدكتور البدرى للعلاج. ثم بدأت أشكو من بعض الآلام فى الصدر والظهر، فطلب منى الدكتور البدرى التوجه إلى طبيب متخصص فى الروماتيزم، وذهبت إلى إخصائى فى هذا المرض، حيث حدد لى أنواعا من الأدوية. ولكننى قبل التوجه إلى الصيدلية لشرائها ذهبت للدكتور البدرى الذى قرأ الروشتة، وسألنى عما إذا كان طبيب

الروماتيزم علم بأننى مريض بالسكر؟. فقلت له: نعم، فغضب الدكتور البدرى وقال: «أما ابن كلب صحيح، كل الأدوية التى كتبها لك من شأنها أن ترفع عندك نسبة السكر»، وطلب منى شراء دواء اسمه «سيدال» لتناوله إذا ما فاجأتنى أزمة سكر، إلا أنه فى يوم ما التقيت بتوفيق الحكيم وشكوت له من آلام الروماتيزم وعلاجه، فقال لى: «بسيطة.. تناول قرص أسبرين صباحا وقرصا فى المساء». وبالفعل سرت على نصيحة الحكيم فشعرت بتحسن، وما زلت حتى الآن أعمل بنصيحته المفيدة.

اعتدت على الكشف الطبى الدورى ثلاث مرات فى السنة، تقلصت إلى مرة واحدة، ثم امتنعت نهائيا لأننى زهقت. والحقيقة أن مرض السكر اضطررنى لاتباع نظام غذائى قاس. ففى الصباح يكون إفطارى عبارة عن قطعة جبن قريش وبسكويت مخصوص لمرضى السكر بالإضافة إلى فنجان نسكافيه مع قليل من اللبن. أما الغداء فعبارة عن خضار وقطعة لحم وسلطة وربع رغيف، أما العشاء فهو مكون من فول مدمس وعلبة زبادى. وطوال اليوم لا أشرب سوى ثلاثة فناجين من القهوة السادة لأننى لا أتمتع بطعم السجائر بدون القهوة، وأحيانا أرتشف من الفنجان رشفة واحدة فقط. من بين المضاعفات التى سببها لى مرض السكر إصابتى بضعف فى السمع، ثم فقدت السمع فى أذنى اليمنى تماما. وعندما ذهبت للعلاج لدى الدكتور على المفتى أذكرنى اليأس من علاجها نهائيا، فقد قال لى: «مفيش فايدة»!، وذهبت للدكتور «حندوسة» فقال لى نفس الجملة. كان الحل الوحيد هو وضع سماعة فى أذنى اليمنى وهو ما لجأت إليه وعملت واحدة فى مركز السمع. أيضا من مضاعفات مرض السكر أننى أصبت بضمور فى شبكية العين، وفقدت البصر فى عيني اليمنى تماما حوالى ثلاثين يوما، وبعد علاج مكثف عاد إليها نور ضعيف. وضمور الشبكية مع ضعف السمع، لم يعد يمكننى من مشاهدة التليفزيون أو المسرح، كما أنه يمنعنى من القراءة.

وبسبب مرضى الحساسية والسكر منعنى الأطباء من التعرض للشمس وأكل الحلويات وأنواع عديدة من الفاكهة مثل البلح والتين والعنب والمانجو، لأن نسبة الجلوكوز بها عالية. وسمح لى الأطباء بتناول حبة فاكهة واحدة فى اليوم، مثل برتقالة أو شىء من هذا القبيل، وحتى الشاى أشربه سادة، وعندما عرضوا علىّ استخدام أقراص «السكرارين» الخاصة بمرض السكر واظبت عليها لفترة، ثم توقفت لأنها لم تكن مريحة لى.

من الأمور التى ساعدتنى على مقاومة مرض السكر، إلى جانب تنظيم الأكل، عادة

المشى اليومية، فهي عادة قديمة وثابتة حتى من قبل إصابتي بهذا المرض، ففي الشتاء أمشى حوالى ساعة يوميا، تقل فى الصيف بسبب الحر.. وبالنسبة لمواعيد نومى فقد اعتدت على دخول الفراش مع منتصف الليل، لكننى لا أنام إلا بعد ذلك بساعة، ثم أستيقظ فى حوالى الثالثة أو الرابعة صباحا، ثم أنام نصف ساعة ممددا فى السرير، وأستيقظ بعدها. وقلة النوم تتعبنى جدا، ولذلك أعوضها بالنوم خلال فترة النهار، وللأسف لا يأتينى النوم بسهولة، والغريب أننى عندما أسافر إلى الإسكندرية أنام نومًا عميقا، ولذلك أذهب إليها بين فترة وأخرى حتى أستمتع بالنوم.

## رياضة المشى

فى أثناء سنوات الوظيفة كنت أنام فى الحادية عشرة مساء وأستيقظ قبل السادسة صباحا، حتى يتسنى لى ممارسة رياضة المشى. تلك الرياضة التى حافظت عليها طوال حياتى، كنت أنزل من ترام العباسية وأسير على قدمى حتى أصل إلى وزارة الأوقاف، مرورا بشارعى سليمان باشا وقصر النيل. وبعد الزواج وانتقالى إلى شقتى الحالية فى العجوزة زادت المسافة التى أمشيها. كنت أسير من شارعى الجبلية والبرج، ثم كوبرى قصر النيل إلى وزارة الأوقاف. وكانت المسافة تستغرق ساعة يوميا، وبعد المعاش حافظت على هذه العادة، وبدلا من الذهاب إلى الوزارة كان المطاف ينتهى إلى مقهى «على بابا» فى ميدان التحرير.

## حسين حجازى وفريق قلب الأسد

قد لا يصدق أحد أننى كنت فى يوم من الأيام «كابتن» فى كرة القدم. واستمر عشقى لها حوالى عشر سنوات متصلة، فى أثناء دراستى بالمرحلتين الابتدائية والثانوية. ولم يأخذنى منها سوى الأدب، ولو كنت داومت على ممارستها فربما أصبحت نجما من نجومها البارزين. وعلاقتى بالكرة ترجع إلى الفترة التى انتقلنا فيها إلى العباسية، كنت وقتذاك قد التحقت بالمدرسة الابتدائية، واصطحبني شقيقى ذات يوم لزيارة صديق حميم له من عائلة الديوانى، وهى عائلة معروفة، ومن أبنائها أطباء ومستشارون. كان بيت هذا الصديق يطل على محطة للسكة الحديد، وعندما فرغنا

من تناول الغداء اقترح أن يصطحبنا لمشاهدة مباراة فى كرة القدم بين فريق مصرى وآخر إنجليزى. وكـم كانت دهشتى كبيرة عندما فاز الفريق المصرى، فقد كنت أعتقد حتى ذلك الوقت أن الإنجليز لا يـنـهـزـمـون حتى فى الرياضة. رجعت يومئذ إلى البيت وذهنى كله معلق بكرة القدم، وبأسماء الفريق المصرى الذى هزم الإنجليز، وخاصة كابتن الفريق حسين حجازى نجم مصر ذائع الصيت فى ذلك الوقت. طلبت من والدى أن يشتري لى كرة، وألححت عليه حتى وافق، وبدأت أمضى وقتاً طويلاً فى فناء المنزل، ألعـب الكـرة بمفردى، ومحاولاً تقليد ما شاهدته فى تلك المباراة التى خلبت عقلى، وبسرعة شديدة استطعت أن أتقن المبادئ الأساسية للعبة، وانضمت إلى فريق «التيمل» فى المدرسة الابتدائية، وهو فريق الصغار، وكان يوجد فريق آخر للكبار. كانت الدراسة الابتدائية فى ذلك الوقت لا تلتزم بسن محددة للالتحاق بها، فكنت تجد إلى جانب الأطفال الصغار فى سن الثامنة أو التاسعة، شباباً تجاوز العشرين، ولهم شوارب كبيرة، ولذلك كان هناك فريق للكبار فى نفس المدرسة. وكان من بين أعضاء فريق الكبار الكابتن ممدوح مختار الذى كان يلعب بين صفوف الفريق الأول بالنادى الأهلى، وهو من عائلة صقر التى اشتهر منها عبد الكريم صقر ويحىى صقر. وفى فريق «التيمل» لعبت فى مركز الهجوم، وتحديداً فى مركز الجناح الأيسر، رغم أننى لا أجيد اللعب بقدمى اليسرى، وكان ذلك المركز يعد كثيراً من حركتى، ومع ذلك كنت هداف الفريق، وأكثر لاعبيه إحرازاً للأهداف. ولما انتقلت إلى مدرسة فؤاد الأول الثانوية تغير مركزى، وأصبحت ألعـب كقلب دفاع، وأجـدت فى المركز الجديد لدرجة أن كثيرين ممن شاهدونى فى ذلك الوقت تنبأوا لى بالنـبـوغ فى كرة القدم، وبأننى سألعـب لأحد الأندية الكبيرة، ومنها إلى «الأولمبياد» مع المنتخب الوطنى. ومن هنا كانت دهشة زملائى عندما انتقلنا إلى الدراسة الجامعية، ورفضت الانضمام إلى فريق الكرة بالجامعة. ومنذ ذلك الحين، انقطعت صلتى بكرة القدم من ناحية الممارسة، ثم انقطعت صلتى بها من ناحية المشاهدة والمتابعة بعد اعتزال الكابتن حسين حجازى.

وحسين حجازى عندى هو حقيقة رأيته وأسطورة سمعت عنها، فقد رأيته فى أواخر حياته الكروية قبل اعتزاله اللعب.. ونظراً لشعبيته الرهيبة وموهبته الفذة ظل يمارس اللعب حتى شارف الأربعين من عمره، وهى سن كبيرة بالنسبة للاعبى كرة القدم. وفى الغالب يعتزل النجوم بعد تخطى سن الثلاثين بقليل. وحتى فى هذه السن المتقدمة كان حسين حجازى له ثقله فى الملعب، وفى المرات التى شاهدته أعجبنى فيه ميزات، منها أنه يقوم

بدور المايسترو لفريقه خير قيام، وأن لعبه نظيف، فلم يحدث أن ارتكب خطأ متعمداً ضد لاعب من الفريق المنافس، ومنها قوة تسديده على المرمى، لدرجة أنه كان كثيراً ما يسدد الكرة من منتصف الملعب، فتدخل المرمى.

هذا ما رأيته بعيني، أما ما سمعته فهو أقرب إلى الأساطير، ولا أعرف مدى صحته، لأن جزءاً منه حدث في إنجلترا، والآخر في فترة لم أشاهده فيها. فقد قيل إن والده أرسله في بعثة دراسية إلى إنجلترا، وهناك سرقة الكرة من الدراسة، وبرع في كرة القدم، حتى أنهم ضموه للمنتخب الإنجليزي، وأصبح أحد أبرز نجومه، وتحدثت عنه الصحف الإنجليزية. بل قيل إنهم غيروا القوانين الإنجليزية خصيصاً حتى يصبح حسين حجازي «كابتن» للفريق الإنجليزي. وقيل إن ملك أسبانيا حضر مباراة مهمة بين إنجلترا وأسبانيا، وبهره أداء حسين حجازي، لدرجة أنه عقب المباراة حرص على مصافحته وقال له: «كنت أود أن تكون من الأسبان وتلعب لفريقنا!». ثم عاد حسين حجازي إلى مصر وانضم لفريقنا القومي، وشارك معه في أولمبياد ١٩٢٩، واحتل الفريق المصري المركز الرابع، إذا لم تخنى الذاكرة. وكان حسين حجازي نجم الفريق وأشادت به الصحف الأوروبية، وخصته بالمديح، هو و«السوالم». ولقب «السوالم» كنا نطلقه على لاعبين يحملان اسم «سالم»، هما محمد وأحمد سالم. وأذكر أن مستر «وولف» مدرسا الإنجليزي في المدرسة الثانوية كان يدخل الفصل حاملاً معه جريدة التايمز الإنجليزية، ويقرأ لنا ما كتبه عن الفريق المصري أثناء «الأولمبياد».

إلى جانب حسين حجازي من النجوم المشهورين في تلك الفترة «على الحسنی» وكان من فتوات بولاق، ويلعب في مركز قلب الدفاع، وتميز ببنائه القوي وطريقة لعبه العنيفة. وإن كان «مرعي» حارس المرمى أشد منه عنفاً، حيث كان شعاره في اللعب «إلى يفوت يموت». وكان «مرعي» أشبه بالعملاق، لدرجة أنه كان يصد الكرة بيد واحدة، ويتلفها كما يتلف البرتقالة، حتى أن الكرة كانت تستقر في يده ولا تتحرك أبداً. وفي «المرایا» أشرت إلى شخصية «على الحسنی»، وبعد نشر الرواية، فوجئت به يتصل بي تليفونيا، ليشكرني على تذكري له. جاءني صوته ضعيفاً خافتاً، وعرفت أن الممرض أنهكه، وأنه لا يغادر فراشه، وتعجبت من الحال الذي وصل إليه هذا العملاق.

إلى جانب هؤلاء كان هناك «جميل الزبير» و«سيد أباطة» و«محمود مختار التتش» و«ممدوح مختار» و«محمد سليمان» الذي كنا نطلق عليه لقب «هندنبرج». وإذا كان حسين

حجازى هو كابتن الفريق المصرى، فقد كنت أنا كابتن فريق «قلب الأسد» الذى كونه مع أصدقائى فى العباسية أثناء دراستى الابتدائية، وكان مقره شوارع العباسية. كنا نستضيف أحيانا فرقا من الأحياء المجاورة فى مباريات ساخنة، ونذهب لتلاعبهم فى أرضهم بالمثل. وعندما أخذنى الأدب واستغرقتنى القراءة والكتابة لم أستمر فى متابعة ومشاهدة الأجيال الجديدة، ولم أعرف منهم سوى عبد الكريم صقر، الذى أكد لى صديقى عبد المنعم الشويخ أنه لاعب فذ لم تنجب الملاعب المصرية مثله، وكان ذلك فى سنوات تالية لاعتزال «حسين حجازى».

ولم أعرف أحدا من الأجيال الحالية، وأذكر أن أحد الصحفيين رتب لقاء مشتركا جمعنى بنجم الكرة محمود الخطيب، وكان وقتها نجم النجوم وحديث الناس، ولم أشأ أن أخبره خلال اللقاء بانقطاعى عن مشاهدة الكرة، وأن علاقتى بها انقطعت مع اعتزال حسين حجازى. وأحيانا أفتح التليفزيون فأجد مباريات كرة القدم، فيأخذنى الحنين القديم، وأندمج فى المشاهدة، وفى أثناء إذاعة مباريات كأس العالم أظل متابعا لإحدى المباريات دون أن أعرف الفريقين المتباريين، والملاحظة التى لفت نظرى أن نجوم كرة القدم الآن أصبحوا أكثر ثراء من نجوم السينما، بينما كان دخل لاعب الكرة، قديما، ضعيفا جدا، حتى أن «على الحسنى» بعد اعتزاله لم يجد ثمن الدواء. وكان اللاعب يمارس الكرة على سبيل الهواية، بينما له حرفة أخرى يتكسب منها رزقه. ولم يكن يتفرغ لها إلا أولاد الذوات مثل حسين حجازى، فهو ابن أحد الأعيان، وأذكر أثناء عملى فى وزارة الأوقاف أن قابلنى شاب عرفنى بنفسه على أنه ابن حسين حجازى، فصافحته بحرارة شديدة وقلت له: «تعالى لما أبوسك.. دا أنا صفقت لأبوك لما إيدى اتهرت»!

لفت نظرى كذلك الانتشار الرهيب لكرة القدم، وربما يكون مرجع ذلك للإذاعة والتليفزيون والصحف التى أصبحت تفرد للكرة مساحة كبيرة. وفى أيامنا كان الاهتمام أقل من ذلك بنسبة كبيرة، لانشغال الناس بالقضايا السياسية. أما عن التعصب الذى يشكون منه الآن بين جماهير الأندية فكان موجودا فى أيامنا أيضا. خاصة فى المباريات بين فرق القاهرة والإسكندرية، وفى المباريات التى كانت تذهب فيها فرق القاهرة للعب فى الشغل - كما كنا نسميه - تتحول الإسكندرية إلى ثكنة عسكرية وتعلن حالة الطوارئ تحسبا لشغب الجمهور.

## دم سلمان رشدی

عندما أصدر آية الله الخميني فتواه الشهيرة بإهدار دم الكاتب الهندي سلمان رشدی بسبب روايته «آيات شيطانية»، جاءني مندوبون من صحف وإذاعات وقنوات تلفزيون من شتى أنحاء العالم ليتعرفوا على رأيي في هذه القضية، وسجلت أكثر من اثني عشر حديثاً، وفي الإجابة عن سؤال هو:

- ما رأيك في «آيات شيطانية»؟!.

قلت:

- لم أقرأها. وليكن سؤالكم هو: ما رأيك في رئيس دولة يهدر دم كاتب في دولة أخرى لأنه أبدى رأياً مخالفاً في عقيدة مشتركة؟. إن ما فعله الخميني ضد الإسلام وضد القانون الدولي والمبادئ الإنسانية، وللكاتب كل الحرية في أن يقول رأيه، والفكر يرد عليه بالفكر وليس بالخصاص.

بعد ذلك قرأت ما كتبه الأستاذ أحمد بهاء الدين وعرفت أن «آيات شيطانية» رواية وليست كتاباً كما كنت أنصوّر، وأن بها تجديدًا وشطحات شرحها بهاء في صورة شاملة عميقة جعلتني أعيد النظر في المسألة. وفي حديث لشبكة «بي. بي. سي» الإنجليزية، قلت رأياً جديداً بناءً على المعلومات التي استقيتها عن الرواية، وملخص ما قلت هو أن ما كتبه سلمان رشدی يدخل تحت بند السب والقذف وعليه أن يتوب، والإسلام يقبل التوبة إذا كانت صادقة مخلصّة، وهذا ليس معناه مصادرة حرية الفكر، فما كتبه في روايته كان من منطلق حرية الفكر، وتراجع سيكون من نفس المنطلق. سألتني المحاور: وبماذا تنصح سلمان رشدی في مخبئه؟. فأجبت: من الصعب أن أوجه نصيحة لكاتب من المفروض أنه من قادة الفكر، فالأمر يرجع في الأساس إلى ضميره. فإذا كان متمسكاً بآرائه التي احتوتها الرواية، فليس عندي نصيحة، ولا أستطيع أن أجبره على تغييرها. أما إذا شعر بخطئه وندمه، ففي هذه الحالة أوجه له هذه النصائح:

\* أولاً: أن يعلن توبته كما يطلب منه.

\* ثانياً: أن يمنع ما استطاع ترويج الرواية.

\* ثالثاً: أن يتبرع بأرباحه منها لإحدى الجهات الإسلامية.

ويبدو أن بعض الكتاب في مصر حاولوا استغلال رأى الأول الذى قلته فى القضية قبل أن تتضح الصورة بالنسبة لى، ومنهم من حاول تشويه كلامى والهجوم على مثل فهمى هويدى، ولم يشفع لى رأى الأخير المبني على معلومات صحيحة، وهو آخر آرائى فى تلك القضية. وفى حدود علمى بالشريعة الإسلامية لا يجوز تنفيذ حكم القتل فى المرتد إلا إذا استتابه أولو الأمر، فإن تاب ورجع، يُلغى حكم القتل، وتكون توبته مقبولة. ولذلك اعترضت على تصريح المرشد الجديد لإيران على خامنئى الذى أكد فيه أن فتوى الخومينى قائمة ولن تلغى، واعتراضى مبنى على عدة أسباب.

أولاً: أنه حكم متعسف وغير إسلامى لأنه يقفل باب التوبة، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾. والتاريخ الإسلامى يحكى لنا قصة السيدة التى ذهبت إلى النبى واعترفت بارتكابها جريمة الزنى، فحاول أن يراجعها ويجعلها تعيد التفكير فى اعترافها. هذه هى سماحة الإسلام كما نفهمها.

ثانياً: أن الذين أصدروا حكمهم على الرواية وشنوا الحملة على صاحبها لم يقرأوها، وبنوا حكمهم على تلخيصات لها، أو على حكم الآخرين عليها. والمنطق يقول إنه كان عليهم أن يقرأوا الرواية ويفهموا مغزاها جيدا ويردوا على صاحبها.

ثالثاً: أن الإسلام طالما تعرض لحملات افتراء وتشويه، ولم تزده هذه الحملات إلا قوة وصلابة. وفى رأى أن الفكرة السليمة إذا تعرضت لهجوم تزداد قوة فى نفوس معتنقيها، خاصة عندما تكون حجج الهجوم واهية، والدفاع عنها مبني على براهين ساطعة واضحة.

رابعاً: أن سلمان رشدى فى حدود علمى أعلن صراحة إسلامه وأسفه على ما بدر منه، ومن ثم تكون توبته مقبولة، فالإسلام لا يحاسب على النيات.

## الطربوش

قبل ثورة يوليو سنة ١٩٥٢، كان الطربوش من الأمور الهامة جداً فى مصر. وعندما كنا تلاميذ صغارا كان الزى الرسمى هو البنطلون القصير والقميص والطربوش، وبعد تخرجى

فى الجامعة فإن الطربوش كان من المظاهر الضرورية للوظيفة. ولم يكن فى وسع أى موظف أن يدخل مكتب رئيسه فى العمل عارى الرأس. ورغم أهمية الطربوش كان بعض المتفرنجين الذين تعلموا فى أوروبا، يهاجمونه، ويرونه بدعة تركية غريبة على المجتمع المصرى، خاصة أنه لا يناسب الجو الحار. فالطربوش فى الصيف يجعل من يرتديه يتصبب عرقاً، كما أنه لا يحجب عنه الشمس. وكان من هؤلاء المعارضين الدكتور محمود عزمى الذى كان يدعو إلى لبس «القبعة» بدلا من الطربوش، واشتهر بارتدائه «البرنيطة» الأوروبية. وكان شارع محمد على هو المكان المفضل الذى أشتري منه طرابيشى، وكثيرا ما أزعجنى الاضطراب للقيام «بكى» الطربوش بين حين وآخر، ويتزايد هذا الإزعاج عندما أذهب للجلوس فى مقهى، حيث أحتار فى أى مكان أضعه. وبعد الثورة خلعت الطربوش مثلما خلعه كل الأفندية، وإن كان البعض استعاض عنه بأغطية رأس مختلفة تقى من حر الصيف. وأشهر هذه الأغطية «البيريه» الذى ابتكره فى مصر توفيق الحكيم وأصبح من لوازمه وعلماء عليه. ولم أحاول وضع أى شىء على رأسى بعد أن تخلصت من الطربوش...

## اللقاء الأخير مع سيد قطب

سيد قطب هو أول ناقد أدبى التفت إلى أعمالى وكتب عنها، وكان ذلك فى الأربعينيات. وتعرفت عليه فى ذلك الوقت حيث كان يجيء بانتظام للجلوس معنا فى كازينو «أوبرا»، وكانت العلاقة التى تربطنا أدبية أكثر منها إنسانية.

ميز سيد قطب فى تلك المرحلة تحرره وذكاءه وموهبته الأدبية، خاصة أنه كان من تلاميذ العقاد المخلصين. والعقاد - على ما أذكر - هو الذى توسط له لدى النقراشى باشا لإرساله فى بعثة دراسية إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وكنت أعده لسنوات طويلة من رواد الاستنارة والفكر الجرىء المتحرر. وكان آخر لقاء جمعنا معا فى بيته فى حلوان، حيث ذهبت لزيارته بصحبة آل السحار عقب خروجه من السجن بعفو صحى. ذهبت إليه رغم معرفتى بخطورة هذه الزيارة، وبما يمكن أن تسببه لى من متاعب أمنية. فى تلك الزيارة تحدثنا فى الأدب ومشاكله، ثم تطرق الحديث إلى الدين والمرأة والحياة. كانت المرة الأولى التى ألتصق فيها بعمق مدى التغيير الكبير الذى طرأ على شخصية سيد قطب وأفكاره.. لقد رأيت أمامى إنساناً آخر، حاد الفكر، متطرف الرأى، ويرى أن المجتمع عاد إلى الجاهلية الأولى، وأنه

مجتمع كافر لابد من تقويمه بتطبيق شرع الله انطلاقاً من فكرة «الحاكمية». وسمعت منه آراءه دون الدخول معه فى جدل أو نقاش حولها، فماذا يفيد الجدل مع رجل وصل إلى تلك المرحلة من الاعتقاد المتعصب. وعرفت منه أنه تلقى عرضاً للعمل فى العراق، ورغم إغراءاته المادية ومميزاته الكبيرة فإنه رفضه لأنه لا يريد أن يترك مصر، وبقي فيها لقضائه وقدره.

عندما سمعت بخبر اشتراك سيد قطب فى مؤامرة قلب نظام الحكم، وصدور حكم الإعدام عليه، لم أتوقع أبداً تنفيذ الحكم، وظننت أن مكانته ستشفع له. وإن لم يصدر عفو عنه، فعلى الأقل سيخفف الحكم الصادر ضده إلى السجن المؤبد على الأكثر، ثم يخرج من السجن بعد بضع سنوات، وخاب ظنى ونفذ حكم الإعدام بسرعة غير معهودة، أصابتنى بصدمة شديدة وهزة عنيفة. فرغم الخلاف الفكرى بينى وبين سيد قطب، فإننى كنت أعتبره حتى اليوم الأخير من عمره، صديقاً وناقداً أدبياً كبيراً، كان له فضل السبق فى الكتابة عني، ولفت الأنظار إلى، وفى وقت تجاهلنى فيه النقاد الآخرون.

ولتأثرى بشخصية سيد قطب وضعتها ضمن الشخصيات المحورية التى تدور حولها رواية «المرايا» مع إجراء بعض التعديلات البسيطة. ولكن الناقد المدقق يستطيع أن يدرك أن تلك الشخصية فيها ملامح كثيرة من سيد قطب.

### «العاشق فى الحقيقة»

عندما كتبت الروايات الفرعونية الثلاث فى بداية رحلتى مع الأدب، كان فى نيتى أن أواصل السلسلة، وأكتب التاريخ الفرعونى كله بنفس الطريقة. ولما حدث التحول ولم أواصل العمل فى هذا الاتجاه، بقيت فى وجدانى شخصية «أخناتون» بكل ما تحمله من ثراء وغموض. وبعد سنوات طويلة وقع فى يدى كتاب باللغة الفرنسية عن «أخناتون» يتضمن آراء غريبة ومتناقضة لم أسمع بها من قبل. أثار الكتاب ما أحمله فى وجدانى من تقدير لهذه الشخصية، وقررت التوقف عند «أخناتون» والكتابة عنه. فجاءت رواية «العاشق فى الحقيقة» لا تتضمن رؤية درامية بقدر ما هى عرض لوجهات النظر المختلفة فى هذه الشخصية التاريخية المثيرة. خاصة أننى أضفت للرواية شخصيات من صنع خيالى ليس لها أصل تاريخى.

و«أخناتون» كما تصوره هو شخصية سابقة لعصرها، مثيرة للتعاطف معها، مضحية في سبيل فكرتها وما تؤمن به من مبادئ، فهو رجل يدعو إلى السلام والتوحيد في عصر كان يرفض مثل هذه الأفكار. ومن الثابت تاريخيا أن الكهنة هم الذين تأمروا عليه ليقضوا على أفكاره التي كانت تمثل ضررا شديدا على مصالحهم ونفوذهم. ومن خلال قراءتي للتاريخ الفرعوني لفتت نظري ملاحظة هامة، وهي أن سيطرة الكهنة على الحكم كانت تشدد وتظهر أكثر وضوحا في فترات الضعف التي تمر بها البلاد، وكان حكمهم مرتبطا دائما بالتدهور وانتشار الفساد.

## الفرعونيات

مع تأثري بأجواء حى الحسين القديم والحارة الشعبية، كان من المفترض أن تكون بدايتي الروائية فى أعمال مثل «زقاق المدق»، و«خان الخليلي»، وتلك الأعمال التي تتناول الحارة المصرية. غير أن ما حدث كان شيئا آخر، حيث اعتمدت فى رواياتي الأولى على موضوعات من التاريخ الفرعوني، وهى المرحلة الأدبية التي يسميها النقاد «الفرعونيات»، ممثلة فى «عبث الأقدار» و«كفاح طيبة» و«رادوبيس». هذه المفارقة لها أسباب، أولها: زيارتي المتكررة للمتحف المصرى مع أمى فى طفولتى ومشاهداتى المستمرة للآثار الفرعونية، وثانيها: تأثري بالروايات الإنجليزية المعروف «والتر سكوت»، وطريقته واهتمامه بالرواية التاريخية. ولكن أهم الأسباب جميعا هو قوة التيار الفرعوني فى العشرينيات من هذا القرن، خاصة بعد اكتشاف مقبرة «توت عنخ آمون». وكان ذلك حدثا ضخما جدا، ولا يقدر ضخامته، إلا الذين عاشوا فى تلك الفترة، وربما لم يعرفه الجيل الحالى إلا من خلال الكتب.

كان المد الفرعوني على أشده فى بدايات هذا القرن، وله أنصاره الذين يدافعون عنه باستماتة. وأذكر أنه بعد صدور دستور ١٩٢٣ وإجراء الانتخابات البرلمانية، نادى أصحاب المد الفرعوني بقيادة عثمان محرم، بتصميم قاعة البرلمان على الطراز الفرعوني، واصطدموا مع أنصار التيار الإسلامى، فى الوقت الذى كان الاتجاه القومى العروبي ليس له صوت مسموع، وانتصر التيار الفرعوني، وأقيم اليهود الفرعوني فى البرلمان، وهذا البهو موجود إلى اليوم.

امتد تأثير المد الفرعونى إلى كافة المجالات خاصة فى الشعر والغناء، فقد كتب الشعراء قصائد كثيرة عن مجد المصريين القدماء، ونظموا أغنيات كنا نردها نحن الصغار من أمثال «إحنا أبونا توت عنخ آمون». وبتأثير هذا المد وتشعبه كتب رواياتى الأولى، بعد أن قرأت كل ما هو متاح عن التاريخ الفرعونى، مع نية صادقة ورغبة قوية فى كتابة سلسلة روايات تشمل كل مراحل التاريخ الفرعونى. والغريب أننى بعد كتابة الروايات الثلاث شعرت بفتور شديد وتراجع فى حماسى لذلك التيار، ووجدت نفسى متجها لمصر المعاصرة، وللحارة المصرية، بكل ما فيها من مشكلات وقضايا وهموم ونماذج إنسانية. والحارة فى رواياتى بقدر ما هى واقعية، فإنها كانت عندى وسيلة تتسع لكل القضايا التى أتناولها. فالحارة فى رواياتى - خاصة فى المرحلة التى يسميها النقاد باسم «الواقعية» - كانت موازية للمجتمع كله بقضاياها، وصراعاته وهمومه. تجد ذلك فى «القاهرة الجديدة»، و«زقاق المدق» و«خان الخليلي»، و«بداية ونهاية»، وأمثالها، وفى مرحلة تالية أخذت الحارة مفهوماً أوسع من المجتمع، حيث امتدت لتكون موازية للكون كله، وتجد ذلك فى «أولاد حارتنا» مثلاً. وكانت روايتى الأولى التى كتبتها بعد فترة الفرعونيات هى «القاهرة الجديدة»، وقد تأثرت فيها بأجواء الدراسة الجامعية. فقد كانت الحياة الجامعية أقرب مكان لذاكرتى الواقعية، فهذه الرواية ظهرت تقريباً عام ١٩٤٠، ولكنى بدأت فى وضع خطوطها الرئيسية حوالى العام ١٩٣٦، أى بعد تخرجى فى الجامعة بعامين فقط. فكانت حياة الجامعة مسيطرة على ذهنى تماماً، ومنها جاءت أحداث وشخصيات «القاهرة الجديدة».

### صديقى الكلب «جاك»

عندما انتقلنا إلى العباسية طلبت من والدى أن يحضر لى كلباً صغيراً لأقوم بتربيته واللعب معه. وبعد إلحاح أصبح عندى كلب أسود، سرعان ما تعلقت به، وجعلته صديقى المقرب، وأطلقت عليه اسم «جاك» عاش معى «جاك» فترة بلا مشاكل أو متاعب، إلى أن عض ذات يوم صديقى سعد الدين - وهو ابن عمه إحسان عبد القدوس - وكان جارى فى العباسية - وكثيراً ما كان يأتى ليلاعب معى فى فناء منزلنا، كما كنا أحياناً نمارس هواية تمثيل بعض المشاهد المسرحية، وأصبح فيما بعد وكيلاً لوزارة الثقافة. بعد أن عضه «جاك» حملة أهله إلى المستشفى، وطلب الطبيب أن نأتى «بجاك» ليكشف عليه خشية أن ينقل داء «الكلب» إلى سعد الدين. وتحرر محضر بالواقعة فى قسم الشرطة، ودفع والدى

غرامة مالية لأننا نفقتى كلياً بدون الحصول على رخصة. غضب والدى مما جرى وأمرنى بطرد الكلب من المنزل لأنه يؤذى الجيران وحدثت بسببه مشاكل. وأمام إصرار والدى وضعت «جاك» فى «مقطف» - حقيبة مفتوحة من القش - وحملتة إلى هضبة الهرم، وتركته هناك وأنا فى غاية الحزن والأسف. وانقلب حزنى وأسفى إلى فرحة غامرة ودهشة عندما عدت إلى البيت لأجد «جاك» فى انتظارى، عائداً وحده، بعد أن قطع كل هذه المسافة ما بين الهرم والعباسية. وعندما علم والدى بما جرى وافق على الاحتفاظ بـ «جاك» شرط أن نبقية داخل المنزل، ولا ندعه يهبط إلى الفناء، وتعهدت أمام أبى أن «جاك» لن يؤذى أحداً من أصدقائى أو جيرانى بعد الآن. وعاش معنا «جاك» سنوات طويلة، ولا أتذكر الآن كيف انتهت حياة «جاك»، وكل ما أذكره أنه ترك لنا كلبة صغيرة من نسله، ماتت وهى فى حالة وضع، وحزنت عليها، وقررت بعدها ألا أقتنى كلياً أبداً. واستمر قرارى ساريًا إلى أن تزوجت وأنجبت ابنتى اللتين ألتحنا على لكى أقتنى لهما كلياً تلعبان به. ورفضت - مثل والدى رحمه الله - وعارضت الطلب لفترة من الوقت، ولما زاد الإلحاح ذهبنا إلى أحد المحال، واشتريت لهما كلياً وكلبة، عاشا معنا سنوات، وأنجبا عدة مرات، وكنت أوزع من نسلهما على أصدقائى، خاصة عادل كامل. وأقف هنا لأروى حادثتين فى منتهى الغرابة عن الكلاب، تدلان على أن الغريزة أقوى من الذكاء أحياناً:

**\* الحادثة الأولى:** وقعت فى بيت عادل كامل، فعندما أعطيتة «كلبة» على سبيل الهدية كانت صغيرة جداً ومغمضة العينين، وقد نمت وكبرت عنده، وأصبحت فى منتهى الشراسة. حتى أنه كان يغلق عليها باب الغرفة، ولا يدعها تخرج فى حالة وجود ضيوف، وفى إحدى سهراتنا بمنزله استغلت الكلبة فرصة سهو منه ودخلت علينا، وهجمت على الحاضرين ومزقت ملابسهم، وعندما جاءت عندى أخذت تتمسح فى ملابسى، وكأنها تقبلنى. أصبح الموقف بيننا كحبيب يعانق حبيبته بعد طول غياب، وتعجب الحاضرون من هذا الصنيع، حتى أن زوجة عادل كامل كانت تضرب كفاً بكف من شدة الدهشة، وأدركت أن الكلبة شمت فى ملابسى رائحة أمها وأبيها الموجودين عندها، ورغم أننى أعطيتها لعادل كامل وهى صغيرة السن، فإنها مع ذلك لم تنسهما. وفى كل مرة أذهب فيها إلى منزل عادل كامل، يحدث للكلبة هياج بمجرد أن تسمع صوتى، وتأخذ فى النباح، وتصدر أصواتاً غريبة، كأنها تنادى على أو تحملىنى السلام إلى والديها، وكانت زوجة عادل كامل تعلق على ذلك بسخرية فتقول: إنها تخدم هذه الكلبة وتطعمها وتسقيها، ثم تنساها فى دقيقة واحدة!

\* أما الحادثة الثانية: فلا تقل غرابة، ففي شهر مايو من كل عام كان طبيب البيطري يأتي إلى منزلنا ليقوم بإعطاء الكلب والكلبة حقنة تطعيم ضد الأمراض. وفي أول مرة جاء فيها قام بمهمته في سلام، وفي السنة الثانية وفي نفس الموعد، دق جرس الباب، وفوجئت بالكلب والكلبة دون أن نعرف من الطارق يختبئان تحت المقاعد. ووجه الغرابة أنهما في كل مرة يدق جرس الباب بهجمان عليه ويقومان بالنباح المتصل، وفي هذه المرة اختلف الأمر.

وفتحت الباب لأجد الطبيب البيطري أمامي وهو يحمل حقناته ويدخل ويبدأ في تجهيز حقنة التطعيم. أصابتنى حالة من الذهول، فقد مر عام كامل على الحقنة الأولى، فكيف عرفاً أنه الطبيب؟، شيء غريب حقاً! وماتت الكلبة والكلب بشكل طبيعي بعد أن وصلا إلى سن الشيخوخة، وحملتهما زوجتي ودفتهما في إحدى المناطق الخاوية خارج العباسية، وبقي من نسلهما كلب نحفظ به حتى الآن، واسمه «علي بابا». وأغرب ما فيه تعلقه الشديد بنا، لدرجة أنني بنيت له حجرة خشبية في بلكونة الشقة، وقفلت البلكونة بلوح زجاجي، ولكنني فوجئت به يثور على هذا السجن. وظل يضرب على الحائط حتى نزف منه الدم، واضطربنا لإخراجه. وفي كل مرة نأخذه معنا في جولات خارج المنزل أشعر بضيقه من الناس والشوارع، وبمجرد أن تقف السيارة أمام المنزل، يقفز منها بسرعة، ويجري باتجاه الشقة، ولا يستريح إلا إذا دخلها، وأخذ يتجول فيها.

### حكاية «بيليد» الإسرائيلي

ذات يوم وصلني خطاب من الولايات المتحدة الأمريكية يقول مراسله إنه بصدد إعداد رسالة دكتوراه عني في إحدى الجامعات الأمريكية ويريد مني أن أرسل له مجموعة من المعلومات عن حياتي ونشأتي وتربيتي وثقافتي والعوامل التي أثرت في تكويني. وبالفعل أرسلت له ما طلب، وبعد فترة من الوقت وصلتني نسخة من رسالة الدكتوراه، أهدتها لي الجامعة التي حصل منها الباحث على درجة الدكتوراه. وعندما قرأت الرسالة اكتشفت أن الباحث إسرائيلي واسمه «ماتاتياهو بيليد»، ويعمل أستاذًا في الجامعة العبرية في تل أبيب. شعرت بضيق في البداية، ثم قلت لنفسي إنني لن أعيق شخصًا يريد أن يعد رسالة جامعية عني، حتى أسأل عن ديانته أولاً، واستعدت هدوئي من جديد. بعد ذلك اتصل بي الضابط

المختص بشئون الصحافة في وزارة الداخلية وأظن أن اسمه اللواء سيد زكي، طالبًا موعدًا لمقابلتى في «الأهرام». ظننت أن وزارة الداخلية علمت بحكاية الباحث الإسرائيلي «بيليد»، وكان ذلك تقريبًا في العام الذى خرجت فيه إلى المعاش، أى سنة ١٩٧١، وقررت «الأهرام» ضمى إلى مجموعة كتبها المتفرغين. سألتى اللواء سيد زكى بالفعل عن حكاية «بيليد»، ففتحت درج مكتبى وأخرجت خطابه الذى أرسله لى، وقلت إننى أرسلت برد يتضمن المعلومات المطلوبة عني، ولم أكن أعرف أنه إسرائيلي، إلا بعد أن بعثوا لى بنسخة من رسالة الدكتوراه. واقتنع سيد زكى بروايتى، وقال لى: «إن الحكاية واضحة»، واعتبر المسألة منتهية، وأضاف: «إذا طلبوك فى المخابرات وسألوك عن هذا الموضوع قدم لهم الخطاب الذى تحتفظ به والذى أرسله إليك الباحث فى أول الأمر». ولم تطلبنى المخابرات وانتهى الموضوع عند هذا الحد. وعندما قرأت رسالة الدكتوراه بإمعان وجدت أن «بيليد» هذا توصل من خلال قراءته لأعمالى وتحليله لشخصياتها وأحداثها، إلى نتيجة جديدة. وهى أننى أميل إلى الاتجاه الإسلامى وليس الماركسى كما قال النقاد العرب. وذلك من وجهة نظره يرجع إلى أن نهايات رواياتى تتوافق إلى حد كبير مع المبدأ القرآنى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾.

## سنوات العقم

منذ عام ١٩٨٧، أى فى السنة التى سبقت حصولى على جائزة نوبل، وأنا أعيش فى حالة غريبة من العقم الإبداعى، وأشعر بعدم ميل إلى الكتابة، وتذكرنى هذه الحالة بفترة انقطاعى عن الكتابة عقب ثورة يوليو ١٩٥٢. والفارق بين الحالتين هو أننى فى فترة الانقطاع التى حدثت بعد الثورة شعرت أننى لم يعد لديّ ما أكتبه، بعد أن حققت الثورة كثيرًا مما كنت أتمنى تحقيقه من خلال كتاباتى الروائية. أما فى هذه الحالة والمستمرة عندى حتى الآن، فأشعر بأن الدافع للكتابة موجود، ولديّ موضوعات عديدة ومشروعات كثيرة لأعمال روائية، ولكننى عندما أمسك بالقلم تزول كل دوافع الكتابة، وتهبّ النشوة الداخلية، فأضع القلم من جديد.

والسبب فى هذه الحالة الغريبة هو أننى كلما هممت بالشروع فى الكتابة يواتينى شعور داخلى بأن الموضوع قديم، وسبق أن عالجت فى أعمال سابقة، أو أن المشكلة تافهة ولا

تستحق الكتابة عنها.. هذا على الرغم من أن المجتمع الآن ملئ بالمشكلات التي تصلح في أغلبها للمعالجة الفنية، لكنى كما قلت أشعر أنها مشكلات قديمة. فعندما قدمت شخصية «محبوب عبد الدايم» الانتهازية في «القاهرة الجديدة» أصيب الناس بالدهشة، وكانت أشبه بالاكشاف. أما الآن فيوجد مليون «محبوب عبد الدايم»، ولم تعد شخصيته تثير الاستغراب أو الدهشة. ولذلك يلاحظ القراء أن كل إنتاجي - تقريباً - خلال الفترة الأخيرة، تدور أحداثه في الزمن الماضي، ولا يأخذ صفة المعاصرة، وذلك في أعمال «صباح الورد» أو «قشتمر» أو «الفجر الكاذب».

سبب آخر لحالة الانقطاع هذه، وهو سبب عام في مجمله، يتمثل في أن الأديب عندما يتقدم به العمر، ينحصر تفكيره في الزمن والموت وقضايا فلسفية، وتشعر في كتاباته بالشجن والرغبة في العودة إلى الماضي.

وهناك سبب ثالث يتمثل في الضعف الذي أصاب عيني والشعور الشديد بالإرهاق كلما مارست عملية الكتابة، وأصبح جهدي الآن ينحصر في كتابة «وجهة نظر» التي تنشر كل يوم خميس في «الأهرام» بشكل أسبوعي منتظم. وأحياناً ترد على ذهني أثناء الكتابة أفكار لقصص قصيرة، فأدونها في بضعة سطور، على أمل أن أعود إلى استكمالها بعد ذلك، والقصص التي أنتهى منها أرسلها للنشر في مجلة «نصف الدنيا».

وبعد حصولي على جائزة نوبل سألني أحدهم: هل ستضع في حساباتك عندما تكتب بعد ذلك القارئ العالمى الذى أصبح متابعاً لأعمالك مثل القارئ المحلى تماماً؟ والحقيقة أن حساباتى لم تتغير، لأننى كاتب مخلص جداً لما يدور فى نفسى، وعندما أمسك القلم وأبدأ فى الكتابة، لا أعابى بشيء، ولا أفكر فى شيء، وأنسى كل الحسابات، ولا يهمنى سوى إرضاء ذاتى ومزاجى الشخصى. ثم إننى أكتب بلغة محلية، والعالم لا يقرأ إلا أعمالى التى يختارها ويترجمها على مسئوليته، وأيا كان الأمر، ومهما كانت النتائج، فأنا لا أخشى المواجهة.

## لقاء مع آرثر ميلر

بعد حصولي على جائزة نوبل اتصل بى موظف فى السفارة الأمريكية بالقاهرة، وأخبرنى أن الكاتب المسرحى الأمريكى الكبير آرثر ميلر موجود فى مصر ويريد مقابلتى. رحبت

باللقاء لأن ميلر من الكتاب الذين أحبه، خاصة منذ أن قرأت له مسرحية «وفاة بائع متجول» مترجمة إلى اللغة العربية، وبعدها أصبحت من المتابعين لأعماله، ومن قرائه الدائمين أيضًا. وفي الموعد المحدد ذهبت إلى الفندق الذي ينزل فيه، يرافقتي موظف السفارة الذي رتب اللقاء. وعندما صعدنا لحجرتي بالفندق، فوجئت بإحدى السيدات ممددة على السرير بالطريقة الأمريكية، وعرفت أنها زوجته. لم أكن أعلم أن ميلر تزوج بعد مارلين مونرو، وازدادت دهشتي عندما لمحت فتاة صغيرة السن تلعب في مرح بجوارنا، وعلمت أنها ابنته، ولم أكن أعلم أيضًا أن ميلر أنجب. دار بيننا حوار طويل حول جائزة نوبل، وقد قال لي إنها شيء عارض في حياة الأديب الحقيقي، قد تجيء أو لا تجيء، وحدثته عن أعماله وإعجابي بها، وأخبرني كم هو حزين لأنه لم يقرأ لى أى عمل لأنه لم يعثر وقتئذ على أعمال لى مترجمة إلى الإنجليزية. ورغم قصر المدة التي أمضيتها مع آرثر ميلر فإننى شعرت بارتياح شديد تجاهه على المستوى الشخصي، وانصرفت من اللقاء وأنا فى غاية السعادة، لأننى قابلت كاتبًا جذبتنى أعماله، وكنت أتمنى أن أراه.

### لقاء مع عضو الكونجرس على المقهى

بعد حصولي على جائزة نوبل زار القاهرة عضو بارز فى الكونجرس الأمريكى لا أذكر اسمه الآن، مع أن زيارته لمصر أثارت ضجة فى حينها، وطلب لقاى، وحددت له موعدًا فى مقهى على بابا بميدان التحرير. ودار بيننا حوار طويل حول الأدب وجائزة نوبل، ثم سألتنى سؤالاً ظاهره أدبى، ولكننى شعرت بأن له دلالات سياسية. كان السؤال: إذا كتبت «زقاق المدق» الآن، فما هى التغيرات التى طرأت عليه بعد كل تلك السنوات، ولا بد أنك ستضيفها إليه؟. وفهمت أن الهدف الحقيقى من وراء السؤال هو معرفة رأى فى التطورات التى حدثت فى المجتمع المصرى، وأجبت عليه بطريقة أقرب إلى الدبلوماسية. قلت له لا بد أن «زقاق المدق» سوف يختلف عما كان عليه عندما كتبت الرواية لأول مرة، ولا شك أن سلوكيات الأشخاص ستغير وتختلف العلاقات فيما بينهم، ولا بد أن بطله الرواية «حميدة» ستذهب إلى الجامعة الأمريكية للدراسة، ولم تشف إجابتى غليله.

## رواياتى فى أيدى السياح

منذ ١٥ عامًا أو يزيد اتفقت مع الجامعة الأمريكية بالقاهرة على أن تكون مسئولة عن مشروع لترجمة أعمالى إلى اللغات الأوروبية، وبالفعل ترجموا أكثر من عشر روايات.. والشئ الذى لفت انتباهى وأثار دهشتى فى هذا المشروع أننى فوجئت بهم يعرضون كتبى المترجمة فى الفنادق المصرية. وعرفت أن عددًا كبيرًا من السائحين الذين يقدون للقاهرة يقبلون على شراء هذه الروايات المترجمة، وأن بعض الروايات يباع منها فى الموسم السياحى أكثر من ألف نسخة. ولم أكن أتصور أن السائح الأوروبى الذى جاء من أجل مشاهدة الأهرام وأبى الهول يمكن أن يدفع نقوده فى شراء روايات لكاتب مصرى، وحقيقة سررت جدًا من هذه الفكرة.

## النكسة واللامعقول

عندما ظهر تيار اللامعقول فى الأدب الأوروبى وازدهر فى فترة الستينيات جذبنى، وأعجبتنى الأعمال التى عبرت عنه، خاصة كتابات يونسكو وسارتر وألبير كامى. كان سبب إعجابى بهذا التيار هو انطباق الشكل على المضمون، فالشكل الروائى يدخل فى إطار اللامعقول أو العبثى وكذلك المضمون. وعندما قرأت مسرحية «نهاية اللعبة» لصمويل بيكت، كتبت فى جريدة «المساء» مقالة نقدية أشرح فيها ما يقصده، وأفسر المستغلق منها. وربما كان توفيق الحكيم هو أول من حاول تقليد هذا التيار فى الأدب العربى عندما كتب «يا طالع الشجرة»، وأنا لم أحاول الكتابة فى هذا الاتجاه، لأننى لا أحب الكتابة لمجرد التقليد. ثم جاءت هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧، فشعرت أننى فقدت اتزانى، وأن الشكل الواقعى البسيط لا يصلح للتعبير عن هذه الحالة، التى كانت فى رأى أقرب إلى العبث. وفى الفترة من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٠ وجدت نفسى مدفوعًا لتيار اللامعقول، لأننى وجدته أكثر تعبيرًا عن الحالة التى كنا نعيشها. فكتبت «تحت المظلة» (مسرحية) والتى تعتبر أقرب أعمالى إلى تيار العبث. وعندما بدأت فى استعادة التوازن العقلى والروحى، عدت مرة أخرى إلى الشكل الواقعى البسيط، وخلعت ثوب اللامعقول. والملاحظة التى لا بد من الالتفات إليها هى أن أول مجموعة قصصية ظهرت لى فى الأربعينيات بعنوان «همس الجنون»، كانت فيها نزعة أقرب إلى اللامعقول. ولكننى لا أستطيع تصنيفها تحت هذا التيار، لأن

موضوعها كان يستدعي أن تأخذ هذا الشكل، على عكس «تحت المظلة» التي اقتربت فيها من هذا التيار بإرادتي واختياري.

## أنا و«ماركيز»

الصديق جمال الغيطاني هو أول من لفت نظري إلى كتابات الروائي الكولومبي «جابريل جارثيا ماركيز»، وأكد لي أنه روائي مبدع يستحق القراءة والمتابعة، وكان ذلك قبل حصوله على جائزة نوبل بسنوات.

والحقيقة أن جائزة نوبل لم تضاف كثيرًا لماركيز، لأنه كان يتمتع قبلها بشهرة كبيرة في أوروبا، وكانت أعماله تلقى رواجًا لدى القارئ الأوروبي، خاصة أن أدب أمريكا اللاتينية خرج من عنق الزجاجة منذ سنوات طويلة، وأصبح من الآداب المحبوبة في أوروبا. وجائزة نوبل على العموم لا تمثل فائدة كبيرة بالنسبة للأديب الأوروبي المستقر صاحب القاعدة الجماهيرية العريضة. في حين أنها تمثل فائدة مضاعفة بالنسبة لأديب من أفريقيا أو العالم العربي مثلاً، لأنها تلفت الأنظار إليه، وتساهم في رواج أعماله، وتتيح ترجمة هذه الأعمال إلى اللغات الأوروبية.

نافس «ماركيز» على الجائزة أديب من المجر وآخر من أمريكا اللاتينية قيل إنه كان أحق بالجائزة من «ماركيز»، ولكن اللجنة رأت أن تعطيها لأديب له شهرة عالمية لتحسين سمعة الجائزة، وحتى تكون موضع ثناء وتقدير من دول العالم الثالث. ولجنة نوبل في هذا السلوك تذكرني بجائزة الدولة التقديرية عندنا، التي تنهال عليها اللعنات والشتائم في عام، وفي عام آخر تقابل جوائزها بترحاب شديد إذا أحسنت الاختيار. و«ماركيز» من أدباء نوبل القلائل الذين استفادت منهم الجائزة أكثر مما استفادوا هم منها.

## روايتي لم تحرض على اغتيال السادات

عندما وقعت حادثة المنصة التي قتل فيها السادات، كنت أيامها أنشر رواية سلسلة في جريدة «مايو» التي تعتبر جريدة السادات لأنها هي الناطقة بلسان حزبه الحاكم، واسم الرواية «ليالي ألف ليلة»، وفي الرواية تحريض على قتل الحاكم. فلما وقعت حادثة المنصة

توقف نشر حلقات الرواية لمدة أسبوعين لضيق المساحة، ولحرص الجريدة على متابعة أخبار حادث الاغتيال ونتائجه. ثم عادت الجريدة لنشر بقية الحلقات، ثم ظهرت الرواية فى كتاب. وبعد صدور الكتاب قرأت مقالة نقدية للدكتور يحيى الرخاوى الطبيب النفسى المعروف عن الرواية، يؤكد فيها أننى تأثرت بحادث قتل السادات، وأن العنف الموجود فى الرواية، هو نتيجة لمتابعى للحادث. ويبدو أن الدكتور الرخاوى لم يعرف أن الرواية نشرت مسلسلة فى جريدة «مايو» قبل صدورها فى كتاب، وأن النشر كان سابقاً للحادث. وحمدت الله أنه لم يتبته إلى ذلك، ولم ألفت نظره إلى الخطأ الذى وقع فيه، لأنه لو أشار إلى أن الرواية كانت سابقة للحادث، فلربما اعتبرونى من بين المحرضين على الجريمة وقدمونى للمحاكمة.

### الحرافيش

كل رواياتى التى كتبتها فى فترة السبعينيات تتميز بوجود خط نقدى صارم وتعرية واضحة لمرحلة الانفتاح. وعندما تقرأ روايات «أهل القمة» و «الحب فوق هضبة الهرم» و «الباقى من الزمن ساعة»، تلاحظ وجود انتقادات صريحة لهذه السياسة. ولكن هناك رواية واحدة يمكننا أن نستثنيها من هذا الخط، وهى رواية «الحرافيش»، فهى مليئة بالبهجة والإشراقات الروحية والفنية، وبعيدة عن جو الحزن والمشاكل، والتفسير الوحيد لذلك هو أننى كتبتها عقب انتصار أكتوبر ١٩٧٣، وكانت الأجواء فى مصر وقتذاك توحى بالتفاؤل والأمل والإشراق. فانعكس ذلك على جو الرواية التى نشرت لأول مرة مسلسلة فى مجلة «أكتوبر» عندما كان يرأس تحريرها أنيس منصور. وكنت قد أرسلت الرواية بعد كتابتها إلى على حمدى الجمال لنشرها فى «الأهرام»، ودخل أنيس منصور إلى مكتب على حمدى الجمال فلمح الرواية على مكتبه، فصمم على أن يحصل على الرواية، وينشرها فى مجلة «أكتوبر» التى كان يرأس تحريرها، وهو ما حدث، وكان ذلك فى عام ١٩٧٦.

### حكاية عبد المنعم الشرقاوى

روى لى توفيق الحكيم ذات مرة أن عبد المنعم الشرقاوى، المحامى الشهير وأستاذ القانون المعروف وشقيق الكاتب الكبير عبد الرحمن الشرقاوى، قد تم القبض عليه قبل

سنة ١٩٦٧ وكان التحقيق معه يتم في المخابرات وعلى يد صلاح نصر، مدير المخابرات في ذلك الوقت. وأثناء التحقيق مع الشرفاوي وتحت تأثير التعذيب الذي تعرض له، «ورّط» معه أحد المحامين المشهورين، فتم القبض على هذا المحامي، واعترف - تحت التعذيب - بأشياء لم يرتكبها. ودخل المحامي السجن وظل به سنوات، وبعد خروجه من السجن كتب مذكرات يروي فيها ما تعرض له من ظلم وتعذيب. وكان هذا المحامي صديقاً لتوفيق الحكيم. وقد تصالح المحامي الشهير بعد خروجه من السجن مع عبد المنعم الشرفاوي، وصفح عنه رغم أنه كان سبباً في سجنه وتعذيبه<sup>(١)</sup>.

### اعتماد خورشيد

لم أقرأ كتاب «اعتماد خورشيد» الذي تحدث فيه عن «شهادتها على انحرافات صلاح نصر»، مدير المخابرات المصرية حتى اعتقاله سنة ١٩٦٧. وقد روى لي أحد أصدقائي بالتفصيل ما ورد في هذا الكتاب من وقائع وأحداث مختلفة. ومن خلال رواية الصديق أحسست كأنني قرأت الكتاب، ولقد شعرت بالاشمئزاز من الأشياء القذرة والفضائح المثيرة التي تضمنها هذا الكتاب، ولم أشعر لحظة واحدة بالاحترام لهذا الكتاب أو لما ورد فيه.

### موسيقى «الثلاثية»

أغرب رأي سمعته عن «الثلاثية» هو الذي ذكره لي الأديب الفرنسي الذي ترجمها إلى اللغة الفرنسية. فماذا قال؟ أكد أن الرواية بأجزائها الثلاثة عبارة عن عمل موسيقى متكامل، وشبهها بالأوبرات الموسيقية الكبيرة، وقال إن كل جزء من الرواية يقابل جزءاً في الأوبرا. وشرح لي كيف أن الجزء الأول في الرواية يقابل الجزء الأول في الأوبرا وهو التمهيد، والثاني يقابل الجزء العاطفي، والجزء الثالث هو الختام. ولا أذكر تفاصيل شرحه

(١) لم يتذكر نجيب محفوظ اسم المحامي صديق توفيق الحكيم، ولكن ملابسات القصة تشير إلى المحامي المعروف محمد شوكت التوني، الذي دخل السجن في الفترة السابقة على نكسة ١٩٦٧ وكتب مذكراته عن سجنه وتعذيبه.

بالضبط، ولكن ما أذكره هو قوله إننى كنت متأثراً عند كتابة «الثلاثية» بتراث الموسيقى المصرية وكان عندى رؤية موسيقية عريضة. وقام هذا الأديب الفرنسى بإصدار كتاب موضوعه الأغانى الموجودة فى «الثلاثية»، وزارنى أربع مرات قبل إصدار الكتاب ليسألنى عن أصل كل أغنية وردت فى أجزاء الرواية. ولكنى لم أشف غليله، لأن هناك أغنيات كثيرة كنت أحفظها وأوردتها فى الرواية بدون أن أعرف أصلها. ويبدو أن ذلك كان نتيجة تأثرى بالفترة التى ترددت فيها على مسارح روض الفرج فى صباى بصحبة والدى.

## لغة بيرم

أسعدنى الحظ بالعمل مع بيرم التونسى، حيث شاركته فى كتابة الحوار لعدد من الأفلام السينمائية التى أسند إلى متجوها كتابة السيناريو لها.

كانت اللغة التى استخدمها بيرم التونسى فى حواراته جديدة علىّ تماماً، وظننتها فى البداية مقتبسة من لهجة البدو فى تونس. ثم اتضح لى أنها لغة فنية خالصة اخترعها بيرم، وليس لها شبيه فى اللهجات العربية. وما أذكره أن بيرم نظم قصيدته الشهيرة التى هاجم فيها الملك فؤاد وطعن فى شرف الملكة نازلى، وخرج بعدها متفياً طريداً. ثم عاد فى عهد الملك فاروق. وكان تصورى عنه قبل أن أقابله أنه صاحب شخصية مرحة ودودة، ثم اكتشفت أن صاحب هذه الموهبة الزجلية الفكاهية الساخرة الرهيبة، يحمل شخصية منكشمة متحفظة، ويتكلم بحذر شديد، ولا يعطيك الفرصة لأن تعرفه من الداخل.

كان الرجل يقدرنى كأديب روائى ويتابع أعمالى، وكنت فى المقابل أقدره كشاعر وأعتبره فلتة زمانه.

## الدهية

كان من بين أحلام الصبا أن أسكن فى «دهية» على النيل، وحققت هذا الحلم بعد زواجى، حيث انتقلت مع زوجتى إلى «دهية» فى شارع النيل، وكانت تحمل رقم (٣). الدهية الأولى كانت تسكنها عائلة «الشيخ» التى جاء منها المخرج كمال الشيخ. والثانية خاصة بلاعب كرة قدم كان معروفاً فى ذلك الوقت واسمه «جميل الزبير»، وهو سودانى

الجنسية وكان يلعب في مركز الجناح الأيسر في فريق النادي الأهلي. وكان والده الزبير باشا من تجار العبيد، واستدعاه الخديو إسماعيل إلى مصر وحدد إقامته، حتى يمنعه من ممارسة هذه التجارة، وأنجب ابنه الزبير في مصر. وفي الجهة المقابلة لنا كانت هناك «دهبية» خاصة بعلی باشا ماهر، وأخرى سكنتها منيرة المهدية في أواخر أيامها، بعد أن حجت بيت الله واعتزلت الغناء. أما «الدهبية» التي سكنتها مع زوجتي فكانت مكونة من طابقين، الأول يقطنه أصحابها، والثاني استأجرته منهم. وكان الطابق الثاني مكوناً من حجرة مكتب وغرفة نوم صغيرة وأخرى كبيرة ومرافق وصالة واسعة مقسمة إلى صالون استقبال وحجرة سفرة. وكنت عندما أفتح النافذة أجد نفسى في وسط نهر النيل. صحيح أن السكن في الدهبيات أو العوامات كان من الأمور المألوفة في ذلك الوقت، لكن السبب في حبي لها هو صديقى المرحوم محمد عفيفى. فقد استأجر عوامة جميلة جداً مع مجموعة من أصحابه، وكنت أذهب لزيارتهم وأستمع بالجلوس معهم وأستمع بمنظر النيل. وعندما استأجرت «الدهبية» وكان مكانها عند كوبرى الجلاء تقريباً، تمنيت أن أقيم فيها طول العمر. كنت أستمع بالحياة فيها وأستمع بمنظر النيل، ولكن وقعت حادثة اضطررنا لتركها.

كان الداخل إلى «الدهبية» لابد أن يمر فوق سقالة خشبية حتى يصل إليها، وحدث أن غرقت بنت الجيران الصغيرة، وهى تعبر السقالة. وكنتُ في ذلك الوقت قد أنجبتُ ابنتى أم كلثوم، فلما عدت إلى الدهبية في ذلك اليوم المشئوم قالت لى زوجتى: «إن لم تبحث لنا عن شقة سكنية بعيداً عن هذه الدهبية فسوف أعود إلى الإسكندرية ومعى البنت!». كان تهديدها جاداً لدرجة أننى نزلت فوراً، وأخذت أدور على الشقق حتى عثرت على الشقة التي أسكنها حالياً في شارع النيل بالعجوزة.

لم يكن البحث عن شقة في ذلك الوقت يمثل أى مشكلة مثلما هو حادث الآن. فلو ذهبت اليوم لأستأجر شقة أقل من المتوسطة، مثل شقة العباسية، لابد أن أدفع عشرات الآلاف من الجنيهات. قديماً كان الوضع مختلفاً، فعندما ذهبت لاستئجار شقتى الحالية كتبت عقداً شهرياً أدفع بموجبه ٣٠ جنيهاً شهرياً، وكان مبلغاً ضخماً آنذاك، وبعد أن وقعت العقد بأيام قليلة صدر قانون الإسكان الجديد الذى خفض الإيجار إلى ٢٠ جنيهاً. لقد اضطررت لترك «الدهبية» بعد أن عشقت الحياة فيها، وأتذكر صباحات رائعة في نافذة «الدهبية»، واستمتعت بمنظر النيل والزهور في شارع الجبلية، وفي الليل كنت أسهر مع القمر. ورغم أنى سكنت في «الدهبية» من سنة ١٩٥٤ حتى سنة ١٩٦١ فإن هذه السنوات مرت علىّ في لمح البصر.

والى جانب شقة العجوزة - ١٧٢ شارع النيل - استأجرت شقة فى الإسكندرية، ولهذه الشقة حكاية. فقد كنت معتادا على استئجار شقة فى الإسكندرية خلال شهر سبتمبر من كل عام لنمضى فترة الصيف، وكان إيجارها فى المتوسط ٢٥ جنيها شهريا. وذات يوم وأنا فى مكتبى بمؤسسة السينما وصلنى خطاب من أحد أصدقائى يخبرنى بضرورة حضورى إلى الإسكندرية لمعاينة شقة جديدة فى حى محرم بك، لكى أستأجرها إذا أعجبتنى. وخرجت من مكتبى إلى الإسكندرية مباشرة دون أن أتصل بزوجتى، وقابلت صديقى وهو من «الدمايطة الشاطرين»، وكان لديه بيت مكون من طابقين.. وقرر الاكتفاء بالطابق الأول له ولأسرته وتأجير الطابق الثانى لإحدى الأسر طول العام بدلا من شهور الصيف فقط، خاصة أن الرجل كان متدينا وعنده بنات، فخشى من تأجيرها للطلبة أو لأحد العزاب. وطلب منى ٨٠ جنيها فى السنة كلها كإيجار للشقة بما فيها نفقات المياه والكهرباء والبواب، فأعجبتنى، ووجدتها فرصة جيدة وكتبت عقد الإيجار. كانت الشقة مكونة من حجرتين صغيرتين ومطبخ وصالة ومرافق وبلكوكة، وكانت البلكوكة على البحر وتطل على حديقة وقصر قديم. ولما جاءت أسرتى لمشاهدة الشقة سخرُوا منى واعتبروها ضيقة، ولكن بعد فترة عرفوا قيمة هذه الشقة الضيقة، لأنه لولاها ما صيفنا. فإيجار الشقق ارتفع بعد ذلك بشكل جنونى. والشقة التى كنا نستأجرها بـ ٢٥ جنيها وصلت إلى ٣ آلاف جنيه حاليا. وقامت زوجتى وهى من الإسكندرية أصلا بفرشها وترتيبها وحولتها إلى شقة جميلة، اعتدنا أن نمضى فيها ثلاثة شهور من صيف كل عام.

وفى الإسكندرية كنت أنزل البحر قبل أن أصاب بالحساسية، وفى ذات مرة نزلت ابتأى البحر وخرجتا وهما تشكوان من حك فى جلدتهما. وقال الطبيب إن سبب بعض البقع فى الجلد هو التلوث فى البحر، ولم يكن تلوث البحر ظاهرة شائعة آنذاك. ومن ذلك اليوم قررت ابتأى مقاطعة البحر، كما سبق لى أن قاطعته بسبب الحساسية، وأصبحت الإسكندرية بالنسبة لابتئى مدينة مملّة. كانتا تذهبان للجلوس فى مقهى، وأذهب أنا بمفردى أو بصحبة توفيق الحكيم إلى البحر. أما زوجتى فكانت تذهب للبحر أحيانا ولكنها لا تنزل فيه أبدا. وبعد أن عرفت ابتأى بوجود رحلات سياحية جماعية لتمضية فصل الصيف فى الخارج، أصبحتا تعشقان المجموعات السياحية، وتساfran مرة إلى النساء، وأخرى إلى أسبانيا، وثالثة إلى سويسرا، أما الإسكندرية فقد تركتاها لى. وكانت مشكلة هذه المجموعات السياحية أن مدة الرحلة لا تزيد على أسبوع أو عشرة أيام، تعودان بعدها إلى

شفة العجوزة لا تغادرانها، ولم أكن أستطيع أن أتركهما بمفردهما بطبيعة الحال. وحلا لهذا الإشكال كنت أمضى أسبوعاً في الإسكندرية ومثله مع البنتين في القاهرة وأصبحت منذ ذلك الحين أمضى شهور الصيف على هذا المنوال.

## خطاب من جاكين كنيدى

تلقيت خطاباً من السيدة جاكين كنيدى جاء فيه:

«عزيزى نجيب محفوظ: يسرنى أن أبعث إليك بتعليقين ممتازين حول المجلد الثانى من الطبعة الأمريكية من روايتك (الثلاثية) المعروفة: (قصر الشوق). لا أستطيع أن أصف لك الحماس الذى قوبلت به روايتك. لقد أحسنا جميعاً كما لو كنا متعطشين إلى أبعد حد لقراءة مثل هذا العمل. مع أخلص التهنتة وأطيب التمنيات.

المخلصة جاكين كنيدى أوناسيس - ٧ نوفمبر ١٩٩٠.

\* \* \*

1 October 7, 1960  
Doubleday

Dear Mr. Mahfouz -

It gives me great pleasure to  
send you these two wonderful reviews of  
Volume II of your Cairo Trilogy - the  
American edition.

I can tell you with what enthusiasm  
your work has been greeted here. It is as if  
we were all so thirsty for it - which we were.

With regards, love and all good wishes  
Sincerely,

Jacqueline Kennedy Onassis

Little Village, New York, NY 10042 • (212) 765-6500 • Telex 237000 • Cable: DOUBLEDAY 127 • J. P. 127

DAVID L. BLOOM, JR., SECRETARY

## الفصل الرابع والعشرون

### جريمة الاعتداء على نجيب محفوظ

مقدمات ودلائل سبقت محاولة اغتيال نجيب محفوظ - الإمام الخميني يهدر دم سلمان رشدي ومحمفوظ يعترض - صحيفة «النور» الدينية تعتبر سلمان رشدي ونجيب محفوظ وجهين لعملة واحدة - عمر عبد الرحمن في مسجده بالقيوم يفتي بأن نجيب محفوظ «مرتد» - نص فتاوى تكفير محفوظ المتعددة - محفوظ يظن أن قاتله قارئ يتقدم منه لمصافحته - نص التقرير الطبي عن عملية إنقاذ محفوظ - سر الضبط السريع للإرهابيين الذين حاولوا اغتيال نجيب محفوظ - المحاولة الأولى: باقة زهور وزى خليجي - بيان للإخوان المسلمين يستنكر الاعتداء على الأديب الكبير - إميل حبيبي يقول لمحمفوظ: «أوهّمنا أعداء الثقافة بأن دما مباح - محفوظ لم ير وجه المجرم وشعر كأن وحشا نشب أظفاره في عنقه - محفوظ بأسف لوضع حواجز أمنية بينه وبين الناس - فشل خطة خطف نجيب محفوظ واحتجازه رهينة - المجرم يقول قبل إعدامه: «لم نقرأ «أولاد حارتنا» ولست نادما!!»



■ جريمة الاعتداء على نجيب محفوظ والتي وقعت يوم الجمعة ١٤ أكتوبر ١٩٩٤ لم تحدث هكذا فجأة، بل كان لها مقدمات واضحة. فمنذ حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٨٨، وهو يتعرض لحملة شديدة من جانب أنصار التيار الديني المتطرف، بحجة أنه حصل على الجائزة بسبب رواية «أولاد حارتنا»، وهي الرواية التي يعتقدون أنها كفر صريح. وقبل ست سنوات من محاولة الاغتيال، أصدر الشيخ عمر عبد الرحمن مفتى تنظيم الجهاد المتطرف فتوى صريحة بإهدار دم نجيب محفوظ عقاباً له على الرواية، وعلى موقفه من أزمة سلمان رشدي. وهذا الملف الخاص عن القضية ينقسم إلى ثلاثة أجزاء رئيسية: الأول: عن مقدمات حادث الاغتيال، والثاني: عن وقائع الحادث نفسه، والثالث: عن تطورات ما بعد الحادث حتى صدور الحكم على المتهمين في قضية محاولة الاغتيال والتي حملت رقم (٢٤) جنابات عسكرية.. ■

## مقدمات حادث الاغتيال

جريمة الاعتداء على نجيب محفوظ لم تحدث فجأة، بل سبقتها مقدمات ودلائل تشير إلى وجود نوايا للاعتداء عليه من جانب الجماعات المتطرفة، وذلك بسبب موقفه المعارض لفتوى الإمام الخميني بإهدار دم سلمان رشدي عقاباً له على روايته «آيات شيطانية» التي تعتبرها الجماعات الإسلامية كفراً واضحاً ومساساً بالإسلام ورسوله. ففي ١٨ فبراير ١٩٨٩ نشرت جريدة «أخبار اليوم» في صفحتها الأولى تحت عنوان «نجيب محفوظ: الفكر لا يحارب إلا بالفكر» ما يلي:

«أدان الكاتب الكبير نجيب محفوظ قرار الإمام الخميني بإهدار دم الكاتب الهندي سلمان رشدي بسبب تأليفه كتاب «آيات شيطانية». قال نجيب محفوظ: إن محاربة الفكر لا تكون إلا بالفكر. وقد ألفت المئات من الكتب ضد الإسلام طوال القرون الماضية، ورغم ذلك فقد انتشر الإسلام وقويت شوكته، وذلك لأنه لا يمكن لكتاب مهما كان شأنه أن يهز عقيدة أو ديناً».

وفي اليوم نفسه نشرت جريدة «الأهرام» قصة خبرية حول أزمة سلمان رشدي اختتمتها الصحيفة بالقول:

«وفي نفس الوقت أعلن الأديب المصري نجيب محفوظ أنه يجب عقاب الإمام الخوميني على قراره بقتل سلمان رشدي».

وكان نجيب محفوظ قد أدلى بتصريح لوكالة رويتر البريطانية حول نفس الموضوع وبثته الوكالة فوراً حيث قال:

«إن القتل جريمة، والتحريض عليه أيضاً جريمة. وأضاف أنه لم يقرأ الرواية التي رفضها الأزهر، ويرى أن الطريق الأفضل هو تحليل الرواية والرد المنطقي على ما تحتويه».

لم يكن نجيب محفوظ يستطيع أن يعلن هذه الآراء ويمضي في أمان، فإن محفوظ الذي ينادى بحق الحرية لأي شخص، والذي لا يرى القتل والاعتقال والتحريض عليهما من الأعمال المناسبة للتعامل مع الفكر والأدب، لم يسلم من المتطرفين والمتشددين، الذين إذا لم تكن معهم فأنت ضدهم وعدوهم كما يتصورون، وتفاعلت القضية بشكل لم يخطر على بال أحد. ففي يوم الأربعاء ٢٢ فبراير ١٩٨٩ صدرت صحيفة «النور» الإسلامية، وقد شغلت قضية سلمان رشدي المانشيت الرئيسي لها وأكثر من نصف العدد المكون من عشر صفحات من القطع الكبير للصحف. وربطت «النور» بين سلمان رشدي ونجيب محفوظ واعتبرتهما وجهين لعملة واحدة، بل اعتبرت أن سلمان رشدي من تلاميذ رواية نجيب محفوظ «أولاد حارتنا» الذين باعوا أنفسهم للشيطان على حد تعبير الصحيفة. وفي مقال على الصفحة الأخيرة بأكملها فضلاً عن بقية للمقال في الداخل كتب مصطفى عدنان<sup>(١)</sup> يقول:

«لن أغضب بعد أن نزل نجيب محفوظ منذ أيام ليناضل مع توءم «أولاد حارته»، مع مؤلف «آيات شيطانية»، فقد عذرت له لأن هذا قد يطرح قضية دمه».

وربما كان هذا التهديد الصريح لحياة نجيب محفوظ هو أول تهديد من نوعه ينشر في الصحافة المصرية كما كتب الناقد السينمائي سمير فريد في مقال له بمجلة «لوموند ديبلوماتيك» - عدد مارس ١٩٨٩ - تعليقا على مقال الصفحة الأخيرة بجريدة «النور».

---

(١) مصطفى عدنان هو اسم مستعار للكاتب الصحفي رائد العطار، وهذا ليس مجرد اجتهاد قابل للخطأ، بل هو حقيقة يمكن إثباتها بالمقارنة بين كتابات مصطفى عدنان وكتابات رائد العطار، ومن الطريف أن رائد العطار نفسه لم يكن ينفي أنه صاحب المقالات الموقعة باسم «مصطفى عدنان».

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل تلقف أئمة التطرف الإشارة، وبدأت منابر المساجد التي كانوا يسيطرون عليها تبث سمومها. فعلى مدار العام ١٩٨٩ ردد الشيخ الدكتور عمر عبد الرحمن في أكثر من خطبة له بمسجده في الفيوم فتواه بأن نجيب محفوظ مرتد عن الإسلام. وكان الشيخ عمر قد أدلى بحديث لجريدة «الأنباء» الكويتية في أبريل ١٩٨٩ جاء فيه:

«إنه من ناحية الحكم الإسلامي فسلمان رشدي ومثله نجيب محفوظ مرتدان، وكل من يتكلم عن الإسلام بسوء فهو مرتد، والحكم الشرعي أن يستتاب، فإن لم يتب قتل. لو نُفذ هذا الحكم في نجيب محفوظ عندما كتب «أولاد حارتنا» لتأدب سلمان رشدي».

وهكذا كانت الفتاوى جاهزة لإراقة دم الكاتب الكبير، ولا يبقى بعد ذلك أمام المتطرفين غير التنفيذ!

## يوميات محاولة الاغتيال

الجمعة ١٤ أكتوبر ١٩٩٤.

الساعة الخامسة مساءً أمام منزل نجيب محفوظ (١٧٢ شارع النيل - المعجزة).

كان الكاتب الكبير يستعد للذهاب كعادته كل يوم جمعة إلى ندوته الأسبوعية التي يلتقي فيها أصدقاءه وتلاميذه ومريديه في كازينو «قصر النيل». أمام المنزل كان صديقه الدكتور البيطري «فتحى هاشم» يقف في انتظاره لينقله إلى الكازينو، بسيارته «الفيات - ريجاتا» الحمراء والتي تحمل رقم ٣٢٨٧٩٦ ملاكى القاهرة. وبمجرد أن جلس نجيب محفوظ في المقعد الأمامى للسيارة، واستدار الطبيب فتحى هاشم ناحية الباب الأخر للسيارة وهم بفتحه، اقترب أحد الأشخاص من نجيب محفوظ. فى البداية ظن الكاتب الكبير أنه واحد من القراء يتوجه لمصافحته كما اعتاد منذ سنوات طويلة خاصة فى فترة ما بعد حصوله على جائزة نوبل. ولكن الشخص الغريب باغته واستل «مطواة» وطعنه بها فى رقبته محدثاً جرحاً غائراً ولاذ بالفرار.

وحدث ارتباك شديد فى المكان مما أدى إلى تضارب فى سرد واقعة هروب المجرم حيث قال البعض إنه هرب فى سيارة مرسيدس صفراء كانت بانتظاره، وهو ما ثبت عدم صحته فيما بعد. فقد استغل المجرم حالة الفوضى والارتباك التى أحدثها وفر على قدميه

ليلتقى بباقي المجموعة الإرهابية فى مكان قريب من بيت نجيب محفوظ. ولم يتمكن الطبيب فتحى هاشم من ملاحقة المجرم لأنه انشغل فى إسعاف نجيب محفوظ، وكان تصرفه سليما. فقد أسرع بتوصيل الكاتب الكبير إلى مستشفى الشرطة بالعجوزة والذى يقع على بعد أقل من دقيقة واحدة من مكان الحادث، وأدخل محفوظ على الفور إلى غرفة العمليات وهو يتنرف، وتم استدعاء عدد كبير من أهم الأطباء المصريين لمتابعة حالة نجيب محفوظ. واستدعى الأطباء أحد أصدقاء نجيب محفوظ وهو يحمل نفس فصيلة دمه (B) وذلك لتعويض النزيف الحاد، بعد أن ثبت إصابته الشديدة فى شرايين الرقبة من الناحية اليمنى. وقد وصف الأستاذ الدكتور سامح همام أستاذ جراحة الأوعية الدموية بطب القاهرة الذى أجرى عملية لإيقاف النزيف، فى حديث صحفى منشور بمجلة «المصور» الأسبوعية القاهرية حالة نجيب محفوظ بقوله:

«أحدثت الطعنة تهتكاً فى عضلات الرقبة من الجهة اليمنى وتهتكاً بالوريد الودجى الخارجى والداخلى الأيمن. هذا التهتك رغم خطورته لم يكن هو الذى يهدد كاتبنا الكبير بصفة أساسية بل التهديد الأخطر كان من النزيف الشريانى المندفع من عمق الجرح، والذى ثبت أنه قادم من الشريان الفقرى الأيمن المخترق للتواءات المستعرضة للفقرات العنقية. هذا الشريان بالذات له وضعه التشريحي الخاص، فهو يمثل مشكلة كبيرة لصعوبة الوصول إليه والتحكم فيه، إذ إنه عميق جداً داخل العنق، ومحاط بتواءات عظمية، وإصابته من الحالات النادرة التى تقابل أى طبيب جراح. وقد قررنا استئصال أجزاء من التواءات العظمية من الفقرات العنقية الثالثة والرابعة والخامسة الموجودة أمام الشريان. وبهذا تمكنا من تعرية الجزء المصاب من الشريان بطول يصل إلى ٨ سم، وتمت عملية علاجه، واستغرقت العملية ساعتين، ثم خلالهما نقل ٨ لترات دم إلى جسم نجيب محفوظ لتعويضه عما فقده أثناء النزف».

تكون الفريق الجراحى المساعد للدكتور سامح همام من كل من الدكتور أحمد البشرى الأستاذ المساعد بقسم الجراحة فى طب القاهرة، والدكتور محمد حسنى مدرس الجراحة بالكلية نفسها، بالإضافة إلى طبيب من مستشفى الشرطة.

وأصدرت وزارة الداخلية بيانا حول الحادث أكدت فيه على لسان مصدر أمنى مسئول أن الاعتداء وقع حوالى الخامسة والربع مساءً، وقام أحد الأشخاص بالتعدى عليه بآلة حادة أحدثت به إصابة بالرقبة، ونقل إلى مستشفى الشرطة بالعجوزة. وقال المسئول الأمنى إن

الأطباء المعالجين للأديب الكبير أكدوا أن حالته الصحية مطمئنة، وأن أجهزة الأمن تقوم بمواصلة جهودها لضبط الجناة.

وانتقل إلى المستشفى فور إعلان الخبر وزير الصحة الدكتور على عبد الفتاح وكان في غرفة العمليات عند الإعلان عن الحادث، ووزير الثقافة فاروق حسنى، ووزير الداخلية اللواء حسن الألفى. وحضر للمستشفى عدد كبير من الأدباء والفنانين منهم: ثروت أباظة ويوسف القعيد وجمال الغيطانى ومجيد طوبيا والمخرج توفيق صالح والفنان أحمد مظهر، بالإضافة إلى زوجة نجيب محفوظ وابتته. وأوفد الرئيس حسنى مبارك، حاتم سليمان أمين رئاسة الجمهورية إلى المستشفى بعد إذاعة الخبر للاطمئنان على صحة نجيب محفوظ وإبلاغه تمنيات الرئيس له بالشفاء العاجل.

وقامت نيابة العجوزة بمعاينة موقع الحادث مساء نفس اليوم، وتبين من المعاينة وجود آثار دماء متساقطة على باب السيارة الأيمن، وعلى المقعد الذى كان الأديب الكبير يجلس عليه، وطالبت النيابة بسرعة ضبط وإحضار الجناة.

أكد الأطباء الذين أجروا العملية الجراحية العاجلة لنجيب محفوظ أن حالته الصحية تحتاج إلى مراقبة دقيقة لمدة ٧٢ ساعة حتى تستقر تماما. وكان أول ما طلبه نجيب محفوظ بعد أن أفاق من البنج نظارته الطبية وسماعة الأذن.

قبل الحادث بحوالى ثلاث ساعات، أى فى حوالى الثانية من ظهر يوم الجمعة ١٤ أكتوبر ١٩٩٤، اتصلت الإذاعة السويدية بالأديب الكبير نجيب محفوظ، وسألته عن الأديب اليابانى «كونزوا» الذى حصل على جائزة نوبل فى الأدب لعام ١٩٩٤ فى ليلة الحادث، فأجابها نجيب محفوظ بأنه لا يعرف هذا الأديب ولم يقرأ له.

السبت ١٥ أكتوبر ١٩٩٤.

نجحت مباحث أمن الدولة فى القبض على اثنين من الإرهابيين المشتبه فى ارتكابهم لجريمة الاعتداء على نجيب محفوظ، بينما لقي اثنان آخران مصرعهما فى اشتباك مع الشرطة داخل وكر للإرهابيين بمنطقة عين شمس شرق القاهرة، وتبين أن الجناة يتشبهون للجنح العسكرى فى تنظيم «الجماعة الإسلامية» المحظورة بمصر. وأصدرت وزارة الداخلية البيان التالى:

«خلال فترة زمنية وجيزة لم تتجاوز ٢٤ ساعة تمكنت أجهزة مباحث أمن الدولة من

خلال قاعدة معلوماتها عن العناصر الإرهابية وخرائط بؤرها وجهود البحث المكثفة والتحريات الموسعة، من ضبط العناصر التي ارتكبت الحوادث الإجرامية الأثيم بالاعتداء الوحش على الكاتب الكبير نجيب محفوظ. وجاء اختيار الجناة لتوقيت ارتكاب الحوادث في نفس يوم حصول الكاتب الكبير على جائزة نوبل منذ ٦ سنوات، والتي طوقت أعناق المصريين بالفخر والتقدير، ليؤكد مدى الحقد الأسود الذي سيطر على نفوس العناصر الإرهابية المتطرفة تجاه مصر ورموزها ومواطنيها، وأهدافهم الدينية في تقويض كل الإنجازات الوطنية في مختلف المجالات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية، وتجردهم من كل معاني الإنسانية والوطنية. وارتكزت خطة مباحث أمن الدولة للبحث عن أعضاء التحرك الإرهابي الذي اضطلعت عناصره بتنفيذ الجريمة البشعة ضد الكاتب نجيب محفوظ بطعنة بمدينة برقبته أثناء تواجده بالسيارة رقم ٣٢٨٧٩٦ ملاكى القاهرة أمام منزله بالعقار رقم ١٧٢ شارع النيل بالعجوزة مساء يوم ١٤ الجارى، على سرعة التحرك وتمشيط منطقة الحادث، وإحكام السيطرة على منافذها، والوقوف على خطوط ومسارات الهروب المحتملة للجناة، ومناقشة الشهود الذين أدلوا بأوصافهم وأسلوب تحركهم على مسرح الجريمة، واستخدام الأساليب العلمية الحديثة فى تحديدهم ورصد حركتهم واتصالاتهم من خلال شبكة مراقبات واسعة، والسيطرة عليها باستخدام مجموعة من الأكمنة السرية المدعومة لاسلكيا. وتتابعت النتائج الإيجابية للخطة محققة لأهدافها بتوفيق من الله تعالى، حيث نجحت مجموعات العمل المكلفة بمهام البحث فى تحديد المجموعة القيادية للتحرك الإرهابي وأوكارهم الرئيسية ومواقع اتصالاتهم وأماكن اختفائهم. وتبين قيام الإرهابي «باسم محمد خليل شاهين» بمسؤولية هذا التحرك عقب دفعه للبلاد بتكليف من القيادات الهاربة لتنظيم الجماعة الإسلامية بالخارج لتخطيط وتنفيذ العديد من عمليات العنف والإرهاب التي تستهدف بعض الشخصيات، فضلا عن القيام ببعض عمليات التفجير. ودلت التحريات على أن المتطرف «باسم» محكوم عليه بالسجن ٣ سنوات فى القضية رقم ٢٣٠ / ٩٢ حصر أمن دولة عليا (اغتيال د. فرج فودة). كما أكدت المعلومات قيام قيادات التنظيم بالخارج بربط الإرهابي «باسم» بإحدى المجموعات العنقودية بالداخل، التي تحدت قيادتها التنظيمية فى كل من:

\* محمد خضير أبو الفرج المحلاوي: متهم هارب فى العديد من قضايا العنف وقضايا تفجيرات البنوك.

\* عبد الحميد محمد أبو زيد.

\* المكنى محمد (ويحمل بطاقة مزورة باسم: محمد ناجى محمد مصطفى).

\* أحمد حسنى حسن طلبة.

\* محمد عبد القاهر السيد.

\* حسين على بكر الشرنوبى.

وجميعهم من العناصر المعروفة بانتهاج أعمال العنف والإرهاب.

وبعرض المعلومات التى تم الوقوف عليها تفصيلا على المستشار المحامى العام لنيابة أمن الدولة العليا، أصدر إذنا بضبط جميع العناصر المرتبطة بهذا التحرك، وتفتيش أوكارهم، ومواقع اختفائهم، وبادرت مجموعات مكافحة الإرهاب بمباحث أمن الدولة بتنفيذ الأذون الصادرة، وأسفرت عن الآتى:

\* المبادرة بضبط كل من المتهمين عبد الحميد محمد أبو زيد، ومحمد خضير أبو الفرج المحلاوى بمنطقة المطرية.

\* مداهمة المقهى الكائن بتقاطع شارع عين شمس مع شارع إبراهيم عبد الرازق، والذي اتخذهُ المتهمون «باسم محمد خليل شاهين»، و«عمرو محمد محمد إبراهيم» و«حسين على بكر الشرنوبى» و«المكنى محمد» وكرا لهم. وقد بادروا بإطلاق النيران تجاه قوة الضبط فور وصولها، واضطرت للتعامل معهم بالقدر الملائم للسيطرة على الموقف، مما نتج عنه إصابة الأول ووفاته متأثرا بجراحه، وإصابة الرابع، وأحد المواطنين الذين تواجدوا بالمقهى.

\* ثم ضبط كل من المتهمين «أحمد حسنى حسن طلبة» و«محمد عبد القاهر» بأوكار اختفائهما بمحافظتى القاهرة والجيزة.

أدلى المتهمون باعترافات تفصيلية حول مسئوليتهم عن تنفيذ الحادث الإجرامى ضد الكاتب الكبير نجيب محفوظ وذلك على النحو التالى:

- قيام أعضاء المجموعة القيادية برصد منزل الكاتب العالمى عدة مرات للوقوف على مواعيد مغادرته ووصوله لمنزله ووجود حراسة مرافقة له من عدمه.

- الاتفاق على تنفيذ جريمتهم الإرهابية باستخدام السلاح الأبيض بعد الإحياء للمارة بأنهم من المعجبين بالكاتب الكبير مستغلين كبر سنه وضعف حركته.

- قيام الإرهابي «باسم محمد خليل شاهين» وبصحبه الإرهابي المكنى محمد في اليوم السابق على الحادث بارتداء زى أبناء الدول الخليجية، وحملهما لباقة من الزهور، وتوجهها لمنزل نجيب محفوظ، لتنفيذ جريمة الاعتداء عليه هناك، إلا أن أهدافهما لم تتحقق نتيجة لعدم تواجده بالمنزل.

- فى يوم الحادث توجه كل من المكنى محمد والذى يحمل بطاقة مزورة باسم «محمد ناجى محمد»، والمتهم «عمرو محمد محمد إبراهيم» إلى مكان إقامة الكاتب الكبير حاملين أسلحة بيضاء، وحال مشاهدتهما له داخل سيارة أحد أصدقائه، عاجله الأول بطعنة فى رقبته، باستخدام مطواة، ثم فرا هارين للالتقاء بباقي المجموعة أعلى كوبرى ٦ أكتوبر.

- تبين أن ما أثير حول هروب المتهمين بسيارة ماركه مرسيدس لم يكن دقيقا، حيث تبين من التحقيقات عدم صحة ذلك.

فى هذا اليوم عبرت الدولة والرأى العام السياسى والثقافى عن كامل اهتمامهم بنجيب محفوظ وضرورة إحاطته بكل عناية.

فقد أصدر الرئيس حسنى مبارك قرارا بعلاج الكاتب الكبير على نفقة الدولة سواء فى الداخل أو الخارج. أما رئيس الوزراء الدكتور عاطف صدقى فقد زار نجيب محفوظ فى المستشفى وبصحبه وزير المالية الدكتور محمد الرزاز ووزير الداخلية اللواء حسن الألفى. وقد بادر محفوظ رئيس الوزراء عند دخوله حجرته بقوله: «خطوة عزيزة»... ولما تقدم منه الدكتور الرزاز مصافحا داعبه بقوله: «والله أنا مسدد الضرائب»!.. وكان ثروت أباطة قد زاره فى صباح هذا اليوم، ووقف بجانبه باكيا، فنظر إليه نجيب محفوظ قائلا: «أنت جاي تعيط هنا.. هو أنت الذى انضربت؟!».

وفى هذا اليوم أعلن أطباء مستشفى الشرطة بالعجوزة أن الكاتب الكبير يجتاز مرحلة الخطر ويسترد وعيه كاملا. كما بعث السكرتير العام للأمم المتحدة الدكتور بطرس غالى برقية إلى نجيب محفوظ قال فيها: «دعواتنا إلى الله مع الملايين من أبناء مصر والعالم أن يحفظكم وأن يديمكم رمزا وفخرا لمصر». وأصدر اتحاد الكتاب المصرى بيانا يدين فيه الحادث، كما أصدر الاتحاد العام للكتاب العرب بيانا قال فيه: «إن هذا الاعتداء ليس موجها ضد نجيب محفوظ وحده، ولكن ضد كل كتاب وفنانى ومفكرى مصر والعالم

العربي». ووصلت إلى الرئيس مبارك برقية عاجلة من الرئيس التونسي زين العابدين بن علي، وبرقية مماثلة لنجيب محفوظ بإدانة الحادث.

الأحد ١٦ أكتوبر ١٩٩٤.

أكدت التقارير الطبية تحسن صحة نجيب محفوظ وتوقعت خروجه من المستشفى بعد أسبوع. ووصل إلى الكاتب الكبير نبأ القبض على الجناة، فكان أول تعليق له هو: «أحمد الله على استقرار أمن مصر، ولكل ظالم نهاية، وأدعو الإرهابيين لإلقاء السلاح، وأن يكون الحوار بالكلمة وليس بالسلاح». في الوقت نفسه أصدرت جماعة الإخوان المسلمين المحظورة في مصر البيان التالي:

«إن الإخوان المسلمين وقد هالهم ما وقع من اعتداء على الأديب الأستاذ نجيب محفوظ يؤكدون إدانتهم واستنكارهم لأي عدوان من أي مصدر أو جهة على الدماء والأرواح الآمنة، أو على أمن واستقرار مصر وأبنائها. وهم إذ يسألون الله عز وجل أن يحفظ مصر وشعبها وأن يلهم جميع المواطنين - حكاما ومحكومين - الرشيد والرشاد، وصون ورعاية الحقوق والأمانات والحرمانات، يؤكدون على أسلوب الحوار بالمنطق والحجة، وصولا إلى الحق، من خلال الإقناع، تجنباً لسبل الانزلاق إلى الفتن والمخاطر التي تهدم وتخرّب، وتقطع الطريق أمام الإصلاح الصحيح، ومن ثم تحول دون صحوة الأمة وغايتها في بناء مجتمع الحب والأخوة والعدل والأمن والحرية».

وتوالت بيانات الإدانة والاستنكار من مجلس الشعب ونقابة الصحفيين والمنظمة المصرية لحقوق الإنسان. وعلى مستوى التحقيقات، فقد أصدر المستشار رجاء العربي النائب العام قراراً بإحالة ملف التحقيقات في القضية إلى نيابة أمن الدولة العليا. وبدأت النيابة تحقيقاتها بإشراف المستشار هشام سرايا المحامي العام، وقررت حبس المتهمين ١٥ يوماً على ذمة التحقيقات، بعد أن وجهت إليهم عدة اتهامات من بينها: الاشتراك في اتفاق جنائي الغرض منه ارتكاب أعمال إرهابية، والشروع العمد مع سبق الإصرار والترصد في قتل الكاتب الكبير نجيب محفوظ، وإحراز أسلحة نارية وبيضاء بدون ترخيص، وحيازة منشورات مناهضة تم ضبطها في أوكارهم.

ووصل في هذا اليوم إلى الكاتب الكبير نجيب محفوظ عدد كبير من برقيات التهنة بنجاته واستنكار الحادث، ومنها برقية الكاتب الفلسطيني إميل حبيبي التي جاء فيها:

«أنا لا أستبعد أن يكون المعتدى كاتباً أديباً أو شاعراً أو ناقداً زميلاً، حتى ولو لم يكن زميلاً، فبأيدينا أهدرنا دماء بعضنا البعض، حتى أوهمنا أعداء الثقافة بأن دمننا مباح. فلعل بلوغ السكين عنق نجيب محفوظ يوقظنا على المصيبة قبل أن تبلغ الزبي، يقينا أن المعتدى واحد من الخفافيش، ولكن من أوهم الخفافيش بأن الشمس لم تشرق بعد على مجتمعنا، ومن علمها طعن الحناجر (بالحاء لا بالخاء). وإذا هنيء بالسلامة شيخنا وفارس حرية التعبير في ديارنا نجيب محفوظ، فإني أدعو المهنيين لأن يضيفوا إلى دعائهم قليلاً من الابتعاد عن تكفير الرأي الآخر. وقد يجد نجيب محفوظ عزاء في حالنا التي كثيراً ما قادتنا إلى ترديد شعر المتنبي:

كفا بك داء أن ترى الموت شافياً

وحسب المنيا أن يكن أمانياً..»

وتعدد زوار نجيب محفوظ، فقد زاره هذا اليوم كل من رئيس مجلس الشعب الدكتور فتحى سرور ونائب رئيس الوزراء وزير الزراعة الدكتور يوسف والى وأمين التنظيم بالحزب الوطنى كمال الشاذلى ووزير الشئون البرلمانية الدكتور محمد زكى أبو عامر ووزير التعليم الدكتور حسين كامل بهاء الدين ومحافظ الجيزة الدكتور عبد الرحيم شحاتة والكاتب الإسلامى الدكتور مصطفى محمود ووزير الإعلام الأسبق محمد فائق وسفير تونس بالقاهرة. وقد بدأ نجيب محفوظ العلاج الطبيعى تحت إشراف العميد طبيبى يسرى الحفناوى، بالإضافة إلى طاقم طبى مكون من الدكاترة سامح همام وأحمد البشرى ومصطفى الشربيني وعبد الحارث أحمد وأسامة النحاس وعلى صادق.

الاثنين ١٧ أكتوبر ١٩٩٤.

نشرت صحيفة «الأهرام» الصادرة فى هذا اليوم أول حديث للصحافة يدلى به الكاتب الكبير نجيب محفوظ بعد الحادث. وقد أجراه معه قبل النشر بيوم واحد الكاتب الصحفى محمد سلماوى. ومما قاله فى الحديث:

«إننى لم أر الشاب الذى اعتدى على.. لم أر وجهه.. الذى حدث هو أننى وأنا أهم بركوب السيارة لأذهب لموعدى مع أصدقائى فى الندوة الأسبوعية، وجدت شخصاً يقفز بعيداً، وكنت قد شعرت قبلها بثوان معدودة، وكأن وحشاً قد نشب أظافره فى عنقى.. وقد دهشت ولم أدرك بالضبط ما حدث..».

«إن الشاب الذي رأيته يجري كان شاباً يافعا في ريعان العمر.. كان من الممكن أن يكون بطلا رياضيا أو عالما أو واعظا دينيا.. فلماذا اختار هذا السبيل؟. لست أفهم!..».

«سيعز على كثيرا أن أرغم على الابتعاد عن الناس، وأن تكون بيني وبينهم حواجز أمنية. إن حياتي كانت دائما وسط الناس. ولم أر منهم إلا كل الحب.. لماذا تريدونني أن أحرم من دفء المشاعر الإنسانية التي طالما أحاطني بها الناس؟!..».

في صباح هذا اليوم زارت حرم رئيس الجمهورية السيدة سوزان مبارك نجيب محفوظ واطمأنت على حالته الصحية، وأعرب الكاتب الكبير عن تقديره وامتنانه لزيارة السيدة قرينة الرئيس، وقال لها: «زيارتك هذه بالدنيا كلها». وزارته كذلك قرينة الدكتور عاطف صدقي، ووزير السكان الدكتور ماهر مهران، ورئيس حزب الأمة أحمد الصباحي، ورئيس قطاع الإنتاج بالتليفزيون المصري ممدوح الليثي، وسفير السويد بالقاهرة، ومدير الإدارة العامة للشئون المعنوية بالقوات المسلحة اللواء سمير فرج نائبا عن المشير حسين طنطاوي وزير الدفاع.

أحدث تقرير طبي أكد استقرار الحالة الصحية لنجيب محفوظ تماما بعد أن أمكن السيطرة على اضطراب ضربات القلب والارتفاع الطفيف في الضغط ونسبة السكر، وقرر الأطباء منع الزيارة عنه بشكل مؤقت حرصا على عدم تعرض الكاتب الكبير للإجهاد.

وصدرت في هذا اليوم إدانة قوية للحادثة من البابا شنودة بطريرك الكرازة المرقسية بمصر، ووصفه في تصريح له عقب عودته من زيارة للولايات المتحدة بأنه اعتداء على رمز من رموز مصر، وقال إن الذين ارتكبوا هذا العمل الإجرامي لم يقرأوا أى عمل من أعماله الأدبية.

الثلاثاء ١٨ أكتوبر ١٩٩٤

تعرف الشاهد الرئيسي في القضية الدكتور البيطري فتحى هاشم على صورة المتهم الأول محمد ناجى مصطفى الذى نفذ الجريمة خلال عرض مجموعة من الصور عليه. وعثرت مباحث أمن الدولة على الملابس التى كان يرتديها المتهم محمد ناجى - ويعمل نقاشا - وقت ارتكاب الجريمة والتى أخفاها داخل أحد الأوكار بمنطقة «الخصوص» بحى الخانكة، وهى عبارة عن قميص مقلّم وينطلون. وكشفت التحقيقات الموسعة مع خلايا التنظيم الإرهابي المتهم فى الحادث عن أنهم خططوا لتفجير معرض القاهرة الدولي للكتاب المقرر عقده فى يناير ١٩٩٥. وكشفت التحقيقات أيضا عن مفاجأة مثيرة حيث

اعترف المتهمون بأنهم خططوا لاختطاف الكاتب الكبير داخل سيارة أجرة واحتجازه كرهينة داخل وكرهم بالخانكة مقابل الإفراج عن عدد من قياداتهم المحتجزين بالسجون، إلا أن تأخر المتهمين فى إحضار السيارة حال دون تنفيذ عملية الاختطاف، وأدى لتعجل المتهم محمد ناجى بطعن نجيب محفوظ.

ضم فريق التحقيقات مع المتهمين رؤساء النيابة: ياسر رفاعى وعلى الهراوى وعادل فياض وعبد المنعم الحلوانى، ووكلاء النيابة: محمد حلمى قنديل وعمر فاروق وهشام عبد المعطى وأشرف العشماوى.

الأربعاء ١٩ أكتوبر ١٩٩٤.

وجه الكاتب الكبير نجيب محفوظ من غرفة العناية المركزة بمستشفى الشرطة بالعجوزة رسالة إلى مؤتمر المثقفين الذى عقد فى اليوم التالى (الخميس) بمسرح البالون القريب من المستشفى ومن منزل الكاتب الكبير، قال فيها:

«فليجتمع المثقفون جميعا حول مبدأ واحد هو الحرية، لأن الثقافة لا تكون إلا بالحرية، فلتترك جميع خلافاتنا جانبا، ونفق على رفع راية الحرية عالية فى وجه جميع أشكال العنف والإرهاب».

وفى اليوم نفسه اتهم الأديب جمال الغيطانى فى حديث له مع جريدة «الوفد» المعارضة، الإخوان المسلمين بتنفيذ حادث الاغتيال قائلا:

«ليس فى هذا شك، فهم أصحاب المصلحة فى تصفيته جسديا، وأعتقد أن جماعات الإرهاب هى مجرد أذرع للإخوان واليد الطولى لهم. جماعة الإخوان هى الخطر الحقيقى الذى يهددنا..».

الخميس ٢٠ أكتوبر ١٩٩٤.

أدلى نجيب محفوظ بأقواله اليوم أمام النيابة، وفيها اتهم جماعة الدكتور عمر عبد الرحمن مفتى الجماعة الإسلامية بتدبير وارتكاب الحادث. وقال أمام رئيس نيابة أمن الدولة العليا عادل فياض إن عمر عبد الرحمن أصدر فتوى بإهدار دمه عام ١٩٨٨ عقب حصوله على جائزة نوبل للآداب، وأن أحد الصحفيين الكويتيين أبلغه بهذه الفتوى. ومن بين أقوال نجيب محفوظ فى جلسة استغرقت ٣ ساعات مع رئيس النيابة:

«إن مرتكبي الحادث وغيرهم من أنصار هذه الجماعة لم يقرأوا رواية «أولاد حارتنا». فالرواية لا تتعارض مع الأديان أو تطعن في الذات الإلهية، فهي تعرض تصورا للخير والشر، لكن هؤلاء فسروا الرواية حسب هواهم».

السبت ٢٢ أكتوبر ١٩٩٤.

رفض الكاتب الكبير نجيب محفوظ فكرة السفر إلى ألمانيا لإجراء عملية جراحية لإزالة المياه البيضاء من عينيه. وقال إنه يفضل أن يجريها في مصر على يد الأطباء المصريين الذين يتميزون بقدرات مهنية عالية. وفي هذا اليوم زاره وزير الإعلام صفوت الشريف.

الأربعاء ٢٦ أكتوبر ١٩٩٤.

أعادت جريدة «الأهالي» المعارضة - لسان حال حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي - نشر رواية «أولاد حارتنا» مع مقدمة قصيرة بعنوان: «لماذا هذه الرواية الآن؟». وقالت «الأهالي»:

«لأن مبدعها الأصيل يرقد حاليا في مستشفى الشرطة، مصابا بمطوأة في رقبته، طعنه بها شقي من الأشقياء، الذين قال لهم فقهاء الحاكمة: إن «أولاد حارتنا» رواية ملحدة، وصاحبها ملحد، لا بد من استتابته وقتله...».

وكتب الدكتور جابر عصفور مقدمة نشرتها جريدة «الأهالي» مع نص الرواية.

وفي هذا اليوم كشف المتهم الأول في الجريمة تفاصيل مثيرة في حديث نشرته جريدة «الأهرام». فقد روى المتهم الفتاوى الصادرة من قادة الجماعة الإسلامية بمصر بإهدار دم نجيب محفوظ بحجة تعرضه للدين الإسلامي في رواية «أولاد حارتنا». وقال:

«لم نقرأ الرواية ولكن تكليفا صدر إلينا بقتل مؤلفها بعد قيام الجماعة باغتيال فرج فودة. وأضاف أنه ليس نادما على ما فعل، ولو قدر له الخروج من السجن فسيعيد ارتكاب المحاولة».

الخميس ٢٧ أكتوبر ١٩٩٤.

رد الكاتب الكبير نجيب محفوظ على أقوال المتهم الأول محمد ناجي في حديثه «للأهرام». وقال نجيب محفوظ:

«لا يجوز الحكم بالكفر غيايبا على الناس دون مناقشتهم. كما لا يجوز إصدار الأحكام من أشخاص غير مؤهلين للفتوى، ولا يفهمون دينهم الفهم الصحيح».

«مازلت أكرر أن «أولاد حارتنا» مجرد عمل أدبي يجب النظر إليه بهذا المفهوم، وأنها رواية تنتهى بتأكيد أهمية الإيمان بوجود الذات الإلهية».

الثلاثاء ١ نوفمبر ١٩٩٤.

صدر قرار بإحالة المتهمين فى حادث الاعتداء على نجيب محفوظ إلى القضاء العسكرى...

الثلاثاء ٢٩ نوفمبر ١٩٩٤.

لقاء تاريخى بين نجيب محفوظ والشيخ محمد الغزالى بمستشفى الشرطة بالعجوزة حيث ما زال نجيب محفوظ يقيم منذ وقعت محاولة الاغتيال. تم اللقاء فى غرفته رقم ٩٢٠ بالدور التاسع وحضره الكتاب: أحمد بهجت ويوسف القعيد ومحمد عبد القدوس وجمال الغيطانى ويحيى مختار (قاص مصرى معروف بكتاباتة عن أهل النوبة) وذلك بالإضافة إلى زوجة نجيب محفوظ وابنتيه ونجل الشيخ الغزالى. ومما قاله الشيخ الغزالى فى هذا اللقاء:

«لقد أدنت محاولة الاغتيال فى اليوم التالى لوقوعها، أنا ضدها على طول الخط، والمحاولة لا يقرها شرع ولا دين، والإسلام دين السماحة والعقل والتفكير».

«الذى يفتى فى الناس لابد أن يكون من العلماء الذين يعلمون أصول الدين، والشيخ كشك<sup>(١)</sup> رجل جاهل، وقد كتبت عنه، ووقف ضدى».

«أما عمر عبد الرحمن فهو إنسان مريض».

---

(١) هو المرحوم الشيخ عبد الحميد كشك، وكان خطيبا لمسجد كوبرى القبة، وقد تعود فى خطبه التى كان يلقيها يوم الجمعة من كل أسبوع، أن يهاجم نجيب محفوظ بعنف ويتهمة بالارتداد عن الإسلام، وقد أصدر الشيخ كتابا بعنوان: «كلمتنا فى أولاد حارتنا» يردد فيه اتهامه لـنجيب محفوظ بالارتداد عن الإسلام. وقد منعت الدولة الشيخ عبد الحميد كشك من الخطابة فى المسجد فى سنواته الأخيرة لما دأب عليه من التحريض على القتل والإرهاب.

الثلاثاء ٦ ديسمبر ١٩٩٤ .

عقدت المحكمة العسكرية العليا أولى جلساتها لنظر القضية التي حملت رقم (٢٤) جنايات عسكرية إدارة المدعى العام الاشتراكي لسنة ١٩٩٤ .

الأربعاء ١١ يناير ١٩٩٥ .

أصدرت المحكمة العسكرية العليا أحكامها في قضية محاولة اغتيال نجيب محفوظ . وقضت بإعدام كل من المتهم الأول محمد ناجي محمد مصطفى والمتهم الثالث محمد خضير أبو الفرج المحلاوى . وبالسجن المؤبد لكل من المتهم الثانى عمرو محمد محمد إبراهيم، والمتهم الرابع حسين على بكر . وبالأشغال الشاقة لمدة ١٥ عاما للمتهم الخامس محمد عبد القاهر السيد . وبالأشغال الشاقة لمدة ٧ سنوات لكل من المتهم العاشر ياسر أبو عطية والثانى عشر عبد الحميد محمد أبو زيد . وبالسجن ٥ سنوات على المتهم السادس على جمعة على، وبالسجن ٣ سنوات على كل من المتهم الثامن مصطفى عبد الباقي، والتاسع أحمد حسن أحمد، والثالث عشر محمد معوض عبد الرحمن، والخامس عشر فيصل شحاته محمد . كما قضت المحكمة ببراءة كل من المتهم السابع عبد الناصر جمعة على، والرابع عشر على حسن سباق، والسادس عشر صلاح محمد محروس .

وكان قرار الاتهام قد شمل ١٦ متهما، وحملت القضية رقم ٩١٧ لسنة ١٩٩٤ حصر أمن دولة عليا، وأصبحت تحمل رقم (٢٤) جنايات عسكرية لعام ١٩٩٤ . وضم قرار الإحالة ٢٥ شاهدا للإثبات أبرزهم الدكتور فتحي هاشم، والطفل يوسف شوقى (١٢ سنة) الذى شهد هروب الجناة . واستمعت المحكمة إلى مرافعات ١٦ محاميا من بين ٢٥ محاميا أثبتوا حضورهم كموكلين عن المتهمين الستة عشر . وأكدت المحكمة فى أسباب حكمها أن أعضاء التنظيم أرادوا جرح أمن وسلامة بلدهم بأيديهم، وأنهم هدفوا لاغتيال الرموز الفكرية، حيث لم يكن حادث نجيب محفوظ إلا بداية لسلسلة من الجرائم .

\* \* \*





## صفحات من مذكرات نجيب محفوظ

برغم أن الكاتب الكبير نجيب محفوظ رفض بإصرار أن يكتب سيرته الذاتية، فقد نجح الناقد الكبير رجاء النقاش في إقناعه بأن يحكيها له بدلًا من كتابتها. وعلى مر ١٨ شهرًا من أغسطس ١٩٩١ روى محفوظ سيرة حياته للنقاش مسلطًا الضوء على جوانب عديدة من شخصيته كان أغلبها بمثابة مفاجآت لقرائه ومحبيه. هنا يدلي الكاتب الكبير برأيه في كل صغيرة وكبيرة عن الأدب والسينما والسياسة في مصر؛ فيصف مراحل طفولته وتجارب شبابه، ثم يتناول رواياته التي أثارت أزمات صحفية وسياسية، كما يدلي بأراء صريحة في زعماء مصر منذ سعد زغلول إلى الآن، وكذا قصته مع جائزة نوبل وأثرها في حياته. وقبل أن يختتم النقاش كتابه باستعراض محاولة اغتيال محفوظ وملابسات الحادث والقضية، وغير ذلك الكثير من الأسرار التي تُنشر لأول مرة تجده في هذا الكتاب يقدم سيرة ذاتية غير رسمية لنجيب محفوظ.

رجاء النقاش (١٩٣٤-٢٠٠٨) واحد من أهم النقاد في العالم العربي. اكتشف العديد من المواهب والأسماء التي أصبحت أعلامًا في الثقافة العربية مثل محمود درويش والطيب صالح وغيرهما. من أهم مؤلفاته: «محمود درويش: شاعر الأرض المحتلة»، «بين المعداوي وفدوى طوقان»، «في حب نجيب محفوظ».

# مكتبة بغداد

دار الشروق  
www.shorouk.com



تصميم الغلاف عمرو الكفراوي

<https://telegram.me/maktabatbaghdad>